

أحمد مراد

١٩١٩

رواية

دار الشروق

في الحادي عشر من يولية من عام ١٨٨٢م قصف الأسطول الإنجليزي مدينة الإسكندرية تحت مزايعم سحق تمرّد الجيش المصري بقيادة ناظر الجهادية «أحمد عرابي»، بسبب سوء الحال الذي وصل إليه الجيش من ضعف وقلة^(١) واضطهاد للمصريين وتأخر ترفياتهم عمداً مقارنة بالضباط الشرابكة والأتراك المتوغلين في المناصب الأكثر تأثيراً، وبسبب تهاون الخديوي «توفيق» في التدخل الأجنبي السافر بشئون البلاد من قبل إنجلترا وفرنسا.

صمدت المقاومة المصرية شهراً في وجه الاحتلال قبل أن تسقط القاهرة في منتصف ديسمبر، اجتاح جيش الإنجليز البلاد تثبيتاً لكرسي الخديوي «المستغيث» وتأميناً لرعاياها المعرضين للخطر على حدّ زعمهم^(٢)، وحماية للشریان المحوري (قناة السويس)، ذلك المشروع (المصري الفرنسي المشترك) الذي اشترت إنجلترا جزءاً كبيراً من أسهمه فبات لها «حق الانتفاع» فيه حتى عام ١٩٥٨

(١) كان من مطالب ثورة عرابي زيادة عدد أفراد الجيش المصري من اثني عشر ألفاً إلى ثمانية عشر ألفاً حتى يستطيع تأمين البلاد.

كان الخديوي الأسبق «إسماعيل» - الذي اكتمل حفر القناة في عهده - قد اضطر إلى طرح أسهمها للبيع بعد الأزمة المالية التي تعرضت لها البلاد نتيجة للديون الهائلة التي استدانها لبناء المشاريع الكبيرة - دفعة واحدة - مراكبة لأسلوب المعيشة الأوربي .. أنشأ بالقروض قصوراً فخمة وداراً للأوبرا، أدخل التلغراف وطوّر الشكك الحديدية وأضاء الشوارع بالغاز ومدّ أنابيب المياه، مشروع عصري طموح سيطر عليه البذخ والتهاون في تقدير عواقبه، وإغراءات المُرابين الأجانب بضخ الأموال «السهلة» لينحول الحلم بالريادة إلى مسمار أخير في نعث ميزانية الدولة واستقلاليتها .. تدخلت إنجلترا كمشتري للأسهم بحجة تأمين مواصلات إمبراطوريتها مُنْرامية الأطراف ولضمان تواصلها مع بقية مُستعمراتها في آسيا وأستراليا، ولتخفيف ديون مصر التي فرغت خزينتها سداً للفوائد المُجحفة فقط، قبل أن يضطر الإنجليز والفرنسيون إلى فرض مُشر في خزانة لمراقبة المَالية المصرية وتحصيل مواردها أولاً بأول والسيطرة على مُقدّراتها.

حاول إسماعيل - متأخراً - التصدي لنفوذ الأجانب فأجبروه على التخلي عن منصبه ليُرتّه أكبر أبنائه «توفيق»؛ شابٌ علاقته سيئة بأبيه وأضعف خبرة منه، مُحاط بزمرة من الأصدقاء الذي حرص أن يستبدل بهم رجال أبيه المُخضرمين، خصص «توفيق» نصف إيرادات مصر لسداد الدّين العام فتمكن الأجانب من السيطرة على الماليات والتحكم فيها، مما عَجّل بتدمير الجيش وقيام ثورة عرابي التي أسماها البعض «هوجة» لسرعة قيامها وضعف تنظيمها.

بعد هزيمة الجيش المصري نُفي أحمد عرابي ورفاقه إلى جزيرة «سيلان»، أعيد بعض الضباط ككيش فداء حتى ترتدع النفوس، وتم

فَمَجَّ الجيش المصري في جيش المُحتل! استقر العرش بالخدوي «توفيق» وسيطر الاحتلال على مَناحي الحياة الاجتماعية في البلاد فهل أن تعلو الأصوات الجريئة تدريجياً مُطالبة بخروج الإنجليز كما فُعلوا، وهو ما واجهته الإمبراطورية العُظمى بالمراوغة وإرجاء البَت في المُسألة، مُقدِّمة الأسباب والحجج الواهية التي تفيد بأنها باقية من أجل مُصلحة مصر وأمنها، دافعة بسياسة الأمر الواقع لاثنتين وثلاثين هامًا مات خلالها الخديوي «توفيق» وتولى من بعده الخديوي «عباس الثاني» والذي عزلته بريطانيا حين اشتعلت الحرب العُظمى سنة ١٩١٤ بسبب عدم تعاونه معها ومشاكستها ليتولى من بعده السلطان «حسين كامل» ثم أخوه السلطان «فؤاد» من بعد وفاته.. وإذا بمصر تجد نفسها في وَضع لا تُحسد عليه؛ سُلطانها يفرض اسمه ملك الإنجليز، مُحْتلة بملايين الجنود، ومُطالبة بمُساعدة المُحتل في حربه!!

استنزفت البلاد لأربع سنوات بُدِعَ فيها من الأمور العَجَب المُعْجَب، اشتركت الدبابات في القتال في سَابقة هي الأولى من نوعها، وخملت الطائرات القذائف بعدما كانت تُستخدم للاستطلاع فقط، رُوِّعت الناس وأشعلت الحرائق قبل أن يَقفز طياروها إذا أُصيبَت طائراتهم بمظلات عَجبية توصلهم سَالمين إلى الأرض، أطلقت الجيوش على بعضها الغازات السامة، ولعبت الغواصات دورًا محوريًا بطوربيدات مُدهِشة أغرقت مئات القِطْع البحرية.

بين الغبار والبارود عاشت مصر ثانية، تجرورة مثل الجَأموسة العُشر خَلَف إمبراطوريات مُتفطرسة سَعرتها الانتقامات والمَطامع، وَصَّعت المُسكينة كل مواردها تحت إمرة الإنجليز عسى أن يُقدِّروا مُساعدتها

وَيَرَحِلُوا عَنْهَا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ فَنَاءتِ بِالْأَعْبَاءِ وَطَفَحَ بِهَا الْكَبِيلُ،
خَاصَّةً مَعَ إِعْلَانِ الْحِمَايَةِ عَلَيْهَا تَضْيِيقًا وَإِحْكَامًا مِنْذُ بَدَأَتِ الْحَرْبُ،
فَرَضَ الْإِحْتِلَالُ أَحْكَامَهُ الْعُرْفِيَّةَ وَبَاتَتِ الرِّقَابَةُ قَائِسِيَّةً عَلَى الْحُرِّيَّاتِ،
صَدَرَتِ الصُّحُفُ مَلِيئَةً بِمَسَاحَاتِ فَارِغَةٍ كَانَتْ أَخْبَارًا عَنْ الْحَرْبِ قَبْلَ
أَنْ يَشْطُبَهَا رَقِيبُ الْمَطْبُوعَاتِ الْإِنْجِلِيزِي، التَّجْمَعُ فِي الشُّوَارِعِ صَارَ
أَقْصَى مَدَاهِ خَمْسَةِ أَفْرَادٍ، وَالشَّهْرُ فِي الْمَقَاهِي بِتَهْيِي فِي الثَّامِنَةِ مَسَاءً،
الْاِفْتِصَادُ يَسِيْطِرُ عَلَيْهِ الْإِنْجِلِيزُ وَيَتَوَلَّى الْمَصْرِيُّونَ الْوُظَائِفَ وَالْأَعْمَالُ
الرَّوْتِينِيَّةَ الشَّاقَّةَ، عِلَاوَةً عَلَى التَّنْكِيلِ بِكُلِّ مَنْ تَسَوَّلَ لَهُ نَفْسُهُ إِبْدَاءَ تَذْمُرٍ
أَوْ مُلَاحَظَةٍ.

كُلُّ تِلْكَ الْقُبُودِ لَمْ تَكُنْ مُرْتَبِطَةً بِظُرُوفِ الْحَرْبِ قَدَرِ مَا كَانَتْ مُرْتَبِطَةً
بِلَمْعَةٍ شَاهِدَهَا الْإِنْجِلِيزُ فِي أَعْيُنِ الْمَصْرِيِّينَ مِنْذُ شُيِّدَتْ جَامِعَتُهُمُ
الْأُولَى وَتَكَاثَفَ إِرسَالُ بَعْثَاتِهَا إِلَى أَوْرِبَا، نَهْضَةُ عِلْمِيَّةٌ وَوَعْيٌ سِيَاسِيٌّ
تَكَلَّلَ بِنَاءَ بَرْلَمَانٍ وَزِيَادَةً فِي الْأَصْوَاتِ الْمَطَالِبَةِ بِرَحِيلِ الْمُحْتَلِّ.

كَانَ ذَلِكَ فِي الْقَاهِرَةِ، أَمَّا الْأَقَالِيمُ - الْأَقْلَى حِظًّا - فَكَانَ التَّضْيِيقُ
عَلَيْهَا أَعْنَفَ وَأَشَدَّ وَطَاقَةً، نَهَشَ الْمُرَابُونَ الْأَجَانِبَ أَصْحَابَ الْأَرْضِي مِنْ
الْفَلَاحِينَ وَاسْتَوَلُوا بِالْفَرَايِدِ الْمُجْحَقَةِ عَلَى مَمْتَلَكَاتِهِمْ، ثُمَّ سَبَقَ الشَّبَابُ
الْفَتِيَّ مِنْهُمْ قَسْرًا إِلَى أَعْمَالِ الشُّخْرَةِ خِدْمَةِ لَجُنُودِ الْمُحْتَلِّ وَتَنْفِيذًا
لِلْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ الْمُرهِقَةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ بِأَمْسًا وَقُوَّةً جَسَدِيَّةً، صُوْدِرَتْ
الْبَهَائِمُ لِمَصَالِحِ الْمَجْهُودِ الْحَرْبِيِّ، وَقِيَّدَتِ الزَّرَاعَاتُ بِمَا يَتَّفَقُ مَعَ حَاجَةِ
الْجَيْشِ وَمُنِعَ تَصْدِيرُهَا، حَتَّى وَحَصَلَ الْأَمْرُ لِإِعْدَامِ مَنْ يُصَدِّرُ غُلَّةً خَارِجَ
الْقَطْرِ دُونَ إِذْنٍ، فِي بِلَدٍ زَرَاعِيٍّ لَمْ نَعْرِفْ غَبَرَ تَصْدِيرَ مُحَاصِيلِهَا،
أَمَّا الْقُطْنُ، السِّلْعَةُ الرَّئِيسِيَّةُ فِي مِصْرٍ فَقَدْ احْتَكَرَ الْمُحْتَلُّ شِرَاءَهُ وَبَخَسَ

بلمنه الأرض ليبيعه في بورصة لندن بأضعاف ثمنه! تشرّد العمّال
فسادت البطالة وتفشت الأمراض والأوبئة، انتشر أغنياء الحرب من
أهل البلد والأجانب، يضلّون الناس ألوان الغلاء والاستغلال، وجُنود
الإمبراطورية، إنجليزًا وهنودًا وأستراليين ونيوزيلنديين، يسيحون في
الشوارع والأزقة يبطون جائعة وشهوات لا تمتلئ، يستنزفون الناس
خيراتهم بعشر أثمانها إذا دفعوا، ويتحرّشون بالشعب نساءً ورجالًا،
يسكّرون ويصقون ويضحكون ويركلون ثم يخطفون ما امتدّت إليه
أيديهم، بلا زادع يردعهم أو كبير يشكّم غرورهم، فالقانون المصري
لا يخضعهم، ومحاكم القنصليات لا تُدينهم، والبوليس ملجم عاجز
أمام عيْشهم ومن ورائه سلطان يكنّ الولاء للتاج البريطاني الذي أجلسه
على عرشه.. وثبته.



فبراير ١٩١٩

نرب طيباب.. الأربكية

بدت الليلة قيامة حَقِيقية، بلا مَلاتكة ولا حِسَاب ولا مِيزان مُقام،
فَقَط العَذاب حَاضِر تنصب عَاصِفته على نَافذة الشَّقَّة المُتَهالكة؛
وتتخلَّل أمطاره أخشاب الشَّطح المُتداعية فتتسَرَّب القَطرات بِالحاح
إلى طَبَق على أرض غُرَّة أضاءها قِنْدِيل بِأَس.

رَغَم ضُخْب الرياح كان الشَّهيق مَسْموعًا، حَادًّا مُحشَرَجًا كَصَفَّارة
نَحَرَها الصَّدأ، شَهِيق يَأْتِي من فوق سَرِير حَدِيدِي تصطك مَفَصَّلاته
كَلَمًا سَخَلت «سيران»؛ امرأة في العَقْد الرابع سُجيت فوق مَرْتبة نَحيلة
كالخرقة المُهترئة، تُغَطِّيها بَطَانِيَّة من الصُّوف تشبَّعت عَرَقًا وَفِيثًا دَمَوِيًّا
وَرُطوبية لزجة، سِنَّة أيام خَلَّت على الوَهْن الذي دَبَّ في الأوصال مُرَخِيًّا
حَبائله على جَسَد كان يَمُوج فتنة وحياة، الدَّاء أغرق الرُّئَة بالذَّم فَكَسَتْ
الشَّفاء مسحة زُرَقاء من جُوع الأكسجين، الجِلْد الذَّهبي يَس وامتقع،
الشَّعر الكسْتنائي تَلَبَّد في بَأس، الأصابع المرسومة ارتخت على بَعْضها
والأوردة الزُرَقاء برزت على الدُّراعين تُشكو بُخل دَفقات القلب.

سيران! اسم كان يومًا يَعْنِي «الحُلوة»، جَاءت على مَتْن سَفِينة من
مِيناء «صِيدا» مع نهاية سنة ١٩١٥ فَرَاها من مَذابح الأتراك لِعَشيرتها من

الأرمن السُوريين^(١)، لتستقر في القاهرة مع زوجها «سركيس» وابنتها «فارتوهي» ذات الأربعة عشر عامًا، أجّر الأب دُكَّانًا بِسَاع فيه الزيتون والأجبان والنبيد، واستقر حاله وأسرته الصغيرة في شقّة متواضعة ببنية لا تهلل على شيء، أسرة باهتة مطموسة وسط آلاف الأسر التي تزحّت إلى مصر في سبيل لا ينقطع هربًا من نيران الحرب.

برغم مرارة الهجرة وظلمة الحياة ووحشتها، ورغم العزلة التي فرضها «سركيس» على أسرته الصغيرة خوفًا من عودة الأتراك لمصر، لم يمنع ذلك «فارتوهي» من أن تُصبح قبلّة أعيان الحيّ الفقير، نجمة لامعة وسط ليل لا قمر فيه، ناداهاي «ورد»، ترجمة لاسمها الأرمني، لتقديم في المجتمع الجديد وتنصّهر فكبرت وفارت مملكة جمال الأرمنيات وفتنة الشّاميات، تنهّدي بشعر كستنائي مُذهب وعينين لهروريتين قُرب دُكَّان أبيها فتستعر النفوس وتُحلّق من حولها القلوب بهديهة السّحر على المسحورين، ورد عرفت ذلك منذ تفجّرت الأنوثة فيها، وبالمهارة الفطرية التي مكّنتها من استشعار الأعين التي تمشي على جلدها كانت تسطر الأقدار في رأسها وترسمها، فمستقبل الإنسان ليس إلاّ سقف أحلامه، هكذا قال والدها، ستُكمل تعليمها، وسترتبط بموظف طموح وربما ضابط وسيم، أو أحد نجوم المسارح الذين يُغازلونها حين تُمر بمقاهي عِماد الدّين، ستبتعد عن الحيّ

(١) قام الأتراك بزيادة مئات القرى الأرمنية في محاولة لتغيير ديموغرافية تلك المناطق. نحت مُسعى تأمين حياة السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة مُحتملة من جانب العناصر الموالية لروسيا، وكان بعض الأرمن قد تطوعوا في الجيش الروسي الذي قتل عددًا من السكان المسلمين في الأناضول الشرقية، ونتيجة لذلك تعرض المرحّلون لعمليات تعذيب وقتل فيما عُرف تاريخيًا بمذابح الأرمن.

الفقير وستُطاردُها الأضواء أبتما حلَّت، سيَصير لاسمها وزن ونصمة تُرى بالعين المُجرَّدة، رُبَّما تُصبح مُمثَّلة أو مُطربة شهيرة، أو راقصة في حُجْم «بديعة مصابني» ملكة الملاهي الليلية وسيدة الاستعراض، سنُسافر لأوربا سنوياً، وستعيش في بيت كبير بجاردن سيتي يتسع لأسرة سعيدة، وستنجب أبناء تسميهم على اسمي والديها وستموت في فراشها بعد عمر مديد بابتسامة راضية بين شفتيها، كابتسامة الغدراء في الكنيسة وهي تحمل رضيعها.

لكن القدر كان له رأي آخر

مَا كَادَتِ الْحَرْبُ تَنْتَهِي حَتَّى جَاءَتْ مِصرَ مَسْفِينَةً تَحْمِلُ عَلَى مَتْنِهَا سَيِّدَةَ غَامُضَةٍ، «سَيِّدَةَ إِسبَانِيَّةٍ» أَوَّاءَ إِنْفِلُونزَا أُسْمِي بِذَلِكَ الْاِسْمَ لِأَنَّ صُحُفَ إِسبَانِيَا كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ عَنْهُ، مَوْتُ حَصْدِ الْأَرْوَاحِ بِمَنْجَلٍ فَأَقَّ حَذَّةَ مَنْجَلِ الطَّاعُونَ، قَتَلَ ضِعْفِي ضَحَايَا الْحَرْبِ، قَاصِدًا الشَّبَابَ دُونَ غَيْرِهِمْ، تَارِكًا الْعَجَائِزَ مَحْمِيَّينَ بِهَالَاتٍ كَهَالَاتِ الْقَدْبَسِينَ لَا يَكَادُ بِقُرْبِهِمْ^(١) الْأَسْبُوعَ الْمَاضِي أَنْتَ عَلَى «سَرَكِيس» وَالِدُ وَرْدٍ، اعْتَصَرْتَ بَجَسَدِهِ النَّحِيلَ وَأَفْرَعْتَ رُوحَهُ فَحَضَرَ رِجَالَ الْحَجَرِ الصُّخْرِي بِمِشَاعِرٍ بَارِدَةٍ وَكِمَامَاتٍ وَشُرَاتٍ بِيضَاءَ، كَفَنُوهُ فِي سُرْعَةٍ كَفَسِيخَةٍ مَسْمُومَةٍ بَعْدَ أَنْ انْتَزَعُوا «سِيرَان» مِنْ حَضَنِهِ وَرَأَوْا جَسَدَهُ وَالْغُرْفَةَ بِمُظْهِرٍ نَفَازٍ وَأَحْرَقُوا مَلَابِسَهُ وَمَرْتَبَتَهُ وَكُلَّ مَا لَمَسَتْهُ يَدَاهُ يَوْمًا، ثُمَّ حَمَلُوهُ فِي صُنْدُوقٍ مُغْلَقٍ بِالْمَسَامِيرِ لِمَقَابِرِ الصَّدَقَةِ لَعَدَمَ وَجُودِ مَقَابِرِ لَأَسْرَتِهِ.

(١) تقول النظريات إن سبب مناعة كبار السن ضد إنفلونزا السيدة الإسبانية يعود لتعرضهم للإنفلونزا الروسية عام ١٨٨٩، مما أكتسبهم مناعة جزئية ضد الفيروس الذي قتل بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ ما يقرب من ٥٠ مليون إنسان.

لم تَبْكِ ورد أباهَا، ظَلَّتْ وَاجِمَةً مَتَمَكِّنًا الْخَرَسَ مِنْهَا، تَرْمُقُ أَهْلَ
الْحَيَى بِعَيْنَيْنِ خَالِيَتَيْنِ، فَرَّغَمَ مَارَاتِهِ مِنْ مَذَابِيحٍ عَلَى يَدِ الْأَتْرَاكِ فِي سُورِيَا؛
لَحْظَةُ الْمَوْتِ كَانَتْ أَشَدَّ وَطْأَةً وَأَعَمَّقَ تَأْثِيرًا.. كَانْ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَفِتَ
«السَّيِّدَةُ الْإِسْبَانِيَّةُ» لَوَالِدَتِهَا، سَكَتَ جَسَدُهَا بَعْدَ وَفَاةِ الْأَبِ فَتَصَقَّتْ
الْوَسْكَيْنَةُ نَضَارَتَهَا وَفَقَدَتْ شَحْمَهَا، وَهَنْتْ عِظَامَهَا وَكَبُرَتْ مَائَةُ عَامٍ
فِي بَضْعَةِ أَيَّامٍ، حَتَّى صَلَبِيهَا الْخَشْبِي الصَّغِيرَ الْمُعَلَّقَ فِي صَدْرِهَا بَدَا
لِلْقَبْلِ يَكَادُ يَمْنَعُهَا مِنَ التَّنَفُّسِ! بِشْفَاهُ مُتَشَقِّقَةً تَتَمَتَّعُ بِاسْمِ الْمَسِيحِ الْقَادِي
رَاحِيَةِ رَحْمَتِهِ وَعَيْنَاهَا لَا تَفَارِقَانِ «وَرَد» الْقَابِعَةَ بِجَانِبِهَا مُلْتَمَّةً بِقِمَاشٍ
مُشْبَعٍ بِاللِّيمُونِ، تُتَابِعُ أَنَّهَا بِعَيْنَيْنِ مُحْتَفَتَتَيْنِ فَرَّغَ مِنْهُمَا الدَّمْعُ، تَبْلُلُ
الْكِمَادَاتِ فِي الطَّبَقِ الَّذِي تَلَاهَ الْمَطَرُ وَتَكْبِسُهَا عَلَى الْوَجْنَةِ الشَّاحِبَةِ
تُخْفِيفًا، تَتَرَقَّبُ تَنْفُسَهَا الْمُتَقَطِّعَ وَصَفِيرَهُ الْيَائِسَ وَالنَّبْضَ الْبَطِيءَ يَثْنُ
فِي سُريَانِ رَقَبَةٍ، تَقْرَأُ الْمَصِيرَ الْحَتْمِي وَلَا تَمْلِكُ تَغْيِيرَهُ، هِيَ فَقَطْ تَتَرَقَّبُهُ
كَصَفْعَةٍ مُؤَجَّلَةٍ مِنْ كَفِّ عِمْلَاقِ سَتَهْوِي عَلَى رُوحِهَا.. أَجَلًا أَوْ عَاجِلًا.

سَاعَاتٌ ثَقِيلَةٌ مَرَّتْ قَبْلَ أَنْ تَخْفُتَ الْعَاصِفَةُ، وَتَخْفُتَ مَعَهَا الْجَلْبَةُ
بِصَدْرٍ غَرَقَ فِي سَوَائِلِهِ بَعْدَ حَشْرَجَةٍ جَوَافَةٍ وَسُحَالٍ خَرَجَتْ مَعَهُ نَثْرَاتِ
دَمٍ ذَاكِنٍ، نَأْمَلَتْ وَرَدَ أُمُّهَا بِرِيَّةً، تَنْفُسُهَا لَمْ يَعُدْ مَحْسُوسًا، صَدْرُهَا يَكْسُ
وَاعْتَزَلَتْ شَفَتَيْهَا التَّمَتُّعَ.. أُمِّي! بَأَنَا مِلْ مُرْتَعِشَةً التَّقَطُّطِ كَوْبِ مَاءٍ
وَقَرْبَتِهِ مِنَ الْقَمِّ الْمُتَشَقِّقِ، صَبَّتِ الْقَطْرَاتُ فَانْسَابَتْ مِنْ طَرَفِ الْمُنْفَرَجِ
بِلَا مُقَاوِمَةٍ لِتَشْرِبَهَا الْوَسَادَةُ، هَزَّتِ الْكَتِفَ النَحِيلَةَ بِرَفَقٍ فَلَمْ تَسْتَجِبْ..
أُمِّي!! وَضَعْتَ أَدْنَا عَلَى صَدْرِهَا فَالتَّقَطُّطِ الْعَدَمَ وَبُرُودَةَ تَتَشِيرُ، بِرُغْبٍ
جَذَبَتْ كَسْرَةَ مِرْآةٍ وَوَضَعَتْهَا تَحْتَ الْأَنْفِ فَلَمْ تَلْمَحْ لِلْبُخَارِ أَثْرًا، التَفَتَتْ
حَوْلَهَا مُسْتَغْنِيَةً بِالْخَوَاءِ: أُمِّي! أَجْهَشْتُ بِالْبَكَاءِ لِحِظَةٍ ثُمَّ رَكَضْتُ إِلَى

الدُّور الأول بِسَاقِينِ تَحْبُطَانِ وَعَقْلٌ شُلٌّ تَفَكِيرُهُ، أَمَامَ شَقَّةٍ كُتِبَ عَلَى
يَافِطَةٍ خَشِيَّةٍ بِجَانِبِهَا «بَنَسِيون» وَقَفْتُ مُتَرَدِّدَةً قَبْلَ أَنْ تَدْفَعَ الْبَابَ
الْمُوَارِبَ، «بَنِبَةُ» الْعَايِقَةُ^(١) كَانَتْ تَدْخُنُ سِيَجَارَةً فَوْقَ كُرْسِيِّ لَمْ تَظْهَرِ
أَطْرَافَهُ نَحْتِ مُؤَخَّرَتِهَا السَّمِينَةِ، تَرْتَدِي ثَوْبًا أَسْوَدَ مِنَ الشَّيْفُونِ كَشَفَ
تَدْيِينَ تَرْهَلًا حَتَّى الْخَصِرِ وَكَيْلُونًا أَحْمَرَ مُزْرَكَشًا خَاصِرَ كِرْشًا عَظِيمَةً،
مَا إِنْ رَأَتْ مَلَامِيحَ وَرَدٍ حَتَّى خَبِطَتْ صَدْرَهَا فَتَرَجَّرَ كَقَرْبَةِ مَمْلُوءَةٍ:

- مَالِكُ يَا حَبِيبِي كَفَى اللَّهُ الشَّرَّ!

- أُمِّي! أُمِّي مَا بِنَجَاوَنِي.

- يُوهُ!! فَوْتِي قَدَّامِي.

أَطْفَأَتِ الْمَرْأَةُ سِيَجَارَتَهَا فِي كُوبِ الشَّايِ وَالتَّقَطْتَ شَبِيبًا تَرَجَّرَتْ
فَوْقَهُ خَلْفَ وَرَدٍ عَلَى السَّلَمِ الْمُتَأَكِّلِ بَعْدَ أَنْ مَسَحَبَتْ مِنْدِيلًا رَشَّتْ فِيهِ
الْكُولُونِيَا، اقْتَرَبَتْ مِنَ الْجَسَدِ الْهَزِيلِ بِخَذَرٍ تَمْتَشِعِرُ عَلَامَاتِ الْحَيَاةِ فِيهِ
قَبْلَ أَنْ تَلْمَحَ الْبَوْلَ وَقَدْ انْفَلَتْ أَسْرُهُ أَسْفَلَ السَّرِيرِ، اقْشَعَرَّتْ مَلَامِحُهَا
وَتَرَا جَعَتْ نَاطِرَةً لَوَرْدٍ مُحَاوِلَةِ السَّيْطَرَةِ عَلَى انْفِعَالَاتِهَا:

- يَا لَهْوِي... بِقَالِهَا عَ الْحَالِ دِهْ قَدْ إِيهِ؟

- لَسَّةٌ مِنْ شَوِيَّة.

- دِي سَابَتِ خَالِصَ يَا حَبَّةَ عَيْنِي!! يَا حَوْلَ اللَّهِ يَا رَبَّ.

قَالَتِهَا بَنِبَةُ ثُمَّ هَرَوَلَتْ لِلْسَّلَمِ وَانْكَبَّتْ عَلَى الدَّرَابِزِينَ مُنَادِيَةً:

- سَلَامَةٌ.. يَا سَلَامَةٌ.

(١) الْعَايِقَةُ أَوْ «الْبَدْرُونَةُ» لَفْظٌ يُطْلَقُ عَلَى الْفَوَادَةِ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي تَخْطُلُ سَنَ الْخَمْسِينَ
وَنَدِيرَ بَيْتًا لِلدَّعَاةِ.

أَلَا هَا ضُوتَ مِنْ شَقَّتْهَا: فِيهِ إِيه؟

- اجري عَ الاسبتالية القبطي هَات خكيم أوام.. شَهْل.

ثُمَّ عَادَتِ لِلْعُرْفَةِ الْمَوْبُوءَةِ وَقَدْ وَصَّعَتِ الْمِنْدِيلَ عَلَى قَمْعِهَا.

- لِيَكِي حَدَّ نُبَعْتَ لَهُ يَا وَرْد؟

- مَالِي حَد.

- يَا حَبَّةَ عَيْنِي.. الْبَرَكَةُ فِيَكِي.

جَزَعَتْ وَرْدٌ مِنْ وَقْعِ الْكَلِمَةِ فَانْكَفَأَتْ عَلَى يَدِ أُمِّهَا تَرْجُوهَا إِبْدَاءَ
الْإِلَامَةِ حَيَاةً، اكْتَفَتْ بِنَبْهٍ بِالصَّمْتِ عَجْزًا وَفَتَحَتْ النَّوَافِذَ نَهْوِيَّةً، أَتَى
الطَّيِّيبَ وَأَكَّدَ الْوَفَاةَ فِي كَلِمَةٍ خَافَتِ لِنَبْهٍ قَرَأَتْهَا وَرْدٌ فَمَادَتْ الْأَرْضَ مِنْ
نَحْوِهَا، كَانِ الْمَوْتُ لَمْ يَكُنْ وَارِدًا، كَانِ الرَّبُّ لَمْ يَكُنْ لِيَأْخُذَ أَمَّا مِنْ بَعْدِ
أَبٍ، كَانِ الشَّقَّةُ الْبَائِسَةُ لَمْ تَكُنْ لَتَخْلُوَ عَلَيْهَا وَحْدَهَا فِي تِلْكَ السَّنِ!

أَبْلَغَتْ بِنْبَهٍ ثُمْنٌ^(١) الْأَزْبَكِيَّةَ فَأَتَى رَجَالُ الْحَجَرِ الصَّخْصِي كَالثَّمَلِ
الْأَبْيَضِ لِيَرْفَعُوا السَّيِّدَةَ سَمِيرَانًا، أَوْ مَا تَبَقَّى مِنْهَا، أَخْرَقُوا مَلَابِسَهَا
وَمُتَعَلِّقَاتِهَا، وَقَلْبٌ وَرَدَ حَتَّى لَا يَلْتَقَطَ الْعَدْوَى، قَبْلَ أَنْ يَقَرَّرَ الطَّيِّيبُ
أَنْ بَقَاءَ رُوحٌ فِي تِلْكَ الشَّقَّةِ الْمَوْبُوءَةِ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الصَّخْصِي، تَرَكْتُ وَرْدَ
الشَّقَّةِ وَنَامَتْ لَيْلَتُهَا فِي دُكَّانِ أَبِيهَا رَغْمَ الْحَاحِ بِنْبَهٍ بَاسْتِضَافَتِهَا.

فِي الْأَيَّامِ الثَّالِيَةِ تَحَرَّشَ بِهَا اللَّيْلُ بِنُجُومِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ قَبْلَ أَنْ تُصَفِّيَ
بَقَايَا بَضَاعَةِ أَبِيهَا سَدَادًا لِلدِّيُونِ، اسْتَقَرَّتْ وَحِيدَةً فِي شَقَّتِهَا الْمَنْكُوبَةِ،

(١) الثَّمْنُ: مُصْطَلَحٌ كَانَ يُطْلَقُ عَلَى أَقْسَامِ الْيُولِيسِ فِي الْقَاهِرَةِ الْمَقْسَمَةِ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ..
ثُمْنُ الْأَزْبَكِيَّةِ.. ثُمْنُ الْجَمَالِيَّةِ... وَهَكَذَا.

مَقْطُوعَةُ الدَّمْعِ تَعْمِيهَا الصَّدْمَةُ ذَابِلَةٌ شَارِدَةٌ تَنْظُرُ لِلسَّمَاءِ الْخَالِيَةِ فِي
انتظار إجابة، فِي انتظار مُعْجِزَةٍ.

كان ذلك حين قَرَعَ الْبَابَ وَجَهَ كَسْتَهُ الْأَصْبَاغَ وَأَظَاغِرَ طَوِيلَةَ قَانِيَةٍ،
بَنِيَّةٍ رَاصَّةٍ فِي رُسْفِيهَا أَسَاوِرَ ذَهَبِيَّةٍ تَنْوِيءُ الْأُذْرُعَ السَّمِينَةَ بِحَمَلِهَا،
وَحُلُمُخَالِينَ لَنْ يَنْجَحَا فِي إِقْنَاعِ مُتَأَمِّلٍ بِحُسْنِ سَاقِيهَا الْبَائِدِ.

لَمْ تَكُنْ بَنِيَّةٌ سِوَى قَوَادَةِ عَتِيقَةٍ، وَلِدَتْ قَبْلَ بَدْءِ الرِّذِيلَةِ بَعَامِينَ،
عَاشَتْ عَاهِرَةً مَقْبُولَةً لَهَا اسْمٌ يُطْلَبُ وَجَسَدٌ يُرْتَجَى، قَبْلَ أَنْ يَفْرَمَهَا
الزَّمَنُ وَتَشِيخَ زِبَانَتِهَا وَيَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهَا تَعَفُّفًا، أَخْرَجَتْ مَا كَثُرَتْ مِنْ
عَرَقٍ وَرَكِيهَا لِسَنَوَاتٍ مَضَّتْ وَافْتَسَحَتْ شَقَّةٌ لِلْفَوَاحِشِ مُرْخِصَةٌ مِنْ قَبْلِ
الْحُكُومَةِ، وَكَمَا قَالَ الْمَثَلُ: «إِنْ تَابَتِ الْقَحْبَةُ عَرَّصَتْ»، يُعْمَرُ مَشْرِوعُهَا
الرَّوَادُ مِنْ أَبْنَاءِ الْبَلَدِ وَالْإِنْجِلِيزِ رَاغِبُو تَذْوِقِ الصُّنُوفِ الْيَمِينِيَّةِ، قَبْلَ أَنْ
تَتَوَسَّعَ بِفَضْلِ تَنْوِيعِ بَضَاعَتِهَا «الَّتِي تَصْطَفِيهَا بِعَنَاءٍ» لَتَشْتَرِي الْبَيْتَ كُلَّهُ،
تُؤَجَّرُ لِلْمُسْكَنَانِ مُشَقِّقِ الدَّوَرَيْنِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ وَتَحْتَفِظُ لِنَفْسِهَا بِالدَّوَرِ
الْأَوَّلِ، تُشْرِفُ فِيهِ عَلَى سِتِّ غُرَفَاتٍ تَبْتَثُ أُنَاتُ الشَّبَقِ طَوَالَ الْيَوْمِ،
مَشْرُوعَ قَانُونِي يُدِيرُهُ مَعَهَا «سَلَامَةُ» الشَّهِيرُ بِ«النَّجَسِ»، زَوْجُ شَدِيدِ
الْبَاسِ مُتَمَرِّسٍ أَثْقَلْتَهُ الْحَيَاةُ وَشَحَذَتْهُ كَسْكِينٌ يَشُقُّ فَيَقْتُلُ، مُحْتَرَفٌ فِي
بَثِّ الرِّعْبِ فِي نَفْسِ مُسَيِّنِي التَّنَصُّفِ مِنَ الزَّبَائِنِ الَّذِينَ يَسْتَقْطِبُهُمْ مِنْ
نَاصِيَةِ الشَّارِعِ بِصُورٍ عَارِيَةٍ لِمُومَسَاتِهِ يَحْمِلُهَا فِي مُحَفَظَتِهِ، يَعْرضُهَا
مُبْتَسِمًا بِأَسْنَانِ ذَهَبِيَّةٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهَا الْكَلَامُ الْمَعْسُولُ ثُمَّ يَحْكِي عَنْ
مُعْجِزَاتِ بَنَاتِهِ فِي الْفَرَاشِ وَأَعَاجِيِبِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يَصْحَبَهُمْ لِلْبَيْتِ مُوفِّرًا
الْجَمَامِيَّةَ وَالرَّاحَةَ حَتَّى يُفَرِّغُوا شَهْوَانَهُمْ فِي سَلَامٍ، وَسُرْعَةٍ، لِيُحْصَلَ
الْقُرُوشُ وَالرِّيَالَاتُ فَيُدْفَعُ لَزَوْجَتِهِ نَصِيبُهَا، وَلِلْعَاهِرَاتِ فُتَاتًا يُبْقِيَهُنَّ

لهرات، وأحياء، يأتي لهنَّ بالطَّعام والملبس وأدوات التَّجميل،
وتصحبهن في الزيارة الأسبوعية لاسبَّاتية «الحوض المرصود» لتوقيع
الكشف الطَّبي عليهن ضَمَانًا لسريان رُخص العمل، ويُؤدَّب منهن مَنْ
لأني بفعل مُنافٍ للأداب أو أخلاق المهنة!

ذلك كان سَلَامَةُ النِّجَس، وتلك كانت بنية التي جلست ترشَّف
الشَّاي وتنهش بعَيْنِهَا جَسَد ورد:

- إزيك يا ورد؟

- مرحبًا يا خالة.

- بقى بحقِّ لك ولا تزوريني مرَّة من ساعة المرحومة أمك؟

- والله يا خالة الدُّكَّان كان آخذ كل الوقت لغاية ما صَفَّيت الديون..
بضاعة كتير ما عَادَت تنفع بالمرَّة.

- معلوم.. العَجَس بالذات روحها خفيفة.. يا حول الله يا رب..
وناوية على إيه يا حَبَّة عيني؟

- راح أحاول أدبَّر بضاعة وارجع أقف بالمحل.

- تقفسي!! ده كلام.. الشُّغلة دي عاوزة راجل.. وتعدِّين البضاعة
هاتيجي منين من غير نقدية؟ مَفِيش حد من قرابيك بيبجي مصر؟
خال؟ عم؟

- ما في!

- ولَسَة أجرة الدُّكَّان إحنا أول الشَّهر.. وأجرة الشقة والـ..

قاطعتها ورد: الله يخليكي طولي بالك عليًا شويَّة بالإيجار لأنك
شايقة الظروف.

- مِش القَصْد يا بَت .. أنا بَرُّمها مَعاكِي بِصُوت عَالِي .

ارتشفت بِنَبْة رَشْفَة شَبَاي تَرَكْت أَحْمَر شَفَتِيهَا عَلَى الْكُوب وَقَامَتْ
تَدُق بِكَعْبِيهَا الْأَرْض الْخَشَبِيَّة مُقْتَرِبَة ، تَخَلَّلَتْ شَعْر وَرْد بِأَصَابِعِهَا تَفَك
ضَفَانْتَرَه وَتُمَشِّطَه .

- كَام سَنَة عِنْدَكَ يَا وَرْد ؟

- سَبْعَتَاش .

- وَرْدَة بَتَفْتَح .

قَالَتْهَا وَلَا مَسَتْ صَدْر وَرْد مُتَظَاهِرَة بِتَفْرِيقِ نِهَايَات خَصَلَاتِهَا ،
تَسْمَرَتْ الْأَخِيرَة بَعِينِينَ فَقَدْنَا طَرَف الرَّمَش ، ابْتَلَعَتْ رِيْقَهَا بِصُعُوبَة
حِينَ أَكْمَلَتْ بِنَبْة :

- بِالْك يَا بَت .. عُودَكَ الْعِرْسِي دَه يَتَأَقَل ذَهَب بَس لَو تَفْتَحِي
مُخُّكَ .. دَه شُغْلِي أَسْأَلِينِي أَنَا .. مَا بَفْهَمَش غَيْر فِي النِّسْوَان مِنْ يَوْم
مَا وَعَيْت عَ الدُّنْيَا .. الْعِجْمَال دَه مَا يَحِقُّ لَهُ غَيْر الْكِتَابِينَ وَالْحِلَقَانِ
الدَّهَب .. سَحْرَام يَسْتَنِّي الْوَبَا لَمَّا يَطُولُوهُ .

- أَنَا مَوْ فَاهِمَة يَا خَالَة !!

- الدُّنْيَا غَدَارَة .. وَإِحْنَا يَا وَلَدَاء تَحْتَ رَحْمَة الْوَعْد وَالْمَكْتُوب ..
النَّهَارَة هَا يَعْدُونِي .. طَبِّ وَبُكْرَة ؟؟ وَلَوْ الْحَرْب اتَّيَلَّت رَجَعْتَ ..
وَلَا الْبُعَاد الْأَتْرَاكْ غَلَبُوا الْإِنْجَلِيزَا يَخْتَبِيسِي عَ الْبِي هَا يَعْمَلُوهُ .

- رَاح أَمْرُ بُكْرَة عَ الْبَطْر خَانَة وَاحْكِي مَعَ أَبُونَا يَمَكُن يَلْقَى لِي مَكَان
فِي الْكَنِيسَة أَوْ ...

نُها بنية: تترهبى! يا قهوي.. هو حد في البلد لاقى ياكل عشان
اللي في الكنيسة دول ياكلوا.. هاتشحتي وتقُددي رَي العيش
... بطانية ورغيفين وتموتي كُهنة ما تشوفيش ريحة راجل
.. الله!

مِت ورد شمرها وصدرها من بين أصابع بنية وألقت بنفسها بعيدًا
لَمَنع يديها من الارتجاف.
بذك إيه مَنِي يا خالة؟

• هاوزة مصلحتك يا بت.. دي أمك كانت حبيبتي الله يرحمها.
• أمي ما بعمرها نزلت لَيندك.. وما باذكر إني شوفتك طالعة لَيندها.
• إخصر عليكِي اده الحُب في القلب يا بت.. هي لَمَّا وقعت مِنك
لا قيتي خد تَنديه غيري! وأبوكي الله يرحمه.. بقالة البيت كلها
كانت من عنده.. حتَّى النبيت المَضروب كُنَّا بنشتره.. افهَمي...
ورد مُقاطعة: يا خاله أنا ما بقدر أشتغل مَعكي.

- تشتغلي إيه؟ ده ميبقى بيتك ومطرحك! وبعدين هو أنا بيت يسر؟
ده أنا معايا رُخصة والحُكومة مسامحة.. أنت مش مسامحة؟!
وبعدين هو الباشا اللي عمل الأنون ده كافر؟ ده موحد بالله وفاهم
النفوس الضعيفة، بدل ما الناس تتواعد في السّر أهو بنعملها
تحت عينين الحكومة، ثم أنا غير، زبايتي يوزباشي وانتي طالعة،
والأفرنجي أدخله بمزاجي، وادنيصيف ابن ناس ماشي، أستراني
ولأ هِندي ما يعُتَبش البيت، كلهم قعل، أنا باستنصف اسألي عليًا
أم حمدي اللي قُصادنا ولأ علوية اللي في عمارة الفرن.

- يا خالة أنا..

بنية مقاطعة: وما تشيليش هم، هاعملك الرخصة وأرسيكي ع اللي
ما تفهموش النسوان المتجوزة، أجيب لك هدمة وأصيغك، يكسي
لك قرش جِلو وتنامي نومة السلطانة، بالك، البت سنيّة السودة اللي
شغالة معايا، والنّبي كانت عبدة من السودان وتذكرة العتق عندي
شايلها، كعبها كان مشقّق يحش فيه فار وشعرها مكتكت زي الليفة،
ومن أول نظرة وحياتك قلت البت دي قرسة ولو تتليّف وتتغندر تدوخ
أجدعها ذكر، تعالي شوفي دلوقت، بتعمل لها خَمَس بست شلنات في
اليوم، شوفي أنت بياضك القشطة ووطانك الشامي هاتعملي إيه!! سنة
ستين وأجوزك وأزفك بالشّمعدان.. هاتدعي لي.

- أنا ما بدّي يا خالة.. كتر خيرك.

قالتها وفتحت باب الشقة في إشارة لبنة أن ترحل من حيث أنت..
تجنبلت الأخيرة حتى الباب وهمت أن تخرج قبل أن تستدرك:

- علس كيفك يا ورد.. دورى مُخك يا حبيبتى ومش هتلاقي
أعقل م اللي قلته.. فرتك بعافية.

رحلت بنية فسقطت ورد على كرسيها، ساعات لم تدر كيف مرّت،
ساردة في صليب خشبي مُعلّق على الحائط، بلا مسيح، لعمرها لم
تكن تحسب أن في أسبوعين فقط ستداعى الأحلام والأمانى وتندم
الرؤى شبراً للأمام في ضباب القدر «ماذا سأفعل في مصر؟ بلا مال
ولا سند والناس من حولي يأكل بعضهم بعضاً جوعاً وجرماً! أأسافر؟ إلى
أين والبلاد من بعد الحرب لم تتألف بعد ولم تُرخ السلاح بجانب أن بلدتي

قد ساءوا ما الأثر الك بالارض إبادة ومحو، لن احترق في الزيت المغلي مثل
المسيحيين الأوائل ولن أدخل عربن الأسود لأصبح قديسة.. أأترهب؟ لكن
هزلات الحرب أنهكت كنيستنا، وعشيرتي يتلقون الإهانات منها فأتانا لا يسد
جوعنا كما أنني لم أصبر يوماً على الخروج للشارع فكيف لي أن أعيش ورده
مُجففة في فلاة^(١)! عليّ أن أسير في الشوارع بحثاً عن فرصة، ماذا عن العمل
في صالة أو تياترو؟ ماذا عن التقدم لبديعة مصابني لتختبر قدراتي؟ أجد
الرقص وصوتي أحسبه جلياً صادحاً، وماذا لو رفضت؟ سيخطفني الجند
للعمة سائفة إن لم يُعثر عليّ مئة من الجوع في عطفة مظلمة، أو يقض عليّ
الوفاة كما قضى على أبوي من قبلي^١.

ورغم أن المسيح نفسه قد هجر صليبه على الحائط ورحل... بدت
الكنيسة أرفق الحلول!

بالطبع من بعد زيارة سريعة لشارع عماد الدين ومحاولة مُستميتة
للوصول إلى بديعة مصابني!

قامت ورد فجأة كأن الكهرباء مَسَّتْها، فتحت حقيبة سفر جِئْتُ معها
منذ سنوات إلى مصر، كَلَمْتُ ملابسها وأوراق هويتها وصورة لها بين
أبيها وأُمها على متن الباخرة التي أَلْقَتْ بهم على شاطئ الإسكندرية،
انتعلت صندلاً وضفرت شعرًا مفكوكًا ونظرت للشقّة المنكوبة نظرة
أخيرة قبل أن تفتح الباب لتجد سلامة النجس قابلاً في انتظارها.



(١) فلاة: كلمة تعني حجرة أو حجرة في دهره لذا سمي الرهبان سكان القلالي.

القل الكبير.. الإسماعيلية

تَزَجَرَجَت السَّيَّارَةُ الكُرومُلي نِصْف النَّقْل عَلَى الطَّرِيقِ الْمُغْبِرَةِ
المُغْرُوشَةِ بِالْحِجَارَةِ الصَّغِيرَةِ، عَجَلَاتُهَا الرَّفِيعَةُ تَحْفَرُ وَرَاءَهَا خَطَّيْنِ
مُتَعَرِّجَيْنِ بِسُرْعَةٍ ٥٠ كيلومترًا/ سَاعَةٍ، مُحَرِّكُهَا يُزْمِجِرُ مِنْ وَطْأَةِ
الْحُمُولَةِ الْمُغَطَّاءَةِ بِالضَّمُورِ فَوْقَ ظَهْرِهَا، وَمَاسُورَةٌ عَادِمُهَا تُطْلُقُ دُخَانًا
أَسْوَدَ كَثِيفًا وَفَرَقَعَاتِ كَطَلْفَاتِ الرَّصَاصِ كُلِّ يَضَعُ ثَوَانٍ.. وَرَاءَ عَجَلَةِ
الْقِيَادَةِ جَلِيسَ عَبْدِ الْقَادِرِ «الْحَيْن»؛ شَابٌ فِي الْعَقْدِ الرَّابِعِ وَرَثَ لَقَبِهِ
وَجَسَدِهِ الْخَمْرِي الْمَفْتُولِ مِنْ وَالِدِهِ شِخَاتَةِ الْمُقْلَبِ بـ «الْحَيْن»، فَتَوَّةٌ
حَيَّ «السَّيِّدَةِ زَيْنَب» لْخَمْسَةِ عَشَرَ غَامًا خَلَّتْ.. وَلَا يَزَالُ.

حِينَ اقْتَرَبَتِ السَّيَّارَةُ مِنْ مُعَسْكَرِ الْإِنْجِلِيزِ أَطْلَقَ عَبْدِ الْقَادِرِ نَفِيرَهُ
مُنْبَهًا، رَمَقَتْهُ قُوَّةُ التَّأْمِينِ مِنْ فَوْقِ الْمُدْرَعَةِ الرَّابِضَةِ أَمَامَ الْبَابِ الْحَدِيدِيِّ
الْكَبِيرِ، بِحَرَكَةٍ رَوْتِينِيَّةٍ وَجَّهُوا نَاحِيَتَهُ فَوْهَةً رَشَاشٍ «فِيكَرَز» وَبَرَزَ مِنْ
كُشْكِ الْحِرَاسَةِ رَقِيبٌ أَحْمَرُ الشَّعْرِ مُلْتَمِّمٌ بِكِمَامَةٍ قُمَاشِيَّةٍ غَطَّتْ نِصْفَ
وَجْهِهِ، تَوَقَّفَ عَبْدِ الْقَادِرِ قُرْبَهُ بِفَرْمَلَةٍ عَنِيفَةٍ أَثَارَتِ الْأَثَرِيَّةَ وَزَحَفَتْ
السَّيَّارَةُ عَلَى الْحَصَى مَسَافَةً كَادَتْ تَرُطِمُهَا بِالْمُدْرَعَةِ، نَزَعَ شَالَهُ مِنْ أَمَامِ
قَمَمِهِ الْعَرِيضِ وَأَنْفَهُ الْحَادِ قَبْلَ أَنْ يُحَيِّيَ الرَّقِيبَ بِابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ وَيَنَاولَهُ
نَصْرِيحًا كَانَ فِي جِيْبِهِ.

- جود مورنينج.. التموين وصل.

نظّر الإنجليزي في التصريح ثم أردف:

هسر مُصرّح بالدخول اليوم.

قرأ عبد القادر الرُّتب فوق كَتفيه تقييماً لحَجْمه قبل أن يُجيبه.

- ليه يا جوني^(١)؟

- الإنفلونزا.

- إنفلونزا إيه يا عمّا أنا زي القُل!! عبد القادر إز كلين.. أنا كنت هنا

من ويك أجوو.. افتح يا جدع.

- لا دخول اليوم.

- يا عم بقول لك نضيف.. كلين.. أنت باينك عاوز تنكدر النهاردة..

وير إز كولونيل تريثور؟ كلّمه عَ التحويلة هو فاهم.

- في عطلته الشهرية.

- إجازة! دي داهية إيه دي؟! محسوبك العِج.. عبد القادر العِج..

بتساع الكانتين.. إيه ما سمعتش عني؟ تبقى جديد! الكانتين..

سيمجارتس آند ألكوهول.. أنت عاوز الطَّبَّاط بتوعك تقعد من

غير سجاير أسبوع؟

أرخى الرقيب بندقيته إلى جنبه.

- هل لديك سجائر؟

هز عبد القادر رأسه بابتسامة عريضة وهَمَس: أبو أمك.

(١) اسم جوني ه كان نداء يُطلق على كُل إنجليزي غير معروف اسمه.

ثم فَتَحَ صُنْدُوقَ «الإكراسيات الإجبارية» القابِعِ فِي أَرْضِيَةِ المِقْعَدِ
المَجَاوِرِ، كَانَ مُسْتَحَمًّا بِكُلِّ أَنْوَاعِ السَّجَائِرِ المَحَلِّيَّةِ وَالمُسْتَوْدَةِ.

- أَهْهْ دَه الكَلَامُ .. بِلَا إِنْفَلُونزَا بِلَا دِيَاوَلُو .. عَبْدُ القَادِرِ الجِنِّ يَعْنِي
كُلَّ حَاجَةٍ تَتَوَجَّدُ .. كَامِيلٌ وَبَابَا تِيُولُوجُو سَمْسُونٌ وَإِكْسْتِرَا وَمَعْدَنُ
وَمَلُوكِي .. كِيرِيَازِي وَدِيلَايْتِسْ وَچِنَاكَلِيْسْ وَصُوصَةُ .. كُلُّ اللَّيْلِ
عَلَى كَيْفِكَ .. أَجِيبْ لَكَ إِيَّاهُ؟

بَنَهُمْ وَرَيْقُ يَسِيلُ أَشَارَ الرَّقِيبِ إِلَى عُلْبَةِ دِيلَايْتِسْ، التَّقْطَعُهَا عَبْدُ القَادِرِ
وَسَحَبَ رُجَاغَةَ نَبِيدِ مَتَوَسُّطَةِ الجُودَةِ مِنْ تَحْتِ المِقْعَدِ وَنَاوَلَهُ:

- الإِزَازَةُ دِي جَدْعَنَةٍ مِنْ عِنْدِي .. عَشَانُ «تَفْتَكِرْنِي» أَمَّا أَجِي المَرَّةُ
الجَايَةِ .. اسْتَبِينَا يَا ابْنَ الخَاطِيَةِ؟

سَحَبَ الرَّقِيبُ غَنِيمَتَهُ دُونَ أَنْ يَحَاوِلَ تَفْسِيرَ غَمْغَمَةِ عَبْدِ القَادِرِ ..
هَزَّ رَأْسَهُ ثُمَّ أَشَارَ لِحُمُولَةِ الصُّنْدُوقِ الخَلْفِيِّ قَتَزَلَ عَبْدُ القَادِرِ وَفَكَ
الْحَبْلَ الغَلِيظَ مُرْخِيًا القُمَاشَ عَنْ حُمُولَتِهِ مِنْ صَنَادِيقِ السَّجَائِرِ وَالنَّبِيدِ
الْيُونَانِيِّ، تَفَحَّصَهَا الرَّقِيبُ بِإِهْمَالٍ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ ذِرَاعَهُ لِرَجَالِ البَوَابَةِ
مُطْمَئِنًّا ثُمَّ يَخْبِطُ عَلَى السَّيَّارَةِ بِكَفِّهِ.

رَكَّبَ عَبْدُ القَادِرِ سَيَّارَتَهُ وَتَخَطَّطَى البَوَابَةُ الحَدِيدِيَّةُ مُتَأَمِّلًا الجُنْدَ
الَّذِينَ حَرَّصُوا عَلَى كِمَامَاتِهِمُ القِمَاشِيَّةِ وَقَايَةَ مِنَ الوَبَاءِ.

المُعَمَّسَكِرُ مِنَ الدَّخْلِ يَحْوِي عَتَابَ سَكَنِ الجُنُودِ، مَكَاتِبَ إِدَارِيَّةَ
وَمَخَازِنَ أَسْلِحَةٍ، هُنَاكَ لِلصِّيَانَةِ وَسَاحَاتٌ لِلتَّدْرِيبِ وَعِبَادَةٍ، اخْتَرَقَتْ
الْكُرُوسْلِي شُورَاعَهُ المُعْبَدَةُ وَاسْتَقَرَّتْ فِي ظِلِّ خَزَّانِ مِيَاهٍ كَبِيرٍ، رَفَعَ

، القادر الغطاء الخلفي وأستدّه بقصا ثم وضع لافتة مكتوبا فيها
 نئين» بالإنجليزية، الشفّ الجنود حوله كأنهم حول صرصار
 نه، ابتاعوا سجائره، نبّذه، حلاوته ومخللاته، وما عجز عنه مُورّدو
 مسكر السّابقون، مسحوق الكوكايين، يبيعه بالجرام في لفافات
 لها صغيرة لخاصلي كلمة السر من أصدقائه الثقات، يُنادونه بالجنّ،
 له التي تناسب قدراته في الجلب والتحضير، يحمي لُقمة عيشه
 كما فطري خلف ابتسامة ساخرة وخفّة ظل ومُجاملات للرتب
 صغيرة قبل الكبيرة، يحمل هداياهم حتّى مكاتبهم، يُقص نكاته
 شمية التي يحبوها بالإنجليزية رديئة مُحافظا على الود والتواصل،
 لدا نعمة استشارهم له بتوريدات المُعسكر، شاكرًا لله عمله الذي
 ل منه بين شباب الحي «برنس» يشار له بالبنان.. ثم يُنهي عبد القادر
 يته الأسبوعية بعد أن يجمع رَغبات الجنّد والقادة في ورقة ليأتيهم
 في الزيارة التالية، ليتهب الأرض بعدها نهبا.. إلى القاهرة.

فَطَم عبد القادر المتسافة في ثلاث ساعات ونصف قبل أن يصل إلى
 السيدة زينب، غَسَل سيارته بالماء والصابون في طقس عقائدي
 مُر من أجله بنظونه وكُمّيه، لم يتركها حتّى عكس جسمها الشارع
 حولها والمارة، قبل أن يُغطّيها بعيدا عن مرمى مَجْلِس أبيه في ميدان
 ساح بالناصرية، دخل بعد ذلك ميقضة المسجد، أنزل تُراب السّفر
 مع جذاءه وذهن مُعره بالبرلتين ثم دلف الحي يختال في بذلة من
 سوف الإنجليزي منديلها حرير، وعشرة جُنْبهات في جيبه هي إيراد
 واحد، يمشي مُباعدًا ذراعيه عن جانيه من أثر عضلاته المنتفخة،
 لها جيبه في جديّة سياسي مهموم، ويُلَف سبيللة الساعة على سبّابه

بحركة مُستمرّة مُسترقاً النّظرات من تحت طربوشه المائل لشبابيك
الحَيّ ومُشربياته راصداً أعين الحريم المُتَلصّصة المُتابعَة، فَمِنْ أَجْلِهِنَّ
تَجَرَّعَ اللَّبَنَ بِالْبَيْضِ كُلِّ صَبَاحٍ، رَفَعَ كَوْرِي الْأَسْمَنَتِ الْمُثْبِتِينَ بَعْصَا
خَشَبِيَّةٍ أَمَامَ الْمِرَاةِ، وَذَاعَبَ أَطْفَالَ الْحَيِّ وَهُمْ يَلْعَبُونَ الْكُرَةَ اسْتِعْرَاضًا،
لِيَتَلَقَّفَ نَظْرَةَ إِعْجَابٍ تُسْكِرُهُ أَوْ بَسْمَةً وَعْدَ تُلْهَبُ خَيَالَهُ.. وَرَغْمَ ذَلِكَ
تَكَاثَرَتِ عَلَاقَاتُ الاسْتِفْهَامِ حَوْلَ يَسْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ الَّتِي تَخَطَّتِ الْحَدَّ
وَلَمْ يَتَزَوَّجْ!

وقليلون من يعرفون الحقيقة!

فَعَلَّاقَاتُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْمُتَعَدِّدَةِ جَعَلَتْ إِرْضَاءَهُ ضَرْبًا مِنْ
الْمُسْتَحْيَلَاتِ، فَمُنْذُ بَلَغَ الْحُلُمَ أَغْدَقَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ رَحِيقِ عَذَارَى
الْحَيِّ، لَمْ يَتْرِكْ نَهْذَا إِلَّا وَتَرَكَ عَلَيْهِ بِصَمَاتِهِ، أَمَا تَضَارِيسُهُنَّ وَالْمُنْحَنِياتُ
فَمَرَّ عَلَيْهَا بِسَيَارَتِهِ وَلَمْ يَرَحِمْ، حَنُونًا مَعَ الْمُطَلَّقاتِ عَطُوفًا عَلَى
الْأَرَامِلِ، يَسْمَعُ هَرَاءَ حِكَايَاتِهِنَّ بِاهْتِمَامٍ، يَتَعَاطَفُ وَيَتَوَخَّدُ وَيَتَنَهَّدُ، ثُمَّ
يَقْرَهُنَّ فَرَمًا قَبْلَ أَنْ يَمْلُكُنَّ سَرِيعًا فَيَهْرَعُ لِقَتَاتِ «الْوَسْعَةِ» بِالْأَزْبُكِيَّةِ^(١)
لِيُغَيِّرَ طَعْمَ قَمِهِ، لِحِمًّا طَرِيًّا لَا يُكَلِّفُهُ سِوَى تَحِيَّةِ مَسَاءٍ وَبَعْضِ الْقُرُوشِ،
هَذَا بِخِلَافِ السَّيَارَةِ الْكُرُوسَلِيِّ الَّتِي كَانَتْ حَصِيلَةُ اقْتِنَائِهَا عِلَاقَةً مَعَ
ثَلَاثٍ مِنْ زَوَاجَاتِ أَصْدِقَائِهِ وَعَدَدٍ لَا بِأَسْ بِهِ مَمَّنْ تَرُغِبُنَّ فِي الْمَغَامَرَةِ،
لِذَا كَانَ عَلَيْهِ إِذَا أَرَادَ الزَّوْاجَ أَنْ يَجِدَ مَنْ لَمْ تُولَدْ بَعْدَ، عَذْرَاءٌ لَمْ تَقْعَ
عَلَيْهَا عَيْنُ بَشَرٍ، حُورِيَّةٌ هَارِبَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ، هَكَذَا يَصِفُهَا حِينَ تَسْأَلُهُ أُمُّهُ

(١) منطقة الوسعة بالأزبكية: منطقة الدعارة الأكثر شهرة في القاهرة، بجانب مناطق باب
الشمرية وباب اللوف.

ن مواصفات العروس المثالية لتجلبها له، أمه التي جندت الخاطبات
أتموه بأخبار بنات الحي اللاتي يرغبن في نسب ابن الفتوة وعزته،
كلهن في عينه كن ذوات عُيوب، قصيرة، طويلة، سمينة، رقيقة،
سحرة، داعرة، قفل صدئ، قدماها كبيرتان، مقوستان كلاعي الكرة،
لن ناس، بنت كلب، غبية، ثقيلة الدم، بلهاء!

لا أحد يعرف ماذا يريد عبد القادر الجين!

انتابت أمه الحسرة، ورماه أبوه بالنجاسة قبل أن يزداد الطين بلة
حين أنه خبر تردد عبد القادر على معسكر الإنجليز لمعمل غضب
أبوه يومها كما لم بغضب من قبل، خاصة حين ذكره عبد القادر في
رلة لسان بتاريخ تعاونه مع الإنجليز فكسر الرجل زجاجة قازوزة على
رأسه وطرده من البيت أسبوعاً.

رغم أن شحاتة الجين كان ليتعاون مع الشيطان نفسه يوماً
لتحقيق سطرته!

فنظام الفتوة في الأصل نشأ في فترات ضعف الدولة حين اشتدت
قوطة العماليك وتوحشوا، فتصدروا شجعان الأحياء للذود عن الأهالي
لمجد بطشهم نظير وربة مالية أو عينية يدفعها الناس لهم اختيارياً، ثم
أصبحت مع الوقت إتاوة إجبارية نظير تصديهم لعسف جند الاحتلال
وغارات اللصوص، ولحل النزاعات فيما بينهم والاحتكام إليهم، قبل
أن يحتضن الإنجليز بعضهم حين أدركوا أنهم مفاتيح الأحياء وعيونها،
فباتت الصداقة بينهم مشروعة ومصلحة متبادلة، وأحياناً بماهية شهرية
نظير الولاء للاحتلال.

هكذا كان أبوه شحاتة الجن حين حمل من القوة يوماً ما هياً ليقف أمام الفتوة الأسبق «خليل بطيخة»، انتزع اللقب منه في معركة ضارية صرعه فيها بضربة سيكين نفذت بين ضلعيه لتصقي كبدته على الأرض، ومن يومها أطلق عليه لقب «الجن» متويعاً وترويعاً وما لبث أن صنع مجده دبائيس مغروسة في نبوته بعدد المعارك التي خاضها وانتصر فيها على أنداده من فتوات الأحياء المجاورة، دشّن سمعته جروح وعاهات وقبور قبل أن تستقر به أرجل عرش الفتوة وينال الرضا سكوتاً عنه وتغاضياً من بعد زيارة للضابط «آرثر» وكيل حكمدار الداخلية، زيارة نال فيها البركة ووعد بالتعاون فاستبنت الدنيا له واستقرت.. يجلس يوماً في بقعة شمس قرب مدخل مسجد الرّماح متابعاً بنظره فرشة خضار ضخمة يديرها عنه أحد صبيانها، ثم يفكر يوماً في اعتزالها رغم سعة دخله، مستقبلاً عندها من له مطلب، زاجراً كل من تعدّى أو غفل، يفض النزاعات ويتقدّم مواكب الأفراح والجنازات، ويتلقى إتاوته المفروضة على الناس فرض الدين على الرقبات.. بلا تهاون.

مع تقدّم السن وتوالي الحوادث الجسام تسلّلت إلى روح «شحاتة الجن» حكمة عجيبة، مثل الوباء، بلا راحة ولا لون، عنوة، جلوسه من الفجر حتّى غروب الشمس صامتاً على أريكته يتأمل السماء وأحوال العباد وقد الأحبة جعل منه شخصاً آخر، حَجَرًا جَلاه فيض ماء فصار سطحه أملس مصقولاً، رجلاً أقل ميلاً للبطش، للجرح، وأكثر تأثيراً بحضوره في مريديه، فالنظرة باتت تعفيه الكلمات، وإشارة من يده تفض أعتى التزاغات، صار يتلقّى الإتاوات من أغنياء الحي فقط،

رهاهم، لا يبيع خضرأواته بالفرض، لا يَضمُّ زوجة بالفرض، يَسمع
 كَثْرَ مِمَّا يَتَكَلَّمُ، يَهْزِرُ رَأْسَهُ وَيَشْرُدُ لِدَقَائِقِ كَأَنَّهُ مَسْحُورٌ يَسْتَشِيرُ أَسْيَادَهُ،
 سَمِ يَفِيقُ فَيُلْقِي قَرَارًا هُوَ الصَّوَابُ بَعَيْنِهِ. . وقتها قال المَلَأُ إِنَّ الْفِتْوَةَ
 رَقِصِي، وَإِنَّ الرَّحْمَةَ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ وَاللِّينَ، عِلَامَاتُ كَبِيرِ السِّنِّ وَزَوَالِ
 الْمُلْكِ، رَحِمَةً أَغْرَتْ فَتَى مَفْتُولًا مُتَمَرِّزًا مِنْ فِتْيَانِ الْحَيِّ أَنْ يَخْتَبِرَهَا
 سِرَّةً فَوَهَبَهُ شِخَانَةَ الْجِنِّ عَاهَةً مُسْتَدِيمَةً عَلَى مَرَأَى مِنَ الْعَامَةِ قَبْلَ أَنْ
 يَرْجِعَ إِلَى كَنْبَتِهِ بِهَدْوٍ، سَاكِنًا كَجَبَلٍ عَمَرَهُ الدَّهْرُ، لَمْ يَعُدْ يَهِيحُ صَدْرُهُ
 سِوَى أَبْنَاءِ الْبَشَرَةِ الْخَمَرَاءِ وَتَابِعِيهِمْ، نِيوزِيلَانْدِيِّينَ وَأُسْتَرَالِيِّينَ وَهِنُودَ،
 سَمِ يَعُدُّ يَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُمْ، أَدْرَكَ ذَلِكَ مُتَأَخِّرًا جَدًّا، بَعْدَ أَنْ ضَيَّقُوا عَلَيْهِ
 عَلَى أَهْلِ حَبَّةٍ مُنَافِذَ الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِ فَرَضِ الْحِمَايَةِ، لَمْ يَعُودُوا قَدَّرَ
 سِرْبَ وَقْدِهِ كَمَا كَانَ يَقُولُ، بَاتُوا يَبْطِشُونَ بِأَهْلِ الْمُنَاطِقَةِ الَّتِي يَحْمِيهَا،
 سَرَضَ حُكُومَتُهُمُ الْقُرَائِبَ الْبَاهِظَةَ فَوْقَ الرُّءُوسِ، وَيَتَسَكَّعُ جُنْدُهُمْ
 بِلِ نَهَارٍ لِيَنْهَبُوا مَا بَقِيَ مِنْ أَقْوَاتِ النَّاسِ، النَّاسُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ لِلْجِنِّ
 مُسْتَغْنَاءً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ نَفْعًا، مَكْتُوفُ الْيَدَيْنِ يَتَلَقَّى الطَّعْمَ فِي رُجُولَتِهِ
 بِجِزْرِ أَسْنَانِهِ فِي غَضَبٍ مَكْتُومٍ وَيَشْمُرُ بِالْعَجْزِ تَحْوِيلَ الْجِنِّ تَدْرِيجِيًّا
 نَ الْجِرْصِ عَلَى اسْتِقْرَارِ سَطْوَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ فِي كَنْفِ الْإِنْجِلِيزِ، إِلَى
 نَصَبِ نَاحِيَتِهِمْ لَمْ يَشْعُرْ بِنُصْفِهِ يَوْمَ احْتَلَوْا الْبِلَادَ، وَكَأَنَّهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى
 سَتَوَعِبَ مَعْنَى كَلِمَةِ «اِحْتِلَالٍ»؛ أَنْ تَكُونَ مُرَبَّوْطًا مِنْ رَقَبَتِكَ فِي سَاقِيَةِ
 مَضُوبِ الْعَيْنَيْنِ وَيُلْقَى إِلَيْكَ الْفُتَاتُ، أَنْ تُجْلَدَ لَتَدُورَ فِي دَائِرَةِ مُفْرَغَةٍ
 سَقِي أَرْضًا لَمْ تَعُدْ تَمْلِكُهَا، تَنْبِتُ زُرْعًا لَنْ تَأْكُلَهُ .

مع الوقت تكونت لدى الجِنِّ رَغْبَةٌ مَحْمُومَةٌ فِي مُشَاكَسَتِهِمْ، بَاتَ
 سَهْرٌ خَصِيصًا لِيَتَحَرَّشَ بِهِمْ مُضِيغًا الْخِنَاقَ عَلَيْهِمْ مُنْفَرًا وَمُخَوِّفًا، بِخَذَرِ

لا يَضَعُه تَحْتَ طَائِلَةٍ وَكِيلٍ حَكَمْدَارِ الدَّاخِلِيَةِ «آرثر» الَّذِي امْتَنَعَ عَنْ زيارته والتواصل معه، شَارِدًا بِتَأَمُّلِ عُمُرِهِ الْمُتَقْصِي فِي خِدْمَتِهِمْ فَيُضِيقُ صَدْرَهُ وَلَا يَنْطِيقُ لِسَانَهُ قَبْلَ أَنْ يُدَاعِبَهُ حِلْمُ تَوْرِيثِ اسْمِهِ لِذِكْرِ يُكْمِلُ مَسِيرَةَ طَرْدِ الْغُرَبَاءِ مِنَ الْحَيِّ، وَقَتَهَا كَانَ عَبْدُ الْقَادِرِ قَدْ شَبَّ وَخَطَّ شَارِبَهُ وَأَرَادَ لَهُ وَالِدَهُ أَنْ يَرِثَ سَيَادَةَ الْمَنْطَقَةِ وَمَنْ عَلَيْهَا، فَهُوَ الْعَصَبُ بَعْدَ أَخٍ مَاتَ بِالْكَوْلِيرِ وَثَلَاثَ بَنَاتٍ سَيَطْمَسُهُنَّ النُّسَيَانُ حَتَّى مِثْلُ كُلِّ أَنْثَى، لَمْ يَحْرَمَ عَبْدُ الْقَادِرِ مِنَ التَّعْلِيمِ، حَصَلَ عَلَى شَهَادَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ، حَفِظَ نِصْفَ الْقُرْآنِ، وَخَضَرَ صَوَلَاتِ أَبِيهِ وَجَوَلَاتِهِ مَحْمُولًا فَرَقَ عَرِبَاتِ الْكَارُوفِي غَارَاتِ بَسْطِ النَّفُوذِ عَلَى الْأَحْيَاءِ الْمَجَاوِرَةِ.

افْتُنَّ عَبْدُ الْقَادِرِ بِسُطُورَةِ أَبِيهِ لِسَنَوَاتٍ، يَخْتَالُ بِهَا بَيْنَ أَقْرَانِهِ وَيَفْخَرُ: «أَنَا ابْنُ الْمَفْتُوَةِ يَا وَلَادَ الْكَلْبِ!! ابْنُ الْجِنِّ الْعَقْرِتِ».. عُوْمِلَ مُعَامَلَةً خَاصَّةً مِنْ أَهْلِ الْحَيِّ وَأَقْرَانِهِ، حَتَّى فِي اللَّعِبِ كَانَ لَهُ الْحِظُّوَّةُ وَالْأُولُوَّةُ! قَبْلَ أَنْ تَمُرَّ الْأَيَّامُ وَتَفْتُرَ حِمَاسَتَهُ نَاحِيَةَ إِرْثِ أَبِيهِ، لَمْ تُعَدِّ الْفَتُوَةُ تُغْرِيه كَمَا كَانَتْ، لَمْ تُعَدِّ السُّلْطَةُ الَّتِي يَتَّبِعُهَا مَالٌ، بَانَتْ مَعَ حِكْمَةِ أَبِيهِ «الْمُسْتَحْدَثَةُ» سُلْطَةُ مَعَ ضَيْيقِ خَيَالٍ، فَرَهْدَةٍ لَا تُوْتِي الثَّمَارَ، أَقْرَبَ لَزْهَدِ الرُّهْبَانِ فِي صَوَامِعِهِمْ، عِيبٌ ثَقِيلٌ وَمَسْئُولِيَّةٌ تَبْرَأُ مِنْهَا تَدْرِيجًا وَانْسَحَبَ، مُؤَثِّرًا التَّعَامُلَ مَعَ وُجُودِ الْإِنْجِلِيزِ وَمُجَارَاتِهِمْ: «وَمَا لَهُمْ الْإِنْجِلِيزُ؟ أَقْوَى جِيْشٍ فِي الْأَرْضِ، خَبِرَةٌ، وَنِظَامٌ، وَاحْنَا شَعْبٌ مَا يَمُشِينَاشْ غَيْرَ الْكَرْبَاجِ!»، تَعَلَّمَ عَبْدُ الْقَادِرِ لُغَتَهُمْ هَرَبًا مِنْ عِبَادَةِ الْحَارَةِ الضَّيِّقَةِ إِلَى رَحْبِ الْبَدَلَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ الْمُثْلِمَةِ! فَأَبُوهُ لَمْ يَخْرِجْ مِنْ حَارَتِهِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، مَعْدُورًا بِضَيْقِ أَفْقِهِ مَعْزُولًا كَسَمَكَةٍ عَمِيَاءَ فِي حَوْضِ صَغِيرٍ، مُسْكِنٌ لَنْ

الزمن قد تغيّر، لن يدرك أن الإنجليز بانوا مُنتصري الحرب
 ا، «لن يرحلوا عن مصر» باتت مقولته الشهيرة، و«كيف لنا
 لبلد إذا رحلوا؟» باتت ثاني مقولانه الشهيرة، سامر جندهم
 ب ضبّاطهم في يارات الأزيكية ومسارحها، يُداعبهم كأقران
 هم، حتى فاحت رائحته وطالت أنف أبيه فانقبض، قبل أن
 بما عرف فيرتبك، اتّهمه بالرّعونّة فاضطرب، صرخ فيه ومناج
 ر، قبل أن يوقف عمل أذنه بصقعة ويجرح أعلى وجنته بفصّ
 فانقطعت الأسباب بينهما، لم يملك عبد القادر سوى الصّمت،
 تحوّل لعناد متّقد، يُريد أن يُبري ساحته، وأن يرى الشمس من
 عال، فوق بيوت الحارات الضيّقة المكتومة، وأن يثبت لأب جبار
 - يُخطئ... فلست إلها تُعبّد! ولا «جنّا» حقيقيّا تملك الخفاء، بل
 باة التي تحياها في حيّك الضيّق سيّدًا بلا مال...

بست في الأصل حياة!

ابنسم الحظ بومًا لعبد القادر، كان ذلك حين صجبه صديق
 لميزي إلى كأمب التّل الكبير وعرقه على الكولونيل تريفور، ليصبح
 أشهر معدودات أحد مورّدي الكأمب المعدودين، استعر سسخط
 ، عليه حين علّم، هو الخائن الخارج عن الطوع، هو الابن العاق،
 هو العار نفسه بكاد يُخفيه، تتقابل أعينهما فيتساءل عبد القادر:
 ثر الأموال التي جرت بين يدي؟ البدلة الإسمو كنج التي طالما حلّمت
 السّاعة الأوميجا ذات الكاتينة والأوتومبيل المرموق الذي يصرع النساء
 ت عجلاته؟

الم يكن ذلك هدفك منذ أصبحت فتوة الحي يا أبي؟^{١٢}.

فيرد الأب بسبِّ غَضَبٍ من عينيه وصَمَتَ مَرِير.

حين اقترب عبد القادر من باب مَسْجِد الرِّمَاح لَمَحَ أباه مُتَكِنًا على كَنَبته، كان يُشَبِّهه كثيرًا لَوْ لَا شارب أَشْيَب تَخَلَّلته صُفْرة المعسل وبَدَانَة تزداد مع السَّن، رَافِعًا سَاقه ذات الكَالُو الدائم على حَجَرٍ ومُرْخِيًا لِي الشَّيْثَة التي لا تَفَارقه على صَدْره، أَسْرَعَ عبد القادر بِخُطَاهُ بَعِيدًا اتِّقَاءً لِلْمُوْاجِهَة لكن الأعْبَن التَّقَت، نَظْرَة لوم وهِيْة بافِيْة اضْطَرَّتْه أَنْ يَثْبِت مَكَانه، ثم بِخُطَوَات ثَقِيلَة أَنْ يَقْتَرِب، لَثمَ اللَّبْدَ وَجَلَسَ، انْفَضَّت دَقَاقِق ثَقِيلَة قَبْل أَنْ يُخْرِج أبوه من جَيْب جِلْبَابِه عِلْبَة نُشُوفٍ، شَدَّ لِفَتْحَتِي أَنْفِه الْمَسْحُوقِ الْمَنَعَشِ ثم دَسَّهَا فِي جِيْبِه وَرَجَعَ لِسُكُونِ التَّأْمَلِ، شَارِدًا فِي مَدْخَلِ الْمَبْدَانِ كَمَنْ يَنْتَظِر شَيْئًا، لَحَظَات لَمْ يَدْرِ عبد القادر فِيهَا مَا يَفْعَلُه فَأَخْرَج سَاعَتِه من جِيْبِه، أَلْقَى عَلَيْهَا نَظْرَة ثم قَامَ يَحْكُ مُؤَخَّرَة رَأْسِه ضَابِطًا طَرَبُوشَه دَافِعًا لِلْوَقْتِ أَنْ يَنْقَضِيَ:

- طِبْ بِالْإِذْنِ يَا بَا عَشَانِ وَرَايَا مَصْلَحَة.

لَمْ يَتَلَقَ عبد القادر إِجَابَة فَكَادَ أَنْ يَنْسَحِبَ حِينَ تَكَلَّمَ أبوه دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ.

- مَبْرُوكُ السَّاعَة.. حَاجَة أَوْ رِبَا خَالِص.

أَخْرَجَهَا عبد القادر من جِيْبِه وَمَدَّ يَدَه بِهَا.

- وَاللَّهِ مَا هِيَ رَاجِعَة يَا بَا.. النَّبِيَّ قَبْلَ الْهَدِيَةِ.

شَدَّ شِخَاةَ بَلْغَمًا مِنْ صَدْرِهِ وَبَصَقَهُ عَلَى الْأَرْضِ فَأَرْجَعَ عبد القادر سَاعَتِه إِلَى جِيْبِه مُسْتَوْعِبًا الرِّسَالَة حِينَ أَرَدَفَ أبوه:

- رايح فين؟

- رايح أزور واحد صاحبي عيَّان وعندي كام مشوار ناحية...

قاطع: ابقى عدِّي، على نظلة مِرات عمَّك توفيق اللي في الثالث
سُفها عشان بتخلَّص خلاص ومالهش حد.

- يا حول الله.

- أنت توعى على عمَّك توفيق؟

- كُت صغير أمَّا مات.. بس عارف إنه كان زي أخوك.

- جئت له طلقة في عينه وهو واقف في الشباك.. طلقة من بنادق
«لي إنفيلد».. إنجليزي.. عسكري كان بينضف الماسورة تحت
البُيوت! طلعت الطلقة.. تفكير...؟

حُرب عبد القادر بعينيه إلى الحي جازًا أسنانه: الله يرحمه.

- لو كُت سُفَّت الواد اللي نَشه كُت هاتعمل فيه إيه؟

كُنت فرمته.

- ولو كان صاحبك؟!

باغته أبوه ولم ينتظر الإجابة، لاذ عبد القادر بالصمت وإن حدل
عينَي أبيه تحديدًا حتى استغفزه.

- خسارة فيك الواحد وعشرين أهيف بدلية^(١) اللي دفعتها حد
ما تخشش الجهادية.. كان زمانك طلعت راجل.

(١) البدلية: نظام تم العمل به في بدايات انفرد العشرين كسياسة إحتياطية لإمداد
الجيش المصري عن طريق قبول رسوم محدَّدة للإعفاء من الخدمة العسكرية.

ساد الصمت ثواني قبل أن يقوم عبد القادر:

- بالإذن يا بابا.

ابتعد بضع خطوات قبل أن يصيح أبوه:

- جرام البلا الأبيض اللي بتبيعه وصل كأم يا عبد القادر أفندي؟

كَبَسَ عبد القادر طربوشه على رأسه ومَدَّ حُطَوَاتَه كأن لَمْ يَسْمَعِه
مَتَمَنِّمًا فِي سِرِّهِ:

- ديك أمك يا بابا.



الساعة ١٢:٣٠ صباحًا

بَار «كافيه إچيبسيان».. شارع وش البركة^(١).. الأزبكية

لم يَكُن «كافيه إچيبسيان» بَارًا عاديًا، حتَّى «دير اكاتوس» مُنافسه العتيد لم يبلغ مكانه يومًا، كان دائمًا الأفخَم والأعجب والأرقى في مُستوى مُريديه، فقد شهد جلسات الأمير فؤاد أيام بطالته قبل أن يعنلي العرش ويُصبح السلطان فؤاد، وشهد أيضًا عريضة سليم السلحدار الأرستقراطي المعروف الذي دخل البار يومًا بحصانه مُحاطًا بحاشية من السود والمَناربة والطلّيان يَجرون بين يديه، قلب القوائد وتعرّ الجُموع قبل أن يدفع ثمن ما أفسده عن طيب خاطر! كما اشتهر البار بأنه ملتقى رجال الجيش ومستشاري المحاكم وكبار الأجانب، وحتي المخديوي المعزول «عبّاس حلمي» كان يَأبى على حاشيته الشَّهر في البارات عامة.. إلا بار «كافيه إچيبسيان».. كان دائمًا الاستثناء.

يَتَخَطَّى القادم للبار عربات الدوكار^(٢) الفاخرة التي تركها رُواد المكان قُرب رصيف المدخل ليستقبله حارس المكان بصدر عريض وشارب مُتَّعِب، بتقدّمه بحفاوة حتّى يفتح له الباب الكبير ليتلقّى بقشيشه قبل أن يُسلّمه إلى خُسناء بونانية أو إيطالبة ترندي بلوزة

(١) شارع «وش البركة» هو شارع نجيب الريحاني حاليًا.

(٢) الدوكار: عربة مجرورة بحصان واحد يركبها أولاد الذرات.

«ديكولتبه» ساتانية وشراب شَبِك يُشَمِّل مَاقِيها فوق كَمَين لَهما طَقَطَقات تُدْغِغ الأَعْصاب، تَتمائِل أمامه بَغتِج في طُرُقة طَوِيلَة تُضَيِّئُها قَنادِيل على شَكل أَذْرُع نُحاسِيَة خَارجَة من الجُدران المَرسوم عليها نِسوة فَاتَنات يَرَقصن رَقصَة «الكَان كَان»، ثُمَّ تَنزِل بِهِ دَرَكًا من بَضِيع دَرجات يُوَصِّلُه لِلصَّالَة الرَّئِيسِيَة، تُسَلِّمُه لِمِيلَة لا تَقِل عنها فِتْنَة لَتَأْخُذَ عَنْهُ مِعْطَفُه وَتَسَلِّمُه ثالِثَة لِتُجِدَ لَهُ مَكانًا شَاغِرًا وَسَطَ زُحام المُريدِين .

الصَّالَة كانت وائِسعَة، على هِئَة نِصف دَائِرَة، في المُنتَصَف مَسْرَح اصْطَفَّت على أَطرافه مِصابِيع مَسنُودَة على مِراة مُقَعَّرَة تَعكس نُورها على فِرْقَة من خَمسة أَفراد تَعزِف مَقطُوعَة لُشُوبان، التَّوائِد رُصَّت بِجانب الجُدران وَبِاتِباع الصَّالَة حَتى وَصَلَ أَقربها وَأَغلَها سِغَرًا لِبدايَة المَعرِج، عَليها مَغارِش مُزخرفَة من الدانِئِيل فوقها شُموع في آنية مُستَدِيرَة وَنِساء تَشيع من نَحورهن أَنوار الحُلِي البراقَة والماسات بِجانب رِجال اَزْدانت أَصابِعُهم بِالخَوائِم والسِيجار الفاخِر، أَمَّا الطُرُقات الخالِيَة بَين القَوائِد فتمَلُؤُها فِتْيات فَاتَنات من كُلِّ الجَنسيات كَالنَّعْلات الشُعَّالَة، يَمَين شَجانِر وولاعات وَحَلوى فوق عُلبَة خَشَبِيَة مُعلَّقة بِجِزام إلى أَكتافِهن الناعِمَة، هَذا بِخِلاف فِتْيات «الْفَتَح» اللاتِي يوفِّرُن الصُّحْبَة الغَضَّة والأَنس . يَتَفَرَّقن على القَوائِد لِبحْثن الرِّواد على فَتَح المَزيد من رُجَاجات الخَمَر على شَرف الجُلوس مَعهن، وَكُلَّمَا فَتَحَت الفِئَة عَدَدًا أَكْبَر من الرُجَاجات كَثُرَت جِصَّنُها من النَقود، أَمَّا البَّار فَكانَ في أَقصى اليَسار، عَامَرًا بِمِخْتَلَف أَنواع الخَمَر، تَحفُّه كِراسِي عَاليَة من الأَبْنوس كُسيَت بِالقَطيْفَة الأَرجوانِيَة، جَلَسَ فوق إِحداهما شَباب في مُنتَصَف الثَلاثِينِيات بِحسبِه المُحِيطون مِنَ الوَسامَة أَمِيرًا

- في مرّة سألوا شتّام عن سبب تسمية قناة السويس بالاسم ده فقال: لأن الشفن بتعدي بسويس بسويس.

ضجّت الصّالة بالضّحك في اللحظة التي نزل فيها الدّرك ضابط إنجليزي ببدلة عسكريّة كاكّي وربطة عنق زيتية وكاب مُختال، انتبه إليه الجالس على البار وقيّمه قبل أن يرصده بطرف عينه.. أردف المونولوجست:

- شتّام نزل من الحنطور فلقى الدنيا بتمطر قام لف ونزل من الناحية الثانية.

ضجّت الصّالة بالضّحك ثانية حين تخلّل الضابط الموائد مقترباً من الكرّاسي الوحيدة الشاغرة في الصّالة.. كرّاسي البار.

- شتّام ضيّع أمه في الشوق راح للشاويش قاله: ماشفتش واحدة ماشية وأنا مش معاها.

أنهى الشاب بكأسه في لامبالاة مُصطنعة، يُراقب الإنجليزي في مرآة البار المُواجهة، جالس الأخير على بُعد كرّسين بعد أن خلع الكّاب ووضعه على سطح البار فلمّعت خصلات ذهبية وعينان زرقاوان، طلب تأمّناً ثم التفت للصّالة مُتأملاً الرّواد باحثاً عن صحبة تُرافقه، فالعزاج المُتفائل من بعد الحرب حرر الدم المُحبوس كمّداً في الصدور لينصب في نصف الجسم السفلي.

لحظّات واقتربت فتاة من فتّيات الفتح، يونانية، الـ H عندها خاء، ترتدي فُستان سهرة أسود كُشف عن تدين أنوفين وعجيزة مغرورة، بالبروتوكول المُعهود أسندت ظهرها للبار ورفعت جانب شعرها

لنكتشف عن نحر براق قبل أن تسدّ له الفنج بين عينيّه وتدعوه أن يُشعل
سيجارة دسّتها بين شفّتيها، رَمَاهَا الإنجليزي بنظرة ملل ثم أعرض عنها
في تكبر فاعتدل ميلها وانسحبت من أمامه تُبرطم بالإغريقية! دقيقة
واقتربت شقراء رائحة بسيجارة غير مُشتعلة، حامت حوله فأشار بأصابعه
أن ابتعدي وداعب الساقبي: «هل هناك أزمة كبريت في مصر تلك الأيام؟»،
انسحبت قبل أن تشاغل عينيّه ومنضدة عليها أنثى خمرية فاحمة الشعر
قوامها مدملج بجانب رجل تُري الهيئة، لم يرفع عينيّه عنها منذ عثر
عليها، مسح ثناياها بشبق طاع شرب من أجله كأسين إضافيين وخملق
كَمَا الطفل يُرّيل من أجل لعبة يرغبها، فالإنجليز لا يأبهون لأشياء إناث
بلادهم، يعبدون خلاخيل الخمريات ذوات الملاءات اللف، وكان
ذلك ما يعرفه الشاب المُراقب، دسّ يده في جيب سترته بهدوء وأخرج
صُورًا في حُجم وغدد أوراق الكوتشينة، صُورًا لفتيات عاريات من كُل
الأجناس، أورييات، شركسيات، مصريات، قوقازيات وسودانيات،
فرّها سريعًا تحت سطح البار قبل أن يعزل ثلاث صُور لفتيات تُشبهن
في الجسم المدملجة التي أعجبته، مؤخرات عظيمة وأنداء ترتع وبشرة
صلتها الشمس، وضع الصُور الثلاث في المُقدمة ثم دس المجموعة
في جيبه حين صَاح المونولوجست:

- سُفّتم! كل النكت النهاردة كانت عن السّمّامين اللي بقم في
كُل مكان، مِنغصين علينا عيشتنا ومبعزقين فلوسهم هنا وهناك،
عشان كده أنا باهديهم الأغنية دي وعاوزكم تغنّوا معايا!
شم الكوكاييين.. خلّاني مسكيبين.. متاخيري بتون وقلبي
حزيبين.. وعينيا في راسي رايحين جاييبين.

تناغم الحاضرون مع المونولوج حين سحِب الشاب كَأَسِه واقترَب
من الإنجليزي الهائم في ملكوت اللَّحْم الخمري، جلس على الكُرسي
المُجاور له قبل أن يَهْمس بإنجليزية لا يَأْس بها:

- يبدو أنها المرَّة الأولى لك هُنا!

بفتور هَزَّ المضابط رأسه أن «نعم» قبل أن يشيح بوجهه قاطعًا الحديث
فاستدركه الشاب:

- أعتقد أنَّك قد أتيت للمكان الخاطيء يا صديقي!

التفت الإنجليزي بفضول: ماذا تقصد؟

- هنا لا يقدِّمون الحُب الذي يروقك.

نظر إليه المضابط باستغراب قابِئسم الشاب ثم أشار برأسه للفتاة
السَّميئة: الحُب الحقيقي،

قالها وأخرج من جيبه الصورة، وضعها بجانب كأس الإنجليزي
الذي نظر إليها ببرود وبدون أن يلتمسهم سأل:

- ما هذا؟

- صنف قد يغيِّر فكرتك عن المرأة.

لَمَعَت عينا الإنجليزي وإن حَافِظ على لا مُبالاة المِصْطَنعة وهو
يقلِّب الصور بطرف سبابته ترفعًا:

- هل هُنَّ في البار معنا؟

- المرأة الشرقية لا يفوح أريجها إلا في الظل.

سَكَتَ الْإِنْجِلِيزِي يَزِنُ الْعَرَضَ الْمُغْرِي قَبْلَ أَنْ يَهْمَسَ:

- أَيْنَ؟

- شَارِعَ قَرِيبٍ.. مَكَانَ هَادِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَأْخُذَ فِيهِ رَاحَتَكَ وَتَشْرَبَ
مَشْرُوبًا يَرُوقُكَ.

- أَهْوَ مَكَانَ مُرْتَضٍ؟

- أَوْرَاقَ الْكُشْفِ الصَّحْفِيِّ حَاضِرَةٌ وَلَا أُنْتَقِي إِلَّا أَرْقَى الزِّيَارَتَيْنِ..
لَا مِصْرِيِّينَ وَلَا هِنُودَ.

- وَكَمْ قَدْ تُكَلِّفُنِي تِلْكَ الزِّيَارَةَ؟

- يَكْفِينِي أَنْ تُصْبِحَ زَبُونًا دَائِمًا لَشَقَّتِنَا الْمُتَوَاضِعَةِ.. لَكِنْ لَوْ الْحِثَّ
لَقُلْتُ إِنْ جُنَيْهَا سَيَكُونُ كَافِيًا لِإِكْرَامِ لَيْلَتِكَ.

- جُنَيْهِ! مَبْلَغُ ضَخْمٍ مِنْ أَجْلِ صُحْبَةٍ!

- لَنْ نَخْتَلِفَ.. وَصَدَّقْنِي مُسْتَجِدٌّ أَنْ فِتْيَاتِي يَسْتَحَقُّنَ.. وَالِدْفِ
سَيَكُونُ بَعْدَ تَقْدِيمِ الْمَخْدَمَةِ.

- هَيْثُنْكَ لَا تُوْحِي بِمَا تَقْدَمُهُ يَا...

- اِسْمِي كَتَكُوتُ.. وَإِصْبَالُ الْمُتَعَةِ لِمُسْتَحْقِيهَا مَوْهَبَةٌ تَسْبِقُ سِيرَتِي..
سَتُدْهَشُكَ قُدْرَاتِي.. اِسْأَلْ عَنِي مُرِيدِي الْأَرْبَكِيَّةِ.

رَفَعَ الْإِنْجِلِيزِي كَأْسَهُ عَلَى فَمِهِ، تَجَرَّعَهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً ثُمَّ ابْتَسَمَ:

- حَسَنًا يَا كَتَكُوتُ.. كَيْفَ سَنَفْعَلُهَا؟

- اِنْهِيَ جَلْسَتَكَ وَقَابِلْنِي خَارِجَ الْبَارِ.

قالها كتكوت ثم قام من مكانه فأمسك الضابط رُسغه وهمس:

- لكنني أريد تلك الفتاة بعينها.. لن أدفع إلا لها.

وأشار بتحدُّ طفولي للمدملجة المصرية التي خلبت لُبَّهُ.

- آه.. أنت تتحدث عن هذه الفتاة؟! لكنها الآن مع صديق آخر!

علاوة على أنها ليست أفضل الفتيات، هناك من هي أكثر خبرة..

ولا أعتقد أن من المناسب سحبها من بين يدي رفيقها الآن..

لم لا...

قاطعها: إما هي أو لا اتفاق.. لقد وعدتني أن قدراتك ستدهشي!

تأمل كتكوت الفتاة السمينة والجالس برفقتها قبل أن يلتفت

للضابط بابتسامة:

- لم أعرف اسمك؟

- ميجور أليكس.

- ميجور أليكس.. لن أختيب رجاءك.

قالها وغمزه بعينه ثم ذهب مُتأنِّيًا تجاه مائدة الفتاة السمينة، قبل أن

يُصل إليها أشار لبائعة سجاجير، اقتربت بابتسامة تعرض منابت صدرها

وبضاعة فوق الصندوق المعلق في رقبتها، التقط علبة سجاجير وناولها

عشرة صاغ وحين همَّت برد الباقي استيقاه بين أصابعها ومال عليها:

- خلّي الباقي علشانك.

- افخاريستو.

- جريجية! أجدع ناس.. ليا عندك خدمة.. فيه بنت جميلة قاعدة في الترابيزة اللي وراكي.

همّت بالالتفات فاستوقفها بإبتسامة.

- من غير ما تأخذ بالها.. دي بتفتح في البار ولّا من برّه؟

كانت مُعتادة بطبيعة عملها على التوصيل الجيد للحرارة، ابتسمت ثم التفتت بخفة لتلقي نظرة قبل أن تُجيبه.

- شوشو.. هي تشتغل مآنا هنا في اليار.

- لطيف جدًا.

قالها وأخرج من جيبه قلماً وورقة، خَطَّ فيها عبارة مقتضبة.. «تمانين قرش.. عند البار؟» ثم طَبَّقها جيداً ودَسَّها في كَفِّها.

- مُمكن تديها الورقة دي؟ بينك وبينها.

- نيه نيه.. فيسيكا.

- شكراً يا جميلة.

ذهبت فتاة السَّجائر تجاه السَّمينَة فَرَجَع كتكوت إلى البار بجانب الإنجليزي المُترَقَّب، جَلَس بجانبه دون أن يتكلَّم مُراقِبًا السَّمينَة التي تناولت الورقة بحِرْفَة وفَضَّتْهَا تَحْتَ المائدة، قرأت فَحَواها ثم طبقتها ومَسَحَت البار بعينها حتَّى التفت بصاحب العَرَض السَّخِي، ابتسم ورفع رأسه مُتَمِّمًا عَلَى صفقته فغمزت بعينها وَعَدَا حين التفت لكتكوت.

- يبدو أن خديك عن نفسك لم يَكُن مُبَالِغًا فيه يا كتكوت.. هههه..

ألا تعني كتكوت فرحًا صغيرًا؟

- صغير.. لكنني جبار.

ضحك الإنجليزي: أستاذي صديقتك الآن؟

- من الأفضل أن نسبقها حتى تُنهي جلستها.. فرفيقها البدين لن يسعده رؤيتها بصُحبة من هو أكثر وسامة.

دفع الإنجليزي ثمن شرايهما والتملق الفاضح ثم خرجا من البار متخذين طريقهما إلى بيت المُتعة، ثرثر كنكوت في الطريق بقصص مُبالغ فيها عن أصدقاء من مُثلي المَسارح ومُطربات شهيرات وراقصات يُدَبّن فيه عِشقا حتى قاطع الإنجليزي استعراضه:

- ألا تجد عُضاة في التعامل مع إنجليزي؟

- لم تقول ذلك يا صديقي!

- لست أنا الذي أقول.. إنما هو ذلك الرجل.. سعد..

- آه أنت تتحدث عن سعد رَغلول.. يا له من مُخرّف نسي نفسه.. كان ناظرا في الوزارة ثم ابتعد عن الأضواء حين قامت الحرب المُعظمى فأراد أن يعود إليها ولم يجد غير المُطالبة بالاستقلال حُجّة! الاستقلال! يا للعجب!! الإنسان قد يفعل أي شيء لتطفو على السطح ثانية!

- لكن دَعواه تجد صدى عند الناس.

- أي ناس يا صديقي؟! المَجنون يُريد مُقابلة الملك إدوارد ليعرض عليه أن يتركوا مصر!! وفي بلاده!! يا لها من بجاجة.

- الملك إدوارد مات منذ سنين.. نحن الآن في عهدة الملك جورج الخامس.

- فليرحمه الله ويُحسن إليه.. أبعد عشرة ثمانين أو تسعين عامًا
وأنتم ضيوفنا بحلو الحياة ومُرّها.. نشرب من نيل واحد.. يأتي
ليطلب الرحيل هكذا! أي جنون هذا؟! مثل هؤلاء لا يعيشون
على الأرض يا صديقي.. خالمون.. فقط هم يخترعون الكلمات
الرائقة ونحن الشعب ندفع الثمن.. قد جُنَّ أحمد عرابي من قبله
وتخطى أسياده قتلَى جزاءه.. وأين قضى بقية عمره؟ في جزيرة
الماوماو مع الهنود الحمر.

- جزيرة سيلان.. المفارقة أن تمرد عرابي كان السبب في
قدومنا لمصر.

- تلك كانت حسنته الوحيدة إذن.. ليست كل الأمم بقادرة على
رعاية مصالحها.. نحن شعب همجي.. وغير ناضج.. طفل إذا
أعطى من الغذاء أزيد مما يلزم أنخم.. أسألني أنا!
كانا قد اقتربا من ناصية زقاق ضيق، توقفت كتكوت وأشار إلى بيت
صغير في نهايته.

- تفضّل من هنا.. النافذة ذات الستائر الخضراء.. أتحب مع النيل
بعض الجبنة القديمة أو الترمس؟
- لقد شربت الليلة بما فيه الكفاية.

تقدّم الضابط كتكوت وهو يتمم على المُسدّس في جنبه، مرّا ببائع
خضراوات عجوز اقترش ناصية الزقاق، تخطّاه الضابط قبل أن يميل
عليه كتكوت شاحبًا من تحت خيش قفّته مُسدّس «وييلي» ماسوره
ملفوفة يدويًا بالمطاط، دسّها في سترته حين طلّ العجوز على الشارع
الصّاخب وأشار بيده اليابسة إلى عرجي رابض على الرصيف المقابل،

فَقَزَّ مِنْ فَوْقِ حَنْظُورِهِ قَبِيلٌ أَنْ يَنْغِزَ مُؤَخَّرَةَ قَرَسِهِ بِسُوكَةِ نَفْصَتِهِ وَاقْفَاً عَلَى قَدَمَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ صَاهِلًا بِالْمِ، مُثِيرًا بَيْنَ الْمَارَةِ مَوْجَةً مِنَ الرُّعْبِ أَوْ قَفَّتِ السَّيَّارَاتِ وَغَرِيَّاتِ السَّوَارِسِ^(١) وَقَطَعْتَ الطَّرِيقَ فَرَقَعَ صَاحِبُهُ سَوْطًا غَلِيظًا أَنْهَالَ بِهِ رَقْعًا عَلَى يَلَاطِ الْأَرْضِ الْمُحْدَبِ وَهُوَ مُسْتَمْسِكٌ بِاللُّجَامِ، فِي مُنْتَصَفِ الرُّفَاقِ سَمِعَ الصَّابِطَ الضَّجَّةَ فَالْتَفَتَ لِيَجِدَ فَوْهَةً مُسَدَّسَ مُوجِهَةً إِلَيْهِ.

- ماذا تفعل يا كتكوت؟!

- اسمي ليس كتكوت.

وَدَوَتْ طَلْقَةُ نَاهِ صَوْتِهَا بَيْنَ رَفْعِ الْكُرْبَاجِ وَصُخْبِ الشَّارِعِ، اسْتَقَرَّتْ فِي صَدْرِ الْإِنْجِلِيزِيِّ الَّذِي ارْتَدَتْ ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَى ظَهْرِهِ، اقْتَرَبَ كَتَكُوتُ مِنْهُ وَاسْتَخْلَصَ الْمُسَدَّسَ مِنْ يَدِهِ، تَأَمَّلَ الدِّمَاءَ وَهِيَ تُفَوِّرُ مِنَ الْقَمِّ عَلَى صَدْرِ الْبَدَلَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، رَجَفَتْ خُرُوجُ الرُّوحِ وَغَيْنِينَ تَخْبُوَانِ ثُمَّ تَنْطَفِئَانِ، انْحَنَى مَنْ كَانَ مُنْذُ دَفَاقٍ بَائِعَ مُتَعَةٍ وَاتْتَرَعَ مِنْ سُتْرَةِ الْإِنْجِلِيزِيِّ زُرًّا عَلَيْهِ خَفَرِ بَارِزٍ لِبِنْدَقِيَّتَيْنِ مُتَقَاطِعَتَيْنِ فَوْقَهُمَا تَاجٌ مَلَكِي بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ جَفْنَيْهِ بِأَصَابِعِهِ، دَسَّهَ فِي جَيْبِهِ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَجْهَ غَرِيمِهِ، كَانَ يَوْمُنَ أَنَّهُ عِنْدَمَا يَقْتُلُ ضَحِيَّةً يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ لَا يُدْرِكُهُ، شَيْءٌ يَتَوَعَّلُ فِي قَلْبِهِ كَالْحَبْرِ فِي كُوبِ مَاءٍ، يُسَيِّطِرُ عَلَيْهِ، يَصَيِّغُهُ، قِبَائِلُ الْأَزْتَكِ الْمَكْسِيكِ كَانَتْ تَأْكُلُ قُلُوبَ أَعْدَائِهَا لِتَكْتَسِبَ قُوَّتَهُمْ، أَمَّا هُوَ فَيَأْكُلُ أَرْوَاحَهُمْ، ثُمَّ يَشْعُرُ بِهِمْ يَمْشُونَ مَعَهُ، يَنَامُونَ بِجَانِبِهِ، يَتَجَوَّلُونَ فِي سَقْفِ غُرْفَتِهِ وَيَكْلُمُونَهُ

(١) عربية مظلمة من الخشب تجرها الخيول أو البغال تستعمل لنقل الأفراد... أول من طرحها في الأسواق كان الخواجة روفائيل سوارس.

بأعينهم، وأحياناً يصرخون، ليس لنا دخل بقضيتك، أو ببلدك الملعون،
نحن جُند مأمورون.

أفاق من غفوته بعد لحظات فنفض وجهه طرداً للأصوات
وانسحب مُسرّعاً إلى الشارع الصَّاحِب بعد أن ألقى بالمُسَدَّسين في
قفَّة العجوز الذي لعلم فرشته وخرج وراءه بلا كلمة، كُل إلى اتجاه،
أحكم الطربوش فوق رأسه ثم مدَّ خطواته مُبتعداً.



البنية كانت تطل على سوق باب اللوق، عمارة ضخمة مُزينة بقبة
ونقوش بديعة وتماثيل، ارتقى السلالم قفزاً للدور الرَّابِع قبل أن يَدس
مفتاحه في الباب، بحذر نزع جذاءه بعد أن كتم وسوسة الفتاح في
قُبضته، تسلل إلى عُرفه وشرَّع في خلع ملابسه حين سَمع النداء.

- أنت جيت يا أحمد؟

زَفَر ضيقاً: أبوة يا أمي.

تَحَرَّك ظل المصباح على البلاط تحت السيِّدة التي تَحمله، النَّار
أضاءت أطراف شِعْرها الأبيض المُتناثر فَبَدَتْ شَمْساً تسير ليلاً، دَلَّفت
من الباب بوجه يُعاني سكرات النَّوم:

- يعني من صَباحية ربنا كده ولا جس ولا خبراا

- مَعَلش.. النهاردة كان فيه تفتيش ع المَعامل.

- تفتيش لُنص الليل يا أحمد؟ وببدلة سموكين!!

خَلَع قميصه بعدما أخفى صور الفتيات العارية تحت السُّترة.

- تفتيش م القصر .. الأمير إبراهيم حلمي زارنا النهاردة .. عاوزاني
ألبس إيه؟ وبعدين قابلت صحابي.

- في الأزيكبة طبعاً، مع المشخّصاتية والصيّتة والعوالم، وأنا
قاعدة هنا أضرب أخماس في أسداس.

- أنا ماروحتش الأزيكبة يا أمي .. كُنّا قاعدين على القهوة
بنلعب طاولة.

- متاتيا تاني يا أحمد!! القهوة اللي ضيعت أبوك!

- يا أمي والقهوة مالها بس؟

- هو برضه كان يقول لي كده .. والقهوة مالها يا سعدية؟! لغاية
ما الصُحبة الشؤم انلقت عليه .. كلهم ربنا كرمهم وعليت مراكبهم
وهو راح .. وأنت عاوز تحصّله عشان تحرق قلبي.

- يا أمي ...

قاطعته: محمّد عبده وعبد الله النديم وسعد زغلول، حد فيهم
افتكر أبوك بعد ما مات؟ حد فيهم قال لي أنت منين يا كلبة ولا سأل
عليك حتى؟

- يا أمي!! النديم اتنفى ومات في بلاد بره .. ومحمّد عبده نفوه
بيروت .. وسعد زغلول ...

بعصبيّة قاطعته: هايودّي نفسه في ستين دَاهية إن شاء الله.

- وما يبقعدش على قهوة متاتيا يا أمي ... ما يبقعدش ع القهوة.

قالها وافترب منها مُتأملًا عَيْنين لامتتين غزتهما الدمع فبل أن
يُحيط رأسها بكفّيه تهدئة وبلثم مفرق شعرها.

- أنا كويّس يا أمي ما تخافيش.. الشقاوة خلصت.. م البيت للمعمل
وم المعمل للبيت.. صدقيني.

- والله ما هاستحمل أشوفك ثاني في السجن يا أحمد.

ثم ابتعدت فجأة حين لاحظت نشرات دماء على قميصه
فعاجلها مُداعبًا:

- مَا تخافيش.. دَه دم.

- دم!!

- أنا شغال في معمل مدرسة الطب يا أمي.. عاوزاني أتعاص إيه..
عرفسوس؟

ضحكت وهي توارى دموعها قبل أن تستطرد:

- نفسي أفرح بيلك.. أشوف لك عيل قبل ما...

- ربنا يدبكّي الصمعة يا أمي.

- اتعشيت؟

- اتعشيت.. خُشّي نامي بقة.

خرجت تاركة المصباح منيرًا له، زَفَرار تياخا ثم التقط من مكتبته
المزدحمة علبة من الصّاج اندسّت بين الكتب، عالج قفلها الصّغير
ففتحها ثم وضع يده في جيبيه ليُخرج زُرًّا، زُرًّا عليه حَفَر بارز لبندقيتين
مُقاطعتين فوقهما تاج ملكي خُصّيته دماء جافّة، نامله قبل أن يَضُمَّه
إلى سبعة عشر زُرًّا أخرى جَمَعَهَا على مَرَسنين ثم أشعل سيجارة
وجلس على طَرَف فراشه يَتَمَعَّن في الصُّورة العتيفة المُثَبِّنة في باطن

العلبة، صورة لرجل في ثوب يشترته وقسماته، يجلس مُبتسمًا واثقًا في
بدلة مُهتمة وبجانبه صديق على متقعدة في قهوة اسمها نُقش على باب
رُجاجي خلفهما؛ «متاتيا»، وتحت الصورة كُتب بخط مائل جميل:

«عبد الحي كيرة وسعد زغلول.. يناير ١٨٨١».

وكانت لتلك الصورة قصة.

عبد الحي كيرة، أب لم يُقابلهُ أحمد، عاش طقوله يستجدي
المعلومات عنه ولم يتعدَّ ما جَمَعَ القصصات، جَمَعها ونقحها قَصَّنت
صورة شيخ، شيخ كان يعمل ضابطًا بالمدفعية حين ألقي القبض عليه
وحُكِّم ليُعدم ضمن عدد محدود جدًّا من العسكريين الذين شاركوا
عُرابي في الثورة ضد الخديوي قبل سبع وثلاثين سنة.. ترك الأب
وراءه صورة باهتة بزي عسكري على جدار، وزوجة اشتعل رأسها
شيئًا لحظة أُعِدِمَ رميًا بالرصاص، وطفلاً، نشأ في فقر فرضته ضربات
القدر، حياة مطموسة التفاصيل في بيت لا تُذكر فيه سيرة الأب المُتمرد
أو الإنجليز حتى لا يتخذهم الابن عدوًّا وتستعير فيه رغبة الانتقام فيسير
على درب أبيه..

انكفأ أحمد مُنذ وعى على الدراسة، وفي وقت فراغه لم يترك مهلاً
في الحي إلا وعمل فيه، مُساعد ترزي، صبي بقال، صبي عجلاطي،
صبي صنّيع طرايش وحتى مساعدًا لساجر فرنسي في سيرك عاكف،
أتقن على يديه الفرنسية وبعض ألعاب السحر والتشكر، ثم التحق
بمدرسة الطب، أنهى دراسته فيها فعُيِّن بمُعامل الكيمياء بمرتب بالكاد
يكفيه شغل الحياة، مُوظَّف مُصاب ليس له شأن بالسياسة، يتكبُّ
يومياً على قوارير معمله حتى لو خرَّجت المظاهرات لتنادي بسقوط

السُّلطان الذي قبل العرش في ظِلِّ الاحتلال، بل ويملك صَدَاقَة مع
أستاذة ومديري مدرسة الطب من الإنجليز، فهو ناعم القول مُتَقِن
لللغتهم مَرِح ومثقف، ويظنونه متفهمًا للفروق الجينية التي تُؤكِّد تفوقهم
على أبناء جنسه.

والأهم... يُجيد إخفاء ماضيه بابتسامة لبقة.

تلك كانت الشخصية الظاهرة، أما في الباطن فكانت جذوة الحريق
مُشتعلة بين الضلوع، حريقًا يشمُّ أحمد دُخانَه ولا يرى له لهبًا، صورة
الأب في صالة البيت لم تكن الصورة الباهتة المائلة المُتهرئة خيطها،
كانت ملونة متينة تتكلم معه ليلاً تُناديه وتُناجيه بنظرات عَيْن لم تُمت،
تبشِّر رسالة يجاهد في فك شفرتها، رسالة استغاثة! وحين يسأل أمه عمَّا
حدث ثُمطر سعد زغلول ورفاقه بأقذع الشنائم وأشد اللعنات، قبل أن
تصمت كبحر نُضِبت.

ظل أحمد يبحث عن الإجابة سنوات حتى جاءه الرسول في
المُعمل يومًا، رَجُل ريفي اللبنة يرتدي بدلة مُهندمة وقفازًا، بكلمات
مُفتضة أخبره برغبة سعد باشا في مُقابلته، تسعد باشا زغلول! أذهله
الطلب وإن كتمه عن أمه لحساسيتها تجاه كل من أحاطوا أباه يومًا ولم
يَموتوا معه، فهم الخونة ولا جدال، هم من باعوا القضية وصافحوا
الإنجليز وعاشوا بفضل تضحية زوجها، وتضحيتها، وبالذات سعد
زغلول الذي صاهر السُّلطة وترقى قبي المناصب وكان يشغل وقت
أرسل في طلب أحمد منصب ناظر الحَقَّانية.

ذهب أحمد إليه بعد تردد، مُحتملاً بفضول يقتله وزكائب تخوين
وعلامات استفهام لا يعرف كيف يطرَحها، قَابله في بيته الكبير بمنطقة

الإنشاء بالسيدة زينب، يعيون مُتَّحِمة وشارب منقوش، الثراء كان بادياً على هيئته رغم تواضع نفسه وخشونة ملامحه الريفية، صافح أحمد بحفاوة ثم سحبه من يده إلى عُرفة الطَّعام، أجلسه على المائدة بجانبه ثم صرَّف الخَدم وأبقى زوجته صَفِيَّة هانم، سيِّدة رزينة مُمتلئة القوام مُستديرة الوَجه أنفها طويل حاد وفي شَعرها خصلة بِيضاء وهبتها وقار أمومة حُرمت منها، ابتسمت تحيةً لَهُ قبل أن يستفسر سَعد عن دراسته وعَمَله وحَال أمه الذي أجاب عنه أحمد باقتضاب ثم سأل:

- مُمكن سعادتك تحكي لي عَن أبونا؟

نظر له سَعد ثواني ثم تكَلَّم: والدتك أكيد حكّت لك.

- أمي ما بتكلمش عن المَاضِي.. نهائي.

وَرَن سَعد الرد قبل أن يَسحب نفساً ويُقص عليه قِصة.

قِصة الأب الذي لا يَعرفه!

- والدك كان أجرأنا الله يرحمه، كان يهاجِم الخديوي بصوت عالي في قهوة مَتَاتِياء، يزَعِّق ويشْتِم ولا يَهْمه، كان أجرأنا رَغم أنه بكباشي في الجيش وعيون الخديوي في كل مطرَح! وقتها كانت كُل حاجة ماشية تمام، الخديوي وافق على مَطالِب عُرابي^(١) لما وقف ضده في القصر، كان أول خديوي يخاف من المصريين! عُرابي صَبَّته بَقى في السَما، وكلنا واقفين حواليه، وفي يوم، حصلت حادثة مَكَاري^(٢) قَالطة اللي اتخائن مع مَصري وقتله في

(١) مطالب الجيش: إسقاط الوزارة المستبقة، تشكيل مجلس نواب، زيادة عدد الجيش المصري.

(٢) المَكَاري: مرافق لِحمار النمل.

إسكندرية، قامت هُوجة راح فيها خمسين أفرنجي على مصري،
يُومها أوربا روجت إن رعَاياها في خطر، بعدها استغل الإنجليز
تَرميم حُصون إسكندرية وتحججوا بأن ده تهديد لآسطولهم
ووجهوا إنذار.. خبرتنا كانت قليلة في القذارة السياسية!!

قال الجملة الأخيرة بمرارة قبل أن يُردف:

- بعد أربع وعشرين سَاعَة الأسطول ضرب، دكُوا إسكندرية،
الكلام ده كَانَ يوم ١١ يولية ١٨٨٢، تاريخ ما يتنيسش.. وقعنا في
الفخ والفرق كان كبير، الإنجليز أقوى جيش في العالم، ومع ذلك
استحبلنا، شهور، لكن الخيانات اشتغلت، مِن الخديوي ومن
جُوء الجيش، ومن «دي لسييس»^(١) الفرنسي اللي أقنع عُرابي
إن جيش الإنجليز مُستحيل يدخل من قناة السويس، ودخل
الجيش! كنا متخيلين الفرنسيين ممكن يفضلونا عن الإنجليز! ا
مِش بقول لك خبرتنا كانت قليلة! بعدها السُلطان العثماني طلع
يَتَان بعضَيَان عُرابي واللي مَعَاهُ في وسط مُقاومتهم للإنجليز!
رَجَالَة كثير انسحبوا، ما عُدَا أبوك وشوية زُمَلا فُصلوا مَعَاهُ، في
مَعركة التل الكبير اتقبض عليهم، ولمُونَا كلنا بعدها، إحنا طلعتنا
بأحكام سجن لأننا مَدنيين، وعُرابي بعد ما اتحكم عليه بالإعدام
خففوا ونفوه، قرار سياسي عشان يهدوا الجماهير.

- وابويا؟

- أبوك كان حَالِم يا أحمد.. والحَالِم ما يفهمش يعني إيه خيانة..
أعدموه.. كان لازم يكون فيه كِبش فدا.. عشان الثورة دي
ما تتكررش ثاني.

(١) فرديناند دي لسييس: دبلوماسي فرنسي وصاحب مشروع حفر قناة السويس.

- عشان تفهم تصرف حد «البس جزمته» زي ما بيقول الإنجليز،
إحنا كنا متوكلين على فرنسا تقف جنبنا في مفاوضاتنا لخروج
الإنجليز من البلد، لكن سنة ١٩٠٤ حصل بينها وبين إنجلترا
الاتفاق الودي، بموجبه فرنسا سككت عن احتلال إنجلترا لينا،
وإنجلترا سككت عن احتلال فرنسا للمغرب والجزائر، في اليوم
ده مصر انقسمت لمعسكرين، معسكر ضمم على عدم التعامل مع
الإنجليز نهائياً، ومعسكر قرر يدخل جواهرهم، يكون مؤثر عشان
يوفر فرصة أحسن للتفاوض ولخدمة أهل البلد، فترة كمون، لغاية
ما نقوى، وده كان اختياري، ما دامت فرص الحرب معدومة.

- ومعاليك ما افكرتش تسأل عن أسرة كبيرة؟

- يا ابني.. أنا قصرت في حقك وحق والدتك.

نطقها سعد بندم فدرس أحمد وجهه في الطبق محاولاً استيعاب
النور الذي أضاء ماضي أبيه من بعد عتمة، أكمل طعاًتهما بشرود قبل
أن يقوم سعد إلى مكتبته ويخرج منها كراساً مسطوراً بأبيات شعر في
حُب الوطن.

- أبوك كان ييحب الشعر.. كان متأثر بالبارودي^(١)

ثم أخرج صورة محشورة بين الصفحات لهما معاً في قهوة متانيا،
الصورة الملصوقة حالياً في علبة الأزرار.

- أنا ما عنديش لأبوي غير صورة واحدة على الحيطه!

(١) اللواء محمود سامي البارودي: شاعر مصري ورائد مدرسة الإحياء والبعث في الشعر
العربي الحديث.

- أسف يا ابنى إني تأخرت في طلبك .. لو احتجت أي حاجة أنا
بيني مفتوح.

انتهت المقابلة، صاحبه سعد حتى الباب وتسلمه خادماً ليرافقه عبر
الحديقة إلى باب الخروج، تمشى واجماً قابضاً على كراس أشعار أبيه
والصورة، مشى بضع خطوات قبل أن يجذب عينيه طيف في الحديقة،
اختلس نظرة فرأى شفاقة رقيقة ترتدي فستاناً أبيض، تقف في أدب أمام
صفية هانم زوجة سعد باشا، رشقة القد وجهها مشرب بحمرة، شعرها
أسود مُمرج يصل إلى مُتتصف ظهرها، وشفاتها صغيرتان مضمومتان
تحت عينين واسعتين التفت به للحظة كانت كافية لحفر بشر عميقة في
صدره قبل أن تختلج عيناها فتلقيا بعيداً عنه.

- دي بنت سعد باشا؟

سأل الخادم فحدّجه بضيق: سعد باشا ما عندوش ولادا

رحل أحمد، لم يرها من بعد ذلك اليوم، استقرت في نفسه طيفاً
بارداً كريماً عكّره الدخان المتصاعد من صدره، رائحة سُواء وُطن،
بركان مُتحفز أشعله مشهد موت أبيه، وكلمات سعد، لم يدر بنفسه
إلا وهو يصنع قنبلة بدائية بمعمل مدرسة الطب استقى وصفتها من
كتب الكيمياء وجربها مع صديق مُتحمّس في أرض مهجورة فانفجرت
بالخطأ لتصيبه بشظية في صدغه وتمزق إبهام صديقه، ازداد إصراره
فصنع واحدة أخرى، ونوى أن تكون من نصيب السلطان، ألقاها صديقه
مبتور الإبهام، تحت عجلات العرب السُلطانية لكنها لم تنفجر، سيق
الصديق للسجن بعدما رآه أحد الشهود وتم القبض على أحمد كيرة

ضِمن المُشْتَبِه فيهم قبل أن يخرج لَعدم كِفاية الأدلة، ولَعدم اعتراف
صَدِيقه المُخْلِص الذي حُكِم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدَة.

ولَوْ سَاطَة خَفِية من سَعد زَغلُول.

حين خَرج أحمد من التَحقيقات أَقسَم على القرآن أَمام أمه التي
ازدادت شِيبًا على شِيب أن لا يَرتكب العَمَل الوَطَني ثَانية فَكفَهاها واحد
من آل كِيرة يُعَدَم.. لكن الحَنث خُلِق لِيفْعَل!

ما هي إلا سَنوات وعاد الحريق لِيستَعر في صَدر أحمد، لكنّه اكتَفى
تلك المَرة بِشراء الأسلحة من مُرتزقة الحرب أو سَرقَتها لِتَنفِيز عَمَلِيات
قَتْل فردي مَحدودة تَترك أثَرًا مُرعبًا على قَوات الاِحتلال، بِمُساعدَة من
بعض الزَملاء المَوثوق فيهم من مَتاتيا.. دَوماً مَتاتيا! كانت يَوماً مَحطَّة
أَبِيه.. وبَيات بالنسبة لأحمد...

المُنطَلق.



السبت ٨ مارس ١٩١٩.. حي الإنشاء.. المُنيرة

لم يكن سعد مؤمناً بماكينة الجلالة الجديدة ذات الشفرة الصغيرة، يُطلق عليها «ماكينة الأبطال»، كان يحترم الشفرة التقليدية التي تجلّخ بالاحتكاك على القايش الجلدي قبل أن يمررها على ذقنه، ذقنه الذي لم يطله يوماً، كانت تُعطيه دائماً مظهر المهوم وتُضيف إليه من العمر سنين فوق السنين التي تخطّت اليوم ستيناً، صوّت حش الشعيرات كان يبعث راحة غريبة في نفسه، ينظر لنفسه في المرأة فيشعر أنه رجع شاباً في العشرينيات، يتذكّر وقتها الهاجس الغريب الذي كان يُراوده بشأن اسمه، سعد زغلول، سعد زغلول! يتردّد في رأسه همساً فتحاصره فكرة مُلحّة، إن الأسماء بعضها خُلق ليطمس ويغيب في طي النسيان، وبعضها خُلق ليخلّد ويذكر، وأخرى خُلق ليلحقها العار! وقّع اسمه وسيرته يقولان إنه لن يخرج عن النوعين الأخيرين! فمُنذ فشلت حركة عرابي والهاجس تكوي صدره، لا شيء أسوأ من ثورة مبتورة، ثور لم تُحسن ذبحته وسيطّيح بكل من أمامه، لا شيء أسوأ من انتفاضة حرّية تُصبح بداية عبودية لا تنتهي، يوماً تُهاجمه التساؤلات: «ماذا لو لم نثر وراء عرابي؟ ماذا لو سكنتنا مؤقتاً على التدخل الإنجليزي في البلاد وفساد الخديوي؟ أما كان أفضل لنا أن يحكمنا رجل رخوا فاسد من أن نصبح مُحتملين من بلد آخر؟ كنت أظنني يوماً أعرف الإجابة الصحيحة.. لكنني لم أعد متأكّداً».

مرّت الأيام تدفين في طريقها الذكرى الأليمة، ماحية أسماء رجال
وديماء خلفوها على الأرض وراءهم، تاركة عار الهزيمة والاحتلال
يسيران بين الناس في الشوارع، هَجَرَ سَعْد قهوة متاتيا الشائرة وانغمس
في دراسة القانون، ثم عمل مُحامياً قبل أن يتقلّب في الأوساط العليا
ليتعرّف بصفية ابنة رئيس الوزارة الأكثر شهرة في عهد الاحتلال؛
مُصطفى باشا فهمي! تزوّجا، وظن يومها أن حياة جديدة تنتظره، وأن
النسيان قد غلّفه وأخمدته، تولى بعد ذلك وزارة المعارف ثم الحفانية
وانخرط في السياسة، وراج وقتها أن ذلك بفضل نفوذ حميه رئيس
الوزراء، ولم يكن ذلك بعيداً عن الحقيقة بكثير رغم أن سعداً دبلومايبي
مُحنكٌ وسياسي بالفطرة! حتّى أنه فوجئ بنفسه يوماً صديقاً للمندوب
السّامي البريطاني!

مرّت السنوات على سعد في إيقاع تقليدي حتّى لاحت بؤادر الثّورة
بدّاخله ثانياً، طنين خافت لم يُعد يتوقّف، بقايا كرامة تتنفّس، تشقّت
العلاقة بينه وبين الخديوي لأنّه لم يرّض بالنفوذ الأجنبي في الوزارة
ليخرُج من منصبه مدحوراً! بعد أن كان يستحق رئاسة الوزراء بحكم
أقدميته، وما لبث الخديوي أن نحاه عن الحَيَاة العامة وضمّق عليه
سُبل الحَيَاة.

انزوى سعد في بيته مكتئباً يتحاشى جَاهدًا الانغراس في رمال اليأس
المُتراكِمة، حتّى سحبتِه رجلاه تدريجيّاً إلى «كلوب محمد علي»؛ نادٍ
اجتماعي لا يرتاده إلا الأمراء وأصحاب المَقام الرّفيع، لعب القمار
قتلاً للوقت فغرق فيه، أدمنه، يَسهر حتّى مُنتصف الليل مع البرنس فؤاد
وبعض الباشوات، يَكسب حيناً، وأحياناً تتعدّى خسارته مائة وعشرين

جنبها في الليلة الواحدة! ظل على ذلك الحال حتى بدأت انتخابات الجمعية التشريعية، البديل «الركيك» لمجلس الشورى المؤجلة إقامته بأمر الاحتلال، ونجح سعد نجاحاً ساحقاً لمواقفه الحاسمة وسُمعته النظيفة، ليتولى منصب وكيل الجمعية سنة ١٩١٣.. هَجَرَ الحُزن واليأس ومنصدة القمار، سعيًا بالعودة للحياة مُتحمسًا لإحياء قضية الاستقلال.

لكن شُعلة الحرب العظمى ما لبثت أن اضطرت بعد شهور قليلة! توقفت البلاد عن التنفس وعَطَّلَ الإنجليز عمل الجمعية التشريعية وأعلنوا الحماية على مصر والأحكام العرفية!

رَجَعَ سعد إلى بيته مغمومًا، يقضي وقته نهارًا في مُطالعة الجرائد مَبْتُورَةً الأخبار، وفي ليله يَنجذب كالمَسْحُور عائدًا لمائدة القمار، حتى كانت ليلة خَيسر فيها ثلاثمائة جُنيه فقام مُغاضبًا نفسه خائفًا على حاله، ثَمَسَى حَتَّى بَيْتِهِ يَضْرِب بِعَصَاه الأَرْض، تراوده فكرة الهجرة من مصر، ليجد زوجته صَفِيَّة مُستيقظة في انتظاره، رَدَّت سَلامه ببرود لم يَعهده ثم سَأَلته: «إي طريق تسوق نفسك؟ لقد نفذ صبري وتراكت عليّ الآلام، كفى أنني وحيدة بلا ولد، بلا سَنَد، وأين أنت؟ تضيع مني في سبيل عادة نَهمة ذميمة!! لقد كُنْتُ مُؤمنة بِكَ يَوْمًا، لن أَنحَمِلَ أن أراك حَقِيرًا في نظري».

وامتثل سعد لرِجاء زوجته بعد أن بات ليلته ينظر لصورته في مرآة الغرفة مُحاولًا مَنع نفسه من الانتحار.

بَعْد أيام قليلة لاحت بَوادر انتهاء الحرب، انتعش أَقْل الاستقلال في نفس سعد ثانية، وبمّا أنه كان وكيل الجمعية التشريعية فقد بدأ في

مُخاطبة الجَناب البريطاني، طلب حُضور مؤتمر صلح ما بعد الحرب في باريس، مؤتمر «فرساي» لتقسيم التركات الاستعمارية بين الدول الكبرى، ذهب سعد بصحبة رفيقه «علي شعراوي» و«عبد العزيز فهمي» في وفد لمُلاقة المندوب السامي البريطاني، يومها كادت صَفِيَّة تموت قلقًا، فالاعتقال عند الإنجليز روتين يومي، ظَلَّت في الحديقة قلقة تنتظره حتَّى عاد فحكى.

قابلهم الإنجليز بيروء ثم صرَّح لَهم أن مصر لا تستطيع أن تسير وحدها بدون راع صالح يقودها ويحميها! فرد سعد: «وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المُستقلة؟ فأجابه الرجل بأن «المصريون ليس لهم رأي صام بعبد النظر، وغير مؤهلين لحكم أنفسهم، ثم إنكم كنتم عبيدًا للأمر الك! أفنكونون أخطأ لو أصبحتم عبيدًا للإنجلترا؟»، فرد علي شعراوي: «إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة العُر للعُر، لا المَبَد للعُر».. وكان رد الإنجليز: «ومن أنتم لتتحدثوا باسم الأمة؟». وانتهت المقابلة!

في اليوم التالي قرر «الوفد» جَمع التوكيلات من الشَّعب لتصبح لَهم الشرعية «رسميًا» في مُخاطبة الإنجليز في شأن الاستقلال...

هنا جَرَّح سعد ذقنه، شَقَّت الشفرة جلده فسالت نُقطة دَم على رقبته قبل أن تنزلق إلى جدار الحوض، وَضَع قُطنة مغمورة بالكحول على الجرح ثم هذب أطراف مَثاربه الأبيض بمقص صغير قبل أن يُرطَّب وجهه بالكولونيا ويُسرَّح شعره، خَرَج بعدها إلى غرفته والتفط من الدولاب بدلة داكنة، ارتداها فوق قميص أبيض وصديري ثم نفَض

طربوشه القاني من غبار بسيط علق به ووضع على رأسه مائلًا إلى الورا قليلاً كما تميل اللبدة الفلاحي ثم جلس على المكتب العريض المواجه للشباك، يتابع عقرب ساعته ويسمع صوت نكتكاته تتضخم حتى باتت كدقات طبول الحرب، دقات غطت على صوت الضجة في الخارج فاليوم كان يوم التنظيف، الخدم يشمرون سواعدهم قائلين أئاث البيت رأساً على عقب، يلوحون بالمكانس في الأسقف مزيلين خيوط العنكبوت من الأركان، يريقون الماء والصابون على السلاليم الرخامية بسخاء، وينمعون أخشاب الباركيه، أما السجاد فتم تنفيذه قُرب الإسطبل، بعيداً عن الحديقة الوارفة التي جلست فيها سيّدة الدار على منضدة صغيرة وفي يدها كُوب شاي بارد نسيت أن تُشربه، مهمومة مقبوضة النفس شاردة في حركة الخدم الرتيبة تتأملهم بعينين امتلأتا قلقاً، أطلقت زفرة حارة لما تطلعت لجنّبات بيتها الكبير، ملأت عينها من أركانه كأنها تراه لأول مرة، تتذكر يوم انتقالها إليه حين انتهى سعد من بنائه وتزويده بالأثاث من فرنسا وفيينا وألمانيا، بيت يليق بابنة باشا ورئيس الوزراء، كانت تشعر بالبهجة لا بالتشاؤم التي تحسه الآن «لن أعيش للأبد ابنة الباشا وزوجة الوزير المرموق، لن أظل سيّدة المجتمع والحفلات المحبوبة وصاحبة البيت الكبير، سيحدث شيء مثير، مُزلزل، بسبب نشاط سعد الذي بات حديث البلاد، سيصبح محبوباً يصل لمرتبة الأنبياء، أو أخرق مجذوباً لن يأتي للبلاد ولبيته إلا بالدمار، كما فعل عُرابي من قبله أيواجه جيش إنجليز مُنتصراً، الرصاصه فيه.. لا تمن لها».

أفاقت صَفِيّة من خراطيرها حين التقطت أذناها جَلْبِيّة العربية عند مدخل البيت، لمحظات ولاحت نازلي في فُستان ينهادى تحت رُكبتها

لهي خُفّة، رَشْبَقَة كَغزال، عَفْصَت شَعرها صُفيرة سَمبَكَة تَدَلَّت على
كَلْبها قُرب وجه تلوح فيه الرّؤا فِد الفرنسيّة من أمها؛ صَدِيقَة صَفِيّة
العزيمَة التي ماتت مُنذ سنوات بِمَرَض عَضال بَعْد أن أوصَتْ إليها
بِرِها بَة صَغِيرتها.

اعننت صَفِيّة بنازلي، جِرماتها من الإنجاب جَعَلَ مِنْها ابنة حَقِيقَة لها
ولزوجها سَعَد، تُناديهم بأبي وأمي، ولا يَكاد يَمُرُّ يَوم إلا ونائِي لِزِبارَة
يَتَهما، تَظْطَر مَعهما أو تَلحِق بَهما وَقت شاي العَصِر قَبْل أن تُجالس
صَفِيّة في الحَدِيقَة لِلعِب الكَوتَشِينَة، لِعَبتهما المَفضَلَة، تَحكي أسرارها
وأحلامها وتأخُذ بِرأيها في شَأْن الحَاطِبِين، طالِبِي الود والوَصال التي
تنبذَهم لَعَدَم توافُقهم مَعَ مِزاجها الخَاص، فِهي فَتاة جَمِيلَة مَرجُوبَة،
مَسلِيلَة عائِلَة قَربَة خَلِيط من البونانيّين والمَصرِيّين والفرنسيّين، مُدْرِبة
على الإنيكيّت ولا يأتِيها رَاغِب إلا من أبناء الأمراء والباشوات،
طالِبِي الرَاحَة بلا تَعَب مُبَرَّر، أمّا هي فِجوزائِيَة مُتَغَلِّبَة المِزاج تَعشَق
كَسَر القَواعِد كالبَحَر الهائِج، تُزَعِجها التَقاليد الاجتماعيّة المُتَكلِفَة
والحَفَلات الصَّاخِبَة التي تَحضُرُها على مَقْصُص مَعَ والدها مُحافظ
القاهرة، تَشْتَكِي دَوماً من وَضَع الإنجليز في السِلاَد، وأُذْناها لا تَتَرَنَّان
إلا بِأَراء أبيها سَعَد في السِياسَة.

أقبلت نازلي وابْتِسامَة مُشرَقة تَعْتَلِي وَجْهها:

- بونسوار مَاقا.

- بونسوار با حَبِيبَتِي، نَعالي في الضِيل.

جَلَسَتْ نازلي فَأشارَت صَفِيّة لِخادِم اقْتَرَب:

- حَضَرَ الغدا ونَبَّهَ الباشا.
- هَزَّ الخادم رأسه وابتعد حين لَمَحَتْ نازلي الشُّرود في مَلامِح صَفِيَّة:
- مَالِك يا ماما؟
- تظاهرت صَفِيَّة بابتسامة: سَلامتك يا حَبِيبتي.. ماليش.
- فيه حاجة؟ بابا بخير؟
- أطرقت برأسها إلى السماء قبل أن تزفر: بخير.. كل يَوْم يبعثوا اللي يحذر واللي يتوعَّد.. حتى أقرب الناس بعدوا.
- جبانات.
- معذورين.. اللي شاقوه مش قليل.. ومين يقف قَدَّام سلطان وإنجليز؟!
- أنا خايفة على بابا سعد.
- هيه.. تَعَالِي نَتَكَلَّم في حاجة ثانية.. احكي لي.. عملتي إيه مع العريس؟
- لمر كنتِ موجودة ما كنتيش هاتصدَّقِي، اسمه شوكت، ابن عبد الحليم باشا زُهَدي بتاع الغُربِيَّة، بيشتغل مِعماري.
- تمام.
- وطوله قد كِدِه...

وأشارت بيدها لارتفاع مِتر ونصف فوق الأرض قبل أن تُردف:

مِش مُشكِلة، أبطل ألبس كعب، تخين، مش مشكِلة، يخس، لكن

تخيّلني يطلب إيه؟ عاوزني أعيش معاه في الهند! باباه بيفتح له شركة هناك... معتوه!!

لم تكذ صَفِيّة تبتسم من سُخرية نازلي اللادّعة حين مَرَق من باب الحديقة صبي بدين، رَكَض بِسُرعة حتى المِنضدة التي تجلسان عليها قبل أن يَقِفَ لاهثًا مُحارلاً النقاط أنقاسه ليتكلم:

- فيه إيه يا حسن؟ سألته صَفِيّة بتوتر.

- الإنجليز قبضوا على محمّد باشا محمود... وغربياتهم جاية على هنا.

- سعد!

قامت منتفضة حين التقطت أذناها صَوْت سَيارات الجيب، هَرَعَت مَادَّةُ خُطواتها لَمَدخل السّلاميك حين اخترقت أوّل سيارة باب المنزل، فرملت فأنارت الأتربة ونزل منها الجنود في سُرعة شاهرين بنادقهم في وَجْه البواب والجَنائني اللّذين رَفعا ذراعيهما هُلَعًا، التفتت صَفِيّة خلفهما فتبيست رُعبًا، لَحظّات وظَهَرت سَيارتان إضافيتان، واحدة منهما كانت تَقِيل محمّد محمود باشا، زميل سَعد ورفيقه في حَرَكَة الوفد، تلاقت عيناها عبر زجاج السيارة فهز الرجل رأسه مؤكّدًا لها صدمتها «نعم يا عزيزتي، سيعتقلون زوجك!».

هرعت إلى الباب فأوقفها صَاغ إنجليزي:

- سيدتي.. لا داعي للجلية.. أين سَعد باشا؟

- ماذا تريدون منه؟

قبل أن يُجيبها تسلل الصبي من باب السلامك وقفز الدرج المفضي إلى عُرقَةِ المَكْتَب حيث يجلس سَعْد، يدون أن يَطْرُق الباب فتحه وكان ذلك أَمْرًا جَلَلًا، سَعْد كان لا يزال جالسًا على مكتبه، التفت للفتى الذي قاوم انفعاله ولهائه ليتحدث:

- الإنجليز هنا.. جاين يقبضوا على معاليك.

أجابه سعد بهدوء: طيب يا حسن.. رُوح أنت إلعب.

لم يَكْدُ يَكْمِل جُمْلته حين ظَهر الصَّاعُ الإنجليزي من خلف الصبي، أمسك رأسه الصغير وأزاحه برفق قبل أن يتقدم وهو يتفقد الغرفة بعينه، لم يَقُمْ سَعْد من مكانه، تأمَّل الصَّاعُ الذي وقف أمام المكتب وأدى التحية العسكرية بكسل ثم تكلم:

- لديَّ أمر من القائد العام بالقبض عليك وتفتيش منزلك.

أجابه سَعْد بإنجليزية سليمة: لقد جِئت متأخرًا.. لقد انتظرتك منذ وقت طويل.

بدا على الصَّاع عدم الفهم.

- لكن الأوامر التي عندي أن أقبض على معاليك الآن.. في الخامسة مساءً.. والآن هي الخامسة!!

وقف سعد ووزن طربوشه: إذن هيّا بنا.

خرج من الباب هادئًا، بل وبدًا راضيًا في أعين مُعاونيه المُشاركين في حَمَلَة الاستقلال والخدم الذين تأملوا سيدهم بهجزع وهو ينزل

درجات السلم متوَكِّأً على عَصَاهُ، ناظراً في أعينهم بيت الثقة فيهم
ويَنطِقُ بكلمة واحدة كلما مر بأحدهم: تشجعوا.

في البهو كانت صَفِيَّةٌ واقفة تجزأ سنانها قلقاً، تتأمل الجنود الذين
يفتشون البيت بحثاً عن كل ورقة أو كتاب يُصادرونه، تُحِثُ خادماً على
الإسراع في غلق حَقِيبة متوسطة فيها ملابس وأدوات مَعِيشة تكفي
زوجها أباماً، اقترَبَ منها سَعِدٌ ونَظَرَ في عينيها اللتين لمعتا بالدمع قبل
أن يَضْغُطَ على أصابعها في كَفِّهِ مِثْبَاطاً فَوَّادها: «مَا تَخَافِشِ...» ثم التفت
إلى نازلي التي أعمتها المُفاجأة وابتسم في حنان ملطفاً ورَبَّتْ على
ذَقْنِهَا، ثم هَمَسَ في أذن يسكر تيره الخاص عبد الرحمن فهمي بكلمات
مُقْتَضِبة قبل أن يخرج إلى السيَّارة التي ابتعدت به مُبْعَثرة الانقباض
في النفوس، تَابَعَهُ أَهْلُ الْبَيْتِ حَتَّى اخْتَفَى، ظَلَّتْ صَفِيَّةٌ واقفة تنظر في
الفراغ حَتَّى خانتها قدماها فانهارت على مدخل السلامك بجانب
نازلي التي احتوتها في حُضْنِهَا.



دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَعَلَا مَكِيدًا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ، طَرَحَ
هَارُونَ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا، فَدَعَا فِرْعَوْنَ
أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو بَيْضٍ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ،
طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتْ الْمِصَصِيُّ ثُعَابَيْنِ، وَلَكِنْ قَصَا
هَارُونَ ابْتَلَعَتْ حَبِيثَهُمْ، فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا...

اعتادت يومياً أن تُردد تلك الآية من سفر «الخروج» حين يبدأ سقف
الغرفة في الحركة، يشخص ينصرها فتحرك شفيتها همساً وهي تُراقب
الشعبان الأسود الكبير يتلوى مُمرِّغاً في بحر من الحيات الصغيرة،
فارجحاً فمّاً عملاقاً يخرج منه لسان مشقوق يلتقم به ما طال منها، ثم
يهرس بجسده اللزج اللامع ما لم يطله!

الوزن كان فوق الاحتمال تلك الليلة، بضعية وبين لحظات الصعود
والهبوط فوقها كانت تسحب لوتيتها نفسها يُبقِها في منطقة الرعي، يخور
في وجهها كالشور نافثاً بخاراً عطياً اختلط فيه الأفيون بالكحول مع
عَبَق طبقات جير في أسنان لم تعرف العجلى، يلحق رقبته ويُقصص
أذنيهما وينزع عرقاً سائحاً يجري على جلدها سيلاً يحرق في طريقه كل
ما يُقابله، قبل أن يحكها بصوف صدره المُتسابك فيترك خريشة حمراء
وغلامات! بذرة الأفيون التي دفنها تحت لسانه وسقاها بالشاي كان

لها مفعول السحر في تأخير دروته وتمديد عذابها تحته، ثلث ساعة من البعثرة والعصر والتنقيب، دمر خلالها الحرث والنسل قبل أن يفيض نهره وتخور أعضابه، ارتدى عليها كالقتيل فانغرز الصليب الخشبي في منابت صدرها بآلم، ثم شخرا غطاً فوق الثدي النأيد ولم تملك إلا أن تُغمض عينيها وتنتظر، دقيقتان بدتاً عامين كاذَ قلبها فيهما أن يتوقّف قبل أن يقوم من فوقها، شهقت جوعاً للهواء فنظر إليها كأنه يراها لأول مرّة، تدارك نفسه فمسح خطيته في الملاءة ثم دس قميصه في البنطلون وتمم على المحفظة في جيبه ثم التفت إليها:

- عَسَل.

نظرت إليه ولم تُعقب، ضمّت رُكبتها إلى صدرها ثم استلقت كالجنين فانسحب من الغرفة، أغمضت عينيها مُقاومة التقيؤ من بقايا رائحته فيها وداهمت أعراض الانسحاب، بُرودة تنتشر ونبضات قلب عنيّة مُباعدة تهز جسدها، مرّت دقائق قبل أن ينفّتح الباب عن سلامة النجس، يرتدي سُترة بنية فوق جلباب سمّي وبُلغة في قدميه، فتّح الشباك تغيّراً للهواء وهو يردد أغنية خافتة، ثم أخرج علبة ثقاب من جيب السيّالة وأشعل فتيلة القنديل المنطفئ واقترّب من السرير، تمشى بعينه على الجسد البض المسجى بضعف فجري ريقه، انقضت لحظات قبل أن يزدرد لُعا به ويتمالك نفسه ويُناديها:

- ورد.. ورد.. قومي يا بت.

تمتت بكلمات لا معنى لها فألقى نظرة على الباب مُطمئنّاً لعدم وجود أحد قبل أن يمدّ يده ويلا مس صدرًا عاجيًا متورّدًا نائمًا فوق

أخيه، لم يند عنها ما يُشير أنها شعرت بلمساته، كانت غائبة فتَمادى
بشبق حتّى ارتعش، لم تكن مرّته الأولى في تحصيل ضرائبه الخاصة
من عاهراته، تشعر به ورد أحياناً ولا تجسر على الشكوى، وأحياناً
لا تُدرك إلا أثره المُتبقّي.

التقطت أذنا سلامة وقع قَبَقاب خشبي فنَفَضَ يده عن اللَّحم الطَّري
وسوّى جلبابه حين لاح ظلٌ عَظِيم عند البَاب تبعته بَنبة، بَدَتْ للنو
مُستيقظة تجرّ شَحْمَهَا في ثوب انحَسَر عن فخذين من الضَّان، رَمَقَتْ
سلامة بريبة فتوقفت:

- يتعمّل إيه عندك؟

- هاكون بعمل إيه يعني! بنصّف الأوضة.. البت نايمة ومش
عاوزة تقوم.

اقتربت بنبه من السرير وألقت نظرة على جَسَد ورد والعلامات
الحَمراء على جلدها.

- البت دي مين اللي كان معاها؟

أجابها بتردد: صَعب بتاع كُوبانية الميَّة.

- يا ابن الفارحة!! أنا مش قُلْتُ مَيّت مرّة الشَّحط ده ما يخشش
عندي غير على بهيَّة القعر.. ده بيبلع ودي طرية ما تستحملوش.

- مش عاوز هو بهيَّة القعر.. زهق.. أعمل إيه؟ شافها شَبَط.. ودَفَع..
لا في الأيام المأندلة اللي إحنا فيها دي؟ أنتِ مش شايفة

اللي؟

جَزَّتْ عَلَى أَسْنَانِهَا وَرَمَقَتْهُ بِأَشْمُزَازٍ: دَفَعَ كَام؟

- رِيَالَيْنِ... وَطَفَحَ بِيْرَةٌ بِثَلَاثَيْنِ فَقَصَّة.

- مَاشِي.

قَالَتْهَا ثُمَّ وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى جَبْهَةِ وَرْدٍ الْبَارِدَةِ:

- الْبِتْ دِي بَلْبَعْتَ آخِرَ مَرَّةٍ إِمْتَى؟

- إِمْبَارَحْ.. مَخْسُتَكَةُ.. هَاتَمَوْتُ.

- مَا تَفَوَّلْشَ إِلَهِي تَسْخِطُ.. أَظْبَطُهَا بَعْدَ مَا أَحْمِيهَا عَشَانَ تَفُوقِ..

لَسَّهُ اللَّيْلُ طَوِيلٌ وَعِنْدِي اثْنَيْنِ عَطْلَانَيْنِ.

دَسَ سَلَامَةً ذِرَاعَهُ خَلْفَ ظَهْرٍ وَرْدٍ وَأَجْلَسَهَا مُتَرَنِّحَةً قَبْلَ أَنْ يَنْخَنِي
وَيَحْمِلَهَا، خَرَجَ بِهَا إِلَى الطَّرْفَةِ تَتْبَعُهُمَا بِنْتٌ حَتَّى دَخَلُوا الْحَمَامَ، أَجْلَسَا
وَرْدَ فَوْقَ كُرْسِيٍّ خَشَبِيٍّ صَغِيرٍ وَأَسْنَدَا رَأْسَهَا عَلَى الْحَائِطِ فَحَدِّجَتْهُ
بَوْهِنَ بَيْنَ غَيْبَتِهَا وَيَقْظَنَتِهَا.. تَمَتَّتْ: وَبَا يَقْشُكْ.

ابْتَسَمَ لَهَا بِأَسْنَانِهِ الذَّهَبِيَّةِ ثُمَّ قَالَ لِبِنْتِهِ:

- هَاجِبِيبْ لَهَا حَاجَةٌ خَادِقَةٌ عَشَانَ تَفُوقِ.

تَرَكَهُمَا سَلَامَةً فَالْتَقَطَتْ بِنْتٌ كُرْزًا مَلَاتَهُ مِنْ بَسْتَلَّةٍ فَوْقَ بَابُورٍ جَازٍ
مُشْتَعِلٍ ثُمَّ صَبَّتْ عَلَى رَأْسِ وَرْدٍ الْمَاءَ الدَّفَاقِيَّ فَشَهَقَتْ.

- اسْمُ اللَّهِ.. اسْمُ اللَّهِ.. فَوْقِي يَا وَرْدُ؟

- بَدِّي أَرْوَحْ...

بِالْكَادِ خَرَجَتْ الْحُرُوفُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهَا فَعَاجَلَتْهَا بِنْتٌ:

- فَوْرِيْرَةٌ سَلَامَةٌ هَايَعِشِيكِي وَيَنْعَنْشُكْ.. إْحْنَا عِنْدَنَا كَامٍ وَرْدِ.

التفتت أذناها اسم سلامة فاقشعر جلدها، قاومت زيف عينيها
بصعوبة فأكملت بنبة غسلها وإزالة ما علن بها من الشور الهائج الذي
هتك وجري، انتهت فألبستها قميصاً من الساتان فتحة صدره لم تخف
تديها، خضبت الشفتين ثم مشطت شعرها بعناية وعطرتها قبل أن
تسندها إلى غرفة المعيشة.

كُتبتان إسطنبوليتان رقدت عليهما عاهرتان مُحترفتان أتخمت
وجهيهما الأصباغ، وفي المنتصف منضدة عليها زجاجات نبيذ وبيرة
وكونياك بجانب طبق يرمس وجبة قديمة وثلاث شيشات محشوة
بالمعسل.. قرب الباب المفتوح ارتمت بنبة على كرسيها الأثير،
فارجة ساقها كبرابيتين عظيمتين لمدينة بائدة، وفوق رأسها يافطة
صغيرة كتبت فيها بخط ديواني «تنازلت عن كبريائي إرضاء للطلبة»..
على الكنبه رقدت ورد في إعياء، اقترب منها سلامة وبسط يده بقطعة
أفيون صغيرة، بلا مقاومة التفتتها ورد ووضعتها تحت لسانها، رمقتها
صاحبها بحقد حتى ألقت برأسها إلى الوراء تنتظر المفعول أن يسري
في عروقها، فأطرقت بعينيها إلى السقف في استرخاء، دس سلامة في
يدها نصف رغيف فيه جبن ومخلل ثم نزل إلى الشارع يرمي شباكه على
المسارة يتغني رزقاً.. قضمست ورد قضة جاهدت لتبتلعها حين تنهدت
سنية؛ سمراء واسعة العينين عظيمة العجيزة، مسحت بشرة ورد العاجية؛
- هو كده ياختي.. أوله دلع وآخره وجع.

ألقت كلمتها كحجر يترد وانتظرت الرد فالتفت إليها بنبة: اتلمي
يا سنية.

- يوه يا أبله! وأنا قلت حاجة؟ البت ضعبانة علياً.. ما تستحملش
العجين اللي بنعجنه ده.

- ما كنتي زيتها يا روح أمك يوم ما جيتي .. وكنتي بتأوئي لي كل يوم .. إيه ؟ غيرانة ؟

- أغير من إيه إن شاء الله ؟! رُفعي رُفع البوصة ولا بيضة زي اللفت اللي يشوفها يقول قِرفت ؟!

ثم خَبَطَتْ بِكَفِّهَا مُؤَخَّرَتَهَا الْمَهَائِلَةَ فَصَنَعَتْ مَوْجَةً .. أَرْدَفَتْ: الأبريق المليون ما يَقلُّ لَشْ يا أبله .

حَدَجَتْهَا بِنْتٌ بِحَدَةٍ قَبْلَ أَنْ تُشْحَذَ لِسَانُهَا:

- قال بعد سنة وست أشهر جِثَّ البعده تشخُر .. أنتِ نسيتي نفسك يا بْت ؟ أنتِ لولا الطُروف كان زَمانك عبدة عندها .

أخَرسَتْهَا سِيرَةُ الْعَبودية فزَمَّتْ شَفَتَيْهَا وَبَرَطَمَتْ بِالسَّابِ هَمْسًا وَهِيَ تَمِيزُ غِيظًا، لَمْ تَكُنْ تَجْرُو عَلَى خَوْضِ مَعْرَكَةٍ مَعَ بَنِيهِ وَدِيُونِهَا ثَقِيلَةٌ لَا يَكَادُ دَخَلُهَا الشَّهْرِي يَكْفِي سَدَادَهَا، علاوة على أنها سَلَمَتْ شَهَادَةَ الْعَمَلِ لِبَنِيهِ يَوْمَ عَمِلَتْ عِنْدَهَا، ضَمَانَةً لِسَدَادِ حَقِّ الْمَلَابِسِ وَالذَّهَبِ وَمَضَارِيفِ رُخْصَةِ مُمَارَسَةِ الْعَمَلِ، بِدُونِ تِلْكَ الْوَرَقَةِ سَتَعُودُ كَمَا جَاءَتْ .. مَمْلُوكَةٌ لَا يَسْعُرُ لَهَا .

سَكَنَتْ سَنِيَّةً فَعَقِبَتْ بِهَيْئَةِ الْقَعْرِ؛ سَمَّاهَا زَبَانُهَا بِذَلِكَ الْأَسْمَ لَشَهْرَةٍ يَصِفُهَا السُّفْلِي الَّذِي يُشَبِّهُ ثَمَرَةً كَثُرَتْ مُتَطَرِّفَةُ الْأَبْعَادِ:

- الرِّجَالَةُ زِي الْجَزَارِينَ يَا أبله، ما يحبوش إلا السُّمِينَةَ، وِدِّي هَفْتَانَةَ هَاتِ سَوْرَقْ وَهَتَجِيبْ لَنَا نَصِيبِي هِنَا، وَالصَّرَاحَةُ مِنْ سَاعَةِ مَا عَتَبْتَ السَّنِيورَةَ الْأَفْيُونَ وَالزَّبَايِنِ اتَقَسَّمُوا عَلَيْنَا، خَدِّتْ نَصِينَا .

- اللي يسئ عاجبها تسدد اللي عليها وتشترى بفلوسها من
الأجرخانة^(١) يا إنا تنكّل، الباب يفوت ميت جمل.

عم الشكوت بعدما نزلت كلمات العدل، كل واحدة منهن غابت
في ملكوتها قبل أن يترأى لسمع بنبة وقع أقدام وصوت سلامة يرحّب
يزبون، عدلت من جلستها وحدجت الفتيات بغضب فاضطجعن
بميوعة كشفت عن بضاعتهم، عدا ورد، لم تنزل رأسها من السماء،
لحظات ودخل سلامة ومن ورائه شاب حمري قوي البنية:

- اتفضل يا عبد القادر أفندي.. البيت نور.

قامت بنبة حين رآته واقتربت بغنج أثار في نفسه الاشتزاز لكنه
ابتسم، ينظر إليها ولا يكاد يصدق أنه وطأ هذا الجسد يومًا قبل أن تعتزل.
- قال بعد نومك مع الجدّيان بقى لك مظلّ ع الجيران! فينك يا سي
عبد القادر؟ شهر لا جس ولا خير!!

- مشاغل يا بنبة.. مشاغل.

قالها ودار بعينيه في الجالسات، غمز بعينه بهيئة وحيًا سنية بابتسامة
قبل أن تمر عيناه بورد التي نظرت له نظرة خالية من المعاني.

- مال سوقك شاحح النهاردة؟! سأل بنبة.

- عندي اثنين عليهم الحرمانية.. بيرة؟

- لا.. هاتي لي إزازة كونيالك وكوباية نضيفة.

(١) كان الأفون يباع في الصيدليات حتى سنة ١٩٢٢.

في الغُرفة الرطبة التي يُفَضِّلها استرخى عبد القادر على السَّرير
بعدما خلع قَمِيصه والجِذاء، لم يكن ذلك المكان بيت فاحشة بالنسبة
له، كان بيته الثاني، فبنية تولّته مُنذ كان طالبًا في المدرسة، تُعلم على
يَديها وفخذيها مَسالك التعامل مع جسد الأنثى، وفقد في نفس الوقت
احترامه، وها هي الآن تنظر إليه كمُعَلِّمة فخورة بطالب ربَّته حتى صار
له شأن، صَبَّت كأسه وتأمّلت وجهه المُهموم.

- مَالِك مَرَحِي كِدَه؟

- ماليش .. قرفان.

- أبوك؟

زفر بضيق: افتكري حاجة عِدلة!!

- إيه اللي حصل له الراجل! دَه كَانَ صَاحِب مَزَاج ونسوان الأربكِة
يشهدوا.. اتطس باين له عين وَلَا اتسحر له عمل.

- اتطس بقه ماطُسش!! هو حُر .. أنا هابِيتْ عِنْدِكَ النهاردة.

- يَا خَرَّاشِي .. بيتك ومَطْرَحك يا عبد القادر.. أَجِيبْ لَكَ مِين؟
- بهيَّة.

ثم استدرَكها قبل أن تَصِل الباب.

- وَلَا أَقُولُكَ .. هَاتِي لِي الْهَبْتِ الْجَدِيدَةَ .. السَّفِيْقَةَ الشَّقْرَا دِي.

- مِش عَوَايِدُكَ الرَفْتَعِين!

- تَغْيِير.

اختفت بنية فأخرج عبد القادر من جيبه قنينة في حَجَم إِيهام، مَكْتُوبًا عليها كلمة «نفروطون» المدهش، فَتَحَهَا وَتَجَرَّع مِنْهَا جُرْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُعِيدَهَا لَجَيْبِهِ حِينَ دَخَلَتْ بَنِيَّةَ وَمَعَهَا وَرَدَ تَسِيرِينَ يَدِيهَا مَسْلُوبَةَ الْإِرَادَةِ، أَجْلَسَتْهَا عَلَى السَّرِيرِ وَابْتَسَمَتْ لِعَبْدِ الْقَادِرِ قَبْلَ أَنْ تُغْلِقَ عَلَيْهِمَا الْبَابَ، اعْتَدَلَ عَبْدُ الْقَادِرِ فَتَأَمَّلَ جَسَدَهَا الشَّعْمِيَّ وَغَيْنِيهَا الذَّاهِلَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَلْحَظَ الصُّلَيْبَ الْخَشْبِيَّ الْمُتَدَلِّيَّ عَلَى صَدْرِهَا وَثَلَاثَ حَسَنَاتٍ اسْتَوَيْنَ عَلَى خَطِّ وَاحِدٍ فِي رَقَبَتِهَا، مَدَّ رَاحَتَهُ وَلا مَسْهَنَ.

- أَنْتِ لَوْ دَافَعَةَ فُلُوسَ عَشَانٍ تَتَرَسَّمُ لَكَ الْحَسَنَاتُ بِالْمَنْظَرِ دَهْ؛
مَا كَانُوا شَهِائِقُوا كَدَهُ!!

قَارَمَتْ رَافِعَ غَيْنِيهَا وَلَمْ تَعْقُبْ فَأَرَدَفَ: اسْمُكَ إِيَّاهُ؟
أَجَابَتْهُ بُوَهْنُ: وَرَدَ.

- اسْمُ الصُّلَيْبِ حَارَسُ صَاحِبَتِهِ وَصَائِنُهَا.. أَقْلَعِي يَا وَرَدَ.



بَدَتْ مَنَاطِقُ الْإِنْشَاءِ خَالِيَةً مَهْجُورَةً، كَأَن لَّمْ تُغْنِ بِالْأَمْسِ، أَشْجَارُهَا
 أَشْجَابُهَا وَمَبَانِيهَا أَطْلَالُهَا وَبِلَاطُ أَرْضِهَا الْمُحْدَبُ كَسَاءُ التُّدَى فَعَكَسَ
 مَا تَبَقَّى مِنْ شُعْلَاتِ غَازِ الْإِسْتِصْبَاحِ الْوَاحِدَةِ فِي الْأَعْيَادِ.. بَيْتُ سَعْدِ
 زَغَلُولٍ لِلْقَادِمِ مِنْ مِيدَانِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ كَانَ يَقَعُ عَلَى الْيَسَارِ، يُشَبِّهُ
 مَخْلُوقًا ضَخْمًا شَاخَ فَجْأَةً فَمَاتَ مَكَانَهُ، أَظْلَمَ السَّلَامِيكَ وَغُلِقَتْ
 الْبَوَابَاتُ وَغَمَّ الشُّكُونُ الْحَدِيقَةَ وَالْأَسْوَارَ، قَبِعَ الْخُدَمُ فِي الطَّرَفَاتِ
 وَالْمَطْبَخِ أَرْقِينَ عَلَى مُسْتَقْبَلِ سَيِّدِهِمْ، يَخْدُمُونَ زَوَاجَاتِ الْمُعْتَقَلِينَ
 وَالصَّدِيقَاتِ الْمُتَعَاطِفَاتِ اللَّائِي افْتَرَشْنَ الْغُرَفَاتِ مُتَشِجَاتٍ بِالسَّوَادِ
 فِي مَأْتَمٍ بَدُونِ مَيِّتٍ، أَمَّا بَقَايَا أَعْضَاءِ الْوَفْدِ فَنَامُوا فَوْقَ كُتُبَاتِ الصَّالُونَ
 وَالْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَكَتُهُمْ مُنَاقَشَاتُ زُدُودِ الْأَفْعَالِ الْمُقْتَرَحَةِ وَصِيَاغَةِ
 خُطَابَاتِ الْإِسْتِهْجَانِ وَالشَّعْجِبِ ضِدَّ الْإِعْتِقَالِ، أَمَّا صَفِيَّةٌ، فَجَلَسَتْ
 قُرْبَ نَافِذَةِ تَطَلُّ عَلَى آخِرِ مَوْضِعٍ شَوْهَدَ فِيهِ سَعْدٌ، كَانَ يَرْمُقُهَا مِنْ وَرَاءِ
 زُجَاجِ سَيَّارَةِ الْعِجْشِ وَعَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ غَرِيبَةٌ أَصَابَتْهَا بِالْحَيْرَةِ، لَمْ
 ابْتَسِمْ؟ سَأَلَتْ نَفْسُهَا: هَلْ فَقَدَ عَقْلَهُ؟ هَلْ سَأَرَاهُ ثَانِيَةً أَمْ أَنْ مَصِيرَ عُرَابِي
 بِنْتَظَرُهُ نَفِيًّا وَتَشْرِيدًا؟ تَعْرِفُ أَنْ الْجَرَائِدَ لَنْ تَتَنَاوَلَ خَبَرَ الْإِعْتِقَالِ، وَتَعْرِفُ

أنها إن استغاثت فلا مُجيب، فغضبة السلطان والإنجليز لا راد لها، مع كل ثانية يتحرك فيها بندول الساعة الكبيرة تتأكد صفة أن ما ظنته يوماً هو أحسن حول مصيرها.. صار واقعاً.

لم يقطع أفكارها سوى الذوكر الذي توقف أمام الباب، نزل منه عبد الرحمن فهمي سكرتير الوفد فقامت وتعمت بعجل على الحجاب ثم غطت نازلي الثامنة على مقعد جين أتى خادماً وأخبرها برغبة الرجل في مقابلتها، لحظات والتفت صوت خطواته على السلم وسعلة تنبيه مفتعلة قبل أن يدلف إلى الغرفة، كان ممتلي التوجه شركسي الملامح يعلو شفاهه شارب مهذب كبير، خلع طربوشه تحية للسيدة قبل أن يجلس.. من التوتر لم تسأله فعاجلها:

- سعد باشا والمُرافقين باتوا في ثكنات قصر النيل.. هايركبوا قاطر الساعة حداشر لبورسعيد.. فيه باخرة بتتخضر.. عندي معلومة إنها رايحة مالطا.

تملكها دوار فتهدج نفسها وزجعت بظهرها إلى الكرسي قبل أن تردف:

- فيه أي تصريح من المندوب؟

- المندوب السامي كان عامل حفلة في قصر الدوبارة.. بيعتقل بالاعتقال!

- الكلاب!! هايعملوا فيه زي ما عملوا مع عرابي.

- مش هايقدرُوا.. الناس مش هاتسكت.

قالها بثقة فأزاحت ستائر النافذة وأشارت إلى الشارع الساكن المبتل
بهدى الصباح:

- الشارع فاضلي من إمبارح.. كأن ما حَصَلْش حاجة.. والجرايد
مش هاتكتب.. والسُلطان راضي.

- إحنا غاملين حسابنا لكل ده.. والنهاردة بالليل هانعمل اجتماع
في بيت علي باشا شعراوي عشان ننسق...

قاطعته بحدة: الاجتماع يتم هنا.. في بيت سعد.. بيت الأقة.. سعد
ما ماتش يا عبد الرحمن بيه.. بلغ الوفد من فضلك.

شعرت أن نبرتها خانتها وعلت فاستدركت: سعد ما كانش بيثق في
حد قذك يا عبد الرحمن بيه.

- إن شاء الله قد الثقة يا هانم.

قالها وهو يراقب شاباً على الرصيف المُقابل للبيت، يُدخن سيجارة
ويرمق نوافذ البيت باستطلاع، تابعه للحظات ثم قام مُستأذناً:

- هارجع لحضرتك ثاني.. بعد إذنك.

هزّت رأسها وقامت احتراماً فانسحب الرجل، خرج من البهو
إلى البوابة ووقف يتأمل الشاب، التقت نظراتهما وطالت حتى تأكد
عبد الرحمن أن الزائر يحمل في صدره شيئاً، هز رأسه لسائس الدوكار
الذي ينتظره مطمئناً على يقظته قبل أن يرفع يده تحية للشاب الذي
هَرَس سيجارته في الرصيف احتراماً ثم عبّر إليه.

- صَبّاح الخير.. مين الأفندي؟

- هو صحيح .. سعد باشا اعتُقِلَ؟

- سألتك يا حضرة أنت مين؟

- أصله كان صديق لوالدي الله يرحمه.

- برضه ما عرفتش أنت مين وإيه اللي موقفك هنا الساعة دي!!

قاطعها الشاب: أحمد عبد الحي كبيرة.

أخذ الاسم من الرجل كحظات ليستوعبه قبل أن ينجلي وجهه: أنت
ابن عبد الحي كبيرة؟!

- أبوة.

- والدك كان صديقي الله يرحمه.

- الله يرحمه .. مش هاخد من وقت حضرتك كتير .. أنا جاي
أعرض خدمة.

قالها أحمد وانتظر رد فعل الرجل الذي أشعل سيجارة ثم
أردف: خدمة؟!

- الإنجليز لازم يعرفوا إن خطفهم لسعد باشا مش هايعدي
بالساهر .. لازم نرُد .. العين بالعين .. والدم بالدم.

- دم؟! دم إيه؟

- الدم اللي هايجصل ...

قاطعها عبد الرحمن: حيلك حيلك .. إيه اللي بتقوله ده؟!

- الإنجليز مش بتبص لنا على إتنا بني آدمين زيهم.. إحنا شعب
مالوش دية.. ها يضربوا.. ولازم نضرب فيهم.. ضرب يوجع..
أنا عندي الإمكانية.. ومعايا رجالة.

- يا ابني أي عُنف دلوقت ها يُنسب للوفد.. يضعف موقفنا ويهيج
الإنجليز.. إحنا وفد ومَعاه موكيلات مِن الناس.. مش بلطجية..
وبَعدين مين قال لك إن الناس هاتسكُت؟ الناس هاتتحرك ودول
العالم كلها هاتعرف.. اتحرك مَعاهم.. وسطهم.

- الناس هاتتحرك.. والإنجليز ها يصدروا البنادق.. الناس هاتصمد
قد إيه؟ شهر؟ اتنين؟

- وياه خطة مَعاليك؟

- أهداف تعمل لهم أزمة وتسمع في البلاد كلها.

- الكلام ده ما يلزمش الوفد في الوقت الحالي.

- سعد باشا في يوم سن الأيام اعتقل بسبب انتمائه لجمعية «الانتقام»
بعد فشل ثورة عرابي...

قاطع عبد الرحمن: ومن ساعتها اتخلي عن الفكرة.. كان طيش
شباب.. يا ابني الضغطع الإنجليز بحركة الشعب أقوى بكثير من
عمليات فدائية.. ووضع سعد باشا لسة ما اتحدّش.. أنا ها قدر إنك
ما قلتليش حاجة النهاردة عشان خاطر الوالد الله يرحمه.

- الناس ما تقدروش تسبب لقمة عيشها فترة طويلة يا عبد الرحمن بيه.

- وجهة نظرك وصلت.. اتفضل بقعة ين غير مطرود.

همَّ الرجل أن ينسحب فأمسك أحمد بيده وهَمَس: أنا كنت من اللي
نَقُذُوا اغتيال السلطان حسين كامل... وعندني استعداد...

- ولَمَّا أنتَ عندك استعداد جَاي لي ليه؟

- عشان لازم نَسْتَق مع سَعْد باشا.. سَعْد باشا هو الأَمَّة دلوقتي.

- يا ابني أرجوك سيبك من كلام الإنشاده.. اتغَضَّل.

أخرج أحمد من جيبه قُصاصة ورَقية فيها عنوانه ودَسَّها في
كفِّ الرجل.

- عُمومًا ده عنراني.. لو غَيَّرت رأيك.

هَزَّ رأسه بابتسامة وَرَحَلَ ففتح عبد الرحمن الورقة وقرأ العنوان..
قبل أن يُكَوِّرَهَا وَيُلْقِيَهَا.



بعد ثلاث ساعات

٩:١٥ صباحاً

قُوم يَا مِصْرِي، مَضْرُوبًا بِتَنَادِيكَ.. إِضْرَابَ طَلَبَةِ الْحُقُوقِ.. طَلَبَةِ
الطَّبِّ.. تَجْمَعَاتٍ فِي الطُّرُقِ وَالْمِيَادِينِ.. مَسِيرَاتٍ يَسْلُمِيَّةٍ.. هَتَافَاتٍ:
سَعْدٌ سَعْدٌ يَحْيَا سَعْدٌ.. تَسْقُطُ الْحِمَايَةُ.. يَسْقُطُ الْإِحْتِلَالُ.. خُذْ بِنَصْرِي
نُصْرَى دِينَ وَاجِبٌ عَلَيْكَ.. كَمَاثِنٌ.. صِيْدَامٌ.. غَضَبٌ.. الْإِسْتِقْلَالُ
الْتِمَامُ أَوْ الْمَوْتُ الزُّوَامُ.. إِغْلَاقُ الْمَحَلَّاتِ.. يَوْمٌ مَا سَعْدِي رَاحَ هَذَرٌ
قَدَّامَ عَيْنِكَ.. إِضْرَابُ طَلَبَةِ الْمَدَارِسِ.. طَوَارِيءٌ.. حِصَارٌ.. غَلِيَانٌ..
بِنَادِقٍ.. رِصَاصٍ.. أَوَّلُ شَهِيدٍ.. انفِجَارٌ.. مَظَاهِرَاتٌ غَيْرُ يَسْلُمِيَّةٍ..
قَتْلَى.. نِيرَانٌ.. عُدْلِي مَجْدِي اللَّيْ ضِيعَتُهُ بِإَيْدِيكَ.. اِعْتِقَالَاتٌ.. شَوْفٌ
جَدُودُكَ فِي قُبُورِهِمْ لَيْلُ نَهَارٍ.. قَلْبُ التَّرَامَاتِ.. إِلَيْهِ نَصَارَى وَمُسْلِمِينَ
قَالَ إِلَهُ وَيَهُودٌ.. يَحْيَا الْهَلَالُ مَعَ الصَّلِيبِ.. يِلَادِي يِلَادِي.. لَكِيي حُبِّي
وَفُؤَادِي.. إِضْرَابُ الْأَزْهَرِ.. مِصْرُ جَنَّةٍ طَوَّلَ مَا فِيهَا أَنْتِ يَا نِيلُ..
عُمَرُ ابْنُكَ لَمْ يَعِشْ أَبَدًا ذَلِيلٌ.. الْمَزِيدُ مِنَ الشُّهَدَاءِ.. تَحْطِيمُ مَحَالِ
الْأَجَانِبِ.. حَرَائِقُ.. حَظَرٌ تَجُولُ.. إطفاءُ النُّورِ.. شَلَلٌ تَامٌ...

يَقُولُونَ إِنْ كُلُّ شَيْءٍ بَدَأَ فِي حَيِّ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ.

كَمْ تَكُنْ خَرَكَةَ مِيدَانِ الرَّمَّاحِ تُوحِي أَنْ الْأَمْرَ جَلَلُ، النِّسْوَةُ فِي
مِلَاءِ أَتَهَنُ الشُّوَدَاءِ يَنْتَقِينَ الْخَضِرَاوَاتِ وَالْفَاكِهِةَ، الرُّجَالُ قَابِعُونَ فِي

مَحَلَاتِهِمْ وَأَمَامَ الْعَرَبَاتِ يَنْتَظِرُونَ رِزْقًا، وَالْأَطْفَالُ الصَّغَارُ يَلْهَوْنَ بِالْبَلِي
وَالنَّحْلَاتِ الْخَشْيَةِ بَعِيدًا عَنْ مَرْمَى عَيْنِ الْفِتْوَةِ الْجَائِمِ عَلَى كَنْبِهِ يَحْرِقُ
الْمَعْسَلُ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ، شَارِدًا فِي جَسَدِ صِرْصَارٍ مَحْمُولٍ عَلَى أَعْنَاقِ
النَّمْلِ إِلَى قَرِيَّتِهِمْ، لَحْظَاتٍ وَالتَّقَطُ أَذْنَاهُ جَلْبَةً قَادِمَةً مِنْ نَاحِيَةِ مِيدَانِ
السَّيْدَةِ ثُمَّ لَمَحَ بَعْضُ الشَّبَّانِ يَجْرُونَ إِلَى نَقْطَةٍ لَمْ يَتَّبِعْنَهَا فِقَامَ سَاحِبًا
نَبُوتًا عَظِيمًا مِنْ تَحْتِ كَنْبِهِ لِيَقْضَى خُنَاقَةٌ مُحْتَمَلَةٌ أَوْ شَجَازًا، مَسَى تَجَاهَ
الزَّحَامِ قَبْلَ أَنْ يُمَسِكَ بَعْضُهُمْ أَحَدَ الصَّبِيِّ مُسْتَوْقَفًا:

- فِيهِ إِيهِ يَا ضَ؟

- مَظَاهِرَاتٍ يَا مَعْلَمُ.. فَلَامَذَةُ مَدَارِسِ «الْخَدْيُوبَةِ» وَ«الْخَدْيُوبِيِّ
إِسْمَاعِيلِينَ» فِي الْمِيدَانِ.. يَقُولُوا قَبِضُوا عَلَى سَعْدِ بَاشَا إِمْبَارَحِ.
قَالَهَا الصَّبِيُّ وَجَرَى فَانْدَفَعَ شَحَابَةٌ وَرَاءَهُ. وَلَا حَقَّكَ الْأَتْبَاعُ دَوْدَا
بِالْقَبِضَاتِ الْخَدِيدِيَّةِ وَرَفَبَاتِ الزَّجَاجَاتِ.

حِينَ وَصَلَ الْمِيدَانِ وَجَدَهُ يُعْجَجُ بِالطَّلِبَةِ، بِحَرِّ يَمُوجٍ بِالطَّرَابِيشِ
الْحَمْرَاءِ فَوْقَ وُجُوهِ نَضْرَةٍ عَارِقَةٍ بِمَرْقِ الْحَمَاسِ، يَرْفَعُونَ أَعْلَامًا حَمْرَاءَ
عَلَيْهَا هِلَالٌ يَحْتَضِنُ نَجْمَةً، وَلَا فِتْنَاتٍ بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ تُنَادِي
بِرُوحِ سَعْدٍ وَالْإِسْتِقْلَالِ، غَلَسَ رَأْسُ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ شَابَ اعْتَلَى كَتَفًا،
يُلْهَبُ الْحَشْدَ بِهَتَافٍ لَهُ وَقَعَ يَمَزُقُ الْخَنَاجِرَ مِنْ وَرَائِهِ ثُمَّ يَتَأَجَّجُ حِينَ
يَقْتَرِبُ مِنْ سُورِ مَدْرَسَةِ «السَّنِيَّةِ» لِلْبَنَاتِ، عَاشَ سَعْدُ، صَرَخَ بِهَا الشَّبَابُ
وَهُمْ يَخْتَلِسُونَ النُّظَرَاتِ لِلطَّالِبَاتِ الْمُتَشَحَّاتِ بِالْحِجَابِ فِي شُرَفَاتِ
الْفُصُولِ فَأَشْرَنَ بِأَعْلَامِهِنَّ تَحِيَّةً لِلْمَظَاهِرَةِ وَكَشَفَ بَعْضُهُنَّ الْوُجُوهِ
فَالْتَهَبَ الْحَمَاسُ.

تَوَقَّفَ شِخَانَةُ الْجِنِّ أَمَامَ الْمَشْهَدِ الْمَهِيبِ مَدْهُوشًا مُتَيْبَسًا، الْهَتَافَ زَلْزَلَ صَدْرَهُ فَشَدَّدَ قَبْضَتَهُ غَرِيزِيًّا عَلَى النَّبُوتِ وَتَلَا حَقَّتْ أَنْفَاسُهُ تَحْفَرًا وَإِنْ لَمْ يَجِرْ وَلِسَانُهُ عَلَى التَّرْدِيدِ أَوْ عَقْلُهُ عَلَى الْاسْتِيعَابِ، يَتَأَمَّلُ الْجُمُوعُ بَرَهَةً لَمْ تَنْبُتْ حِينَ دَاهَمَ فِتَوَاتُ أَشْدَّاءَ فِي أَعْقَارِ دِيَارِهِمْ، وَجَدَ نَفْسَهُ لَا إِرَادِيًّا يَنْجَرِفُ إِلَى قَلْبِ الْمَوْجَةِ الثَّائِرَةِ، تَائِهًا لَاهِيًا عَنْ أَتْبَاعِهِ كَغُصْنٍ سَقَطَ فِي نَهْرٍ هَائِجٍ، سَحِيوُهُ بَيْنَهُمْ مِنْ مِيدَانِ السَّيِّدَةِ إِلَى شَارِعِ الْمُتَبَدِّلَانِ فَحَيَّ الْإِنْشَاءَ حَيْثُ لَاحَ بَيْتُ «سَعْدٍ» أَمَامَهُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَوَقَّفَ الْهَتَافُ فَجَاءَ لَمَّا انْدَفَعَ الْجُنْدُ الْإِنْجِلِيزِيُّ مِنْ شَارِعِ جَانِبِي إِلَى نَهْرِ الطَّرِيقِ يَقْطَعُونَهُ وَمِنْ وَرَائِهِمْ عَلَى حِصَانِ أَسْوَدِ الضَّابِطِ «آرْتِر» وَكَيْلِ حَكَمْدَارِ الْقَاهِرَةِ، وَصَدِيقِهِ الْقَدِيمِ! تَرَاوَجَ الْجُنُودُ بَيْنَهُمَا فِي صَفَّيْنِ مُحْتَمِلِينَ بِالْخَوَذَاتِ الْبَيْضَاءِ شَاهِرِينَ الْبَنَادِقَ فِي وَجْهِهِ الْمُنْتَظَاهِرِينَ يُنْذِرُونَهُمْ سُوءَ الْإِقْتِرَابِ، تَقَدَّمَ الطَّلِبَةُ يَصْرُخُونَ فِي وَجْهِ الْعَسْكَرِ: «وَسَمِعُوا الطَّرِيقَ»، «الْمُنْتَظَاهِرَةُ يَسْلُمِيَّةٌ!» فَعَمَّرَ الْجُنْدُ بِنَادِقِهِمْ بِأَمْرِ مِنَ الْجَنْرَالِ وَصَوَّبُوا الْقَوَاهِ، مَرَّتْ لَحْظَاتٌ مِنَ التَّرْقُبِ قَبْلَ أَنْ يَتَقَدَّمَ شَابٌ جَرِيءٌ مُحَاوِلًا السَّيْرَ بَيْنَ الْإِنْجِلِيزِيِّ كَاسِرًا الرُّهْبَةَ فِي قَلْبِ زَمَلَانِهِ الْمُنْتَظَاهِرِينَ فَرَقَعَ جُنْدِي كَغَبٍ بِنَدِيقَتِهِ وَهَشَّمَ وَجْهَهُ بِضَرْبَةٍ دَفَعَتْ الْجُمُوعَ نَحْوَ الْجُنْدِ مُسْتَبْكِينَ، ذَلِكَ كَانَتْ اللَّحْظَةُ الَّتِي رَجَعَ فِيهَا شِخَانَةُ الْجِنِّ مِنْ غِيَّتِهِ، لَمْ يَدْرِ بِنَفْسِهِ إِلَّا وَهُوَ يَزِيحُ الطَّلِبَةَ مِنْ أَمَامِهِ كَعَرَائِسِ الْقِمَاشِ وَيَزِنُ النَّبُوتَ فِي قَبْضَتِهِ وَيَرْفَعُهُ لِيَهْوِيَ بِهِ عَلَى رَأْسِ الْجُنْدِي، وَقَعَ الْارْتِطَامُ بَدَأُ مُرْبِعًا، مُرْبِحًا فِي أُذُنِهِ، مِثْلَ صَوْتِ بَطْيِخَةٍ بَارِدَةٍ تَهْتَشِمُ، انْبَعَجَتِ الْخَوَذَةُ وَسَقَطَ الْجُنْدِي أَرْضًا فَرَقَعَهُ الْجِنُّ مِنْ يَاقَتِهِ وَصَاحَ: بِسْتَيْنِ فُضَّةً بِالْحَمِّ انْجِلِيزِي... ثُمَّ أَلْقَاهُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ وَطَوَّحَ ثُبُوتَهُ فِي رُءُوسٍ وَصُدُورٍ وَرِقَابٍ قَبْلَ أَنْ تَلْتَقِيَ عَيْنَاهُ بِآرْتِرٍ فَوْقَ حِصَانِهِ، نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ مَا يَرَاهُ،

لم يكن ذلك هو «شبهاتنا الجني» الذي ربّاه كلبًا مُطيعًا يُلقِي إليه بفتات الطعام فينبح تبجيلًا، كان قَطَارًا أَخْرَجَ عن قُضبانهِ تمرْدًا وانطلقَ تَجَاهَهُ، صَرَخَ الجَنَرالُ في جُنْدِهِ: «Fire»، أطلقوا النيران الحَيَّةَ، فتناثرت الدِّماء والأشلاء وتفرقت الجُموع، وَسَطَ هَرَجِ الفِرار ومُحاولات الاحتماء اندفع الجِنُّ تَجاهَ صَديقهِ القَدِيمِ، مُحاطًا بتابَعينَ من أَتباعهِ أَفسَحَ لَهُ الطَريقَ بَعْدَما مَزَقا وُجُوهُ جُنَديينَ بِأَمْواسِهِما في لَحْظَةٍ تَعْمِيرِ الذَخِيرَةِ، مَرَّ الجِنُّ مِن بَيْنِهِم وَبَاتَ عَلى بُعْدِ مِترَينِ مِن حِصانِ آرثر حينَ تَلاَقَتِ أَعينُهُما، بلا تَرَدُّدٍ سَدَّدَ الجَنَرالُ مُسَدَّسَهُ وأَطلقَ، تَلَقَّى الجِنُّ الرِصاصةَ في ذِراعِهِ ولم يَعبَأْ، طَوَّحَ نُبُوتُهُ في رَأْسِ الحِصانِ فَاسْتَقَرَّتْ بَينَ عَينِيهِ، بَرَكَ عَلى قائِمَتِيهِ الأَمامِيَتَينِ فَسَقَطَ الجَنَرالُ أَرَضًا، اقْتَرَبَ مِنْهُ الجِنُّ وَرَفَعَ نُبُوتَهُ عَاليًا حينَ سَدَّدَ الإنجِلِيزيُّ وأَطلقَ، تَلكَ المَرَّةَ «أَصَابَ مَقْتِلًا»، اخْتَرَقَتِ الرِصاصةُ صَدرَ النَفْثَةِ فَتَوَقَّفَ، رَمَشَتِ عَيناهُ وَخَفَّتْ الأصواتُ مِن حَولِهِ بَغْتَةً حينَ تَلَقَّى واحِدَةً أُخَرى أَركَعَتِهِ عَلى رُكْبَتِيهِ، ثُمَّ تَلَقَّى ضَربةً مِن كَعَبِ بُنْدُقيَّةٍ فَسَجَدَ عَلى الأَرْضِ، قَبْلَ أنْ يَنْطَرِحَ عَلى ظَهِرِهِ بَعْدَ رَكَلَةٍ في وَجْهِهِ، نَأْمَلَ السَّمَاءَ الصَّافِيَةَ مِن بَينِ أَغْصانِ شَجرَةٍ، قَبْلَ أنْ يُمَيِّزَ فَوْهَةَ مُسَدَّسٍ وَمِن خَلْفِها وَجْهَ صَديقِهِ الإنجِلِيزيِّ.

عُدْ لِي مَجْدِي الّلي ضَيَعْتَهُ بِإِيديكَ.

استنزف عبد القادر جُهدَهُ مُحاوِلًا الاتزان فوق «بنبة»، مُقاومًا أرتال شحم مَرَكُومَةٍ في عَجِيزَتِها وَفُخْذَينِ فَقَدْنَا لبونتهما فتشعَّبتَ فيهما أوردة الدوالي الخُضراءِ، أَلَمَ المجهود بتخلُّلِ خُضْرِهِ وساقِيهِ وذراعيهِ الذي استند عليهما، يسيل عرقه فوقها وَلَا تُبالي، تَعَضُّ قُماشَ الملاءة مُصْطَنِعَةً غَنَجًا بِشِعًا نادَتْ فيه اسمهُ بضع مرات مسبوق بـ «يا لَهوِي عَلِيًّا».. عَلَى سَبِيلِ التمجيد، كان ذلك قبل أن يتبهِ عبد القادر لسلامة، متى جَاءَ هَذَا المَخْزِرُ إِلَى السَّرِيرِ؟! كَيْفَ جَرُّوْهُ؟! كان مُصْطَجِعًا بجانب «بنبة» عَلَى الوسادة واضعًا ذراعيهِ خَلْفَ رَأْسِهِ بتأملهما مُبتَسِمًا، اشتعل غَضَبُ عبد القادر فَصَّاحَ:

- قوم يا ابن المَرة.

فصَرَخَ سَلامَةً في وَجْهِهِ: «سَعِدَ سَعِد... يَحِبُّ سَعِد».

استنزف عبد القادر جُهدَهُ مُحاوِلًا فَتْحَ عَيْنَيْهِ، استغرق لَحَظَاتٍ لِبُدْرِكَ أَنَّهُ عَانِي كَأَبُوسًا قَبْلَ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ مِنْ هَيْشَةِ بَنبَةٍ فِيهِ، صَوْتُ سَلامَةٍ ما زال يتردَّد في أذنيه: «سَعِدَ سَعِد... يَحِبُّ سَعِد»!! بِصُعُوبَةٍ تَبِينُ وَرَدَ، كانت جَانِيَةٌ نَحْتَهُ مُسْنَلِمَةٌ وَخَصَلَاتُ شَعْرِها في قَبْضَتِهِ يُمَسِّكُها كَلْجَامِ فَرَسٍ، نَظَرَ شِمَالَهُ فَلَمَحَ رُجَا جِةَ الكُونِيَاكِ الَّتِي نَفَدَتْ وَبِجَانِبِها

فبينما «النفروطرون» فأدرك لِسَمَ لا يَشْعُرُ بنصفه السُّفلي الذي تَخْدُرُ
 وفقد الإحساس، استعاد ليلة انقضت فلم يتذكر سوى استسلام ورد
 وصمتها، غلقها عَيْنِهَا وَتَرَكَه يَعْبَثُ بِمُحْتَوَيَاتِهَا! لَحْظَاتٍ وانسلخ مِنْهَا،
 تَرَكَهَا تَرْتَحِي بِجَانِبِهِ وَتَتَكَوَّمُ حِينَ عَلَا الْهَتَافُ فِي أُذُنِهِ: «سَعْدُ سَعْدُ..
 يَحْيَا سَعْدُ»، سَبَّ الدِّينَ وَبَنِيَهُ وَهُوَ يُرْجِ رَأْسَهُ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ هَتَافِ سَلَامَةِ
 النَجَسِ الَّذِي تَرَدَّدَ فِي أُذُنِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ أَنَّ الصَّوْتَ آتٍ مِنَ النَّافِذَةِ، قَامَ
 مُتَرَنَّحًا وَنَظَرَ مِنْ بَيْنِ خِصَاصِ الشَّبَّانِ فَرَأَى الْجُمُوعَ تَسِيرُ وَتَهْتِفُ «سَعْدُ
 سَعْدُ.. يَحْيَا سَعْدُ»، فَتَحَ الشِّيشَ بِهَلَعٍ وَخَدَّقَ غَيْرَ مُصَدِّقِ الْأَعْدَادِ قَبْلَ
 أَنْ يَلْمَحَ صَدِيقًا لَهُ يَجْرِي مَسْعُورًا عَكْسَ اتِّجَاهِ النَّاسِ، مُزِيحًا الْأَكْتَافَ
 بِيَدَيْهِ يَلْوُحُ إِلَى عَبْدِ الْقَادِرِ ثُمَّ وَضَعَ كَفَّيْهِ حَوْلَ فَمِهِ وَصَاحَ بِكَلِمَاتٍ
 تَاهَتْ فِي صَوْتِ الْهَتَافَاتِ فَنَادَاهُ عَبْدُ الْقَادِرِ:

- فِيهِ إِلَهٌ يَا ض.. مَشِ سَامِعُكَ؟

أشارَ لَهُ الصَّدِيقُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى عَجَلٍ، ارْتَدَّى عَبْدُ الْقَادِرِ بِنَظْلُونِهِ
 وَسَحَبَ قَمِيصَهُ قَبْلَ أَنْ يَقْفِزَ السَّلَاطِيمَ وَثْبًا:

- إِلَهَ الْمِي جَابِلُكَ هِنَا؟!

- عَمِ الْجِنِّ.. انْضَرْبِ يَا النَّارَ.



فِي حَدِيقَةِ بَيْتِ سَعْدٍ تَمَدَّدَ شَحَاتَةُ الْجِنِّ عَلَى النَّجِيلِ بِجَانِبِ شَابٍ
 آخِرُ هُمَا حَصِيلَةُ الْمُظَاهَرَةِ قَرِبَ بَيْتِ سَعْدٍ، بِخُشُوعٍ سَتَرَهُمَا الطَّلَبَةُ
 بِالْأَعْلَامِ الَّتِي رَفَعُوها مُنْذُ دَقَائِقَ وَوَضَعُوا طَرَبُوشِيَهُمَا كَلًّا عَلَى صَدْرِهِ

وترك نبوت الجن بجانب ذراعه، تكتلت الجموع حول البيت فانسحب الإنجليز ونزلت صفية هانم من شرفتها مُستندة على نازلي الشاحبة، حيتهم بالذمّع مكلومة فطلب منها عبد الرحمن فهمي الرجوع إلى المنزل لخطورة الموقف، أبت وانكفات على جثمان الشاب الذي لم يتعد الخامسة عشرة، قِيلَت يده الباردة في ألم وانتحبت بحرقه، كَانَ ذلك فوق احتمال نازلي، هوت أرضاً كورقة خريف، اندفع نحوها عبد الرحمن فهمي وأشار إلى شاب قريب منه ليسعفه بمساعدة:

- شيل معايا.

قالها عبد الرحمن قبل أن يرمق وجه الشاب الذي طلب منه المساعدة فوجده أحمد عبد الحي، لم يملك ترف الجدَل:

- دخلها معايا جوة.

حملاها بين أيديهما وركضّا بها إلى داخل المنزل، أسجياها فوق كنبه قبل أن يأتي خادِم بقطن مُشيع بالكولونيا، وَضَعَهُ عبد الرحمن تحت أنفها فأفاقت لترمقه والشاب الواقف بجانبه في تشتت.

- أنت كويسة يا بتتي؟ سألها عبد الرحمن.

- دايرة شوية.

لم نطل اللحظة كثيراً.. قطعها صياح آت من الحديقة فخرج أحمد مُسرِعاً ومن ورائه عبد الرحمن فهمي.. كَمَحَاه يَخْتَرِق بَوَابَةَ الْبَيْتِ.. يُطَوِّح قَبْضَتِهِ فِي رِجَالِ حَاوِلُوا مَنَعَهُ مِنَ الدَّخُولِ فَيَسْقُطُهُمْ يَمِينًا وَيسَارًا كالزجاجات.. قبل أن يركض كالثور مُزِيحًا الْوَاقِفِينَ حَتَّى اِطْلَعَ عَلَى جُثْمَانِ أَبِيهِ.. انكفأ على رُكْبَتِهِ يَتَأَمَّلُ ثَقْبًا فِي صَدْرٍ وَآخِرٍ فِي جَبْهَةٍ وَدُمَاءٍ

تجلّطت.. بصُعوبة لامس رأس أبيه.. أحاطها بكفّيه مُستشعرًا البرودة
وحواف الجرح.. ثم فتح فمه بصرخة مُدوية تأخر صَوْتُهَا مِنَ الألم..
اقترَب منه الجَمع يشنونه ويواسونه فنهرهم سَبًّا وانكفأ على يد أبيه.. ثم
فجأة وقف ذاهلاً كطفل تائه.. ارتعشت أنامله وسالت رياله خيطاً على
صدره وزاغت عَيناه للحظات ثم انكفأ على أبيه محاولاً حمله.. اقترَب
الناس منه يصرفونه عمّا هو فاعل فضرب اثنين بقبضته ثم صرّخ في
الباقين ليتشتتوا قبل أن يدور يقينه في الوجوه.. ميّز من أهل خارته
جيراناً وتعرف على صبي من صبيان أبيه اندفع نحوه ولكمه
فأطاح به مُلقياً بأسباب قتله على رعونته وتهاونه.. تحفّز أحمد وهمّ
بمواجهته حين أوقفه عبد الرحمن فهمي بيديه:

- سيّبه.

ثم اقترَب من عبد القادر بثبات عجيب حتّى وُضع يده على كتفه
بحزم فالتفت:

- يا ابني.. الولد ده مائوش ذنب.. أبوك بطل.. ومات شهيد..
والشهيد لازم يتعمل لهُ جنازة يليق بيه.. هو هنا وسط ولاده.. كل
دول ولاده.. ما تبهدلوش.

رَمَاه عبد القادر بنظرة غَضب قبل أن يصيح:

- راح بسبب سعد.

سَرَت الهمهمات الغاضبة بين الجمع فرد الرجل الصّيحة
بهدهوء سَموع:

- راح عشان الإنجليز قتلوه.

اخترقت كلمة «الإنجليز» أذني عبد القادر فذهل بصره.. خفتت
الاصوات وتوقفت تنفسه.. لم يعد يسمع سوى وقع ضربات قلب تهزه
هزاً.. تخذلت ذراعه اليسرى وسرى فيها ألم ورعشة أخذت تشتد حتى
انحنى وسحب نبوت أبيه الملقى على الأرض.. تكالب عليه الناس
مُحاولين تهدئته فلوح به في وجوههم: «اللي هايقرب هاموته».. فرّقهم
وخرج مغاضباً نفسه فتبعه أحمد.. ناداه قلم يستجيب.. قد خطواته حتى
صار بجانبه:

- اهـدا عشان تعرف تاخذ حقك.. الإنجليز ما ينفعش معاهم
نبوت.. أنا أقدر أساعدك.. أجيب لك حقك.. حوّل غضبك لـ...
لم يكمل أحمد جملته، التفت إليه عبد القادر وأمسك بتلابيبه قبل
أن يضرب بظهره الحائط ويحبس عنقه بالنبوت:
- ما تخليّنيش ألخبط خلقتك.. حل عن سمايا.

قالها ثم فك أسره وابتعد، التقط أحمد أنفاسه ولم يتبعه، راقبه يخطو
نحو حافته حتى تلاشى.

لما رجع أحمد إلى حديقة البيت المضطربة وجد نازلي وقد
استعادت روحها، تقف قرب صفيّة وعبد الرحمن فهمي الذي أشار له
أن يقترب وهمس:

- أنا مش قايل لك إبعد عن هنا؟!

- فكرت في كلامي؟

نظر عبد الرحمن فهمي لإصراره وضرب كفّاً بكف حين اقترب
رجل وسأله:

- هَانِعِمِلْ إِيه فِي الْجُثْثْ؟

أَجَابَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْدَمَا انْتَزَعَ نَفْسَهُ مِنْ رَجَاهِ أَحْمَدَ: بِرَوْحِهَا بَيْتُ
أَهَالِيهِمْ دَلُوقَتْ.. وَجَنَازَتُهُمْ تَطْلُعُ مِنْ هِنَا بُكْرَةً.
هَزَّ الرَّجُلُ رَأْسَهُ وَزَحَلَ حِينَ هَمَسَ أَحْمَدُ فِي أُذُنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:
- الْإِنْجِلِيزْ هَايَصْعَدُوا أَكْثَرَ.

- لَوْ سَمَحْتَ يَا ابْنِي سَيِّبِي أَشُوفْ شُغْلِي.. مَمْنُونِينَ لَخِدْمَاتِكَ.

قَالَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِحَزْمٍ فَرَفَعَ أَحْمَدُ كَفَّيْهِ اسْتِسْلَامًا حِينَ لَثَمَتْ
نَازِلِي خَدَّ صَفِيَّةَ وَاحْتَضَتْهَا قَبْلَ أَنْ تَنْجُو إِلَى الدُّوْكَارِ الَّذِي يَنْتَظَرُهَا عِنْدَ
الْبُؤَابَةِ، كَانَ عَلَيْهَا الرَّجُوعُ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا الَّذِي صَالَ وَجَالَ خَوْفًا عَلَيْهَا
حِينَ قَامَتِ الْجُمُوعُ، حَيَّتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَهَمِي ثُمَّ النَقَتْ عَيْنَاهَا بِأَحْمَدَ
لِلْمَحَظَّاتِ كَانَتْ كَافِيَةً لِهَزَّةِ رَأْسِ مَمْنُونَةَ خَجَلَةٍ.



يُنَدِّقُ النَّبُوتُ مِنْ حَشَبِ شَجَرِ الْيَمُونِ، ثُمَّ يُصْفَلُ بِالصَّنْفَرَةِ
قَبْلَ أَنْ يُوَضَّعَ فِي «زَيْتِ مَغْلِي» لِيَفْقِدَ رُطُوبَتَهُ وَيَشْتَدَّ قَوَامُهُ،
ثُمَّ يُحْضَبُ بِالْجَنَاءِ وَيُزَيَّنُ بِالْجِلْدِ وَالذَّبَابِييسِ الَّتِي تُرْمَزُ لِلْقَفَارَةِ،
أَوْ لَعَدَدِ الْقَتْلِ بِهِ.

ثُمَّ يُحْطَمُ بِنَبُوتٍ أَقْوَى مِنْهُ وَأَشَدَّ بَأْسًا.

تلك المرة كانت الكروشلي بلا حُمولة، تكاد تطير فوق الطريق المفروشة بالحجارة، أمسك عبد القادر المقود بشماله، وقبض بيمينه النبوت الموضوع على الكرسي الجانبي، يقاوم الشمس بجفون منطبقة ودُموع خفرت وجنتيه ولم تجف، يداه ملطختان بدماء أبيه وعجلات سيارته ومقدمتها ملطخة بدماء إنجليزية لخمسة جنود هر سهم تحتها في طريقه للمعسكر.. عبد القادر كان يُدرك أن أباه فتوة، والفتوة لا يهلكه إلا فتوة مثله من بعد الله، لم يتخيل أن أباه سيُردى برصاصة إنجليزية ككلب ضال لا يشعر له! فكرة موته لم ترد مرة على باله، غريبة غريبة موت إله في ملكوته! فليس البشر كلهم فانيين! أي لعنة أصابتي؟ ماذا فعلت؟ سأل نفسه، قبل أن يستعيد كلمات الرجل في بيت الأئمة: «راح عشان الإنجليز قتلوه».

زفر عبد القادر ثم ترك النبوت وأخرج من جيبه علبة خشبية صغيرة، ففحصها وقربها لأنفه ليسحب منها دفعة كوكايين حين لائح المعسكر الإنجليزي في الأفق، ضغط دواسة الجاز ثم التقط من الكتبة الخلفية رشاش «ماديسن» ألمانيًا محشوًا، لم يفارقه يومًا منذ احترق توزيع الكوكايين، شدَّ أجزاءه ووضعها على فخذه حين رصدت الحامية سيارته المنطلقة نحوهم بسرعة جنونية، كانت حالة الطوارئ قد

أعلنت منذ الصباح وضربت التعليمات بعدم التهاون، لئلا يضبط الحامية بذراعيه في إشارة لعبد القادر أن يُعطى لكنه لم يستجب، ضرب طلقة تحذير في الهواء فلم يتقهقر، حين باتت السيارة على بُعد مائة متر استعد عبد القادر لإخراج مدفعه من النافذة حين دوت طلقات المدفع «الفيرز»، اخترقت ثلاث طلقات أسفل شبك الموتور فخطمت أجزاءه قبل أن تخل بتوازن السيارة لتتقلب عدة مرات جارة الحصى والججارة مسافة حتى توقفت.

بعد ساعة.. العيادة الصحية بالمعسكر

قطع كولونيل تريفور قائد المعسكر الطريقة الطويلة المؤدية إلى العيادة بخطوات صارمة وقعها متطيماً، دخل العنبر ثم اقترب من عبد القادر المسجى على السرير أمامه فافقدا الوعي مكسواً بالكدمات، رأسه ملفوف بشاش تشيع دماً وفي ذراعه اليمنى جبيرة وفي اليسرى خرطوم مقروص يضخ المحاليل، أما قدمه فغلّت بالأصفاذ إلى سور السرير، نظر للطبيب الواقف بجانبه ثم سأله:

- كيف حاله؟

- ارتجاج في المخ وبعض الكدمات.. سيعيش.

- هل كان مخموراً؟

- أنه وملابسه تحمل أثر الكوكايين... هل كان ينوي مهاجمة المعسكر؟

- وجدنا في سيارته «ماديسن» المانيًا محشوراً وجهازاً للإطلاق.. لكنني لا أعتقد أن مثله قد يرتكب هذه الخمافة!

- لعله أصيب بخمى «سعد»؟

- لا أظن، فهذا الولد يتعامل مَعَنَا مُنْذُ سَنَةٍ نَقْرِيًّا، لَيْسَتْ لَهُ مَيُولُ سِيَاسِيَّةٌ، كَمَا أَنَّ قُوَّتَ يَوْمِهِ قَائِمٌ عَلَى خِدْمَةِ الْمُعَسْكَرِ.

- فِدْ بَكُونْ خَائِفًا مِنَ الاَضْطِرَابَاتِ فَجَاءَ إِلَيْنَا هَارِبًا؟

- مَن يَعْرِفُونَ نَعَاوَنَهُ مَعَ الْكَامِبِ بِالطَّبِيعِ يَكُونُونَ لَهُ الْعَدَاءُ.. مِثْلَهُ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ خَائِنٌ.

- وَبِالنِّسْبَةِ لَنَا؟

- أَسْمِيهِ شَخْصًا عَمَلِيًّا.. فَلَيْسَ لَأَمْثَالِهِ فِرَاصُ حَيَاةٍ فِي ظُرُوفِ هَذَا الْبَلَدِ؟ لَكِنْ دَعْنَا لَا نَتَعَجَّلَ الْأُمُورَ.. حَالَمَا بَقِيَ سَنَعْرِفُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ.



برقية نصره (١٢٤).. سزي للغاية

٩ مارس ١٩١٩.. الساعة: ١٠:٢٢ مساءً

من سِر «مبلين شينهام» نائب المندوب السامي بالقاهرة
إلى لورد «كبرزون» وزير الخارجية - لندن.

«الحركة التي حدثت اليوم مُعَادِيَةٌ لِبْرِيْطَانِيَا، وَمُعَادِيَةٌ لِلْمُسْلِمَاتِ، وَمُعَادِيَةٌ لِلْأَجَانِبِ، وَهِيَ ذَاتُ مَبُولٍ «بَلْشِيَّةٍ - شِيُوَّةٍ» وَنَسْتَهْدِفُ نَدْمِيرَ الْمُمْتَلِكَاتِ وَالْمَوَاصِلَاتِ وَهِيَ مُنْظَمَةٌ، وَلَا بَدَّ مِنْ أَنَّهُ يُنْفِذُ عَلَيْهَا، وَهَنَّاكَ شَكُوكٌ قَوِيَّةٌ حَوْلَ نَفْوَذِ أَجْنَبِيٍّ فِيهَا، وَيَجْعَلُ الْمَسْئُولُونَ الْبَرِيْطَانِيُونَ إِلَى الظَّنِّ أَنَّهُ مَهْمَا كَانَ مِنْ تَحْرِيفِ وَطَنِيٍّ فِي الشُّهُورِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ، فَإِنَّ الشُّعُورَ الَّذِي ظَهَرَ الْآنَ لَا بَدَّ أَنَّهُ كَانَ يَنْمُو خِلَالَ سَنَاتٍ عَدِيدَةٍ، وَأَنَّ وَفُوعَ انْفِجَارٍ فِي وَقْتٍ مَا كَانَ أَمْرًا لَا مَنَاصَ مِنْهُ».

مبلين شينهام

نائب المندوب السامي بالقاهرة

الاثنين ١٠ مارس ١٩١٩

٨:١٥ صباحاً

أبشاق الغزال.. مركز بني مزار.. الجمتيا

تذبذبت القضبان الصّديئة تحت أقدام الناس فتنّبّوها وابتعدوا، من الأفق البعيد التقطوا هدير المُحرك قِيلَ أن يُلْمَحُوا الدُّخان الأسود، دقيقتان ثم لاح الوحش القاتم، يسير وثيداً يضر ضرة حادة وضجيج له وقع مُقبِض، اقترب أهالي البلد من رصيف المَحَطَّة يتطلّعون إلى الجسد الحديدي العِملاق الذي توقّف، ينهشونه بأعينهم نهشاً، لَحَظَات وفتّحت الأبواب ثم بدأ الوافدون في التروّل يَباعاً، وجوه كاللّحة شاحية وأجساد برزت عِظامها وجفّت جلودها من حرق الشمس.

زاحمت السيّدة العَجوز الجُمُوع الغفيرة التي تكثّلت لتلقّي العائدين، تنتظر تلك اللحظة مُنذ ثلاث ساعات، وسنة قبلها منذ انتهت الحرب! نأني إلى المَحَطَّة كُلّ سببت متكئة على عَصَد إحدى بنائها في ميعاد قُدوم القِطار الأسبوعي، تتأمّل الوجوه الوافدة لتفرزها علّها تلمح «ياسين»، بكريها الذي تسحبوه يوماً من أرضه بحضور العمدة والخَفَر ورين ورانهم رجال السُّلطة للعَمَل بالسُّخرة، «محتاجين شوية عيال يكد» علشان الجسر اتقطعت جهة «دير السنقورية» والبيوت غُرِجت، المأمور بعت إشارة بلمّ الناس وفرد على بلدنا تمتناشر عيل».

لَمْ يَمْلِكْ يَاسِينَ حَقَّ الرَّفْضِ، فَالْكَلِمَاتُ تَبِعَتْهَا لَسَعَاتُ خِرَزَانَاتِ
 الْحَقَرِ وَضُرْبَاتُ كَرَايِبِهِمْ، امْتَلَأَ لَأْمُهُمْ فَرَبَطُوا يَمِينَهُ فِي حَبْلِ طَوِيلٍ
 غَلِيظٍ مَعَ سَبْعَةِ عَشَرَ شَابًّا مِنْ أَهْلِ بَلَدَتِهِ وَأَرْكَبُوهُمْ قِطَارَ بَضَائِعٍ، وَلَمْ
 يَرَهُ أَحَدٌ زَمَلَانَهُ مِنْ بَعْدِهَا، تَحَمَّلَتْ أُمُّهُ وَقَعَ الزَّمَنُ وَالْإِشَاعَاتُ الرَّائِجَةُ
 حَوْلَ اخْتِفَائِهِ وَمَقْتَلِهِ حَتَّى تَمُنَّتْ يَوْمًا أَنْ يَأْتَوْهَا بِجُثْمَانِهِ، فَقَطَّ لَيْسَتْ هِيَ
 عَذَابَ فَقْدِهِ فِي صَدْرِهَا.

- ولدي.. ياسين.

النقطة ضوئها حين برز وجهه من عتمة القطار، فقد نصف وزنه
 فأنثت قامته الطويلة وأزداد سُمره على سُمره، لَمْ تَمْلِكِ السَّيِّدَةُ نَفْسَهَا،
 امْتَرَجَتْ فَرَحَهَا بِفَرَعِهَا مِنْ هَيْئَتِهِ الْمُفْجَعَةِ فَذَفَنْتْ رَوْحَهَا فِي صَدْرِهِ
 وَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ فِي فَرَحٍ، احْتَوَاهَا بِصَمْتٍ وَلِثَمَ يَدَهَا ثُمَّ أَحَاطَ أَخْتَهُ
 الصَّغِيرَةُ بِذِرَاعِهِ وَابْتَعَدُوا.

قبل الظهيرة كان الخبر قد انتشر رغم توثر الأجواء بالمتظاهرين
 حاملي اللافتات أمام نقطة بوليس البلد وأعداد عسكر الإنجليز
 الوافدين، عَمَّ الفرح منصرة بيت «فهمي» فتجمع الأهل والجيران
 يُرْحَبُونَ بِالْعَائِدِ الَّذِي ظَنُّوهُ لَنْ يَعُودَ أَبَدًا، فَرَشُوا خَبِرَ «البتا» تَحْتَ لَحْمٍ
 جَذِي ذَبَحُوهُ وَصَبُّوا الشاي الدافئ فِي الْأَكْوَابِ وَوَرَّعُوا أَقْمَاعَ السَّكَّرِ
 عَلَى الْأَطْفَالِ وَالسَّجَائِرِ عَلَى آبَائِهِمْ، اسْتَحَمَ يَاسِينَ وَارْتَدَى جَلَابِيَّةَ
 نَظِيفَةً قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى دُكَّةٍ حَوْلَ أَحْبَابِهِ مُسْتَمِعًا لَأَيَاتِ الْقُرْآنِ مِنْ
 «فَيِّ» الْقَرْيَةِ وَمُسْتَقْبِلَ الزَّوَارِ، يَهْزِرُ رَأْسَهُ وَدَا وَيُورِّعُ ابْتِسَامَاتٍ شَارِدَةً لَمْ
 تَنْجَحْ فِي إِقْنَاعِ الْمُحِيطِينَ أَنَّهُ هُوَ نَفْسُ الشَّخْصِ الَّذِي رَحَلَ عَنْهُمْ مُنْذُ
 سِتِّينَ، بَدَأَ وَاجِمًا مُشْتَتًا يَحْمِلُ صَدْرَهُ قَلْبًا آخَرَ. قَلْبًا مَعْطُوبًا.

- احكي لنا يا ولد أختي.. وين كُنت؟ وكيف جُضيت السنتين؟
سَكَّتَ الجَمع، نساء ورجالاً، وحتى الأطفال، تعلَّقت أعينهم بشفتي
ياسين المُتشفقتين ينتظرون منه مَلحمة تاريخية:

- بعد ما صلَّحنا الجسر أخذونا الإنجليز في جطر.. على الجنطرة
سُرق.. ومن الجنطرة طلعنا على رفح.. نزلنا عند عربان أكرمونا
وأكلونا وشربونا.. وكلُّ يوم كات سُغلتنا نُحضر بير ولَّا اتنين
للسلطة ونصلِّح جُضبان السكَّة الحديد.

- بس إكده؟ طَبِّ والترب؟

- ماچاتش نواحين.

- لكن أنت شكلك تعبان أوي يا واد عمي! ماكتش بتأكل ولَّا إيه؟

- الأكل هنالك غير عندينا.. والمية غير.. والشقايا ما.

- طَبِّ وبقيت العيال اللي كانوا معاك السبعناشر؟ وبينهم؟

- أصلنا.. اتفرَّجنا.. وزَّعونا.. كُل واحد راح لجهة.. ماتعاجلتش
معاهم من ساعة ما ركبنا الجَطر.

لم تأت القصة بما اشتهاوا أن يسمِّعوا، أرادوا أن يخوضوا الأهوال
فتجحظ أعينهم عَجَبًا ثم يطمئنوا على باقي شباب البلد ولم يفعلوا،
قضوا وقتهم وانصرفوا مُبكرًا بعد أن تركوا الدَّار عامرة بالإحباط
وبلايص الجيش ولُحوم الطَّير هدايا للقائد.. ظلَّ ياسين ساردًا على
دُكَّته حتى لَمَلَمَت النسوة فَوَضَى الزيارة قبل أن تقترب أمه، جَلَسَتْ

بجانبه تتأمل وجهه المتحجّر قبل أن تضع يدها اليابسة على كتفه
وتتكلم بصوت خفيض:

- مالك يا ولدي؟

لم يُجبها ياسين، عيناه ذاهلتان في الشباك، شاردًا في غُيْط برسيم
يتمايل مع الهواء.

- ياسين.. يا ياسين؟

أفاق من شروده: نعم يا أمه؟

- سألتك.. مالك يا ولدي؟

- تُعبان م السفر يا أمه.

تأملت وجهه دقيقة ثم أردفت:

- تعبك مش تعب سفر يا ولدي!

- آني ما عاينكذبشي يا أمه.

- مش العجصد يا ولدي.. آني بس بدّي أفهم.. العيال اللي كت معاك

اتفرّجوا على فين؟ أهل البلد هايموتوا على ولادهم.. سبعتاشر

راجل راحوا... ولّا حاجة خُصّلت ومانتاش عاوز تجول؟

قاطعها: ما خابرش عنهم حاجة.

- طيب يا ولدي.. ربّنا يعودهم بالسّلامة زي ما עודك.

أشعل سيجارة بيد مرتعشة، لاحظت توتره فأرادت تغيير الموضوع

رأفة به:

- خابِر مين اللي ما اتجطعتش يوم في السؤال عنك؟ بهيئة بنت
أبو عامر.. بَحت فلجة جَمَر.. بتيجي كل جمعة تتحدّث معاي
وتسأل عنك.. عايلة همك ومتكدّرة يا ولداه زي ما تكون
بنت عمّك.

بدون أن ينظر لها قاطعها: وينها دولت؟

- دولت أختك صارت مُدرّسة في مصر.. اتعفرت لَمّا عرفت إنك
رجعت.. أخوك شَيّع لها تلفراف إمبارح بس الشوارع حداها
مَجْلوبة.. خايقة تيجي.

- مَجْلوبة؟

- عَ الإنجليز.. مُظاهرات عشان جبضوا على سَعد باشا.

- مين سَعد باشا ده؟

- باشا من باشوات مصر.. ده القاركة عليه واصلة لهينه.. والإنجليز
مفرّجين البلد.

لم يُبدِ اهتمامًا، شرد فصمّنت، تأملت وجهه الباهت وملايمحه التائهة
فزفرت قلقًا واستغفرت في سرّها، إن كانت تُعرِف شَيّا عن يَكرِها التي
ربته يَداها فهي تُعرِف أنه للمرّة الأولى يُخفي عنها سرّا

لَمْ يكِد يَاسين يَنغمس في صمته حتّى تعالت الجلبة في الخارج،
صَوْت الرصاص ورقع الكرايبج اختلط بصَريخ النُساء والأطفال،
نادت الأم في شاب يجري أمام المَنصرة مُستفهمة فألقى عليها الخبر:

- الإنجليز طايحين ضُرب بالكرابيج في أهل البلد.. لا هامهم
كبير ولا صغير.. كُلّ اللي ينادي بالاستجلال يتلسوع ويسحلوه
ع المركز.. وأبو هثام انطخ عيار في دماغه شجّها زي البطيخة.

التفتت السيدة إلى بكريها الذي للتو عاد، ستحاول تهدئة ثورته
العارمة ومنعه من الخروج للذود عن أهل بلده، ستلتقط فرد الخرطوش
من يديه والسكين الذي سيستله ثم تستحلفه ألا يتدخل فهي لم تكد
تفرح بعودته.. لكنّها التفتت فوجدته كما تركته ا ساردا في أفق الغيط
الأخضر كأن شيئا لم يكن، صنما ينسى أن يُعبد، نظرت إليه مُحاوله
استيعاب الضيف الغريب الذي حلّ في بيتها، ضيف يُشبه ياسين كثيرا
قبل أن تُغلق خصاص الشباك عليهما وتجلس بجانبه مُنصتة لسنايك
الخيّل تهرس الأهالي وصريخ تعالى حتى أصمّ الأذان.



الاثنين ١٠ مارس

- بيانات استنكار وتراجع من بعض الجهات والمدارس لما حدث يوم ٩ مارس من حرق لمحال الأتجانب ونصريحات تطمئن الجاليات على أرواحهم.
- المظاهرات نجتاح المبنا والإنجليز ينهالون على الأهالي بالكرايح.

الثلاثاء ١١ مارس

- إضرابات مُستمرة في أكثر من مديرية وإنذار بريطاني شديد اللهجة طبع وعلق في الشوارع والمبادين ونُشر في الصحف «المتماونة»..
- ميدام مع دوريات إنجليزية في القاهرة و وفاة ستة أشخاص بغير ان البنادق.

الأربعاء ١٢ مارس

- سمحت السلطات الإنجليزية لبعض الصحف بنشر خبر اعتقال سعد ورفاقه لاستعادة لغة الجماهير في الجرائد، ثم بث الرعب في قلوبهم بالتهديدات المتتابة بعد ذلك.
- تجمد إطلاق النار في أكثر من مكان وبدء المظاهرات في الإسكندرية وطنطا ولما اقتربت الجموع من محطة القطار أطلق الإنجليز النار ليقنلوا ستة عشر شخصا فقطع الأهالي خطوط السكك الحديدية في أكثر من موضع وأحرقوا المحطات.

الخميس ١٣ مارس

- مظاهرات في أحياء الجمية والغورية والظاهر والسيدة زينب وإنذار إنجليزي لموظفي الدولة باجتناب المظاهرات، كما أصدرت أمرا بالإعدام الفوري رميا بالرصاص لكل من يقطع خطوط السكك الحديدية أو الهاتف والنلغراف.

- إلقاء الججارة على مراكز البوليس وتوقف عربات «الأمبوس»^(١) العامة
وازدباد عربات الكارو في الشوارع.

الجمعة ١٤ مارس

- عند خروج المُصلين من مسجد «الحسين» بعد صلاة الجمعة حسبهم
السلطات الإنجليزية مُتظاهرين فأطلقت الرصاص عليهم فقتلت اثني
عشر وأصابت أربعة وعشرين، وعند مسجد السيدة زينب قُتلت ثلاثة
عشر شخصاً وجرح سبعة وعشرين.. واستخدم الإنجليز الطائرات
لضرب المُتظاهرين في أكثر من قرية.

السبت ١٥ مارس

- إضراب عمال عتّاب السكك الحديدية «عدهم أربعة آلاف».. قدّم
أغلب شطوط السكك الحديدية والمخَطّات.. أصبح نهر النيل هو
وسيلة المواصلات الوحيدة بين القرى والمدن.
- إضراب المحامين الشرعيين ومُظاهرة غارمة في المتخلة.
- أطلق الإنجليز النار عشوائيًا على حرس في إمبابة فقتل ستة أشخاص.
- قُتل أحد كبار موظفي البريد الإنجليزي بالقاهرة ومطاردة القاضي
الإنجليزي بيني سوف.

(١) عربات الأمبوس: عربات عامة تجرها البغال.

مدرسة الطب بقصر الغيني... معمل الكيمياء

نصف ساعة قبل حظر التجول

لَمْ يَكُنْ ضَوْءُ الْقِنْدِيلِ كَافِيًا لتمييز أَحْمَدَ الْجَالِسِ فِي الرُّكْنِ الْقَصِي خَلْفَ مِنْضَدَةٍ، جَرَى الْعَرَقُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ تَعَثَّلَ رُمُوشُهُ وَلَا مَسَ حَدَقَتِيهِ فحرقهُمَا، مَسَحَ عَيْنَيْهِ بِكُمِّ قَمِيصِهِ وَهُوَ يُقَاوِمُ ضَيْقَ أَنْفَاسِهِ تَحْتَ كَمَامَةٍ تَقِيهِ الْأَدْخَنَةَ الْمُنبَعِثَةَ مِنَ الْغَلَّابَةِ، يَدَاهُ حَاوِلَتَا الثَّبَاتِ وَهِيَ تَخْلُطُ كَبْرِيتِيكَ وَكُلُورَاتِ الْبُونَتَاسِيُومِ ثُمَّ يُضَيِّفُ بِجِرْحٍ جِمُضِ الْبَكْرِيكِ شَدِيدِ التَّفْجِيرِ، قَلْبُ الْمَحْلُولِ لِدَقَائِقِ ثُمَّ صَبَّ بِتَرْكِيزٍ فِي وَعَاءٍ أُسْطُوَانِيٍّ مِنْ التِّيْكَلِ قَبْلَ أَنْ يُغْلِقَهُ بِأَحْكَامٍ وَيُودِعَهُ فِي «سَبْتٍ» مِنَ الْخُوصِ، وَضَعَ فَوْقَهُ مُسَدَّسًا مَحْشُوعًا بِالطَّلَقَاتِ ثُمَّ غَطَّاهُ بِقُمَاشٍ وَأَفْرَغَ كَيْسًا مِنَ الْخُضْرَاوَاتِ فَوْقَهُ تَمْوِيهَاً، خَلَعَ بَعْدَ ذَلِكَ كَمَامَتَهُ لِيَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهُ، غَسَلَ قَوَارِيرَهُ وَأَرْجَعَهَا مَكَانَهَا، ثُمَّ ارْتَدَى فَوْقَ قَمِيصِهِ جَلَابِيَّةً ذَاكِنَةً وَلِيَدَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَبُلْغَةً فِي قَدَمَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُطْفِئَ النُّورَ وَيَخْرُجَ.

أَتَّخَذَ أَحْمَدُ طَرِيقَهُ إِلَى بَابِ اللُّوقِ، مُخْتَرِقًا الْخَوَارِي الضَّيِّقَةَ مُحَاوِلًا الْإِبْتِعَادَ عَنِ الطَّرِيقِ الرَّئِيسِيَّةِ الْمَحْشُودَةِ بِجُنْدٍ مُتَحَفِّزِينَ وَمُنْتَظَاهِرِينَ لَمْ يَعْتَرَفُوا بِالْخَطَرِ تَحْدِيثًا وَعِنَادًا، مَدَّ خَطَوَاتِهِ مُتَمَسِّمًا الْبَسَاطَةَ قَبْلَ أَنْ يَقْفُزَ فَوْقَ عَرَبَةٍ «كَارُو»، وَصَلَ قَرِبَ بِنَايَتِهِ فَتَزَلَّ وَدَارَ حَوْلَهَا حَتَّى تَأْكُدَ أَنَّهُ غَيْرَ

مُراقِب ثم دَلَف مِنَ الْبَاب، المَدخل كَانَ مُظْلِمًا، مَشَى بِضِعْ خُطَوَات
تَجَاهِ الْمَوْعِد قَبْلَ أَنْ تَلْتَقِطَ أُذُنَاهُ صَوْتَ الْخُطَوَات، التَفَتَ مُتَحَفِّرًا
فَلَمَحَ وَهَجَ سَيَّجَارَةٌ تَحْتَ دَرَجَاتِ السَّلَمِ:

- لَمَّا سَمِعْتَ عَنْ ضَرْبِ مُوظَّفِ الْبَرِيدِ الْإِنْجَلِيزِيِّ شَمِيتَ رِيحَتَكَ.

لَمْ يَحْتَجْ وَقْتًا لِيَسْتَوْعِبَ صَاحِبَ الصَّوْتِ.

- عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِهِ!

اِقْتَرَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَهَمِيَ يَتَأَمَّلُ تَنْكُرَهُ:

- شُوفْ لَنَا مَكَانَ نَتَكَلَّمُ فِيهِ.

فِي السَّطْحِ كَانَ اللَّيْلُ قَدْ قَرَضَ سُكُونَهُ إِلَّا مِنْ بَقَايَا الْانْفِلَاتِ الْأَمْنِي
الْمُسْتَمِرِّ، دَوِيَّ طَلَقَاتِ نَارٍ مُتَفَرِّقَةٍ تَأْتِي فَرَادَى مِنَ الْإِتْجَاهَاتِ الْأَرْبَعَةِ
وَدُخَانِ أَسْوَدَ وَصَيِّحَاتِ فِزْغَةٍ مُضْطَرَبَةٍ تَتَعَالَى كُلُّ بَضْعٍ دَقَاتِقَ، أَخْفَى
أَحْمَدُ «سَبَبَتِ» الْخَضِرَاوَاتِ تَحْتَ كَرَائِبِ مُهْمَلَةٍ ثُمَّ تَحَلَّعَ جَلْبَابَهُ،
جَلَسَ الرَّجُلُ عَلَى كُرْسِيٍّ قَدِيمٍ قُرْبَ الشُّورِ يَتَأَمَّلُ أَحْمَدُ:

- قُنْبَلَةٌ؟

- الْإِنْجَلِيزِيُّ يَبْضُرُّ بَوَا بِالطَّيَّارَاتِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بِهِ!

- مِشْ خَايِفْ؟

- الْبَلِيَّ يَقْدِرُ يَمُوتُنِي النَّهَارْدَةُ هَايَمُوتُنِي بُكْرَةٌ.

- أَحْمَدُ عَبْدُ الْحَيِّ كَبِيرَةٌ.. سَنَةِ ١٩١٥ فَلَسْتُ مِنْ حَكَمِ السَّجْنِ
وَزِمِيلِكَ أَخَذَ تَأْيِيدَةً فِي مُحَاوَلَةِ اغْتِيَالِ السُّلْطَانِ حُسَيْنٍ.. دَرَسْتُ

في مدرسة الطب وتخصّصت في الكيمياء واتوظفت.. معروف
عنك في المدرسة إنك في حالك.. وفيه ناس يقولوا عليك خاين
ومصاحب الإنجليز.

- وأنا اللي كنت مستغرب إزاي الناس من أسوان لإسكندرية عرفت
إن سعد باشا اعتقل ثاني يوم!

- سعد باشا نفسه كان عارف إنه هاعتقل.. استنى اللحظة دي
من زمان.

- ...!!

- يا ابني أنا راجل جيش مسابق.. واللي يعاشر الإنجليز يعرف إمتى
ينفذ صبرهم.. إحنا كنا محتاجين الاعتقال ده أكثر منهم.. عشان
القضية تكبر وتخرج بره الحدود.

- أنتم مين؟

- مجموعة متحمسة عرفت مصر بالاعتقال من غير جرايد.. بعثت
تلغرافات في كل مديرية.. وهي اللي بتطبع المنشورات وبتجيب
المعلومات عن الخونة اللي في الحكومة والبوليس.. قليلين لكن
عندنا اتصالات مؤثرة.

- أفهم من زيارة حضرتك إن فيه نية تمويل عمليات فدائية؟

انقضت لحظات من الصمت قبل أن يكمل الرجل ما بدأ: العُنف
لو ما حجّمتوش ونظّمته يصبح سلاح ضدك.. هاييجي وقته.. إحنا
مبدئيًا محتاجين مساعدتك في موضوع ثاني.. أنت بتفهم في الكيمياء؟

-تخصُّصي.

-إحنا رصدنا مكان سَكَن سعد باشا في مَالِطَة عن طريق أصدقاء
عَاشِينَ هناك وقد رنا نَطْمَن عليه وحققنا اتصال.. لكن لَسَّة
ومحتاجين طريقة أمان نراسله بيها مِن غير ما حد يفهم.. عَشان
كِدِه جيت لك النهاردة!

شرد أحمد للحظات ثم أجابه: مَيَّة البَصَل.

- مَيَّة البَصَل؟

- مَيَّة البَصَل.



أزيز الذبابة بدأ كضجيج مُرتور طائفة، حامت حول رأسه مرتين قبل أن تضرب أذنه بسخافة، نادت عنه رعدة في جفن صبغ برقة الورم تبعثها واحدة في أنامله قبل أن يفتح عينيه بصعوبة، ميز سقفاً عالياً من الصاج المضلع ومروحة تندلى منه وتطن باعثة نسمات رطبة، نظر يمينه فشهد ثلاثة أسرى عليها جنود إنجليز مُصابون بجانبهم مُمرضتان ترتديان الكمائم، استغرق الأمر منه دقائق، حاول استيعاب ما أتى به إلى العنبر قبل أن يترامى له وجه أبيه، نائماً على عشب الحديقة مُغمض العينين ومُضرباً بالدماء، «عبد القادر».. سمع صوت أبيه فجلس بغتة على السرير ثم تدفقت الأحداث في رأسه دفعة واحدة، الثبوت في الأوتومبيل.. علبة الكوكابين.. الرشاش على فخذه.. دواصة الجاز.. المُعسكر على بُعد.. المدفع يُصوب نحوه.. ثم لا شيء!

تحامل عبد القادر وحاول النزول من السرير فمطّلته قَدَم مغلولة، انتبهت المُمرضتان لاستغافته فاقتربتا، انتابته العصبية لمّا لمسته إحداهما مُحاولاً إنشاء عن النزول فدفعها دفعة عانقت فيها الحائط وأغرقها بالسباب، جرت الأخرى هليعة إلى الخارج تستدعي مُساعدة،

لحظات ودخل طبيب لم يجرؤ على الاقتراب من الشور الهائج الذي حاول تخلع دعامه السرير، ثلاثون ثانية ودخل جنديان بسلاحهما، قاومهما بفسراوة أطاح فيها بأحدهما قبل أن يخبطه الآخر بدبشك البندقية في ذراعه المصابة، صرخ ألما فزكع على السرير وصوبت الفوهة إلى رأسه، لحظات وأقبل كولونيل تريفور، شاكن الغلايخ في زي عسكري مشدود، بهدوء فتح الجراب وحرر مُسدسًا له فوهة طويلة، جرَّ كرسيًا ثم جلس ووضعه على جِجره.. هز رأسه في أسى ثم تحدّث:

- منذ قليل مات «أوسكار».. كلبي الوفي.. سلالة نقيّة من الإنجليش ماستيف.. المسكين رأيته يومًا وراء يوم تشيخ ويمرض.. لم أملك مُساعدته.. ومؤخرًا انفجرت أوعية عينيه فعاش أعمى آخر ستين في حياته! طوال الوقت يتخبط في أثاث البيت حتى يدمى رأسه وقدماه.. ذلك كان قاسيًا.. اليوم استيقظت مُبكّرًا وسمعت أخبار اضطرابات المتطرفين.. تركت المُعسكر وذهبت للبيت.. أرسلت زوجتي إلى صديقتها.. أخرجت «أوسكار» إلى الباحة الخلفية.. سحبت مُسدسي وأرحته.. أتق أنه مُقدّر لما فعلته.. بعد يومين سأستقبل «ستافوردشاير» رماديًا.. هجينًا قويًا يصلح للصيد والعراك.. سُرعان ما سيُنسي زوجتي «أوسكار» العزيز.

صمت للحظات أشعل فيها غليونه ثم أردف: هيا يا عبد القادر.. علي أن أهب «أوسكار» جنازة تليق بالعيشرة الطيبة.. هيا.. أعطني قصّة.. واحرص أن تكون متمايكة ومسليّة فيزاجي بالفعل سيّئ للغاية.

لم يهدأ نهيج عبد القادر وإن أشاح بوجهه فأردف الكولونيل:

- تدفعني إلى تصرف كن بُرضيك يا عبد القادر.

- إذن.. صحح لي.. أنت لم تدعن لتعليمات الجِراسَة.. اقتحمت
حدود المُعسكر.. تحمل رشاشًا ألمانيًا محشوًا وفي أنفك
كوكايين.. وللتوا اعتديت على ممرضة وقاومت الجنود! إما أن
تشرح لي ماذا كُنت تنوي في دقيقتين.. وإما أردك برصاصة.

احتقنت عينا عبد القادر وكاد يكسر ضروسه جزًا فسحب تريثور
رصاصة من خزانة مسدسه إلى الماسورة بصوت رنّان فابتعدت
المرضتان وتوتر الطبيب والمرضى.

- أعطني سببًا واحدًا لإقناعي بعدم تفجير رأسك.

رائحتا الجبن والخزي غمرتا أنفه.. ألقاها بالم: كُنت.. أهرب!

- مِنَّن؟

- أهل الحقّ الغاضبين.

- يعدّونك خائنًا هه؟ ممم.. هل ترى نفسك كذلك؟

أخبره السؤال فقام كولونيل تريثور واقترب منه متفحصًا وجهه:

- هل.. ترى.. نفسك.. خائنًا؟

لم يجروء عبد القادر على تقديم إجابة، حتّى لنفسه، فاستطرد الكولونيل:

- دعني أوضح لك أمرًا تعلّمته من الحياة.. بعض الناس يُشبهون
الأسود.. وبعضهم يُشبهون الكلاب.. وهناك الضباع.. فئة غريبة

تُرهبها الأسود.. وتفرّعها الكلاب.. فئة لا تكسب احترام أي
حيوان في الغابة.. كبيراً كان أو صغيراً.. هل فهمت شيئاً؟
- أنا مش جبان.

صاح الكولونيل في عيد القادر: نكلّم بالإنجليزية.
لم ينطق عبد القادر.

- لا تريد أن تتكلّم.. حسنًا.

قالها وقام، صوّب ماسورة مسدّسه إلى رأس عبد القادر، لحظات،
ثم سحب المسدّس وتأمله قبل أن يودّعه جرابه.. قال:

- رغم أنّك لا تختلف عن الرعاع الذين لا يرضون بالحياة الكريمة
من أبناء جلدتك.. ورغم أنّ قتلك أسهل من إطفاء سيجارة لكنني
سأكتفي بشرتك ترحل.. من أجل ذكرى «أوسكار».. من يقتل
كلّيين في يوم واحد؟ لا تدعني أرى وجهك ثانية.

قالها وصفق الباب وراءه، أغلقه على صدر عبد القادر.

بعد ساعة فتحت كُتوة في باب المعسكر الحديدي، خرج منها
عبد القادر بصحبة جنّدين مسلّحين لفظاه على بُعد أمتار، قام ولم ينظر
وراءه، توكّأ على نفسه برأس مرّنج وعرجة مؤلّمة خشي مرّاً بكثرة من
الحديد كانت يوماً سيارة كروسلي، اقترب منها متفحصاً ركامها بأسى
قبل أن يستخلص بصعوبة ثبوت أبيه من بين الحطام، جزء من الرأس
تهشّم وتخرّشت الساق، وضعه على الأرض وتعلّز عليه سيراً..
نحو العدم.

نفس اليوم.. منزل سعد زغلول

١٠:١٥ صباحًا

توقفت عربة «الكوييل» قرب مدخل البيت، نزل السائس من فوق الحصان وهو يتأمل المظاهرة التُسائية التي وقفت قرب المدخل، نساء وفتيات من جميع الأعمار ارتدين الحُبرات السوداء فوقها برايق بيضاء وزفن لافئات الاستقلال والاستنكار والأعلام السوداء، سحب السائس درجات السلم الثلاث ثم فتح الباب وتسلط يده.. اتفضلي يا هانم.. وضعت صفيّة زغلول قدمها على درجة السلم ثم اتكأت على كفه حتى لامست الأرض، التفت الجموع إليها فتعالت الهتافات في أفواههن: سعد سعد يحيا سعد.

وقفت السيّدة تحيي الجموع اللاتي رفقن بها بشغف قبل أن تتجه إلى باب البيت، لما أصبحت بجوار البوابة طلّت من بين الصفوف أنثى حاضِر الكُحل عينيها الواسعتين فوق البرقع.. صفيّة هانم.. صفيّة هانم.. نادى فلقت النظر ثم مدت من وسط الزحام يدًا خمرية تحمل ورقة مطوية، التقطتها السيّدة ثم دلفت من باب البيت قبل أن تفتحها وتقرأ:

«ابتك دولت فهمي مُدرسة بمدرسة «الهِلال»، من طرف عزيزة هانم عبد البر.. المنيا».



فرأت صَفِيَّةُ الاسم فتوقفت قبل أن تُشير لخدام أن يأتي بالآنسة صاحبة الرسالة، انتزعها من بين الصُّفوف فمدّت الفتاة يدها بفرحة شديدة.

- مُنشُكِّرةً با صَفِيَّةُ هَانِم.

- أهلاً با دولت .. عزبزة هَانِم كلِّمتني عنك من ثلاث أيام .. مينين من المِنيا؟

- من أبشاق الغزال مَرَكز بني مزار .. من إبدك دي لإبدك دي.

- تعالي معايا.

نحرَّكت دولت في أثر صَفِيَّة حَتَّى دَخَلتا الحَرَمَ ملك، صَعَدتا إلى الدور الأول المفضي إلى صَالَة واسعة اصطفَّت فيها كراسي الأيسون على سُكُل دائرة جلست فيها رُوجات المنفِيِّين وسيدات المُجتمع، استقرت دولت في نهاية القاعة تتأمل مَنْ كانت تسمع أخبارهن في الجرائد وترى صور مآذيهن وحفلاتهن قبل أن تتابع دورهن في طلب الاستقلال، لعبة السيامة القذرة التي طالما شغلت بالها، ها هي صَفِيَّة هَانِم زوجة الزعيم سعد زغلول! هُدى هَانِم سُعراوي زوجة علي باشا سُعراوي عِين أعيان المِنيا وثالث ثلاثة في الوفد الذي ذَهَب للقاء المَندوب السَّامي، زوجة مُحَمَّد باشا محمود عِين أعيان أسبوط وأوَّل من نَرَهُ عن فِكْرة تشكُّيل الوفد، وَغَيْرُهُن! كان ذلك كَثِيراً على دولت، اجتاحتها الإثارة ففارت وجتها حرارة، أنزلت البُرْفَع عند حدود ذقنها فضرَبت نَسَمات الهِواء خصلة فاجِمة فَرَّت مِن تَحْت الحَبْرة ولاحت قسَماتها الخَمَرِيَّة المتناسِفة؛ شفتان مكتنزان داكتان

فوقهما عينان واسعتان عسليتان، تحسبها أميرة فرعونية اكتسبت بعض الوزن، يا الله أرقرت بها في سيرها وهي تتابع الوجوه.. ياليت أهل بلدي يعلمون بما حدث لي في القاهرة، هل كان يتوقع أي منهم أن تصير واحدة من آل «فهمي» مدرّسة في أم الدنيا مصر؟ هل كان يتوقع أي منهم أن تحضر فتاة بنسي مزار اجتماعاً بذلك القدير من الأهمية؟ سأحكي لهم حين أعود وسيلتفون من حولي ليسمعوني مدهوشين، ستفخري بي أمي، وناسين أخي كثيراً، كم أفتقده! قولاً الأحداث ما تأخرت عن لقياه لحظة، لكنها لحظة فارقة في التاريخ، سيعلموني.

أفاقت «دولت» من شرودها لحظة بدأت صفية هانم في الكلام، كانت تجلس بجانب هدى شعراوي:

- أحب في الأول أعرف حضراتكم التطورات، البرقيات اللي بعثناها باسم سيدات مصر لحرم المندوب البريطاني طبعاً مفيش رد، كل اللي حصل إن أعضاء الوفد عجبتهن الصيغة وحفظوا منه نسخة في محضر جلسة أول إمبارح!

أردفت هدى شعراوي: الاحتجاجات والبرقيات ما عادتش تنفع يا هوانم.. الستات لازم تشارك.. لازم ننزل الشارع. انطلقت همهمات مستنكرة من السيدات قبل أن تتكلم سيدة لم تتعرف عليها دولت:

- يا صفية هانم أنت عاوزة الستات تنزل الشارع؟
صفية: ومالو لما ننزل الشارع؟

أردفت السيِّدة: أنا ما مشيتش في الشارع من ساعة ما كُنت عيِّلة
صغيرة.. ده إحنا نتبهدل!

قالت صَفِيَّة: هو فيه يهدلة أكبر من اللي خصلت للبشوات
يا صِدِّيقَة هَانِم؟

رَفَعَت زوجة مُحَمَّد باشا مَحْمُود صَوْتَهَا: إحنا في وضع استثنائي..
أنا مع نزول الشارع أكيد.

عَلَا صَوْت سَيِّدَة بَدِينَة عَلَى قَبَعَتِهَا رِيَشَات طَوِيلَات: أنا شايقة نستنى
لَمَّا نشوف هايحصل إيه؟ دي خُطوة مِش هَبْنَة.. هايقولوا علينا إيه؟
ده غير البَصْبَصَة اللي هانشرفها من قُلَالَات الْحَيَا وَالْإِنْجِلِيزِ.. الوغد
مَآيْتَهَا لِمِش يوافق ع الكلام ده.. لو كَانَ سَعْد بَاشَا مَوْجُود مَا كَانِش
هايوافق السَّاتَات تَنْزِل.

صَفِيَّة: سَعْد بَاشَا قَالَ إِنْ ثَوْرَة مِنْ غَيْر سَتَات مَا تَبْقَاش ثَوْرَة.

أَرْدَف صَوْت آخَر: فِيهِ سَتَات هَاتَطْلُقْ لَوْ نَزَلُوا.. ده خراب بيوت.

كَانَ ذَلِكَ فَوْقَ احْتِمَالِ دَوْلَت، قُلْتُ زِمَام صَبْرَهَا فَقَامَتْ وَرَفَعَتْ
صَوْتًا يَلِيْقُ بِأَقَاصِي الصَّعِيدِ: الرَّاجِلُ الَّذِي يَطْلُقْ مَرَاتِهِ عَشَان نَزَلَتْ
تَنْظَاهِرُ يَبْقَى مِش رَاجِل.. وَمَا تَصْحُشْ الْعَيْشَة مَعَاه.. السَّاتَات فِي بِلْدُنَا
خَلَعُوا قُضْبَانِ الْقَطْرِ مَعَ اجْوَزَاتِهِمْ.. لَازِمِنْ نَنْزِل.. إِنْ شَالِلْهُ الْإِنْجِلِيزِ
يَضْرِبُونَا بِالنَّار.

صَمِتَ الْجَمْعُ وَالتَفَّتِ الرُّءُوسُ إِلَى دَوْلَتِهَا الَّتِي أَقْشَعَرَتْ جِلْدَهَا
كَجِلْدِ إوزة مِنَ الْخَجَلِ فَرَمَقَتْ صَفِيَّة هَانِم فِي اسْتِغَاثَةِ فَقَامَتْ مِنْ
كُرْسِيِّهَا مُحْتَدَّة: أَيْه.. يَضْرِبُونَا بِالنَّار.. وَلَوْ بَسَتْ وَاحِدَة خَصَلَهَا خَاجَة
الْبَلَد هَاتَوَلَّع.

قامت هُدى شعراوي حَاسِمة الجلسة:

- أنا هانِزل الشارع، دَه فرار اتَّفقت عليه مع صَفِيَّة هَانِم قبل ما نَقعد القعدة دية، هانتجَمع دُورقت في جَنينة جَارِدِين سِينِي ونَتحرَّك من هناك على القنصليات، اللي عاوزة تتفضل تيجي أهلاً بيها، واللي مش عاوزة خليها في البيت تستَيَّ الفرج.

انفضَّت الجلسة ونَفَرَّت النسوة، القَلَّة الراضية رَكبن عرباتهن رَاجِلَات، والبقِيَّة الموافقات نزلن مُلتَحِمَات بالجُمُوع الواقفة خارج البوَابَة، يَنْظرون لَصَفِيَّة زَغلول بانْهَار وحين أنزلت الحِجَاب كاشفة وجهها اشتعلن حَمَاسَة، دُولت كَانت وراءها تتابع المشهد، مُنْشِيَة لا تصدِّق عِينِهَا، كَشَفَتْ وَجْهَهَا ورفعت علماً فاحتضنتها صَفِيَّة هَامِسة في أذنها:

- أنت بميت راجِل يا دولت.

حُشِرَت الكلمات في فم دولت من الحَمَاس وارتعشت شفتاها بابتِسَامَة قبل أن ترفع صَفِيَّة يدها بالتحية لعبد الرحمن فهمي الذي نزل للتو من عربته وأقرب، حَيَّا صَفِيَّة فهمست في أذنه: دولت بنت مُتَمَيِّزة.. مستخسراها في المظاهرات.. خلي بالك منها.

هز الرجل رأسه في إيجاب وابتسم: بنتغلي إيه يا دولت؟

- مُدرسة إنجليزي في مدرسة الهلال.

- حاجة لطيفة خالص.. أنا عارف المدرسة.. هاكون على اتصال بيكي.

ابتسمت دولت بفرحة حقيقية وشكرته قبل أن تدفع صفيّة هانم لتلتجئ بالسيدات، يسرن في خُشوع مهيب، موكب علته الأعلام السوداء احتجاجاً على نفى سعد والقتل المستمر للمتظاهرين، ذُهل أبناء البلد قبل أن يُذهل الجند الإنجليز وتُخرسهم المُفاجأة، السيدات والفتيات يسرن في مظاهرة! يهتفن بسقوط الإنجليز بوجوه مكشوفة وأصوات عالية تخطت الحجاب!! التفّ حولهن الشباب والرجال يحمونهن ويوفرن لهن سلامة الطريق إلى القنصليات، تصدّعت حنجرة دولت من الصراخ: «عاش سعد» يسقط الاحتلال، وبعد دقائق باتت المظاهرة بالمشات بعدما نزلت ربّات البيوت من بروجهن وانضمت طالبات المدارس، كلّما وصلن أمام قنصلية هتفن وقدّمن ورفقات الاحتجاج واستنكار الاحتلال.. لثمّا رجعن إلى بيت سعد زغلول صرّب الإنجليز نطاقاً حولهن لإيقاف المسيرة، سدّدوا إليهن البنادق وحاصروا الشباب الذين يحمونهن، لثلاث ساعات كاملة ظلّت المظاهرة تضطرم تحت وهج الشمس، لم يتوقّف الهتاف لحظة حتى جاء الأمر فضيّق الإنجليز الحصار ودفعوهم دفعاً بجرايب الجنود ومن ورائهم الخيول حتى وهنت القوى وتفرّقت الجموع بعد يوم لم يكن أحد ليتخيل أن يأتي.

«سيدات مصر تتغيضن ويخلعن البرافع ويسرن في مظاهرة رافعين أعلام الأمة!».

ذلك اليوم رجعت «دولت» إلى شقّتها المزجّرة، خلعت حبرنها وبرقعها وارتمت على السرير وقد نسيت قلبها وعقلها «عنوة».. في بيت الأمة.



وَرُحْتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّ	خَرَجَ الْغَوَانِي يَحْتَجِجْنَ
سُودَ الثِّيَابِ شَعَارَهُنَّ	فَإِذَا بِهِنَ تَخْذَنَ مِنْ
يَسْطَعْنَ فِي وَسْطِ الدُّجْنِ	فَطَلَعْنَ مِثْلَ كَوَاكِبَ
وَدَاؤُ سَعْدٍ قَصْدَهُنَّ	وَأَخْذَنَ يَجْتَزْنَ الطَّرِيقَ
وَقَدْ أَبْنَى شَعُورَهُنَّ	يَمْشِينَ فِي كَنْفِ الْوَقَارِ
وَالْخَيْلُ مُطْلَقَةُ الْأَعْنُ	وَإِذَا بِجَيْشٍ مَقْبَسِلَ
قَدْ صُبُوتُ لِنُحُورِهِنَّ	وَإِذَا الْجَنُودُ سَيُوقُهَا

حافظ إبراهيم

تفَس اليوم

- هَاجَمَ الْمُظَاهِرُونَ السُّجُنَ فِي مَبْنَى الْقَمَحِ وَأَطْلَقُوا الْمَسَاجِينَ ثُمَّ هَاجَمُوا
السِّكَّكَ الْحَدِيدِيَّةَ لِقَتْلِ ثَلَاثِينَ شَخْصًا.
- أَضْرَبَ عُمَالُ إِمَارَةِ الشُّوَارِعِ بِقَازِ الْإِسْتِصْبَاحِ فَبَاتَتِ الْقَاهِرَةُ فِي ظِلَامٍ دَامِسٍ.

اليوم التالي

لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَنْ يَقَرَّعَ، فَبَابَ الْبَنَسِيُّونَ مَا كَانَ لِيَنْغَلِقَ، رَأَتْهُ بَنِيَّةٌ يُقَاوِمُ
السُّقُوطَ مُسْتَنْدًا عَلَى ثُبُوتِ أَبِيهِ فَهَرَعَتْ خَافِيَةً وَالتَقَطَتْ ذِرَاعَهُ، ارْتَمَى
عَلَى الْكَنِيبَةِ صَامِتًا فَالْتَفَتَ حَوْلَهُ الْقَاهِرَاتِ يَخْبِطُنَ صُدُورَهُنَّ قَلَقًا،
أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ بَعَيْنَيْنِ تَحَجَّرَتَا وَشُحُوبَ كَشْحُوبِ الْمَوْتَى،
أَتَيْنَهُ بِمَاءٍ شَرِبَهُ ثُمَّ تَقَيَّأَ عَلَى صَدْرِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْنِدَنَّهُ إِلَى الْحِمَامِ، أَكْمَلَ
إِفْرَاقَ مَعِدَتِهِ ثُمَّ جَلَسَ عَلَى كُرْسِيٍّ قَصِيرٍ وَتَوَلَّى بَنِيَّةَ صَبَّ الْمَاءِ فَوْقَ
رَأْسِهِ، نَزَلَ مِنْهُ تُرَابٌ وَعَرِقٌ وَدِمَاءٌ قَبْلَ أَنْ تُلْبِسَهُ جَلَابِيَّةً وَتُسْجِيهِ عَلَى
سَرِيرٍ، أَمْسَكَتْ بَوْرُكِي فَرُخَةً فَشَخَّطَتْهُمَا ثُمَّ نَاولَتْهُ فَأَبْعَدَ يَدَهَا.

- يَوْه!! لَازِمٌ تَسْأَلُوتِ يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنْتَ مِتْصَاب.. وَخَدَّ اللّٰه
فِي قَلْبِكَ.. هُوَ إِيَّاهُ الَّذِي حَصَلَ؟ سَلَامَةٌ يَقُولُ أَنَّكَ جَرَيْتَ بِالنَّبُوتِ
بَعْدَ مَا بَصَّيْتَ عَ الْمَرْحُومِ.. يَا حَوْلَ اللّٰه يَا رَب.. أَنَا قُلْتُ
الْإِنْجِيلِزْ نَشُوكَ وَلَا حَبْسُوكَ.

لم يفقه عبد القادر ما فائت، صَوْنَهَا كَانَ هَمِّهَا بُلْغَةُ هندية، عقله لا يكف عن استدعاء صورة أبيه، تُدَاهِمُهُ بَارِدَةٌ شَاجِبَةٌ كأطرافه التي لا مَسْهَاءَ، لا يَكَادُ يُصَدِّقُ أسطوره التي تقوّضت، دُنْيَاهُ التي تداعَتْ، العالم الذي كان مُسْتَقَرًّا فَتَشَقَّقَ وَانْفَلَقَ، يُضْنِيهِ وَيُصْلِيهِ إلحاح عقله في اختلاف قِصَّةٍ مُتَمَاكِكَةٍ تحفظ ما تبقى من ماء وجهه الذي انسكب تحت قدميه وتبخّر، قِصَّةٌ يَرَوِيهَا لِحَقَّةٌ عَوْدَتِهِ لِلْحَيِّ مُسْتَقْبَلًا التَّعَاذِي فِي مَقْتَلِ أَبِيهِ بِيَدِ الْإِنْجِلِيزِ! الْإِنْجِلِيزِ الَّذِي كَانَ يَتْبَاهَى بِصِدَاقَتِهِمْ وَخِدْمَةِ مُعَسْكَرِهِمْ! أَعْمَضَ عَيْنِهِ بِأَلَمٍ مُحَاوَلًا اسْتِيعَابَ مَسْرَحِيَّتِهِ الْهَزْلِيَّةِ الرَّدِيئَةِ الَّتِي لَنْ تَرْقَى لَتُعْرَضَ عَلَى مَسَارِحِ شَارِعِ عِمَادِ الدِّينِ، وَفِرَارِ عَوْدَتِهِ لِلْحَيِّ الَّذِي أَصْبَحَ ضَرْبًا مِنَ الْجُنُونِ.

انتشلته بنية من وحشة أفكاره:

- يا عبد القادر بزيادة قلقتي! إيه اللي حصلت لك؟

أَتَأْخُذُ الْأَمْرَ مِنْهُ لِحَقَّاتٍ لِيَفْتَحَ قَمَهُ: أَبُو يَامَات.

استوقفت الكلمة «ورد» الهائمة في الطرقة، تسير مستندة بأناملها على الحائط الطويل محاولة الاتزان، رَجَعَتْ، جَلَسَتْ الْقَرْفَصَاءُ بِجَانِبِ الْبَابِ تَسْتَرْقِ السَّمْعَ حِينَ أَرْدَفَتْ بِنِيَّةَ:

- منا عارفة إن أبوك مات الله يرحمه.. وبَعْدِينْ؟

ابتلع ريقه بصعوبة ثم تكلم بعينين زائغتين وابتسامة محمومة:

- تَسَحَّبَتْ النُّبُوتُ وَرَكِبَتْ الْأَوْتُمِيلُ.. عَيَّيْتُ الرُّشَاشَ وَجَرَيْتُ
عَ الْمُعَسْكَرِ.

- يا لهوي!! وبَعدين؟

- ضربت كل اللي واقفين بالنار.. كلهم.. غربلتهم.. وكسّرت باب
المُعسكر ببوز الأوتومبيل.

رمقته «ورد» من طُرف الباب وهو يحكي.. غيناه الذاهلتان ويده
المُرتعشتان أثارت انتباهها.

- دَخَلت على براميل الجاز المَرصوصة.. بطلقة واحدة
ولعت الدنيا.. واللي يجري أنشه.. أنشه.. لغاية ما خلّصت
عَ المُعسكر كُلّه.

انتهى عبد القادر ولم تُبدِ بنبة اوتيا حاليما قال، رَمَقته بابتسامة عَصِيبة
قَبْل أن تجس جبهته فوجدتها دافئة، لوت شفيتها قبل أن تُغَطِّيّه.

- معلش.. طول عُمرِكَ راجِل يا عبد القادر.. نام لك سَاعَتَيْن كِدّه
عَشان تفوق.

أغمض عينيه فخرجت، توارت ورد حتى مرّت بنبة قبل أن تتسلّل
إلى الخُرفة، اقتربت من عبد القادر مجاهدة سَلاسل ثَقِيلة مَربوطة في
قَدَميها من أثر الأفيون في دُمائها، تأملت جُروحهِ والنُّبوت المَكمُور
بجانبهِ فمدّت أصابعها إليه فضوّلَا حين فتَحَ عَيْنِيهِ بَغْتَةً وقبضَ يَدَها
بقسوة، تلاقت نظراتهما للحظات لم ترمش فيها جُفونهما قبل أن تترك
النُّبوت كما كان فحرّر عبد القادر يَدَها فانسحبت خارجة كورقة تترنح
في مهب الريح.



- مظاهرة كُبرى في القاهرة أبلغ مُنظّموها الحُكُمدارية بخط سيرها قوافق الحُكُمدار على التصريح لهم، مُشتت المُظاهرة وفيها كل طوائف الأمة من عُُمّال ومُوظّفين وطلبة مُتّقين بالحرية، استمرت المسيرة ثمانى ساعات ثم حدث إطلاق نار تجاهها من نافذة رجل أرماني، ضُمد المتظاهرون بنايته فقتلوه وأحرقوا بعض مُحال الأرمن والأجانب قبل أن يُسيطر منظمو المظاهرة على العنف ويوقفوا موجة الفُضُب... بصعوبة.

- القاهرة أصبحت معزولة تمامًا بعد قطع خطوط السكك الحديدية.

قلعة بولفاريسستا.. مآلطا

القلعة العتيقة كانت على ربوة مرتفعة، حوايطها مكسوة بالحجر ومُحاطة بسور عالٍ له باب حديدي يحرسه فريق من الضباط المآلطين بينادق طويلة لها حراب مدببة، في الحديقة الوارفة جُلس سَعد زغلول على كُرسي أمام منضدة فوقها قهوته، شاردًا يرمُق رماد سيجارته تحت أصابعه يتراكم وتوشك النار المُقترية أن تطول جلده.

مُنذ خُضر إلى مالطيات الأيام كلها سواء.. نهارها كليلها لا أحداث فيها إلا الوجبات بين رفاقه على مائدة الشيف الألماني الذي استأجروه

وأدوار الكوتشينة أو الشطرنج التي تتخللها تبادل الجرائد المهربة إليهم من مصر، يقرءون فيها تطوُّر الأحداث ويطرحون مخاوفهم واقتراحاتهم المتباينة قبل أن تشتعل الكلمات في الهواء فوق رؤوسهم، اختلافات فكرية لم يلحظها خلال زماثلهم في مصر، الاستئثار بالرأي، بالزعامة، العناد، التكتل، الاتهامات المتبادلة، والخصام في أحيان كثيرة! ساعات متوترة قابلها سعد بالصمت أحياناً وأحياناً بعصبية مريض سُكَّر، يترك المكان بعدها ويستأذن الحراسة فيرافقه فردان بأسلحتهما بعدما يمضي تعهداً بعدم الهروب، يتفصح في الجزيرة سيراً على الأقدام وهما من ورائه، يشتري بعض الأعشاب التي تخفض السكر في دمائه ويقابل عدداً من المالطين والأجانب المتعاطفين مع القضية، يصافحونه في حفاوة وينثرون عليه دعواتهم، قبل أن يعود ليشرب قهوته ثم يجلس ليسطر بعض ما حدث في مذكرات تعود أن يكتبها منذ سنة ١٩٠٧، مذكرات استهلها بعبارة: «ويل لي من الذين يطالعون من بعدي هذه المذكرات».. أوراق صريحة تحمل بين طياتها مُحاولاته المُستمِنة للتخلص من عادة القمار.. كواليس نزاعاته مع الإنجليز والمخديوي أثناء توليه الوزارة.. أخبار محصول القطن السنوي في أرضه ومصاريف بيته بالقرش وتقرير دوري عن حالته الصحية.. رأيه الصريح في المُقربين منه حتى وإن كان جارحاً ورغبته الحقيقية في زَكل مُؤخرة كل مُحتل يسير فوق أرض تلك البلد.

قَطَعَ شروده صَوْت آت من البوابة، دَب النشاط في عَيْنِهِ فاطمأ سيجارته وهو يتأمل الحارس المألطي يُدخِل الضيف، شاباً وسيماً مُهنّداً، اقترب خاملاً بين يديه كرتونة صَغيرة الحَجم:

- صباح الخير يا سعد باشا.. مجلات وجرائد الأسبوع.

- أشكرك جزيلًا.

بفرنسية ضعيفة استأذن الحارس المالطي في تفتيش الكرتونة التي أتى بها الضيف فوافق سعد، غرلها ولم يجد فيها سوى الجرائد والمجلات فاستأذن الضيف من سعد ودخل، أخذ الأخير الكرتونة ودخل إلى البيت، أتجه إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب بالمفتاح، فُضَّ الكرتونة وأزاح الجرائد قبل أن يلتقط مجلة اجتماعية، قلب الأوراق حتى توقف عند الصفحة الثامنة عشرة، أشعل «ابوريسبرتو» صغيرًا فوقه مكتواة حديدية، ما إن طالتها السخونة حتى كبسها على الورقة، ثوانٍ واحمرَّت المسافات ما بين السطور، ثم أصبحت أقرب للبنى الغامق قبل أن تتضح الكلمات؛ كلمات عربية مكتوبة بخط يدوي رفيع.

سري.. رقم ٢

أطلب الإذن لتمويل عمليات محدودة تترك أثرًا في أصدقائنا
للدفع الفضيَّة.

صبد الرحمن الهامي

قرأ سعد الرسالة مرَّات قبل أن يقطع الصفحة مع عدَّة صفحات عشوائية من مجلات أخرى ويحرقها.. تابع اللهب الأزرق يتصاعد حتى خبا وباتت الأوراق رمادًا جمَّعه في قبضته وخرَّج إلى الحديقة..

أطلقه في وجه الريح فابتلعتة ثم أشعل سيجارة وهو يسترجع سبعة وثلاثين عامًا مضت.. بقايا ثورة مَبْتُورَة بقيادة عُرابي.. استرجع أيام سجنه.. أيامًا آمِن فيها أن العُنف هو الطريق الوحيد للتغيير حين تُسدُّ كُل الطرق.. نرتكب أحيانًا أخطاء صَغيرة لتفادى أخطاء أكبر.. القرار مَصيري والتصعيد سلاح ذو حَدَّين.

أحدهما بالفعل عَلَى بُعد سَنَيمترات من قلبه.

قبل أن تنتهي السَّيجارة دفنها ودَخَلَ المَطْبَخ.. التقط قَصَّ ليمون.. بَصَلَة.. عَصَاة وُرْجاجة خَل.. ثم دخل غرفته وأغلقها.. كما في تعليمات رسالة عبد الرحمن فهمي السابقة فَعَلَ.. عَصِر الليمونة وورقة البَصَل على بعض الخل وقلَّبهم بيسرٍ ريشة رفيع قبل أن يلتقط كِتَابًا عتيقًا وينتقي صفحة بعينها ليكتب ما بين السطور ردًا.



حَضَرَ أَحْمَدُ فِي مَوْعِدِهِ تَمَامًا، سَأَلَ الْخَادِمَ الْمُتَوَثِّرَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
فَهَمِّي فَنَاولَهُ رِسَالَةَ اعْتِذَارٍ عَنِ التَّأخيرِ وَرَجَاءَ الْإِنْتِظَارِ فِي الْحَدِيقَةِ حَتَّى
يَجِيءَ، وَقَفَ بِضِعِّ دَقَاقٍ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَتأملُ الْبَيْتَ الْكَبِيرَ ثُمَّ تَمَشَّى،
انْفَرَسَ جِذَاؤُهُ فِي عُشْبٍ لَمْ يُشْدَبْ مُنْذُ أَصَابِيعَ قَبْلُ أَنْ تَسْحَبَهُ عَيْنَاهُ
لِعَرَبَةٍ سَعْدِ بَاشَا الَّتِي تَقِفُ أَمَامَ الْإِسْطِطِلِ، بِلا حِصَانٍ، اقْتَرَبَ يَتأملُهَا
حِينَ التَّقَطُّتْ أَذْنَاهُ حَمَامَةً فَرَسَ، دَلَفَ مِنَ الْبَابِ الْمُفْرَجِ فَلَمَحَ ثَلَاثَةَ
أَحْصَانَةٍ تَطْلُرُ وَسْهًا مِنَ الْمَرَايِطِ وَيَدَانِئِي تُدَاعِبُ جَبْهَةَ الْأَبْعَدِ، لَمْ
يُصْدَقْ عَيْنُهُ حِينَ تَبَيَّنَ صَاحِبَتُهَا، تَسَمَّرَ مَكَانَهُ يُسْجِلُ اللَّحْظَةَ، يَرُجُو
الثَّوَانِي أَلَّا تَمُرَّ أَوْ تَنْقُضِي، بِخَذَرٍ تَابِعَ عُودَهَا الْأَشْبَهَ بِقَارُورَةِ الْإِسْطِطِيلِ،
حَذَاءُهَا الْعَالِي الَّذِي أَبْقَظَ مِنْحَنِيَّاتِهَا، وَأَصَابِعُهَا الَّتِي أَخْرَجَتْ قَالِبَ
السُّكَّرِ مِنْ كَيْسٍ صَغِيرٍ وَقَرَّبَتْهُ مِنَ الْقَمَرِ، لَحَسَهَا لِسَانٌ غَرِيضٌ فَضْجَكَتْ
بِإِسْرَاءٍ وَرَبَّتْ عَلَى صَدْغِهِ الْهَائِلِ بِخَفَّةٍ، ثَوَانٍ وَالتَّقَطُّتْ أَنْفُهُ رَائِحَةُ قَرْنَفِلٍ
مَمْزُوجٍ بِخَوْخٍ وَيَاسْمِينٍ.

- ده «ميتسوكو»؟

التفتت نازلي ناحيته بَغْتَةً، تَأَمَّلَتْهُ ثَوَانِي قَبْلُ أَنْ تَنْقُضَ يَدَيْهَا مِنْ بَقَايَا
السُّكَّرِ.. بدون أن تنظر في عينيه سألت:

- بياع عطور؟

ضحك أحمد فاقترَب: لا، كُنت في شيكوريِل سَاعة ما نزلوا أول إنتاج منها، عَجِبني شكل الإِزَازَة وخلطة القرنفل بالياسمين والخوخ فسألت عن الاسم، عرفت إنه اسم بطلة يابانية في رواية اسمها «المعركة»؛ زوجة قائد حربي وقعت في حُب طابط إنجليزي، ودارت معركة حربية بينهما، طول الرواية هي في انتظار ميسن اللي هايرجع.. حبيبها ولّا الزوج.

- وطبعًا الحبيب الإنجليزي هو اللي بيرجع؟

- غالبًا.. أنتِ عارفة الإنجليزي ما يحبوش يخسروا أبدًا.

- وعادةً كل ما يعجبك عطر بتسأل عن قصته؟

- أي شيء ينجح في شد انتباهي ما بسببوش غير لما أعرف كل حاجة عنه.

أربكتها نظرة عينيه الثابتة فأردفت: فُرصة سعيدة.

قالتها واتّجهت إلى باب الإسطبل خارِجة.

- أنتِ عارفة إننا اتقابلنا قبل كده؟

أبطأت خطواتها وإن لم تلتفت فأردف:

- سنة ١١.. سُفّنتك مَعَ صَفِيّة هانِم في الجَنينة.

نَجَحَت الكلمات في جَعَلها تَلْتَفِت، أعطت ظَهَرها للشمس فصُبِغ شعرها فِضّة وتخلّلت الرّيح فتموّج متناثرًا على وَجْه تشرّب حُمرة.

- وأنا اللي شيلتك أول يوم المُظاهرة.. يَوْم ما أغم عليك لَمّا...

- افكر نك.

قالتها وانحرفت إلى مرتبط آخر ومدّت أصابعها لجبهة مُهرة
تُداعبها.. أردف:

- أحمد كبيرة.

- نازلي.

- عندك أخبار عن سعد باشا؟

مزّت رأسها نفياً ثم استطردت: أنت بتعمل إيه هنا؟

- عندي معاد مع عبد الرحمن بيه فهمي.

- بتشتغل عنده؟

- لا.. أنا باشتغل في مدرسة الطب. لكن إحنا أصدقاء.

اقترب منها للمسافة لاخط فيها ارتعاش أصابعها، جاهدت ل تمنع
نفسها من النظر في عينيّه، مدّ يده وذاعب عُنُق المُهرة فنفرت واضطربت
قبل أن تربت عليها نازلي مُهدّئة.

- مش متعوّدة على الأعراب.

- لما تعرفني هاتعود.

ارتعشت أصابعها: وهي ليه تعرفك؟

- المُهرة تحب اللي يفهمها.. باقدر أحس بيهم.

- وأنت حسيت بإيه لما شفتها؟

- المُهرة دي جريئة.. بس مَحبوسة.. نفسها نشوف الدنيا.

تهدجت أنفاس نازلي: هي بتفسح زي ما هي عاوزة.

- مع سايس؟

- ممم... مع سايس طبعًا.

- جرّبت مرة تمشي لوحدها؟ تروح مسرح تنفرج على رواية مثلاً!

دارت ابتسامة بين شفّتيها: خيالك واسع!

- الخيل أصلاً بيثته برية.. بيعشق الحرية.. والعيشة في روتين

إسطبل ولو كان جنّة أكيد ملل.. المهرة دي مستنية فرصة.

قالها أحمد ورفع مزلاج الباب الخشبي فابتعدت نازلي والمهرة
خطوات إلى الوراء تحفّزًا:

- أنت كده بتخوفها.

لم يجيبها.. مدّ يده للمهرة فاضطربت حركتها قبل أن يجلس على
ركبتيه بنأ للطمأنينة.. لحظات من الترقّب قبل أن تأخذ المهرة خطوة
نحوه.. فخطوة.. حتّى بات عنقها في مُتناول يده الممدودة.. ومقته
بيؤبؤ وأوسع من بين خصلات داكنة مُسدلة على وجهها ثم أحنّت رأسها
ودأبّت كفّه الممدودة.. بُهت نازلي وأخفت الإعجاب في راحة
يدها.. قام أحمد وربّت على عنق المهرة فتمسّحت به قبل أن يلتفت
لنازلي التي لم تنزل عينيها عن عينيّه.. لحظات لم يعرفا كم طالّت قبل
أن يقطعها الخادِم حين دخل الإسطبل.. حدّج نازلي باستغراب ثم رمى
أحمد الذي يقف في غير منطفته بنظرة ضيق:

- يا أفندي انفضل في الجنيّة.. عبد الرحمن بيه وصل.

خرج أحمد من المربط بعدما مسح على المِهرَة، ابتسم وهز رأسه تحيةً لنازلي حين عبّر بجانبها فبادلته ابتسامة مضطربة، عبد الرحمن فهمي كان واقفاً في انتظاره حاملاً في يده حقيبة جلدية، تمسحياً حتى السلامك ثم نزلاً بدروماً، غرفة غسيل لكنها كافية لاحتواء ما سيقال، أغلق عبد الرحمن الباب ثم جلس وفتح حقيقته وأخرج منها كتاباً، توقف عند صفحة بعينها وناول له لأحمد، ما بين السطور قرأت تلك الكلمات:

رسالة ٤ .. من مألطة

أخبر ما حصل من مظاهرات عقب قيامنا وبين أجل إبعادنا
ملأت قلوبنا شرواً وابتهاجاً، حتى كادت تعجب السجن إلينا،
وأفمننا شكراً لأمتنا وماتت علينا نفوسنا نفدي بها البلاد.. نعم،
تأرج هذا الشؤرر كثير من الأسف على النفوس التي أزهقت،
والمُدن التي أحرقت، ولكن أي مجد قام بغير هذه التضحيات؟!
وأي أمة تلتفت منها، بغير أن يُخاطر أبناؤها بأهز ما لديهم؟
لقد ساءنا أن نَدْخل بمض الأسرار في الحركة وارتكبوا جراً لم
لطيمة، ولكن متى حاجت الأمم فلا يعلم إلا الله مقدار هيجانها
ولكن المسئول عن هذا الاختلال هم الدين أساءوا إليها من قبل؟

- أنا فهمت الجملة الأخيرة صح؟

هز عبد الرحمن فهمي رأسه موافقةً: نقدر نبدأ إمتي؟

- فوراً.

- هانحتاج عمليات فردية تأثيرها قوي.. تجبر الوفود على سماع

صوتنا في المؤتمر.. لازم يحسوا إن وضع الإنجليز في مصر غير

مريح.. والعالم يسمع أخبار كراهيتنا ليهم.

- فيه أسماء مطروحة؟

- أنا جهّزت اسم نبدأ به.. هدف صعب لكن مؤثر وسمعته عالية من وقت الحرب.. واصله للملك نفسه في إنجلترا.. المشكلة الأساسية إن تنفيذ العملية هايكون محصور في يوم واحد بس في الشهر.. وبالتحديد خمس دقائق في اليوم ده.

- خمس دقائق؟!!

- شخصية قاسية جدًا على نفسها.. ما بياخدش إجازة غير يوم واحد بس.. ما عندناش غير دقائق محدودة ممكن نصطاده فيها.. لحظة خروجه من البيت.

قالها ثم أخرج ورقة صغيرة فيها اسم قرأه أحمد ثم نظر لعبد الرحمن فهمي.

- هي شخصية تستاهل رغم صعوبة التنفيذ.. هابدأ في دراسة المكان فورًا.

- الناس اللي معاك واثق فيهم؟

- جدًا.

- بالتوفيق يا أحمد.. البنت دولت اللي سلمتها لك.. أخبارها إيه؟

- شاطرة.. بتساعد حاليًا في طبع المنشورات وتوزيعها جوا أماكن الحريم وفي المدارس والمستشفيات.

- خلي بالك منها عشان دي من طرف صَفِيَّة هانم.. هاتحتاج نقدية قد إيه للفترة الجاية؟

- طبعجتين.. حَوالي خمسة جنيه.. وبحوالي اثنين جنيه رُصاص
وكيماويات عشان العبوة الناسفة.. وجنيه كمان للورق والمطبعة
وشوية نثریات.

أخرج عبد الرحمن فهمي ثمانية جُنيهاً من ظرف في جيبه، ناولها
لأحمد ثم انتزع رسالة سعد من بين صفحات الكتاب وأشعل فيها النار
ثم وضعها في المنفضة.. أردف:

- أحمد.. فيه حاجة لازم نتكلم فيها.. في حالة لا قدر الله لو حد
فيكم اتمسك.. سعد باشا والوفد مالهمش أي علاقة بالموضوع.
دس أحمد الورقة التي تحمل اسم الهدف في المنفضة المُشتعلة
بجانب رسالة سعد حتى تفجَّمتا معاً.. أردف:

- مين سعد باشا ده أصلاً؟



تولّت النوبة الأمشيرية صبغ مدينة الإسماعيلية بالغبار.. ركّعت الأشجار أمام الرّيح المُتربة وختلت الشوارع من المّارة وتعفّرت الأسواق ومراكب الصيّادين.. في الحيّ الإفرنجي وقفت السيّارة الأوستن أمام مدخل الفيلا.. بداخلها سائق يجلس خلف المقود ويقف بجانبها حارس مُسلّح يمتنع الشارع بعينين متوتّرتين وفوهة مُتربّصة.. يترقّب خروج سيده.. لحظات من السكون انقضت قبل أن تلوح عربة بطاطا تظللّها سحابة دُخان رائحتها حريق.. تَمّ الحارس على سلاحه وهو يراقب القادم حتّى لاح عجوز من وراء العربة.. دقن أبيض وجسم نحيف في جلباب واسع.. استرخى الحارس لمّا قرأ الوهن في ملامحه.. كان ذلك حين برزت عربة حنطور من الاتجاه المُقابل.. يقودها شاب تلعّع بشال أخفى نصف وجهه ذرأً للأتربة.. قايضًا لجام فريسه مُخففًا سرعته: مُعسلة أوي يا بطاطا.. صاح بها بائع البطاطا حين أصبح بجانب السيّارة الأوستن.. مَدَّ يده بداخل الموقد المُستعمل فتوتّر الحارس: you امشي.. قالها بحدّة.. ارتسمت آيات الجهل في وجه العجوز فرفع الحارس بندقيته ووجّها إليها مُتوعّدًا فأخرج بائع البطاطا يده بثمره ساخنة شقّها نصفين قبل أن يَضَعها فوق ورقة صفراء ويمدّها للحارس متمنّا: نفعنا يا خواجه.. كان ذلك حين

خرج كولونيل «تريفور» في زيه العسكري مُقترَبًا بِمُخطوات واسعة من سيارته.. مُمِيسًا كَلبه الستافوردشاير الرمادي الجامح بِحزام غليظ.. لَمَحَ السائقُ فَنَبَّهَ الحارس الذي اقترَب من البوابة لِيُؤمِّنَ خروجه سيده وَيَحِيلَ عنه حقيقته.. مَا إِن وطئت قَدَمَا «تريفور» بِلَاطِ الشارع حَتَّى دَسَّ البائع يَدَه في كومة البطاطا النينة فأخرج عبوة ناسفة بِدَوِيَّةِ الصُّنْعِ.. في نفس اللحظة التي استل فيها عَرَبجي الحَنُطورُ مُسدسًا مُخْبَأً في ظَهْرِهِ وقام على عربته.. وإِذَا بِمُلتَمِّمٍ يَخْرُج من العَدَمِ وَيندفع فجأةً تِجَاهَ الكولونيل! يركض بِسرعة جنونية شَاهِرًا سَيْفًا مُسْتَقِيمًا مُسَنَّ الخَوَافِ أَقْرَبَ لِإِنشَارِ مَرْبُوطٍ فِي راحته.. وفي يَدِهِ الثَّانِيَةِ مُسدس سَاقِيَةٍ.

ضَرَبَتِ الْمُفَاجَأَةُ الْجَمِيعَ! عَرَبجي الحَنُطورِ وبائع البطاطا والحارسَيْنِ وَحَتَّى الكَلْبَ!!

ثم حَدَثَ كُلُّ شَيْءٍ فِي عَشْرِينَ ثَانِيَةً.

الـ «ستافوردشاير» الرمادي كَانَ أَوَّلَ من تَحَرَّكَ.. أَفَلَتَ من قَبْضَةِ سَيِّدِهِ وَانطَلَقَ تِجَاهَ المِلتَمِّمِ بِمُخَالَفِ تَحْزِينِ الأَرْضِ.. فَلَكَ الحَارِسُ الشَّخْصِيّ لِلْكُولُونِيلِ أَسْرَ مُسدسه وَصَوَّبَ.. فَفَزَّ الكَلْبُ تِجَاهَ المِلتَمِّمِ فَشَقَّ سَيْفَ الأَخِيرِ لِحِمِّ رَأْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَشْطُرَ عَيْنَهُ اليُسْرَى.. سَقَطَ الكَلْبُ عَلَى الأَرْضِ مَتَمَرِّغًا يَصْرُخُ فِي أَلَمٍ حِينَ ضَغَطَ الحَارِسُ زَنَادَهُ فَانطَلَقَتْ رَصَاصَةٌ أَخْطَأَتِ المِلتَمِّمَ الَّذِي بَاغَتْ الحَارِسَ بِطَلْقَةِ أَرْكَعَتِهِ عَلَى الأَرْضِ قَبْلَ أَنْ يَتَلَقَّى رَصَاصَةً أُخْرَى مِنْ عَرَبجي الحَنُطورِ الَّذِي تَدَارَكَ المَوْقِفَ.. بِائِعِ البطاطا أَفَاقَ من صَدْمَةِ ظُهُورِ المِلتَمِّمِ المُبَاغِتِ فَارْتَمَى خَلْفَ عَرَبَتِهِ مُتَحَامِيًا بَعْدَ أَنْ أَلْقَى العبوة النَّاسِفَةَ فِي جِجَرِ سَائِقِ السَّيَارَةِ الَّذِي رَفَعَ مَدْفَعًا رَشَاشًا فَوْقَ النَّافِذَةِ وَاسْتَعَدَّ أَنْ يُطْلِقَهُ تِجَاهَ المِلتَمِّمِ.. الَّذِي أَصْبَحَ وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامِ الكُولُونِيلِ.. ثُمَّ ذَوَى الانفجارُ

انفجست السيّارة يسيراً فوق الأرض ثم سقطت .. تناثرت أشلاء
السائق والزجاج المُحطَّم المُخَضَّب بالدماء وألقي بالكونونيل والمُلتَمَّ
أرضاً قبل أن يقوم الأخير والنار مُشتعلة في ذِراعِهِ وقد تَکَشَّف وجهه
بعدما سَقَط لِثامه .. نَظَرَ إليه الكُولُونيل في غضب ممزوج برعب ..
عبد القادر !!! ثم هَمَّ بإخراج مُسدسه فتلقى من عبد القادر طفلة بترت
نصف راحته .. صرخ في هلع مصدوم قبل أن يخرسه نصل مشرشر هوى
على العُنُق فأحدث قطعاً أفنع عبد القادر أن يلتفت لِذِراعِهِ المُشتعلة ..
أطفأها في التراب فسكّن كل شيء بعدها دُفعة واحدة .. تابع عيني
الكُولُونيل الجاحظتين ورقبته التي تعرّت عُروقها .. يداهُ الممتشجتان
تحاولان وقف الدماء المنهمرة ، وفحيح يائس يحاول استدراك حياة
تُراق .. لحظات قصيرة وهذات الرعشة .. خمد الإنجليزي .. كان ذلك
حين التقطت أذنا عبد القادر خربشات الكلب على الأرض تقترب ..
التفت فرأى وَجْهاً مَشْطُوراً يُزْجِر ودماء مختلطة بلعاب يتناثر .. وثب
الكلب فدوت الطلقة من عربجي الحنطور .. اخترقت رأس الكلب
فجثم فوق صدر عبد القادر أرضاً .. نَظَرَ الأخير في ملايح الكلب
الصامتة ثم للعربجي فوق الحنطور الذي أشار إليه أن يصعد .. لم
يستجب حتى صرخ فيه : نُط يا غبي .. البوليس جاي .. قبل أن تدوي
صفارات الشرطة وتعالى .. تمالك عبد القادر نفسه فأزاح جثة الكلب
من فوقه .. رَكَض ناحية الحنطور المتحرّك .. قفز إلى يد ساعده
على الركوب متفادياً رصاصات تنطلق نحوه فلسع بائع البطاطا ورك
الحصان بكَرٍ باجه ليضرب الأرض بسنابكه ويبتعد ..



في مَرَكَب الصَّيْد جلس عبد القادر على الأرض الخشبيَّة مُسندًا ظهره إلى جانب المَرَكَب، خَرَج بائع البطاطا من كابينة القيادة وفي يده قماش ورُجاجة صبغة يُوَد، جلس بجانب عبد القادر يدهن ذِراعَه التي احترقت من أثر القنبلة فيما فَرَّغ أحمد من مُراقبة الشاطئ الذي ابتعد حتى اطمأن أن أحدًا لم يتبعهم قبل أن يلتفت لعبد القادر.

- اسمك إيه؟

نظر له عبد القادر بضيق قبل أن يلتفت إلى بائع بطاطا.

- اسم الكريم؟

- عمَّك إسحاق.

- سيجارة يا عم إسحاق؟

ناول عبد القادر كبريتًا وسيجارة، أشعلها ولم يلتفت لأحمد الذي انفجر غيظًا:

- أنت ابن الراجل اللي مات في أول مُظاهرة؟ الفتوة؟ إيه اللي جابك الإسماعيلية وتبع مين؟ انطق.

التفت له عبد القادر بهدوء: مش تبع حد.

- مش تبع حد!! جاي تخلص على رئيس مُعسكر التل الكبير وميش تبع حد! أنت مأفِن ياله؟

رَمَقه عبد القادر بغضب قبل أن يقوم مُتحفِّزًا فتدخَّل عم إسحاق واضعًا نفسه بينهما:

- أقعد يا ابني عشان البحر يستحولنا.. أقعد.. ما تخلّش الشيطان يركبك.. وأنت يا أحمد تعالى.. تعالى.

سَحَبَ أحمد إلى الكابينة التي جلس فيها صيَّاد عتيق خلف عَجلة القيادة.. هَمَسَ في أذنه:

- باللطافة والمفهومية عشان مانروحش بلاش إحنا على كَفِّ الرب.

- ده كان هابضيِّعنا يا عَمِّ إسحاق.. ما شفتش عمل إيه؟ ده مجنون!
وإزاي عرف معاد خروجه؟

- بالهداوة.. الواد ده وراه قَصَّة ومَصْلِحَتنا نعرفها.. ده واد يفوت في الحديد وبمكن ينفعنا.

- إحنا ما عندناش نقص في الرَجَّالة.

- قليل اللي بالجراءة دي.. ورجالتنا بينقصوا يوم عن يوم.

زفر أحمد نفسًا قبل أن يهزَّ رأسه مُوافِقًا ويَخرجوا إلى عبد القادر.. كان يلف ذراعه بخرقه.. ساد الصمت لحظات حتى انتهى ثم سأل أحمد:

- أبوبا.. عملتوا معاه إيه؟

- كانت خارجة كبيرة.. مُظاهرة.. صَلِينا عليه في السيدة زينب
وعَدَّينا على بيت سعد باشا و...

قاطعه عبد القادر: آدي اللي خدناه من سعد.

جزَّ أحمد أسنانه كائِنَمَا دِفاعه: أنت تعرف كولونيل تربفور منين؟

- كُنت شَغَال معاه في الكامب.

ألقاها في هدوء فنبادل أحمد وإسحاق التعجُّب: شَغَال معاه؟!

- آه.. أنتو مبن بفقه؟

٧ إبريل ١٩١٩

- أمام الإضرابات العامة التي شَلَّت الحياة في البلاد اضطرت إنجلترا إلى عزل الحاكم البريطاني السير «وينجت» والإفراج عن سعد باشا زغلول ورفاقه.

- الإنجليز يسمَحون لسعد باشا زغلول والوفد المرافق بالتوجُّه إلى فرنسا للاشتراك في فعاليات مؤتمر الصُّلح الدولي المقام في فرساي..
مظاهرات السرور تَمُم البلاد من شرقها لغربها.

- الإنجليز يسمَحون للمصريين بالسفر بين المديرات بعدما كان ممنوعًا إلا بتصريح.

٨ إبريل ١٩١٩

- مظاهرة عظيمة اشترك فيها كل أطراف الشعب رجال ونساء، أطباء ومُحاسبون وموظفون وطلبة البوليس والجيش، وحتى النزلاء الأجانب شاركوا المصريون فرحتهم، الكل يحمل صور سعد ونقش الهلال مع الصليب وتحتة جُملة «يحيا الاتحاد المُقَّس».. أطلق جنود الإنجليز النار على المتظاهرين فأردوا أربعة منهم بينهم طفل صغير أبحرَ الدم الحار في حُرُوق المتظاهرين وكادوا أن يرتكبوا ما لا تُحمد عقباه لولا تدخُّل المُنظِّمين.

٩ إبريل ١٩١٩

- جنازة مهيبة مُنظمة لقتلى مظاهرات ٨ إبريل، سارت في مُقَدِّمة الموكب فرقة موسيقية تصدح بنغمات الحُزن تليها النعوش الأربعة بحملها الطلبة فوق الأعناق، الشكون خبم على المشهد ولم يرتفع إلا نداء كل يضع نوان يقول: «تحيا ضحايا الحُرَّة» فيردد الجمع النداء في خشوع.

- الإنجليز يسمَحون بفتح التلاميذ الليلية والمسارح والمقاهي.

بعد أيام

فيلا عبد الرحيم باشا ضبري.. الجيزة

السَّلم كان عالِبًا، يُوازي حَاطط البَهو الواسع المُعلَّق عليه صُور العائلة بملا محهم التي تحيل الروافد الفرنسية، ينهي السَّلم عند مدخل الصَّالة الكبيرة التي نخرج منها طُرفة تَصِل إلى جَنَاح النوم.. قَطَعَت المُرَبَّة العَجوز المسافة مُحاولَة التقاط أنفاسها حتى وَصَلت إلى غُرْفَة سَيِّدتها الصَّغيرة ففرعت الباب.. ادخلي با دادة.. نطفتها نازلي بصوت عالٍ لِتُسمع العَجوز، كانت على سَريرها جالسة في رداء أبيض تُطالع مجلة موضَة أوربية.

- جواب.

- من مين؟

فرأت الخادمة على الظرف: الأنسة نازلي.. مش مكتوب مين اللي باعته.

كان ذلك كفيلاً بجذب انتباه نازلي، حدث جديد يكسر جُمود الأيام الرتيبة يعني الكثير، تَرَكَّت المجلة والتقطت الجواب.

- أحضر عشا؟

- بابا ما اتكلمش؟

- التليفون ما ضربش من صباحية ربنا.. أحضر العشا؟

بدأت نازلي نَقْضُ الرسالة فتمتمت الخادمة وهي تُغْلِقُ الباب وراءها: هاحضر العشا.

الظرف كان نظيفاً أبيض، لا أثر لأختام بريد عليه ولا طابع، فقط اسمها مكتوب بخط مقروء، فَضَّته فَوَجَدَتْ فيه إعلاناً مطويّاً قرأته:

«يعلن مسرح الإيجسيانة عن عرض رواية «قولوا له» للأستاذ نجيب الريحاني وفرقة المكوّنة من مشاهير الفنانين، مُنتخبات من أجمل وأعذب الأغاني من تأليف الأستاذ بدیع خيرى والحن الشيخ سيد درويش.. اسكتشات تمثيلية مبهجة واستعراضات مذهشة كل ليلة.. الساعة الثامنة مساءً للعموم، يوم الأحد مائينيه، الأربعاء للسيدات فقط.. احجزوا محلاتكم من الآن قبل نفادها».

انتهت نازلي من القراءة ولم تكذ تستوعب مغزى الرسالة حتى عثرت على صورة مقطوعة من مجلة لمهرة بيضاء تجري في حقل وتذكره في قاع الظرف، تذكره لحضور حفلة اليوم التالي، فجأة استوعبت الرسالة، جلست على السرير وانتابها الاضطراب، سرّدت في صورة المهرة الراكضة ثم تمشت بأصابعها على اسمها المكتوب بخطه.. أحمد.. يا لجراته! ووقاحته! لكن تشفع له وسامته.. كيف نسئ له أن يدعوها إلى مسرح عِماد الدين؟ هكذا بدون مُقدمات؟ أنا حتى لا أعرفه.. يظنني لقمة سائغة من بعد كلمتين في إسطنبول الخيل!! جبانة مثل المهرة؟ مَنْ يظن نفسه؟ لن أذهب.. لا.. سأذهب.. لأرى المفاجأة على وجهه حين يجدني أمامه لا أهابه.. مغرور!!

اليوم التالي.. مسرح الإيجيبيات

الساعة ٤٥:٧م

فرغ رصيف المسرح من طابور حاجزي التذاكر الذي أرحمه فانصرف بآعة الفستق والترمس والقازوزة ورجع الشارع لصخبه المعتاد، بائع التذاكر كان يقف بجانب كشكه المُلصق عليه لافتات دعاية مسرحية «قولوا له»، يُدخن سيجارته بعد ساعات طويلة قضاها في تمزيق تذاكر الدخول وتسليم الحاضرين لزميل يوصلهم إلى مقاعدهم الخشبية في قاعة العرض.

بخبيرة عمله كان يعرف تلك الأشكال جيدًا، من يقفون مُتأنقين في البدلات المكوّنة حاملين الورود والهدايا الملفوفة بالشرائط الحمراء، هؤلاء الرومانسيون الذين يدعون ولا تُستجاب دعواتهم، كم يحلو له العبث فيهم، العزف على أوتارهم المشدودة حتى تنشز أو تنقطع، اقترب ببطء من الواقف يُراقب الشارع في توتر، ينتظر دوكانًا آخر أو ملاءة لف تلكات، كمنح تذكرة بين يديه يقبض عليها في عصبية فاقرب: - داخل العرض يا حضرة؟ أصل العرض هايتندي خلاص بعد عشر دقائق.

نظر إليه للحظة ثم أجابه: مستتي ناس.

- طب ما نسيب لها التذكرة ع الباب وتدخل لا يفوتك
الإسكتش الأولاني.

رمقه بضيق: مَمون.. هاستنى هنا.

ذارى عامل التذاكر ابتسامته في دُخان السيجارة وقد استعد لخوض
المَرحلة الثانية في التسلية السادية والتي تبدأ بجملة: «الجنس اللطيف
دايمًا غدارين!».

كان ذلك حين تركه أحمد ومشى بخطوتين ناحية الدوكار الذي
حاذى الرصيف ثم توقّف، لَحَظَات ونَزَلت مِن السَلَم الصَّغِير في
فستان فستقي مطرّز ويدها مَروحة من نفس اللون، وقفت على بُعد
أمتار فاقترَب:

- اتأخرتي.

- أنا أصلاً ما كتش جاية.

- وجيني ليه؟

ارتبكت أنوثتها.. أجابته بعصبية: جيت عشان... أنا مش
مُهرة مَحبوسة.

- جميل أوي فستانك.. الأخضر لايق مع لونك.. عشان عكس
الوردي اللي في خدك...

قاطعته: ما تغيرش الموضوع من فضلك.. أنت إزاي بيعت لي
جواب على البيت؟ مش شايف إن دي جراءة زيادة عن اللزوم؟

- كنت متأكد إنك هاتفهمي الرسالة.

- طبعًا بافهم.. أنت فاكرني إيه؟

- أنت أجمل بنت شفتها.

ألجمتها كلماته، كبرياء الأنوثة تشاجر بداخلها مع لذّة المديح، عقل يُصارع قلبًا.. عيناه الوائقتان تخترقان السور العالي الذي يُحيط اسم «نازلي» منذ قديم الأزل.. السور الذي صدّه جمعات الصليبيين والمغول من أبناء الباشوات والأعيان.. ها هو يتداعى ولا تقدر على مقاومة لذّة متابعتها ينهار.. ألم لا يخلو من متعة.. انتهتها كل تلك الأحاسيس قبل أن يُباغتها بابتسامة ويلتقط يدها بلا استئذان:

- المسرحيّة هاتبدأ.

رمقته بغضب فمال برأسه:

- أوعدك نتخاّق بعد العرض.

زفرت في ضيق مُصطنع ثم سارت بجانبه قبل أن تسيل يدها من يده في حركة رفض استعراضية، مرّابائع التذاكر الذي قطع تذكّراتهما فغمّز بعينه لأحمد وابتسم.. تخلّلا المقاعد حتّى جلسا على كرسيين يبعدان أربعة صفوف عن خشبة المسرح، لم يكن العرض قد بدأ بعد، ضربت نازلي الهواء بمروحتها في حركة سريعة مُبدّدة الرطوبة وقلق يتتاها وإثارة، كانت المرّة الأولى لها في مسرح بجماد الدين، المرّة الأولى لها بين سهارى الليل، والمرّة الأولى التي تُواعِد شابًا وتُقابله، تجنّبت نظراته التي تزيدها اضطرابًا وعينيه اللتين تحاصرانها.. حتّى تكلم:

- أول مرّة تشوفي الريحاني وفرقته؟

- يسمعت عنه.

- أنا بقول إنه أحسن أرتيست دلو قتي .. دمه أخف من علي الكسار ..
خضرت له كل رواياته.

- غاوي مسارح ؟

- جذاً .. وروايات وموسيقى وسينما .. الفن ثورة في حد ذاته ..
والفنانين دول من أول الناس اللي نزلوا الشارع في مارس ..
الإنجليز منعوا العرض ده قبل كده ومع ذلك مستمرين ..

قاطع كلامهما خبطات بدء العرض ثم انفتح الستار، خرج رجل
بدين أمام اللمبات ذات المرايا فبدأ ظلُّه ضَخْمًا على خلفية المسرح:

سَيِّدَاتِي أَنْسَاتِي سَادَتِي .. مَسْرَح إِجْبِيَانِي يُرَحِّب بِكُمْ وَيَمْنِي لَكُمْ
لَيْلَةً مُنِيعَةً مَعَ رَوَايَةِ «قَوْلُوا لَهُ» .. كَلِمَات بِدِيعِ تَحِيرِي وَالْحَنَانِ سَيِّد
دُرُوش .. الاسكتش الأول يُعْتَوَان «لَحْنُ الشَّيَالِين».

انسحب المُقَدِّم من المسرح قبل أن يدخل طَابُور من سَبْعَةِ رِجَالٍ
يَرْتَدُونَ مَلَابِيسَ الشَّيَالِينِ وَعَلَى وُجُوهِهِمْ غُبَارٌ مَرَسُومٌ، يَمْشُونَ فِي
إِرْهَاقٍ مُصْطَنِعٍ يُطَوِّحُونَ أَذْرَعَهُمْ وَقَدْ أَحَاطَ كُلُّ مِنْهُمْ خَصْرُهُ بِعِزَامِ
الشَّيَالَةِ، تَوَسَّطُوا الْمَسْرَحَ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ الْفَرْقَةَ وَيَبْدَأَ الْغِنَاءُ:

يَسِدُ الْجِزَامِ عَلَى وَسْطِكَ غَيْرُهُ مَا يَفِيدُكَ

لَا بُدَّ عَنْ يُومٍ بَرَضُهُ وَيَعْذِلُهَا بِسَيْدِكَ

وَأِنْ كَانَ شَيْلُ الْحَمُولِ عَلَى ضَهْرِكَ يَكِيدُكَ

أَهْـوُونَ عَلَيْكَ يَا خُرَّ مِنْ مَدَّةٍ إِيْدِكَ

مَا تَبَالَهُ بِيَدَا أَنْتِ وَيَهْـوَاهْ

وَتَسْتَعَانُ عَ الشَّيْـقَى بِاللَّهِ

واهو اللي فيه القسمة طلقاه

واللي مافيهشي إن شالله ما جاءه

ما دام بتلقى عيش وغموس

بهمك إيه تفضل موحوس

ما تحط راسك بين السروس

لا تقول لي لا خيار ولا فاقوس

اندمجت نازلي، تأملها أحمد تمايل وتصفّق مع كلّ مقطع وتنظير
ضحكًا كطفل يرى الحياة لأوّل مرّة ثمّ لمس تأثرها حين ظهر «الريحاني»
وذكر أنّ ذلك العرض شاهده سعد باشا في نفس المسرح قبل أن يُنقى
إلى مألطة.. انتهى الحفل بأغنية رائعة تُدعى «سألته يا سلامة» قبل أن
يقوما ليخرجا بين الجموع.. تمسّياً على الرّصيف في صمت حتى بلغا
رجلاً يحمل دلوًا:

- تشربي كازوزة؟

هزّت رأسها موافقة فاشترى زجاجتين ثم استأنفا المشي.

- عجبتك المسرحية؟

- جدًّا.. ما كنتش أتخيل إن المسرح مُمكن يقدم البولوتيك
بالمنظر ده.

- المسرح حياة حقيقية.. وأغانيه شعارات المظاهرات.. ما أظنش
نزلتني مظاهرات؟

- صعب بابا يقتنع بالفكرة دي.

- مُهرة جَميلة.
- مش لازم أنزل المظاهرات عشان أكون قريبة من الناس..
أنا ما سبتش صفة هانم لحظة.
- بالراحة ده مش اتهام.. ده نوع من الغزل.
- احمرّت وجنتاها: أنت عارف إن دي أول مرّة فعلاً أسهر
فيها لوحدتي؟
- أنت مش لوحده.
- حاسة إني بعمل مُغامرة.
- خايفة؟
- لا.. ودي غريبة!!
- تحبّي تحضري عروض ثانية؟
- دي دعوة ثانية للخروج؟
- أعتقد.
- أفكر.
- ثم وقفت فجأة وسدّدت له نظرة برأس مائل: أنت مين؟
ابتسم قبل أن يجيبها: أحمد عبد...
- قاطعته: الحي كبيرة.. وعاوز إيه يا أحمد أفندي؟
- من ساعة ما شفتك في بيت سعد باشا حسيت إننا مُمكن
نبقى... أصدقاء!
- مدّت خطواتها: مفيش حاجة اسمها أصدقاء بين الراجل والست.

- لاحقها: حبايب؟
- ميش يمكن أكون مخطوبة؟
- ما كتشيت جيتي.
- أنت مغرور.. جدًا.
- وأنت جميلة.. جدًا.
- حاولت السيطرة على سخونة أسعرت خديها: هو يعني إيه كبيرة؟
- الاسم جاي من الكبير.. يعني منفاخ الحدّاد اللي بيولع النار..
جدي كان حدّاد.
- حدّاد!! وأنت وارث إيه منه؟ تعرف تولع النار؟
- وما باطنفهاش.
- أنت سنك قد إيه؟
- أكبر منك بحوالي عشر سنين.
- متجوز؟
- رفع أصابعه الخالية: لا عندك عروسة؟
- معقولة ميش لافي حد يرضى بيك؟
- غريبة بالنسبة لأنني وسيم ميش كده؟
- رمقته في دهشة لا تخلو من ابتسام: أنت مُستفز جدًا.
- عامة أنا هاعرفها إذا شفتها.
- إزاي؟
- بتبقى ماسكة وردة حمراء.

نسارعت أنفاسها فقاطعته: أنا أتأخرت أوي.
قالتها وأشارت لحنطور اقترب.. ساعدها أحمد على الصعود
ثم سألها:

- هاشوفك تاني؟

- يمكن.

- يبقى هاشوفك تاني.

- مش بقول لك مغرور!

قالتها بابتسامة ونحرك الحنطور، ثم توقف بعد أمتار فمشى
أحمد تجاهه.

- ١٤٢ -

همست بها في أذنه.

- نعم!!

- دي نمره النليفون.. على سترال البستان^(١).. اطلع يا أسطى.

ألقتها واللون الأحمر يغزو وجتها والشفاه، قبل أن تبعد محتضنة
بين أصابعها نذكرة المسرحية.
ووردة حمراء اشتراها من أجلها.



(١) الاتصالات كانت تتم عن طريق سترالين فقط في القاهرة، سترال البستان
أو سترال المدينة.

أبشاق الغزال.. مركز بني مزار.. مديرية اليمنيا

عادت دُولت إلى قريتها بعد فرار السَمَاح بالسَّفر، تركت في القطار قبل أن تنزل لكتتها القاهرية وبذلت وشاحها الأزرق بآخر أسود، استأجرت جِمارًا، عَرفت من خلال حكي المَكَاري الذي يَقوده ما حدث في بلدتها أثناء غيابها.

بدأ الأمر بمسيرات نحو مخفر البوليس تُنادي بالاستقلال في اليوم التالي لنفي سعد ورفاقه، تلاها رد فعل عنيف من السُّلطة تمثل في مطاردات بالخيول وجلد بالكرايبج لأهل البلد تطوُّر إلى قتل وسرقة لدورهم واغتصاب للنساء والفتيات ممَّا اضطر الأهالي للإغارة على مركز البوليس وإطلاق سراح المُعتقلين فيه، قبل أن يقطعوا السُّكك الحديدية، فأتى الرد غارات بالطائرات على تجمعات عشوائية قُتل فيها عدد غفير من الناس قبل أن تستبعد القوات الإنجليزية السيطرة وتوقع عقابًا يتلخّص في أن تأخذ من كُل قرية عددًا مُحددًا من الأنفار لجلدِهِم، دون تُهمة، إتاوة للردع والتخويف وإلا يَحدث اجتياح آخر وسلب واغتصاب، كما ألقت الطائرات منشورات تحذير نصها:

«كُل حادِث جديد من حَوادِث تدمير مَحَطَّات السُّكك الحديدية يُعاقب عليه بإحراق القرية التي هي أَقرب مِن غيرها إلى مكان التدمير».

تأملت دولت حطام قريتها والناس السائرين في الأرض كمداً قبل
أن تصل إلى بيتها، غيط البرسيم كان محروفاً والبهايم اختفت، نامت
الساقية على جانبها فتشققّت الأرض عطشاً، استقبلتها والدتها بوجه
ضارع ليتنسم قبل أن تسأل عن ياسين.

- ياسين!! ياسين ماجاش يا بنتي.. اللي بعثوه لنا واحد ثاني.

- يعني إيه يا أمه!! إيه الكلام ده؟!

- والله ما خابرة يا بنتي.. ما بجاش ياسين اللي أعرفه.. ولدي
عماد أخرس وأعمى.. أولت أولت عمول السلطة جلدوه على
ضهره يا حبة عيني.. خمسين جلدة.. ما نطبخش بكلمة واحدة!
ولا صرخ!! تنه ساكت لا بيتقوت ولا يبشرب ولا حتى بينعس.

- جلدوه الكفرة!

- رُوحني له يا بنتي.. جاعِد ناحية الترة الجبلية.. يمكن يجدرني
تحابليه يتكلم.

ارتدت دولت جلباباً صَبِنها بأحزان البلد قبل أن تعبّر الغيط
المحروق وتقترب من الترة، بطأت مشيتها لا إرادياً حين وقع
بصرها على ياسين، أدمشتها عظامه البارزة ورقبته الهزيلة وسكونه
الأسهب بسكون المساخت^(١) التي خافتها في الصغر، لم يبلغ يوماً تلك
النحافة والهزال! اقتربت حتى باتت على بُعد خطوة منه قبل أن تلاحظ
العلامات التي نشعت دماءً في ظهر جلبابه، وضعت يدها على كتفه
فالتفت إليها وابتنس ثم قام واحتضنها بلا كلمة، حُضن طويل اعتصرها

(١) المساخت: اسم يُطلق على التماثيل الفرعونية.

فيه، نظّرت في عَيْنِه فأدرِكت ما رَأَتْه أَمَها، كَسَرة أَغور من أن تَفك
طَلا سَمَها الكَلِمات، جَلَسا وبعَد سَكُون تَكَلَّمَت:

- حَمَد الله على سَلامَتِكَ يا ياسين.. وَاحشَنِي يا خوي.

- جِرتَنِي مَدْرَسَة في مِصر؟

- فَضَلَة خَيرِكَ ودَعواتِكَ.

انساب الصممت بينهما.. كأَن الكَهرياء نَأَتْه فيتَكَلَم ثم تنقَطِع فيظَلَم
وَجَهِه وتَحجَر عِناهُ.

أَمَها لَحَظَات قَبْل أن تَتَكَلَم: عَينِكَ شائِلَة هَم تَجِيل يا خوي!!

- غَيبَتِكَ السَنين اللَّيْ فانت جِطَعَتِنَا.. احكِي لِي.. طَئِنِي عَليكَ
يا خوي.

- أَنِي.. يَعبِت مِ الحَكَمِي.

- أَمِي بِتَجول إنكَ ما رَايد تَتَحَدَّث مَعَ حَد من سَاعَة رَجوعِكَ.

غاب في صَمَتِهِ ثَانِيَة فَاسْتَحَثَّهُ.. اعْتَصَرَتْ كَفُّهُ جِفَنَة تَراب.. أَرَدَفَتْ:

- مِش رَايد تَتَكَلَّم مَعَاي؟! أَنَا دَوَلْت يا ياسين! يَسْرُك مِن وَا حَنَا

صِغار.. احكِي يا خوي.. فَضْض.. خُفَّف على جَلَبِكَ.. سَمِعَتْ

إنكَ كُنْتَ جَا عِد عند العَرَبان في رَفَح!!

اسْتَقَرَّت عَيناه في انْعِكَاس الشَّمْس على العِياهُ قَبْل أن تَرْتَعِش شَفْهاهُ

وَيَتَحَرَّر لِسانَهُ:

- أَخْدونَا في جَطرَعِ الجَنظَرَة.. وَمِن الجَنظَرَة طَلَعْنَا السَويِس..

كَات شُغَلَتْنَا نُحْفَر بَير وَلَا اتْنين لِّلْسلْطَة وَبَنِي سَواتِر وَدُشَم..

لغاية ما جِه يوم وجَّوات الأتراك جات من نواحي سينا تضرب
في الإنجليز.. جوَّة الإنجليز كانت صِغيرة.. ضعفت.. طلبوا
مِنَّا أنا والعيال نَمْسِك سِلاح.. اتجسمنا في الرأى.. شوية جالوا
ما نمسكش سلاح على مُسلم زَيْنَّا.. وشوية جالوا نمسك سِلاح..
الأتراك احتلال والإنجليز احتلال وربنا بيسلِّط أبدان على أبدان..
وانحزت للرأى الأخراني.. أنا واتنين من العيال.
أغمض عَيْنيه وسَكَت فسألته: مش غلط يا ياسين.. أنت في حرب..
ورجبتك مع الإنجليز.. والأتراك أوسخ من...
قاطعها: أني ما ضربتش في الأتراك.

- أَمَّال؟

- الإنجليز لَمَّا لجونا اتجسمنا في الرأى حَبُّوا يعرفوا اللي موافج
م اللي مش موافج.. مين معاهم ومين مش معاهم.. خُصوصًا
بعد ما الواد عطية ابن أبو وهذان اتخانج مع نفر منهم وضربه..
الإنجليز رَضُّوا العيال اللي رافضة صَف وخطوا البنادج في
رجابيهم من ورا.. وأمروا الموافجين يضربوا.
نهدَّجست أنفاسها وأرادت أن تسأله فالجمها الخوف..
لحظات وأكمل:

- العيلين اللي معاي ما ضربوش.. بكوا ورَمَوْا سلاحهم ع الأرض..
الإنجليز ضربوهم بالنار.

- وأنت يا ياسين؟!

... -

نسج عقلها هواجسه حين طال الصمت:

- يا لهوي .. عيال البلد يا ياسين !!

- يا كنت هاضرب .. يا كنت اموت زي ما ماتوا.

- اني مش مصدّجة وداني !!!

شردت عيناه في الأفق ونحجّرنا قبل أن يتكلّم بشكل آلي غير عابئ
بخط الريالة الذي تدلى من فمه إلى صدره.

- أوّل واحد كان شعبان ابن معوّض البجّال .. ما كانش مصدّج ..

ولا أنا كنت مصدّج أني بدوس الرّناد .. ثاني واحد كان عطية ابن

أبو وهدان .. اصّير على روحه جبل ما الرصاصة نصيبه .. ثالث

واحد كان عريضة ..

- بزيادة يا ياسين .. بزيادة.

تأمّلته بعينين امتلأتا رُعباً قبل أن تقوم، ابتعدت وبعد بضغ خطوات
نظرت وراءها علّه يكون سراًباً، أخا لم يعد لقريته، أخا قتل أو مات قبل
أن يولد، لكنّه كان هناك، لا يتحرّك، رأسه نكس على صدره وقبضت
يده حفنة تراب دسّها في فمه.

رجعت دولت إلى البيت فبدّلت ملبسها وحملت حقيبتها التي
جاءت بها، سألتها أمّها عن ياسين إن كان باح بما في صدره فأجابت
باقتضاب: يا أمّه الحرب صعبة .. سيبه يأخذ وجّته لحدّ ما يفوج .. اني
لازم من أرجع مصر

رَكبت جِماراً فِقْطاراً فدو كاراً أغمضت فيهم عينيها حبساً للدموع
حتّى رجعت إلى القاهرة.



صَحَّ الوقت

أصبح وجود عبد القادر بين عاهرات بنية أمراً عادياً، ضيقاً يأتي ليقضي ليلته في فراش يعفيه العودة إلى حبه، الحبي الذي ينتظره بزفة كزفة «مطاهر» مقطوع الغرلة بعدما قتل أصدقاؤه من الإنجليز أباه! فقط راسل أمه عن طريق صديق ليطمئنها أنه حيٌّ يرزق، وعرف من الأخبار أن «حنفي أبو قطر» أحد صبيان أبيه اعتلى كنبه الفتونة ويعقد النية على التنكيل به ليقطع كل أمل باق في نفسه أن يرث منصب فتوة المنطقة ومن عليها، فهو العاق الخائن، الفاسد الذي خرج من ظهر العالم.. من ظهر شحاتة الجن بجلال قدره.

الزوي عبد القادر في بيت بنية بذراع مُحترقة وعقل مُضطرب، عازِفاً عن الطعام والكحول، وعن الفتيات رغم إدمانه «الغزوة» يومياً لسنين خلت.. لذكرى أيام رخائه تحملت بنية مصاريف معيشته بعد انقطاع رزقه، وتولت سلامة النجس «على مضض» نوريد أسطر كوكابين مغشوشة حتى يغور في داهية، وزعم أن يصف بهية الفعر «التحتاني» كان له تأثير خاص على عبد القادر، إلا أنها حين حامت حوله عارضة خدماؤها مجاناً لم تستطع نزعه من الكآبة التي ملأته أو دوامة الأفكار التي فرمت رأسه وطلت من عينيه، صرّفها بهدوء وكاد أن يعلق الباب على مؤخرتها ثم سحب سطرًا من البودرة البيضاء إلى أنفه وجلس

يرمق ثبوت أبيه المكسور ويستعرض ما آلت إليه حياته .. نفذت الأموال ولا بد من معاودة العمل .. لكن أين ومع من وقد وضمه الإنجليز بوصمة عار لن تزول! كما أن تجارة الكوكابين تُعاني تَسَادًا بسبب سوء حال البلاد وهياج الروح الوطنية .. جِرام البلاء الأبيض اللي بتبيعه وصل كأم يا عبد القادر أفندي؟ استعاد كلمات أبيه فنقض رأسه وقام من مكانه، فتح النافذة ونفت دُخان سيجارته في السماء .. مش هابيع كوكابين بابا .. قالها بصوت مسموع لسحابة عابرة تشبه وجه أبيه .. ثم استرجع عرض أحمد كيرة في الإسماعيلية بالانضمام إلى المنظمة السرية فنظر للسماء ثانية .. ومش هاموت علشان سعد بابا .. ظل يحدق في النجوم قبل أن يلحظ نجمًا بعيدًا يتلألأ .. يتضخم .. يقترب .. نزل الزوع في نفسه حين أصبح النجم في حَجَم شمس باردة .. رَجَع بظهره هلعًا يستغفر الله بصوت مسموع حتَّى تعثر فوقع على ظهره قبل أن يقوم مُهرولاً إلى الطرقة .. تخبَّط بين عُرفات العاهرات وزبائن مترنحين ضحكوا من مظهره حتَّى وصل الحمام .. أزاح من الخوض كيلونات مُزركشة وفوطًا متسخة ثم صبَّ على رأسه كورًا من الماء ونفض رأسه .. نظر في المرأة المُعَبَّرة إلى عينيْن من دم وجفون سالت على خديه .. صُفَع وجهه بالماء مرَّات حين دفعت سنيَّة الباب ودخلت .. أبوسية عارية تترنح .. يتطاير منها عبق الكُحول ورائحة الرجال .. لامست ذراعه في غنج فهز كتفيه صرًا كما يُصرَف الذباب .. مطَّت شفتيها ولمزته: «هاتو ضى يا سيدنا الشيخ؟» .. قالتها وأراقت الماء على جسدها وهي تنشيد: «إوعى الكوكابين يلحس مُخَّك .. إوعى سبق الخيل لا يطسَّك» .. نظر إليها عبد القادر بتجهُّم ونفسه في المرأة قبل أن يتوضأ بالفعل ثم يخرج.

سَلامَةُ النَجَسِ كَانَ يودِّعُ زَبُونًا تَهَلُّ إِحْدَى الْفَتَيَاتِ .. سَأَلَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ
عَنْ طَرِيقِ الْقِبْلَةِ فَسَكَتَ الْجَمْعُ وَرَمَقُوهُ بِعَجَبٍ ثُمَّ انْفَجَرُوا صَاحِكِينَ
قَبْلَ أَنْ يُشِيرَ سَلامَةُ بِيَدِهِ تَجَاهَ بَابِ الشَّقَّةِ الْمَفْتُوحِ: اللَّيْلِ عَاوِزُ بِصَلِّي،
يَتَجَهَّ كِدَهُ يَا شَيْخَ عَبْدِ الْقَادِرِ .. هُجَّ هُجَّ هُجَّ.

فَهَمَّ عَبْدُ الْقَادِرِ إِشَارَتَهُ وَلَمْ يُعْرِهِ اهْتِمَامًا، مَنْ ذَا الَّذِي يُجِيبُ قَوَادًا
يَنْضَحُ بِالْذَنْسِ!! تَعْتَمُّ بِسَبِّهِ ثُمَّ دَخَلَ غُرْفَتَهُ فَوَجَدَ وَرْدَ فِي انْتِظَارِهِ،
وَاقِفَةً قُرْبَ النَّافِذَةِ ضَامَّةً مَسَاعِدِيهَا إِلَى صَدْرِهَا، الضَّمَادَةُ حَوْلَ الرِّسْغِ
لَا زَالَتْ مَرْبُوطَةً مِنْ أَثَرِ قَطْعِهَا شَرَايِينَهَا مِنْذُ أَيَّامٍ بِبِيرِدِ الْأَطْفَرِ، حَوْلَ
عَيْنَيْهَا كَدَمَةٌ بِنَفْسَجِيَّةٍ وَفِي شَفَتَيْهَا وَرَمٌ، وَبَيْنَ أَصَابِعِهَا صُورَةٌ تَخْفِيهَا،
تَيَسَّ مَكَانَهُ يَتَأَمَّلُهَا تَتَمَاجُ كَيْسِنَارَةٌ تُحَرِّكُهَا رِيحٌ، رَغَمَ اعْتِيَادِهِ الْكُوكَايِينَ
وَحَيَالَاتِهِ وَمَشَاهِدِ الْعَاهِرَاتِ الْمُضْرُوبَاتِ مِنْ قَوَادِيهِنَّ، إِلَّا أَنَّ نَظْرَةَ وَرْدَ
أَرَبَكْتَهُ! خَاصَّةً حِينَ أَشَارَتْ بِيَدَيْهَا أَنْ يُفْلِقَ الْبَابَ.

- أَنْتِ حَاوَلْتِي تَمُوتِي رُوحَكَ مِنْ كَامِ يَوْمٍ؟ أَنْتِ مَخْبُولَةٌ يَا بَت؟
إِيهِ اللَّيْلِ شَحُورٌ يَخْلُقُنْكَ كِدَهُ؟

- أَنَا بِدِّي مَنَّاكُ إِشِي .. قَالَتْهَا هَمَسًا.

- ااطْلُبِي أَيَّ حَاجَةٍ مَا عَدَا الْفُلُوسَ.

- مَا بِدِّي مَصَارِي .. بِدِّي أَمَشِي مِنْ هُونِ.

- يَمَشِي! يَمَشِي تَرُوحِي فِين؟

- طَلْعَنِي أَنْتِ وَأَنَا بِأَمَشِي بِحَالِ سَبِيلِي.

- يَا بَت أَنْتِ أَتَجَنَّنْتِي؟ فَبِهِ عَائِقَةٌ ثَانِيَةٌ كَلَّمْتِكَ تَشْتَغَلِي عَنْدَهَا؟

- لا.. ما في.. لك شفت حالي.. وش شايف شو صاير لي؟
- أكيد عملتي حاجة.. سرقتي حاجة؟
- بحدّة مدّت يدها بالصورة التي بين أصابعها.. صورتها على الباخرة بين أمها وأبيها.
- أنا مو اللي بتسرق.. أنا حُرّة بنّت حُر.. أرمينية من ماردين وده ما كان حالي.
- تأمل عبد القادر الصورة.. أردف: ما أنا عارف.. مصر عاملة زي ملجأ الأيتام.. فيها من كل صنف لون.
- رمقته بعتاب فاستدرك: هي شغلانتكم وسخة.. وماحدش فيها بيمشي بمزاجه.. المسألة دي تكلفك كثير.
- شو بدك.. اللي بدك إياه رح تاخده بس طلعتي من هون.
- قالتها بفهر جزّت من أجله أسنانها ثم كشفت بياض صدرها وكتفها.
- فيهمتي غلط.. ذاري روحك.. اقعددي.. أنست إيه اللي جابك هنا أصلاً؟
- فجأة غلا صوت سلامة ينادي اسمها فانقطعت أنفاسها قبل أن يتعد، أردفت بصوت خفيض:
- كُنت ساكنة في الدور اللي فوق.. إمي وأبي ماتوا بالرنّة.. سلامة اتهمّج عليا وضربني.. مسحني كهون جابني للأوضة وحبسني.. أسبوع من غير أكل لحد ما كنت رح أموت.. وبعدين خلاني أبلع الأفيون.. صيرت مثل العجينة بييده.. وبتبة عملت لي رخصة

بالغصب.. أيامي صارت سودة.. مسحوا بي الأرض وخلوني
مرمطة لأوسخ ناس.. حتى الموت رافض بضمني.. أنا حُرّة بنت
حُر.. بدّي أسافر.. أرجع لـ..

بُترت الجملة فوق لسانها.. فبلدتها ومن عليها لم يعد لهم
وجود.. أردفت:

- أنا مَا كَانَ بدّي أعيش هيك.. أنا بنت ناس.. مش هادي العيشة
اللي بتليق لي.

قاوم عبد القادر زبغ بَصْر وعش صورة ورد في عينيه حين أردفت:

- رَح تساعديني؟

- أكلّم سلامة خرة بخف إيدك عليك شوية؟

- الكلام ما عدا ينفع.. هادول ناس ماتت من قلوبهن الرحمة.
رَح تساعديني؟

- أساعد نفسي الأول!! بُصّي...

قاطعته: كتر خيرك.

قالتها واتجهت للباب فاستدركها: يا بت البلد والعة.. ولعلمك فيه
أرمن ضربوا رصاص على مظاهرة من كام يوم والطلبة طلعوا حدفوهم
م الشبابيك.. هاتنقطعي في الشوارع لو عرفوا ملتك.

شردت للحظات ابتلعت فيها الخوف قبل أن تهّم بالخروج.. أمسك
رُسقها: ما يقاش دَمَك حامي أَمال!

أفلتت يدها ونظرت في عينيه: أنت ولّعت كامب الإنجليز حقيفة؟

نظر للشُّبوت يَسْأَلُه ثم التفت إليها : وإيه دخل ده بالموضوع ؟
- أنت ما ولَّعت إشي ، أنت كذاب .. تركت أبوك واتصاجبت على
الإنجليز .. بيعت نفسك لهم .. مثل ما بدك إيانى أبيع حالى لبيت
الكلاب هادا .

انقضت لحظات من الصَّمْت ارتعشت خلالها عيناه قبل أن يُدير
عُنُقها بضفعة ! لم ترفع كَفَّها لتحسّس النار التي اشتعلت في وجنتها
أو تصرخ ، فقط رمقته بعينين ترفقنا قبل أن يفتح الباب بغته ، رَمَقها
سَلَامَة بغضب قبل أن يشير إليها :

- أنا مش باندك عليك يا بت !

انتشر الرُّعب في ملامحها وتلاحقت أنفاسها فرجعت خُطوتين إلى
الوِراء قبل أن يصيح سَلَامَة بصوت أعلى :

- مش سامعاني ؟

تدخل عبد القادر ببواقى الكوكابين في عروقه :

- خلاص يا سَلَامَة .. سيبها دلوقت .. هي هاتبقى يجي لك
لما تصفى .

- ورحمة أبوك يا عبد قادر أفندي خليك على جنب .. البت دي
أدي لها مُدَّة بتتمرقع ومطيرة من عندي يبجي خمسين زباين لحد
دلوقت .

- الغمى بعبونك .

الفتها ورد فاشتعل سَلَامَة ، خلع شيشه ورفَّع طرف جلبابه محرِّرا
ساقيه فهربت خلف عبد القادر حين صرخ :

- يا بنت الكاااالب! بتدعي عليا؟ طُلب وديني لأنولك عَلاقة
تعرفك مقامك.

صَرخت ورد فتلقف عبد القادر هُجومه مُقاومًا زيغان عَينيه.. حَددَجه
سلامة بغضب:

- إوعى إيدك دي أمال.. إيش أخششك أنت في اللي مالكش فيه؟
- ما تمدش إيدك عليها وأنا واقف يا سلامة.
- أنت عِشقت ولأيه؟ دي موسى يا أفندي! موسى..
وبتاعني.. ملكي.

قالها سلامة ثم دفع صدر عبد القادر بقبضته فتعثر في طرف السرير
قبل أن يفقد توازنه.. سَقط في اللحظة التي هجم فيها سلامة على ورد..
صَرحَت رعبًا فالتقطت من فوق المِنضدة مصباحًا مشتعلًا.. أمسكته
بيد ترتعش ووجهته ناحيته فصاح:
- وشرف أمي لأسبيح بيه وشك.

كيف سأحكم لبؤاني وأبت فيهن مهابتي بعد يوم تذلني فيه فتاة مثل ورد؟
قفز سلامة ناحيتها.. برذة فعل لإرادية وبكل ما أوتيت من قوّة
طَرحَت وَرد المصباح المشتعل تجاهه في اللحظة التي قام فيها
عبد القادر مُحاولًا إداركها.. انكسر المصباح في وجه سلامة قبل أن
ينسكب الكيروسين على ملابسه مشتعلًا.. أمسكت فيه النار فصَرخ
صَرخة مدوية أفسعَرت لها عَاهرات البيت وتعالَت أصواتهن.. سَقط
سلامة على الأرض يتمرغ بهستيريا يمسح نازًا تشوي جلده وتتغلغل

في اللحم.. نظر إليها عبد القادر غير مُصدِّق ما حدث قبل أن يلتقط
ملاء السرير ويلقيها على سلامة محاولاً إطفاء.. اقتربت ورد من
الباب في فزع وانسلت هاربة قبل أن تقترب أصوات العاهرات وفي
مقدمتهن بنبة يُعدِّدن ويخلعن قياقيبهن الخشبية ليمطرن ورد التي
انطلقت.. حطَّمت ملاء لف سوداء وخَرَجَت هِلعة فتبعها عبد القادر
بعد أن أخمد حريق سلامة بضربة لمحها تقفز السلم حافية.. وقفت
للحظة ونظرت لأعلى.. التقت عيناهما في صمت قبل أن ينتزع من
جيبه ساعته الذهبية ذات السلسلة.. قذفها إليها وهز رأسه في إشارة
أن انجي بنفسك.. التقطتها ولم تعقب.. كان ذلك حين خرجت بنبة
تترجرج فأمسك عبد القادر برُسفها المُكْدَّس مُعْرِقاً:

- رايحة فين أنت؟ البت معاها سكينه أنا شفتها.

- إوعي.. ورحمة أُمِّي لموتها ينت ميتشين الكلب.

- اهدي يا بنبة.. خُشِّي شوفي سلامة وأنا هاجيها لك من شعرها..
وابعتي أي بت تجيب حكيم.. يله.

قفز عبد القادر السلالم وخَرَجَ من البوابة فلمَّح ورد تسير مُسرعةً
وقد لَقَّتْ جَسَدَها بالملاء متخللة أهل الحي الذين هرعوا الصراخ بيت
العاهرات نجدة، تابعها بعينيه حَتَّى وَصَلَتْ لنهاية الحارة، التفتت لفتة
أخيرة التقت خلالها أعينهما قبل أن تختفي وَسط الزحام، لَحَظَات
وخرَجَ سلامة النجس يصرخ بنصب وعذاب، سُلِخَ نصف وجهه برفته
ونصف شعر رأسه، ساندته بنبة وأنفار من الحي والعاهرات من ورائهم
يندبن ويترجرجن، تابع ذكور المارة أجسادهم وواسوهم بهياج

فتوارى عبد القادر في الزحام حتى مرّت الجنازة قبل أن يمشي وراء خطوات ورد متبّعًا، حين وصل لنهاية الحارة لم يجد لها أثرًا.. اختفت كدخان في عاصفة مغبرة.



مدّت ورد خطواتها خافية خاجية وجهها بطرف الملائة متعاشية أعين المارة المتنحصة سالكة طريقًا يبعدها، لم تنظر وراءها كي لا يأتيها العذاب كامرأة لوط النبي لم تُصِت لتحذير زوجها، قبضت على السلسلة الذهبية التي أخذتها من عبد القادر بيد والصليب الخشبي في صدرها باليد الأخرى، تعصره استدعاء للأمان، تُتميم بالصلوات مقاومة ضيق نفس وضعفًا ينسلل فيها وزجاجًا مُحطّمًا على الأرض طعن قدميها الخافيتين حين مرّت بجمع نائر يكتبون السباب واللعنات على محل مُجوهرات مُغلق فوقه اسم أرمني بعد أن كسروا الواجهة، يشون غضبهم بلا تمييز، التفت أحدهم إليها مُسدّدًا لملايحها الأرمنية نظرة إعجاب ممزوجة بشك فأسرعت الخطى مُبتعدة بهلع، جذبت خيط السلسلة من رقبته فانفلت الصليب وتحرّر، قبضت عليه حتى مرّت بمدخل بيت، اعتذرت للمسيح همّاثم علقته الصليب في حديد البوابة قبل أن تخفي ساعة عبد القادر في صدرها.

الكنيسة لم تكن بعيدة عن الأزيكية، بناء مخروطي القباب يتوسط شارع عباس الأول، هرولت ورد في باحته الطويلة قبل أن تقف أمام باب مُغلق على غير عادته، قرعت وانتظرت، لحظات طويلة مرّت

قبل أن تلتقط أذناها خفيف أقدام تقترب ثم كُوة في الباب تفتح ووجه
قس مُرتبك:

- عاوزه إيه يا بنتي؟

- بدّي أصلي يا أبونا.

- الكنيسة مقفولة النهاردة يا بنتي.. أنت مش شايغة اللي بيحصل
في الشوارع؟

- أنا ما إلي حد.

لَمَحَ الْجَزَعُ فِي مَلَامِحِهَا فَنَظَرَ وَرَاءَهَا يَتَفَحَصُ الشَّارِعَ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ
الْبَابَ عَلَى مَضَضٍ، تَسَلَّلَتْ كِقْطَةُ نِغَرٍ مِنْ كَلْبٍ يُهَاجِمُهَا، لَمَحَ وَجْهَهَا
وَقَدَمَيْهَا الدَّامِيَتَيْنِ فَطَلَبَ مِنْهَا الْمَكُوثُ حَتَّى يَعُودَ، رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا لِتَتَأَمَّلَ
كَنِيسَةً لَمْ تَدْخُلْهَا مِنْ قَبْلُ، تَسْمُرَتْ أَمَامَ أَيْقُونَةِ الْمَسِيحِ، يَرْفَعُ كَفًّا
مُطْمَئِنًّا لَا مَسَ فِيهِ بِنَصْرِهِ إِبْهَامَهُ، وَبِالْكَفِّ الْأُخْرَى يُمَسِّكُ كِتَابًا، وَعَلَى
صَدْرِهِ قَلْبٌ أَحْمَرٌ حَوْلَهُ إِكْلِيلٌ مِنَ الشُّوكِ وَفِيهِ سَيْفٌ مَغْرُوزٌ، اقْتَرَبَتْ
وَرَدَ مِنَ الْإِطَارِ الْمُذْهَبِ وَالتَّقَطَّتْ شَمْعَةٌ، لَمْ تَجِدْ نَارًا لِتُشْعِلَهَا فَغَرَسَتْهَا
فِي الرِّمَالِ وَرَسَمَتْ صَلِيبًا بِأَعْصَابٍ مُرْتَعِشَةٍ بَيْنَ جَبْهَتِهَا وَصَدْرِهَا حِينَ
عَادَ الْقِسُ، أَجْلَسَهَا وَغَسَلَ قَدَمَيْهَا بِمَاءٍ ثُمَّ رَبَطَهُمَا بِشَاشٍ أَبْيَضٍ وَنَاوَلَهَا
رَغِيْفًا جَفَافًا وَطَبَقًا فِيهِ زَيْتُ الزَّيْتُونِ، أَكَلَتْ فِي صَمْتٍ وَهِيَ تَتَأَمَّلُ عَيْنِي
الْمَسِيحِ فِي الْأَيْقُونَةِ، كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهَا، بَدُونَ أَنْ تَفْقِدَ الْإِتِّصَالَ بِهِ
سَأَلَتْ الْقِسَ:

- أبانا هو اللي بيكتب القدر في السما؟

- هو اللي بيكتب .. وإحنا اللي بنخطئ.
- هو بيحبنا؟ طب ليش راضي بعذابنا؟
- إن شتم وسمعتهم تأكلون خير الأرض .. وإن أبيتم وتمردتم
تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم .. إرادة الإنسان وما يحدث
في حياتنا هو نتيجة اختياراتنا السيئة.
- أنا ما اخترت إشي في حياتي! الدنيا فرضت عليّ كل اختيار ..
وأنا حتى ما وافقت!
- الرب لا يجبر أحد .. ولا يحكم على أحد ظلم .. إنما هم الخطّائين
سبب المعاناة .. صلّي يا بنتي.
- ولو ما استجاب لصلاتي؟
- الرب يفعل أي شيء لأجل أحبائه، مهما صعبت أمور العيش،
هناك دوماً فسحة للرجاء.
- والخطّائين؟
- من صور النعيم التي سيحظى بها الأبرار في الجنة مرأى العذاب
الذي يتعذبه الخطاة في الجحيم.
- خُيِّلَ إليها للحظة أن المسيح قد ابتسم! أو أنّ عينيه
رَمَسَتْ! سألت:
- ممكن أشتغل هون؟ أسكن بيت الرب؟ ممكن أسوي أي إشي؟
- ما يمكنش .. مفيش مكان للحريم هنا.

- الرب ما يحب البنت زي الولد؟

- الرب رب الولد والبنت.. لكن الكنيسة ليها قانون.

أخرجت ساعة عبد القادر من صدرها ووضعتها في كف القس
فأرجعها بين أصابعها:

- خليها معاكي تنفعك يا بتي.

سكنت وشردت في صورة المسيح ثانية فأردف متأثراً: الليلة تباتي
في أوضة الجناني لأنه ماجاش.. بكرة يحلها سيدك.

أغلق عليها باب غرفة رطبة ملبثة بأدوات الحديقة وآنية البذور،
افترشت كُرسياً مُبطّناً بالخيش بجانب حائط مُعلّق عليه صورة للعذراء
في ردائها الأزرق الرائق تحمّل صغيرها، مدّت يدها يبطء ولا تمست
أصابعها الرشيق الممدودة في سلام حتّى أحسّت بحرارتها قبل أن
تُغمض جفونها.



سينما متروبول.. القاهرة

القاعة كانت مكتظة، سبعتها سبعون شخصاً وازدادت عشرة واقفين في الخلف، الكراسي خشبية غير مريحة، دُخان السجائر سحابة تموج قرب السقف، والشاشة فُماش أبيض بارئع الحائط يلقى الشُعاع من ماكينة تُدار يدوياً، تكتم زمجرتها مقطوعات مُتوائمة مع الأحداث يعزفها رجل خلف بيانو.. «حياة كلب» كان اسم الفيلم، تمثيل صاروخ الكوميديا الإنجليزي «شارلي شابلن»، يكفي الجماهير الآن أن يروا يافطة تحمل صورته بزي الصعلوك وكلمة «شارلي شابلن هنا اليوم» لتتالكب على شباك التذاكر.

كان ذلك ثالث فيلم يُشاهدانه معاً بعدما لمس ولعها بالسينما، تقف أمام الصورة المتحركة كطفل في متجر خلوى، عيناها تتسعان وفمها يرسم O صغيرة، ولا تكف عن الضحك خاصة في مشاهد المقاتل التي يؤديها الصعلوك ببراعة، يعشق انفعالها الصاخب، دبيب كعبها على الأرض، شدة يدها على يده حين يتعرّض البطل لخطر، وبُكاءها المؤثر حين تتوحد مع الأحداث، بُكاء يجعلها في عينيه أجمل من «بولات جودارد» بطلة الفيلم.

انتهى حفل الماتينية فتمشياً إلى شارع المغربي^(١) لينجلسا في

^(١) شارع المغربي هو عدلي حاليًا.

«جروبي»، كافيته رَاقٍ تُعَرِّفُ فيه مُوسيقى ناعمة وَيَصْدَحُ الهَمْسُ الخافيت بين صَليِل الشُّوكِ والمَلاعِقِ، طَلَبْتُ «ميل فوي» مع الشَّاي وشرب هو قهوة فرنسية سادة، ثم تحدَّثنا بكَلِمَاتٍ توارى فيها الغزل خَلْفَ الحِكَايَاتِ قبل أن يَسْقُطَا عَمْدًا في صَمْتٍ لذيذ، صَمْتُ أَحْصَى فيه رُمُوشَ عَيْنِهَا التي تحسَّسَ وِراءَها نَهْرًا من الأَسِنَّةِ جعلته يبتسم من جانب فمه سُخْرِيَّةً، يَلاحِظُه فتَأْكُلُ المِيلُ فوي هَرَبًا منه، ثم تثرثر بِسِيرة رَحَلَانِهَا إلى بلاد أوربا وأمريكا، ذِكرِيَّاتٍ باهتة باقية في رأسها عن والدتها المتوفاة، قبل أن تتحدَّثَ عن والدِها محافظ القاهرة المَشغُولِ دَائِمًا بِهَمُومٍ مُنْصِبِهِ، ثم ينجرفان للبلد والوَضْعِ العام فيه وحَالِ صَفِيَّةِ هَانِمٍ والمُظَاهِرَاتِ .. يتركها تسترِبِلُ وينصت في صَمْتٍ، يتأمل شفَتَيْهَا فرنسية اللكنة حين تضمهما في «ميل فُوي» أو تَقلبُ الرءاء غين في «انكر وايايل»، يتابع حَرَكَاتِ أَصَابِعِهَا الرَقيقَةِ في الهَوَاءِ، ضَحْكَةً عَالِيَةً تَضَعُ من أَجْلِهَا يَدَها على فَمِهَا، اهتزازات قرطيس رقيقين متدليين من شَحْمَتِي أَذُنِهَا، أَمَّا هي فتلمس شروده فيها فترتبك، تصمت، تبتسم ويتورَّد وجهها لَمَّا تستوعب أنه يتخللها بعينيهِ، يَجْتَاحُهَا، يغمرها الخجل حين تشتمُّ العِشْقَ، تتصارع الثقة والضعف بين حاجبيها وجبينها، الرِّفْضُ والرَّغْبَةُ، ثم تستسلم فتشتعل الوجنتان، تتسارع النبضات وتكاد تبيح أنها ولأوَّلَ مرَّةٍ، تهيم عِشْقًا، تذوب كقطعة زبد فوق نار هادئة، حاولت في كل مرة يتقابلان كسر اقتضابه ولم تستطع، يجيئها بكلمات قصيرة لا تغني من معرفة، كل ما أدركته أنه طيب بمدرسة الطب، أباه ضابط جيش متوفى، يُجيد الفرنسية والإنجليزية، لَبِيقٌ، مثقف ومُهتم بالشأن السياسي، وفوق كل ذلك يهتم بها، كتوم وإذا أفضى بكتون صدره، ينطق بما يدور في رأسها قبل أن يتحرك به

ليسانها! تتعري مشاعرها فجأة في كلماته، كأنها أمام مرآة تقرأ تفاصيلها وتتنبأ بمستقبلها، يُخرج أسئلتها من تحت شعرها ويجيبها فتبرق عينها كمن يُشاهد حاورًا مدهشًا أو قارئ فنجان! إحساس مربك، مُمتع، تلمس به نضجه وتجربته، ويث في سرايينها ذغدغة تذكي فيها روح المغامرة معه، يُشعرها أنها ملكة مُتوجة في غابة طرزان، أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة، يسحبها خلفه في سوارع ما كانت لتمشي فيها يومًا، يُمطرها بسيل من المعلومات عن بلد تعيش فيه ولا تعرفه، ثم يتركها فريسة لأحلام يقظة مُجسمة لا يهزمها نوم، بطلها أحمد.

- ليه ما اتجوزتيش لغاية دلوقت؟

سألها بغتة ناظرًا في عينيها بشبات.. كانت قد اعتادت أسئلته المُباغثة.

- سؤال ما يتسألش.

أردف مُخففًا: أنت جميلة.. من عيلة.. ومش ناقصك غير...

قاطعته: حد يقنعني.

- ومين اللي ممكن يقنع نازلي هانم؟

- مش مُهتمة بالألقاب.. المهم يفهمني.

- معقولة في كل العائلات اللي حواليك مفيش حد فهمك؟

قاطعته: أولاد الذوات تربيتهم باهتة.. ناعمة إذا كنت تفهم قصدي.. أعرف ابن باشا بدون ذكر أسماء عنده أربعين سنة وعنده خدام بيُقص له ضوافره لغاية دلوقتي.

- هايل! اطلب ولو فهمك.. بس لا بيه ولا باشا؟

- لو عجبنى ليه لآ؟ إن شالله أفندي.. ماما صَفِيَّة اتجوزت بابا سعد
وكانت بنت باشا وهو أفوكاتو.

- رأيك من دماغك؟

- بابي عقليته مختلفة وليه نظرة في اختيار العريس.. بس أنا ليا رأي.
- نازلي.

- نعم.

- تفتكري إحنا ممكن نتجوز؟

اجتاحتها سخونة أندت جبينها، نظرت حولها كمن تبحث عن
مهرب، بصُعوبة سدّدت لعينيه نظرة:

- أنا تقريبًا ما أعرفكش!

- إيه اللي ما تعرفيهوش؟

- حاسّة إن وراك حاجة مش عاوز تقولها.

- حياة سرّية؟

- ماما صَفِيَّة بتقول إن راجل من غير حياة سرّية يبقى مش
راجل أصلًا.

- يبقى أكيد لازم تفضّل سرّية.

ضحكت فأردفت: وبعدين أنت عارف كل حاجة بسألها تقريبًا!
أو حتّى ما بسألهاش! الموضوع ده غريب!!

- أنا اشتغلت فترة في حياتي ساحر.

- أنا مش بهزرا!

- والله ما بهزّر.. اشتغلت مُساعدَ ساجِر شهرين في سيرك
«عاكف».. كنت باخذ تعريفة في اليوم.. كانت شغلتي أستخبى
في علبة خمسين سنتي في خمسين وبعدين أنزل من باب سحري
في الأرض.. أول ما يصقّف أقوم طالع من وراء الستارة.

برقت عيناها بعجب: وش يقول لك ما أعرفكش.

- كل القصة إنني اتمرطت كثير لأنني اتربيت يتيم.. والعيشة في
باب اللوق جنب محطة قطر وسوق بتكون خبرات.

ابتسمت: والخبرات في نفسية البنات؟

مد بثقة يده إلى بجانب أذنها اليمنى قبل أن يرجعها بسلسلة ملفوفة،
فك أسرها فظهر حرف «N» صغير من الفضة في نهايتها.

- اللي يفهم البنت يفهم الدنيا كلها.

وضعها في راحتها وأطبق عليها ثم لثم أطراف أصابعها..
انتابتها رعشة.

- ده أنت ساحر بجد! إسمعني أنا من دون البنات كلها؟

- عشان فيه ناس ما ينفعش تعدّي في الحياة وتروح وتنسي.. ناس
لو عدّت لازم تنكعبل.. وتقع على دماغها.. بس نلحقها..

اهتزت قدمها في توتر فصبت لنفسها الماء بيد مُرتعشة وشردت
عيناها في الكأس، رغم تماسكها وشهرتها بين صديقاتها بالزهو والأنفة
ورفض الرجال يربكها استسلامها أمامه، رُضوخها للكلماته، حتى فارق

السَّن بينهما نَجْدُهُ مِثَالِيًّا، بِسَعِيدِهَا أَنْ تَعْتَرَّ عَلَى مَنْ نَمَشِي وَرَاءَهُ بَدَلًا مِنْ مُعَارَسَةِ دُورِ الذِّكْرِ فِي أَيِّ حَوَارٍ تَبْدُوهُ مَعَ أَيْنَاءِ بِشَوَاتٍ احْتَرَفُوا النُّعُومَةَ، يَخَافُونَ مَنْ ثَقْنَهَا فَيَكْذِبُونَ بِسِذَاجَةٍ لِيَفْشَلُوا فِي الْإِخْتِبَارِ، ذَائِمًا كَانَتْ تُبَحِّثُ عَمَّنْ يَبْهَرُهَا، وَهِيَ هِيَ بَظْهَرٍ، بِشَكْلِ غَرِيبٍ فِي وَقْتِ غَرْبٍ.

أَفَافَتْ مِنْ شُرُودِهَا فِي كَأْسِ الْمَاءِ: تَعْرِفُ قَصْرَ الْبَارُونَ؟

- أَعْرِفُهُ طَبَعًا

- بُكْرَةٌ أَنَا مَعْزُومَةٌ عَلَى خَفْلَةٍ تَنْكُرِيَّةٍ كَبِيرَةٍ.. وَيَا بَا جَيَّ.. عَاوِزَةٌ
أَعْرِفُكَ بِهِ،

- يَا بَا! لَكِنْ أَنَا مَا عِنْدِي شِ دَعْوَةٌ!

- سَبِّبِ الْمَوْضُوعَ دِهْ عَلَيَّا.



حِينَ رَحَلْتُ نَازِلِي فَكَّ أَحْمَدُ أَسْرَ قَدَمَيْهِ.. شَافَتْهُ حَتَّى كُوبَرِي قَصْرَ
النَّيْلِ وَتَوَقَّعَتْ بِهِ.. انْكَأَ عَلَى الشُّورِ الْغَلِيظِ تَحْتَ النُّورِ الْأَزْرَقِ^(١) فَالْتَقَى
عَيْنَيْهِ فِي الْمِبَاهِ الْجَارِيَةِ وَشَرَّدَ.. يُقَاوِمُ وَجُومًا مَلَأَهُ وَانْسَكَبَ قَطْرَاتُ
عَلَى الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِهِ.. شُعُورُهُ بِالْانْجِرَافِ وَالْانْدِفَاعِ نَحْوِ نَازِلِي
بُصِييهِ بِدَوَارٍ لَا يَعْرِفُ لَهُ سَبَبًا.. ضَيْقُ بَجْثِمٍ فَوْقَ صَدْرِهِ وَغَمُ النَّشْوَةِ
الَّتِي تَجْتَاحُهُ حِينَ يَرَاهَا.. نَشْوَةٌ تُشَبِّهُ زَغْرُودَةَ فَرْحٍ وَحَبْدَةَ فِي سِرَادِقِ
عِزَاءٍ! فَرَحَةٌ تَتَنَاقَضُ كَلْبَةً مَعَ رِيَاضَةِ سَفْكِ الدَّمَاءِ الَّتِي يُعَارِسُهَا..

(١) مُصَابِيحُ الْكِبَارِيِّ وَنَوَافِذُ الْبُيُوتِ وَالْمُنَشَّاتُ كَانَتْ تُطْلَى وَقْتُ الْحَرْبِ بِالنُّورِ الْأَزْرَقِ
لِإِخْفَاءِ نُورِهَا عَنِ طَائِرَاتِ الْعَدُوِّ فَلَا تُصِيبُ هَدَفًا.

خَلِيط غَرِيب يُشْبِهُ مَزَج كَبَرِيَّتِكَ الْيُونَانِيَّةِ مَعَ جَمِصِ الْبَكْرِيَّةِ .. بَيْنِ
الضَّلُوعِ .. قَبْلَةَ شَدِيدَةِ التَّفْجِيرِ .. رَغْبَةً مُتَأَخِّرَةً تَطَارِدُهُ بَعْدَ زَمَنِ عَاشٍ
فِيهِ كَفْكَرَةٌ .. تَرَسَ فِي آلَةٍ .. رَقَمَ فِي خَلِيَّةٍ .. رَصَاصَةً فِي طَبْخَةٍ .. قَلْبَ
مَسْحُوقٍ وَالْيَصْقَ عَلَيْهِ أَسْلُوبَ حَيَاةٍ .. رُوتَيْنِ يَوْمِي .. رُوتَيْنِ كَسَرْتَهُ
نَازِلِي بِكَعْبِ جِذَائِهَا الرَفِيعِ بَعْدَمَا اخْتَرَقْتَهُ .. بَاتَتْ بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ الْخَيْطُ
الْوَحِيدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَالَمِ الْأَحْيَاءِ .. فَتَحَتِ الْهَوَاءُ الضَّيْقَ فِي مَقْبَرَةِ فِرْعَوْنِيَّةٍ
لِتَنْتَفَسَ الْمَوْمِيَاءُ .. حُضُورُ يُشْعِمُ حَيَاتِهِ كَمَا تُشْعِمُ الْأَلَاتُ تَلِيْنًا حَتَّى
لَا تَتَأَكَلُ تَرُوسَهَا .. لَكِنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ لِجُحْصِي الْقَبَلَاتِ !

لَمْ يُخْلَقْ لِيَعْمَلَ مُوْظَفًا يَحْمِلُ بِطِيخَةً وَيُنْجِبُ سَعِيدَ وَزِينَبَ وَصَلَاحَ .
لَمْ يُخْلَقْ وَعَيْنَاهُ الْاِثْنَتَانِ تَغْلِقَانِ رِفَاقِيَةً فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .

إِنْ كَانَتْ ابْنَةُ السِّدَّوَاتِ لَمْ تَمْشِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ مِنْ قَبْلِ فَهْوَ قَدْ
مَشَى عَلَيْهَا بِبَطْنِهِ وَخَفَرُ فِيهَا كَالثَّعْبَانِ خَطًّا .

لَكِنْ يَبْقَى اللَّغْزُ فِي قَرَارِ الْاِتِّرَابِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بَانْجِرَافٍ
لَا إِرَادِي .. اِنْدِفَاعِ طِفْلِ نَحْوِ جِرْفٍ لَا يُدْرِكُ خَطْوَرَتَهُ .. مُحَاوَلَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ
لِلدَّرَاكِ حَيَاةٍ تَنْزَوِي .. قَبْلَ أَنْ تَنْبَخِرَ رُوحُهُ أَوْ يَعْجِفَ جَسَدُهُ كَجِدْعٍ خَاوٍ .

سَأَلَ نَفْسَهُ : مِنْذُ مَتَى تَعَوَّدْتَ أَنْ أَكُونَ طَائِفًا كَعِيَارِ اِنْتَلِقَ ؟

مَاذَا لَوْ عَرَفْتَ طَبِيعَةَ عَمَلِي ؟

مَاذَا لَوْ رَأَتْ الدِّمَاءُ تَحْتَ أَظْفَارِي وَالْبَارُودُ فِي كَفِّي ؟

مَنْ تَقْبَلُ بِمَعَاشِرَةِ ثَائِرٍ يَحْمِلُ كَفْنًا ؟

هَلْ يَتَزَوَّجُ الْمَيِّتُ ؟

هل أملك ما أكفلها به؟

هل أستسيخ سعد زغلول حين تزوج بنت رئيس حكومة الاحتلال؟

أأتعمد الانخراط في الطبقات العلى لأرى الدنيا بمنظور طائر يُحلق؟

متى تعودت أن أفقد السيطرة على مقاديري؟

أن أطمح لأصبح .. إنساناً؟

أن أحب؟

لا.

لن يُجدي انجذابي لها نفعاً.

سألته وراءها وتبرى ساقاي حتى الركبتين.

سأفقد وفودي وحميتي نحو وطني.

سأصير رخوا كمنديل خريفي في بدلة سهرة.

سأقبل الإنجليز وأصافحهم مصافحة الأصدقاء وسألصق صورة

السلطان الخائن فوق سريري!

لا

هكذا تضمحل الأمم وتنهار الحضارات.

لكن... لكن نازلي ليست من النوع الذي يعبر في الحياة فيهمل

أو يُجاهل!

إنها نازلي! نازلي التي كسرت حائط التخوين وقفزت حواجز الشك

قبل أن تُغلق الأبواب وراءها وتقتل كل الحریم .. بداخلي.

مُهْرَة سباق تستحق الرهان.

لم تنطفئ هواجسه إلا حين وَصَلَ الْبَيْتَ، صَعَدَ السَّلَامَ وَأَغْلَقَ
بَابَ شَقَّتِهِ فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ أَنْ عَشَاءَ مُعَدًّا وَأَنْ غَرِيبًا مَرُّ وَتَرْكُ رِسَالَةٍ، فَضَّهَا
فَوَجَدَ فِيهَا كَلِمَاتٍ مُقْتَضِيَةً الْبَسْتِ حِذَاءَهُ وَأَرْجَعَتْهُ الشَّارِعَ ثَانِيَةً، اتَّجَهَ
إِلَى مِيدَانِ «الْعَتَبَةِ الْخَضِرَاءِ» حَيْثُ قَهْوَةٌ «مَتَانِيَّةٌ» تَقَعُ خَلْفَ دَارِ الْأَوْبَاءِ،
سَاهِرَةٌ تَعُجُّ بِالْمُرِيدِينَ أَسْفَلَ بِنَايَةِ صَخْمَةٍ حَمَلَتْ نَفْسَ الْأَسْمِ، اسْتَقْبَلَهُ
ضَجِيجٌ رَفَعَ أَقْرَاصَ الطَّائِلَةِ وَأَحْجَارَ الدُّومِينُو، صِيَاغَ التَّنَدُّلِ بِالطَّلِبَاتِ،
صَخْبِ الْحُضُورِ وَرَائِحَةِ النَّارِجِيلَةِ، وَقَفَ عَنْ بُعْدِ بَتَأْمَلُ زُكْنًا بَعَيْنِيهِ فِيهِ
كُرْسِيَانِ وَمِنْضِلَةٌ خَلْفَ بَابِ زُجَاجِيٍّ، زُكْنٌ ابْتَسَمَ فِيهِ أَبُوهُ يَوْمًا وَعَدَّلَ
هِندَامَهُ لِيُسْجَلَ الْكَامِيرَا كَحِظَّةٍ فَرِيدَةٍ بِجَانِبِ سَعْدِ زَغْلُولٍ فِي صُورَةٍ
مُهْتَرِكَةٍ، اسْتَشْعَرَ طَيْفُهُ وَاشْتَمَ عَبَقَ ثُورَةٍ مَنَكُوبَةٍ تَرَكْتَ أَثَارَهَا عَلَى
الْجُدْرَانِ قَبْلَ أَنْ تَعَثَرَ عَيْنَاهُ عَلَى عَبْدِ الْقَادِرِ، مُسَارِدًا مُلْقِيًا رَأْسَهُ لِلوَرَاءِ
وَبَيْنَ أَصَابِعِهِ سِيَجَارَةٌ مُحْتَضِرَةٌ، بَعْرِيزَةٌ أَمْنِيَّةٌ تَفْخُصُ الرُّوَادَ مِنْ حَوْلِهِ
بَعَثًا عَنْ وَجْهِهِ يَنْتَمِي لِمَكْتَبِ الْعُخْدَمَاتِ^(١)، لَمَّا اطْمَأَنَّ لِعُغْيَابِهِمْ اقْتَرَبَ،
جَلَسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ الْمُقَابِلِ فَتَنَّبَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ، ارْتَكَزَ بِمِرْفَقَيْهِ عَلَى
الْمِنْضِلَةِ وَدَعَكَ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ طَالِيًا الْإِفَاقَةَ.

- اطلب لي قهوة ثاني ع الربيعة.

زفرها عبد القادر فأشار أحمد لناول يعرفه، حيَّاه باسمه وطلب
كوبتي قهوة قبل أن يرجع عبد القادر بظهوره إلى الكرسي، يعينين
محتقتين سأل:

(١) جهاز للأمن السياسي أنشأه الإنجليز ومهمته تتبع ورصد الوطنيين والفصاء على
مقاومتهم للاحتلال .. يُطلق عليه: مكتب الخدمات السرية.

- هُوَ مِن اللى اخترع القهوة؟
- بيقولوا اليمَن أول ناس شربوها.
- ناس مُحترمين.
- محتلين من الإنجليز بَرضه.
- الإنجليز! ديك أم الإنجليز.
- أنت بتشم؟
- نظر له عبد القادر دقيقة قبل أن يُجيبه: سَاعَات.
- ما ينفعش تشم وأنت معانا.
- البودرة مش كيف.. زيه ازي القهوة عندي.. بتظبط
الدماغ.. بتصحصحني.
- تبطلها.
- مسح عبد القادر رأسه بعصبية وشخر بخفوت قبل أن يزفر:
ماشى.. أبطلها.
- مُوافق تشتغل معانا؟
- مُوافق بس على شرط.. أقابل الراجل الكبير اللي مشغلك.
- الراجل الكبير اللي مشغلني؟
- ما هو أصل أنا ما بأخدش أوامر من حد.. وأنت لا مؤاخذه شكلك
تلعيذ في الموضوع.
- تلميذا لو هتشارك لازم تعرف إن الشغل كُلُّه هايبقى عن طريقي.

--يَعْنِي أَنْتَ الرَّاجِلُ الْكَبِيرُ؟

- رَجُلٌ كَبِيرٌ إِيَّاهُ؟ هِيَ عِصَابَةٌ؟ - ثُمَّ نَظَرَ أَحْمَدُ حَوْلَهُ لَمَّا لَمَسَ عُلُوَّ صَوْتِهِ فَأَخْفَضَهُ - دِي مُقَاوِمَةٌ احْتِلَالٌ وَلِيَهَا قَوَاعِدُ تَأْمِينٍ.. كُلُّ حَاجَةٍ فِي وَقْتِهَا.. لَازِمٌ تَشَارِكُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً عَشَانَ يَفْهَمُ.. تَتَعَوَّدُ تَسْمَعُ الْأَوَامِرَ عَشَانَ مَا تَتَكَشَّفُشْ وَتَتَكَشَّفُنَا مَعَاكَ.. الْمَسْأَلَةُ مِشْ لَو تَارِيَةً تَدْفَعُ قَرَشِينَ وَتَكْسِبُ.. الْمَوْضُوعُ كُلُّهُ مَخَاطِيرُ.. تَعْرِفُ تَضْرِبُ نَارَ؟

- تَعْرِفُ أَنْتَ تَضْرِبُ نَارَ؟

اقْتَرَبَ النَّادِلُ وَأَنْزَلَ الْقَهْوَةَ فَسَكْنَا لِلْحِظَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرشِفَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ثُمَّ يَنْظُرُ لِأَحْمَدِ.

- شَرِطْ كِمَانِ.

- شَرِوْطُكَ كَثُرَتْ!

- كَلِمَةُ شَرَفٍ لَوْ حَصَلَ لِي حَاجَةٌ تَبْلُغُ أُمِّي وَالْحِجَّةَ كُلَّهَا إِنْ صَرَبْتُ فِي الْإِنْجَلِيزِ عَشَانَ الْبَلَدِ.. وَعَشَانَ أَبُويَا اللَّهِ يَرْحَمُهُ.

نَظَرَ أَحْمَدُ فِي عَيْنَيْهِ مَلْتَمَسًا الْجَدِيَّةَ حَتَّى وَجَدَهَا.. غَائِمَةً مُبْهِمَةً.. لَكِنَّهَا مَوْجُودَةٌ فَأَجَابَهُ: وَعَدَ.



اليوم التالي

وَسَطَ البلد... كافيهِ «ريش»

الاسم مكتوب بخط ديواني انسيابي فوق باب الدخول الزجاجي المواجه للحديقة التي تمتد حتى ميدان سليمان باشا، تراصت المناضد على العُشب الأخضر تكسوها المفارش البيضاء والأواني اللامعة، جلس الرواد حولها يستمعون لأنغام فرقة صغيرة تعزف لحناً لموتسارت.

منذ بداية الحرب أصبح هذا المقهى المظلل على ميدان سليمان باشا ملتقى الطبقات الوسطى المعارضة من كافة التيارات الفكرية، أدباء وشعراء وفناني مسرح وصحافيين، تُقام فيه الندوات وتعرض على مسرحه الصغير المسرحيات والحفلات الغنائية، وفي نفس الوقت، نقطة تجتمع للجواسيس والمُخبرين! كاشفي الوطنيين المُجاهرين بأرائهم، الحقيقيين منهم ومُدَّعي النُضال الذين دخلوا السجون وخرجوا ليتحاكوا بالبطولات الوطنية الزائفة.

«ميشيل بوليتس» صاحب المقهى، يوناني شاربه أبيض ووجهه مشرب بحمرة النبيذ، كان يقف بجانب البار متحدّثاً مع أحد الزبائن حين دلف عبد القادر وأحمد من الباب ليجلسا إلى أقرب مائدة، التفت عيناه بالآخر فأحنى رأسه بهدوء قبل أن يكمل حديثه:

- ما كنّا نقابل الراجل الكبير قبي الكراكون أحسن! ألقاها
عبد القادر مُتهكِّمًا.

- راجل كبير إيه وكراكون إيه؟!

- لو المشوار بتاعك ده بتدوروه من هنا تبقى أكيد مناخوليا..
المكان ده مرشوق مُخبرين.. يله بينا يا عم.

أمسكه أحمد بيده: اقعده.. ده آخر مكان يتوقعوا نخناره.

لحظات وانفصل ميشيل عن زبائنه.. صعد سلاّم المسرح الصغير
الذي تراصت عليه الآلات أمام العازقين وصَفَّق فسكنت الهَمَّسات
قبل أن يتكلَّم بعربية لا تخلو من لكنة:

- أصدقائي.. يُسَيِّد كانيه «ويشر» أن تقدّم لكم مسبو
«فؤاد الجزائر لي» وفرقة الرايثة التي سيطركم فيها الشاب
لطيف الصوت «مُحمَّد آبد الوهاب».

صَفَّق الحاضرون بفنور حين تخلل المناضد شاب لم يتعد العشرين،
نحيل طويل شعره مُموَّج عالٍ يرتدي بدلة ذاكنة من الصُوف، توسّط
المسرح بتواضع واثق وابتسامة هادئة قبل أن تبدأ الفرقة في العزف،
عينا أحمد لم تُغارقا ميشيل الذي تنحّى عن المسرح وهز رأسه لأحمد
قبل أن يختفي خلف بارافان خشبي.

- دقيقة وحصلني ورا البارافان.

تحرك أحمد فتبعه عبد القادر بعينيه حتّى اختفى ثم قام من مكانه
مُتخلِّلًا المناضد متأملًا المطرب الصَّغير وهو يتحنن استعدادًا للغناء،
عَمَّزَه بعينيه تشجيعًا فابتسم امتنانًا قبل أن يختفي وراء البارافان، ميشيل

كَانَ واقِفًا في انتظاره، وَضَعَ سَبَّابَتَهُ أمامَ فَمِهِ حَائِثًا عبدَ القادر على الصمتِ وأشارَ في جدية إلى بابِ الحمامِ.

بالداخلِ كانَ أحمدُ منتظرًا أمامَ بابِ الكابينة الثانية، أشارَ لعبدِ القادر أنَ يقتربَ فرمقه بهشّة ثم تقدّم، أغلقَ أحمدُ البابَ عليهما بصعوبة ثم مدَّ يده خِلفَ الطَّارِدِ وجذبَ ذِراعًا خفية فانفتحت فُرْجة في باب، دفعَها مُتقدِّمًا عبدَ القادرِ إلى دِهليزِ مُظْلِمٍ.. مَشَى أحمدُ خطوتين قبل أنَ يتوقفَ ويُخرجَ من جيبه مُصحفًا ثم يلتفتَ لعبدِ القادر:

- حظ إيدك على المُصحفِ.

لم يردفَ عبدَ القادرِ.. وضعَ يده اليمنى على المُصحفِ حين قال أحمدُ:

- قول ورايا: أقسم بالله العظيم.. أن أحافظ على شرفِ المنظمة وأن لا أفشي أسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام.. وإني إذا حُشيت بيمينِي أكون قد خُنتَ وَطَني وأهلي.. آمين.

ردّدها عبدُ القادرِ وراءه في خشوعٍ شمارد قبل أن يغلقَ أحمدُ المُصحفِ.

- مبروك عليك الانضمام لليد السوداء.

- كده بس!! مفيش كونتراتو؟

هز عبدُ القادرِ رأسه ولم يعقب، لم يكن يتخيل يومًا أن يكون عضوًا في مثل تلك الحركة، كان قد سمع اسم «اليد السوداء» كثيرًا خلال نَميمة المقاهي وفي أخبار الجرائد الجريشة، الجماعة التي رُوِّعت

الوزراء بالرسائل واغتالت عددًا من المسئولين الإنجليز والضباط، اسمها مقتبس من جماعة تحمل نفس الاسم تكونت في صربيا لمُحاربة الاحتلال النمساوي - المجرى، وكانت عملياتها فتيل إشعال للحرب الكبرى.

انتشله أحمد من شروده حين اقترب من الباب الصغير وفتحه.

الجو كان حارًا الرِّجًا ورائحة الكحول نفاذة رغم المروحة التي تقلب الهواء، وسط براميل النيذ وصناديق البيرة استقرت فوق منضدة ماكينة طباعة «رونيو»، ينحني فوقها رجل يُلقمها الأوراق الفارغة فتصرُخ بصُريز مكتوم قبل أن تلفظها من الجهة الأخرى تملوء بحبر وحروف، وأفكار، منشورات فيها نص خطاب الرئيس الأمريكي ويلسن في مؤتمر فرساي، يُقر الحماية البريطانية على مصر ويرفض فكرة استقلالها! ثم كلمات تحث الناس على الصُّمود في وجه الاحتلال.

توقفت الحركة حين دخل القبو، بجانب ماكينة الطباعة والرجل الذي يُلقمها كانت هناك فتاة وسيدة مكشوفتا الوجهين سال العرق على نحو رهن قبلل الحجاب، واحدة تجمع الورق لتضعه في الكراتين والأخرى ممسكة بختامة تختتم بها على النقود، قدّمهم أحمد لعبد القادر:

- عبد القادر أفندي.. راجل محترم هيبقى معانا من النهاردة.

هز العجوز رأسه والسيدتان فأردف أحمد: عم إسحاق.. خبير الطباعة بتاعنا وعامل في العنابر.. قابلته قبل كده في المركب.

هز عبد القادر رأسه تحية للرجل فأشار أحمد للسيدة التي تجمع الورق:

- الست بدرية.. مُمرّضة في القصر العيني.

ثم أشار للفنّانة الخمرية التي تختتم النقود: الآنسة دولت.. مدرسة في مدرسة الهلال.

ساد الصمت لحظات قبل أن يقطعه عم إسحاق حين أدار ذراع التشغيل لتكميل ماكينة الطباعة عملها، انهمكت السيدتان في العمل فاقترب أحمد من دولت والنقط من أمامها ورقة نقدية مَخْتومة بكلمتين «يحيا سعد»، رفعها أمام عيني أحمد الذي أردف:

- دي فكرة دولت.. دلوقت الموظفين الإنجليز يقبضوا فلوس عليها اسم سعد باشا.

هز عبد القادر رأسه متعجباً قبل أن يتحجى بأحمد جانباً ويهمس:

- إحنا ما اتفقناش على كده.. طباعة! دي سُغلانة ترسو.

التقطت دولت الكلمة فرمقت عبد القادر بحدة قبل أن تلتفت للمُنشورات بين يديها حين أردف أحمد:

- أنت مش هتشتغل في الطباعة.. سُغلتك هتكون تأمين المجموعة مع «ميشيل» صاحب الكافية.. تراقب الزباين.. ولو اشتبهت في حاجة تدي المجموعة إشارة وتساعد في الهروب.

- بس كده؟

- دي مش سُغلانة سهلة.. توزيع المُنشورات فيها سجن.. التزم لغاية ما تتعود على نظام الحركة.. وبعدين تقوم بعملية أكبر.. كله في وقته.. خلّي دي معاك - وأخرج من جيب سترته طبنجة صغيرة - تستخدمها في أضيق حدود.

دس عبد القادر المطبجة في سترته حين سألته أحمد:

- بالمناسبة.. أنت ساكنين قين؟

سألك عبد القادر حنجرته بكحة كسباً للوقت قبل أن يجيبه:

- قرب طياب.. سيب لي خبر في قهوة سلطان.

- عال..

شرد عبد القادر في حركة المطبعة الرتيبة والعاملين عليها، في السيدة التي انهمكت بجديفة في سناولة السورق، والفتاة العابسة التي رمقتها باحتقار منذ دقيقة قبل أن يسأل أحمد همساً:

- الناس دي شغالة لله وللوطن؟

- مفيش مفايل لمساعدة الحركة.. إحنا بالعافية بنوفر مصاريفنا..
أنت بتشتغل دلوقت؟

زفر بضيق: يعني.

- هاكلسم لك ميشيل يصرف لك مَرْتَب سَارس ووجهة.. كده
كده وجودك في المكان لازم يكون بشكل قانوني.. هابسيك
دلوقت مع المجموعة.. شد الحبل ده - وأشار لحبل متدل على
الحائط - ميشيل هيا من الجو.. الستات يخرجنوا الأول.. عم
إسحاق.. وبعدين أنت بعد ما تخبي الماكنة في الفتحة دي - وأشار
لفتحة خشبية في الأرض - وبعدين تخرج.. استبيننا؟

- استبيننا.. قول لي.. هي البت دي مالها؟ بتبص لي بقرف تقولش
جوز أمها!

- مالکش دعوة بدولت .. ویستحسن بلاش کلام من أصله .. کل ما عرفنا عن بعض معلومات أقل يكون أمن لنا کلنا .. هاسيک دلوقت .. راجع مع ميشيل وعم إسحاق مواعيد حضورک.

ألقاها ثم انحنى على عم إسحاق وهَمَس بكلمات قبل أن يفتح باب القبو ويخرج.

- أنت رايح فين؟ سألہ عبد القادر.

- عندي حفلة.

- حفلة؟!

لم يترك أحمد لعبد القادر فرصة السؤال، قالها ورحل، انزوى عبد القادر في رُكن يتأمل حركة الطباعة الميكانيكية، أشعل سيجارة فرماه عم إسحاق بنظرة لوم فأطفأها تحت خذاته ثم اقترب، التقط ورقة المنشور فضوّلًا وقرأ رأي الرئيس الأمريكي في أن مصر أمة لا تستطيع إدارة شئون نفسها! دائمًا ما كان مُقتنعًا ومنوافقًا مع هذا الرأي، إلا أن ضيقًا تملكه حين مرّت عيناه بالكلمات، صيغة الإهانة المُحمّلة خلفها أحرقت صدره .. لو كان الرئيس الأمريكي فتوةً حيّ مجاور لويسعته ضربًا وقطعت وجهه برقبة زجاجة مكسورة وعلّقته على حَنَظُور يلف به حارات السيدة زينب تنكيلًا، لكنه للأسف يقطن قارة بعيدة لا تصلها عربات الكاروا أرجع عبد القادر المنشور مكانه والتقط ورقة نقدية فضوّلًا وهو يختلس ملاصق دولت عن قُرب، الخبرة لم تنجح في إخفاء جمال وحشي عابس مكسو بلون الخمر، أنف حاد، شفاه مكتنزة، وغضب مشرّب بالُم يُلوح في العينين العسليتين، مدّ يديه مُساعدة في تنسيق النقدية فأطبقت كفها على النقدية ورَمَقته بضيق:

- سَاعِدِ السَّتْ بِدِرِيَّةٍ وَلَا عَمَ إِسْحَاقَ.

رَمَقَهُ عَمَ إِسْحَاقَ بِابْتِسَامَةٍ شَمَاتَةٍ فَبَادَلَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ نَظْرَةً إِحْبَاطَ ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنَ السَّيِّدَةِ بِدِرِيَّةٍ وَمَدَّ يَدَيْهِ يَسَاعِدُهَا، قَضَى دَقَاقَتَ يَرِصُ الْأَوْرَاقَ فِي الْكَرْتُونَةِ وَيَخْتَلِسُ النِّظَرَاتِ لِلدَّوْلَةِ الَّتِي لَمْ تَعْرِهِ اهْتِمَامًا حَتَّى انْتَهَتْ الطَّبَاعَةُ، قَامَ عَمَ إِسْحَاقَ وَجَذَبَ عَبْدُ الْقَادِرِ مِنْ ذِرَاعِهِ هَامِسًا:

- تَعَالَى نَخْرُجْ عَشَانِ الْحَرِيمِ تَبْدُلْ هَدُومَهَا.

تَبَعَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ دُونَ أَنْ يَسْأَلَ، جَذَبَ الْحَبْلَ ثُمَّ خَرَجَا إِلَى الدَّهْلِيزِ ثُمَّ الْحَمَّامِ، مِيشِيلُ كَانَ فِي انْتِظَارِهِمَا، اتَّفَقَ مَعَ عَبْدِ الْقَادِرِ عَلَى الْحَضُورِ يَوْمِيًّا فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَكُنْ أَعْضَاءُ الْمَقَاوِمَةِ مَوْجُودِينَ دُرًّا لِلشَّيْهَاتِ، وَأَنَّهُ سَيُعْطِيهِ فِي الْيَوْمِ عَشْرِينَ قُرْشًا نَظِيرَ عَمَلِهِ، اسْتَهَانَ عَبْدُ الْقَادِرِ بِالْمَبْلَغِ وَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ حَقَّ الْجِدَالِ أَوْ الرِّفْضِ، كَمَا اسْتَغْرَبَ لَفْظَةَ الْمَقَاوِمَةِ حِينَ سَمِعَهَا، بَدَتْ جَدِيدَةً عَلَى قَامُوسِهِ.

دَقَاقَتُ وَخَرَجَتِ السَّيِّدَتَانِ، بِدِرِيَّةٍ وَيَضُجُّبَتَهَا دَوْلَتُ أُخْرَى غَيْرِ الَّتِي كَانَتْ تَجْمَعُ الْأَوْرَاقَ، بَدَّلَتْ خَبَرَتَهَا وَبُرْقَعَهَا بِنِسْتَانِ بَنِي وَوَشَاحِ أَرْزَقِ رَائِثُ لَمْ يَخْفِ نَخْصَةُ فَاحِمَةٍ، بَدَتْ كَفْتِيَّاتِ الْأَرَسْتَقْرَاطِ، أَوْ كِبْنَاتِ الْإِنْجِلِيزِ اللَّاتِي يَلْمَعْنَ فِي الْحَقْلَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفَنَادِقِ الصَّفْوَةِ، رَمَقَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ فِي ذَهُولِ قَطْعِهِ إِسْحَاقَ:

- اخْرُجْ أَنْتِ يَا عَبْدُ الْقَادِرِ الْأَوَّلِ.. أَمِّنِ الشَّارِعَ وَإِحْنَا هَا نَخْرُجُ بَعْدَ دَقِيقَةٍ.

انْتَزَعَ عَيْنِيهِ مِنْ وَجْهِهَا الْعَابِسِ رَغْمَ سِحْرِهِ وَخَرَجَ إِلَى الشَّارِعِ، مَسَّحَهُ بَعَيْنِيهِ لِدَقِيقَةٍ قَبْلَ أَنْ يُشِيرَ لِمِيشِيلِ الَّذِي أَعْطَى الصَّوْءَ الْأَخْضَرَ لِلْسَيِّدَاتِ وَإِسْحَاقَ، خَرَجْنَا تَحْمِلُ كُلُّ وَاحِدَةٍ حَقِيْبَةً مَتَخْمَةً بِالْمَنْشُورَاتِ

والنقدية المختومة باسم سعد، ثم تفرقا كلٌّ إلى اتجاه، تابع عبد القادر
دولت تسير ناحية الميدان قبل أن يلتفت لعم إسحاق:

- إيه قصتها دي يا عم إسحاق؟ هي بخبرة وبرقع ولأ بنت ذوات؟
نظر له الرجل من بين دخان سيجارته ولم يعقب..
أردف عبد القادر:

- أصلها مبوَّزة أوي! بس الهيئة بريمو في الفستان.
- أحسن لك تبعد عنها لأن القضية عندها أهم من أي حد.
- لا إله إلا الله! هو أنا قلت حاجة يا عم الحاج؟! أنا باستفهم بس.
رفع الرجل حقيبة المنشورات واستعد للرحيل:
- بُكرة معادنا الساعة ستّة.. تيجي بدري.. سلامو عليكو.
- طب وأنا مش هاو زرع منشورات زيكم؟

توقف الرجل ونظر إليه:
- لمّا عضمك ينشف.. وتركّز.
- أنا ناشف على فكرة هه.. ناشف أوي.... يا عم إسحاق! عم
إسحاق...! طب رد عليا طيب.

ابتعد الرجل ولم يلتفت.. زفر عبد القادر: ديك أمك.
ثم دفن سيجارته وتّم على الطبنجة في جيبه قبل أن يبتعد وصورة
الفستان تراود خياله.



صَاحِبَةُ هَلِيوبوليس.. قصر اليارون إِمْبَان

القمر كَانَ بَدْرًا، نوره البَارِد انساب على الحديقة الواسعة الغنية بالنباتات النَّادِرة، حَديقة يتوسطها طَرِيق صَّاعِد إلى باب القصر، دَرَجَات سَلَمُه عَرِيضَة اصطَلَّتْ عَلَى جوانبها أشجار مُعلَّقة في أغصَانها فوانيس نُحاسية تحوي شُموعًا تنير سَبِيل المَدْعُوين، تحرسهم ثلاثة تماثيل بَيضاء بالحَجَم الطبيعي لِمُقَاتِلين أَشداء يَحْمِلون نِسْرًا وسِوفًا ويطشون رءوس أَعْدائهم تحت أَقدامهم الرخامية، الخدم انتشروا في كل مكان يرشدون المَدْعُوين لِلْمَدخل وَيُعاونون السَيِّدات في النزول من العَرَبات، وآخرون يُساعدون السائقين والسائسين في اصطاف وتنظيم سياراتهم والعربات.

قُرْب الثامنة مساءً كان الزحام قد بلغ أَشدّه، عَرَبات الدوكار الفَخمة والسيَّارات الفارحة صَنعت طابورًا أَمام سُور القصر المَهيب تنظُر دورها في الدخول لِلْحَفَل الأسطوري، نزل أحمد من الترام فتمشَّى حتَّى حدود القصر مُتخلِّلًا الزحام في بدلة سموكينج سَوْداء وبابيون لامع لُوق قميص أبيض، في قلبه يُقلُّ يُبطئ ضرباته ويسن يديه قِنَاع فضِّي سيُخفي ملامحه بعد قليل.

عند البوابة سَأَلوه عَن اسمه فأبرز دعوة باسم «شريف صبري»، اسم

شقيق نازلي الذي كَانَ مُسَافِرًا للندن في ذلك الوقت، توغَّل في الحديقة مُتأملًا البناء الأسطوري المشيَّد على الطراز الهندوسي الذي طالما يَهْره كُلُّمَا مَرَّ خَلْفَ الأسوار، البُرْج العَالِي المنحوت بالآفِيَال والأسود، والبوابة العَظِيمَة المَنْقُوشَة بفَتِيَات هِنْدِيَات يَرْقُصْنَ حَوْل مُجَسِّم لِبُودَا.

قطع المَسَافَة مُنْبَهَرًا بِمَخَاطِمَة البَنِيَان وَرَوْنَق التَمَائِيل الضخمة الحَامِلَة للشرفات، مُرَاقِبًا عَليَة القوم من الباشوات وكبار رجال الدولة وأصدقائه الإنجليز، ينزلون من سياراتهم في أزياء تنكزية خَفُفَت من ثِقَلهم السِّيَاسِي وهَيْتَهم الجَامِدة التي يظهرون بها فِي الجرائد والمجلات، أَلْوَاب مُلُوك الفراعنة والملكات، شيوخ العَرَب وَجَوَارِيهم، فَسَاتِين على الموضة مَزِينَة بالكِرَانِيش، وأردية السهرة البَاهِظَة، أَحْذِيَة لَامِعة أَلَم تَطَأ الأرض مَرَّتَيْن ومُجوهرات تَسَدُّ دِيُون العَالَم!

دَلَف إلى البهو مُتأملًا أَرْضِيَات الرُخَام والمَرمر مُخْتَرَفًا صَخْب الألوان والضمحسكات، زَوَاشِع مَمزُوجَة بِعَبَق الكُمُحُول وَدُخَان التَبَاقِير، مُوسِيقَى صَائِخَة تُسَير الدَم فِي العُرُوق، تَمَائِيل من الذهب والبلاطين والعَاج وَلُوحَات لَمشَاهِير رَسَامِين قَرَأ أَسْمَاءهم فِي الكُتُب، وَسَاعَة فَخْصَة اسْتَرَق ثَرِيرَة المَدْعُوبِينَ عَنهَا، قَالُوا أَن لَا مِثِيل لَهَا إِلَّا فِي قِصْرِ المَلِك بَلْنَدَن، تَوَضَّح الوقت بِالدَّقَاقِق والسَّاعَات والأَيَّام والشُّهُور والسَّنِين مع تَغْيِيرَات أَوَجه القَمَر، بِل وَتَقْيِس ذَرَجَات الحَرَارَة! اسْتَعْرِق أَحْمَد فِي الانْبِهَار دَقَاقِق حَتَّى اسْتَعَاد مَا جَاءَ مِنْ أَجَلِهِ، وَضَعَ القِنَاع عَلى عَيْنِيهِ دَرَأً لَلْأَسْئَلَة حَوْل هَوِيَّتِهِ ثُمَّ التَقَطَ كَأْس شَامْبَانِيَا ائْتَمَاجًا فِي الأَسْم المَكْتُوب فِي الدَّعْوَة، بَحْث بِعَيْنِيهِ عَن نَازِلِي الَّتِي

وَعَدته ببقاء أبيها.. ماذا أفعل؟ سأل نفسه.. ثم أجاب في لحظة: أجازف
كما أجازف بإطلاق رصاصة في قلب إنجليزي.. ألقي بنفسي من النافذة ثم
أفكر فيمن يتلففني.. أمزج كيمياء قنبلة فأثر أشلاء ودماء ثم أطلب القهوة
وأدخن سيجارة.. نعم.. أنا أصنع قدرًا موازنًا لقدري.. حياة جديدة غير التي
أهرسها تحت قدمي كحذاء بالك يشرب مياه المطر.. حياة قد أموت فيها
على الفراش بأزمة قلبية أو مضاعفات كبر.. بدلًا من رصاصة في الظهر..
لا أحد يعيش عمره كله في الصفوف الأمامية.. سأذبل يومًا كورقة خريف
وستهرسني الأقدام.. يجب أن أنفخ يومًا لإدارة الأسور بعد عصر لهشت فيه
وراء كرامة تبعد كالسراب.

هكذا قال سعد حين تزوج صَفِيَّة بنت رئيس الوزارة.

ولنفس الأسباب كرهته!

كرهته...!

رَدَّدها أحمد في نفسه للحظات حتَّى اقتنع بحبِّه عن الطريق،
ترك كأسه في صينية غابرة وأطفأ سببجارتَه ثم اتجه إلى باب الخروج
ناويًا الانسحاب.. الاختفاء.. الرجوع للحياة الحقيقية التي يعرف
تضاريسها.. كان ذلك حين أوقفه فستان «فلاير» برونزي وقناع قِطْعَة
ذهبي وسلسلة تحمل حرف «N» صغير تندلى فوق صدره:

- رابح فين؟

عرف صَوْتها: كنت بدوّر عليكي.

- حدد ضابفك في الدخول؟

- محدّش هنا يعرف أخوكي.. حلو فستانك.

أمسكت بسلسلتها تداعبها بين أصابعها: شفت السلسلة الجديدة بتاعتي؟

- وحشة.. مين اللي جابها لك؟

- إوعى تهزأ بيه.. تعالى.

سحبت يده إلى درّج دائري عجيب من خشب الورد الفاخر، بدا لأحمد لانهاثًا وهو يتبعها صعودًا كعقرب ثوانٍ يطارد عقرب ساعات، فأمل ساقها الرشيقتين تقفزان الدّرج حمانًا وخط الجورب الدّاكن الذي يتوسّط السّمانة لينتهي على شكل ورقة لوتس عند الكععين، طلاء أظافرها البرونزي في أصابعها الرقيقة التي عانقت يديه ورائحة الياسمين النفاذة التي تُخلفها وراءها، تنظر إليه وتفحك فيبطر بهما الزمن، ابتسم في نشوة وصوت الموسيقى يغمره مع كل درّجة يصعدّها حتى بلغا سماء القصر.

الهواء كان أكثر برودة والصّخب هادئًا في السّطح الذي كشف مدينة «هليوبوليس» كأنها خريطة صغيرة، البرج العجيب بدا أكثر إبهازًا عن قُرب، والأعمدة صليبية الشكل المُزدانة برءوس الأفيال أضفت على الأجواء هيبة كهية المعابد، المناضد على الحواف رُصّت، تحمل فوقها كل ما لذ وطاب من فواكه ومقبّلات، والمدعوون مُندمجون في الرّقص فوق سجاجيد هندية على أنغام موسيقى «الشارلستون» الهادرة المنبعثة من فرقة جاز أمريكية استضافها البارون خصيصًا لإحياء الحفل.

استند بجانبها إلى سور يطل على الحديقة الواسعة بعدما التقطا كأسين، تابعا الرقصة المَجْنونة لدقائق تبادلها فيها الابتسام بدون كلمات حتى اقتربت منه ورفعت صوتها لئيسمعهما.

- مَصْر كُلُّهَا تقريبًا مَعزومة النهاردة.. أنا شفت مُوصيري وقطّاي باشا، وهَارون وفِيكتور كوهين بنوع محلات بونتريمولي، وسوارس ومنشّى، ويوسف شيكوريل، ده غير أمراء وأميرات الأسرة، بالمناسبة ابن السلطان حسين كامل اللي رفض العرش هو السمين اللي قاعد هناك ده.

- يرفض العرش بدون إبداء سبب!

صاحت في أذنه لئيسمعهما: سمعت إن فيه قصة خب مع واحدة فرنساوية.

- دايما قصة حُب! والفرنساويات حلوين.

ابتسمت لما التقطت التلميح حول أصلها قبل أن يسألها: أمال فين البارون؟

- شاييف الراجل أبو سكسوكة.. اللي حاطط ماسك بمناخير طويلة.. هو ده.

- ممم.. هو صحيح عامل الحفلة دي بمناسبة إيه؟

- إعادة علاقات وصداقات جديدة.. أنت عارف البارون هو صاحب شركة «واحة هليوبوليس» اللي عامله المدينة دي كلها، هو اللي عامل مضممار الخيل وملاهي لونا بارك وقصر هليوبوليس والقصر العجيب اللي إحنا فيه ده.. كل حاجة كانت

ماشية تمام لغاية ما حَصَلَتْ مشادة بينه وبين السلطان حسين كامل
الله يرحمه.. لأنه كان عاوز القصر ده هدية.. البارون ما وافقش..
فالسلطان ضيق عليه مشاريعه.. خاف على نفسه فسافر مع أخته
وبنته الوحيدة لبلجيكا.. لغاية ما سمع خبر موت السلطان.. وأول
ما انتهت الحرب قرر يرجع.

- قصر هدية ٩-

- طبعا.. البارون من أغنى أغنياء العالم.. بس القصر ده عزيز
عليه أوي.

ثم أشارت نازلي لسيدتين مُبهرتين في الخمسين لم تُخف
الأفئدة وجهيهما.

- اللي لابسة أبيض دي تبقى ليدي «جرهام» مرات مُستشار وزير
الداخلية.. واللي جنبها إيفيت بُغدادلي.

- يسمعت الاسم ده قبل كده.

غمزت بعينها وهمست: عشيقة البارون.. والسبب الرئيسي
لوجوده في مصر.. بيحبها حُب غير عادي.. بيقولوا إن القصر ده
كله بناء عشانها.

- وليه ما يتجوز هاش؟

- لأنها متجوزة!

- تمام!! واضح إنك بتحبِّي أخبار الصَّقوة.

- ريحتهم هي اللي فايحة.. بتيجي لغاية أوضة نومي.

ضحكا قبل أن يَصمنا.. نظر إليها للحظات وجاهدت لتُبقي عينها
في عينيه:

- وحشيتي.

ابنسمت بخجل: أنت كمان.

- جميلة النهاردة.. ومش عشان على راسك ريشة.

ضحكت ومسحت بأناملها الرباط الشفاف المحيط بجبهتها
وعدلت من وضع الريشة الذهبية المثبتة فيه قبل أن يقاطعهما رجل
يرتدي زي الفوستانيلا اليوناني التقليدي.. طربوشا قصيرا وتنورة
بيضاء وجوارب طويلة فوق جذاء أحمر.. أمسك مرفق نازلي برفق:

- أنت فين يا نانا؟

الفتت نازلي بارتباك: أنا هنا.. ثم نمالكت نفسها: أقدم لحضرتك
أحمد.. صديق انعرفت عليه في بيت بابا سعد.

ثم نظرت لأحمد الذي يقاوم الضحك وهو يتأمل الزي.. جذبت
أصابعه تنبيهًا:

- أقدم لك بابا.. عبد الرحيم باشا صبري.

اعتدل أحمد فجأة: تشرفنا يا باشا.

ابنسم الرجل: فرصة سعيدة يا أحمد أفندي.. وأنت تعرف سعد
باشا منين؟

- والدي الله يرحمه كان صديقه.

- واسمه إيه الوالد الله يرحمه؟

- عبد الحي .
- عبد الحي إليه ؟
- تردد أحمد للحظات : كبيرة .
- ضيق الرجل عينيه ودأب الطربوش الأحمر القصير فوق رأسه :
 ة! الاسم ده مش غريب عليا! كان يشتغل فين ؟
- بكباشي في الجيش .
- وهو توفي في ...
- أدركه أحمد: كان مريض .
- الله يرحمه وبحسن إليه .. وأنت بتشتغل فين يا أحمد أفندي ؟
- القصر العيني .. مدرسة الطب .
- عفارم .. ويدوك ماهية كويسة ؟
- كويسة .
- لفهم الصمت للحظات قبل أن يلمح الرجل جرح صدغ أحمد ..
 ب منه مدققاً بعد أن رفع مونوكل أمام عينه اليمنى .
- واضح إنه كان جرح حاد .
- شقاوة طفولة .. ابن خالتي كان يهزر بعصاية فعورني .
- لكن ما قتلش .. أنت مين اللي دعاك على الحفل النهاردة ؟
- آآآ .

أشغقت نازلي على أحمد فقاطعت أباهما:

- بابي! إحنا في حفلة مش في المحافظة! سيل ثويليه؟

ابتسم أبوها فاحتضنها ولثم جبهتها ثم نظر لأحمد: غلباوية..
زي سعد زغلول.. ماشي يا ستي.. النهاردة حفلة وبس.

- يا عبد الرحيم باشا.

كان المُنادي أحد المدعوين.. ربت الرجل على كتف نازلي وابتسم
لأحمد: كيرة.. اسم مميز جدًا.. أستاذكم.

قالها وانسحب مُندمجًا مع معارفه حين استطردت نازلي:

- آسفة.. بابي بيهتم جدًا بالتفاصيل.

- أنتِ لو بتتي هاعمل أكثر من كده.. بالمناسبة هدومه تجنن.

- أنتِ كنتِ هاتموثني من الضحك لما بصيت للهدوم.. تخيلت
أنك هتألَس عليها.. بابا بيعتَز جدًا بالفرع اليوناني في العائلة.

- غريب الخليط اللي أنتِ جاية منه.. جريجى على فرنساوي
على عثمانلي.

- على مصري.

- أحلى حاجة فيكي.

بدأت الموسيقى تعزف لحناً راق إلى أذنيها.. نظرت إلى الفرقة
وبدأت تتمايل في خفةٍ قيل أن تميل عليه:

- على فكرة.. أعتقد أنك عجبت بابا.

ابتسم أحمد بترقب وهو يراقب أباه.. أردفت نازلي:

- أنا بعشق الأغنية دي.. A Good Man is Hard to Find..

ماريون هاريس.. صوته يخل.. أحسن مطربة في أمريكا.

مدَّ يده إليها: ترقصي؟

أغمدت كفَّها في أصابعه فسحبها إلى المرقص، تمايلا لدقيقة قبل
تتكلم:

- بترقص هايل أودكتور.. واشتغلت مع ساحر فرنساوي في سيرك!

إيه تاني المفروض أعرفه؟

- بطبخ ملوخية تجنن.

- وإيه كمان؟

- وقاتل قتلة بعد الظهر.

ضحكت حتى دُمعت عيناها: أنا موافقة.

نظر إليها في استفهام فأردفت:

- موافقة أعيش معاك عمري.

صَحَّط على أصابعها في كفِّه وابتسم ابتسامة حاول أن تبدو طبيعية.

الانجراف مع النهر الثائر لم يعد اختيارًا.. أما المقاومة فتزيده غرقًا:

- نازلي.. أنا...

فجأة انقطعت الموسيقى بعدما قَمَس رَجُل في أذن العازف الأوَّل
رقعة.. تكهرت الأجواء وانسحب البارون إيمان من السَّطح في

عُجالة رغم عَرَجِه الواضح وخلع قناعه.. تبعته عشيقته المزعومة إيفيت
بغدادلي.. فظر أحمد لنازلي في استنهام فبائلته الاستغراب ثم راقبت
المصعد الذي تحرّكت أسلاكه صعودًا قبل أن يعتلي أحد الأشخاص
منصّة الفرقة ويُعلن:

- أرجو الالتزام.. نحن في حضرة صاحب العظمة.

قالها بالعربية والإنجليزية والفرنسية فقلّت الهمهمات واضطربت
الجُموع، أخلّى الخَدم الطّريق الخارج من المصعد ووضعوا كُرسياً
وثيراً أمام منصدة في رُكن مُميّز، غَدَل الرجال والنساء من هندامهم
وخلعوا الأفتحة ووقفوا على أُمية الاستعداد حين انفتح باب المصعد،
تخرج البارون إيمان بوجه بشوش ومن ورائه برز السُلطان فُؤاد في بدلة
سوداء أنيقة، كرش عظيمة ولُغد مُحْتَبَس، حذاء لامع لا يبطأ الأرض،
وشارب ضخم مبروم كقرني ثور تحت عينين جامدتين لا تُشِفان
ما وراءهما، رَمَقه أحمد بنظرة لم توار كُرهه، نظرة لَمَحَتْ فيها نازلي
بُغْضًا واحتقارًا لم تجرّبه رَغْم معرفتها بخبايا أخبار السُلطان ومُهادنته
الاحتلال، إلا أنها لم تَمَلِك يوماً مثل تلك النظرة ناحيته

شقّ السُلطان طريقه يُحنّي هامات الرجال وينكّس رُكبات النساء
إجلالًا، يُمنّ التحيات عليهم بابتسامة وهزّة رأس ويمد يده فتُلم من
الوافقين شرفًا وتقديرًا، ثنت نازلي ركبتيها احترامًا وانحنى أحمد
بروتوكولًا، غاظته نقة السُلطان وذكاء لمحه حين التفت الأعبن
للحظة، كان يتمنى أن يستشعر الغباء في نظراته.. الغل أو الغطرسة..
لكنه استشعر ثباتًا وثقة حفزت لديه رغبة المنافسة.

استوى السلطان على كُرسىه فالتفت حوله البارون إمبان والسيدة هام وبعض الساسة الإنجليز ورجال المال المصريون والنبلاء، لواحدٍ ثمّ لاحقاً قبل أن تندمج الفرقة في العزف، لاحقاً هادئاً لبرامز ران «Poco Allegretto».

تكلّمت نازلي لتخرج أحمد عن شروء تملّكه:

- أوّل مرة تشوف السلطان ع الحقيقة؟

أفاق أحمد من سرخته: أبوة.. أول مرة.. ما كنتش متخيل إنه قصير... ببيان طويل في الصور.

- بابي يقول عليه ذكي جداً.. ويفهم تمام في المالية.

- الوصول للعرش مش محتاج ذكاء.. محتاج دم أزرق.

- بتكرهه؟

- حد يقدر يكره السُلطان؟ قالها بسخرية.

همست: أنا مش بحبه.. بس شايفة اللوم على الإنجليز أولى.. همّا يخطّوه على العرش.

- هيلاقوا مين أحسن من أمير مفلس وقُمرتّي يتحكموا فيه!

- لو مطرّحه كنت تعمل إيه لو اتعرض عليك العرش؟

- أطالب بالاستقلال لبلدي بدل ما أنف أتفرّج عليها بتتحلب قدامي.. أعرض القضية على العالم بنفسى بدل ما أسيب سعد باشا زغلول يتنفّي.

- پاپي دايمًا يقول إن المناصب كثير بتغلب الرجال.. وإن ما ينفعش
نحكم ع الناس وإحنا في أماكتنا.. لازم نقعد في كراسيهم ونحس
ضغوطهم.

- والدك بيقول كده عشان مُحافظ عنده.

- ساد الصمت للحظات.. لم تشأ نازلني أن تعقب فتدارك أحمد
كلماته: أنا آسف.. ما كانش قصدي.

- أنا كمان مش عاجبني إن پاپي بيشتغل في وزارته.. كل واحد في
منصب وموافق على اللي بيحصل يبقى مقصر في حق مصر.
- ده صحيح.

- بس تعرف.. أنا لو ما أعرفكش وشفت نظرتك ليه وهو بيعدي
جنبنا كنت قلت إنك ممكن تطلع مُسدس وتقتله!

- للأسف المسدس النهاردة في البيت.

ضحكت فضحك.. سَحَبَتْهُ لِمَرْقَصٍ وَعَيْنَاهُ لَا تُفَارِقَانِ مِنْضِدَةَ
السلطان.. كان ذلك حين مالت السيدة جرهاًم إلى السلطان بابتسامة
وَهَمَسَتْ بِإِنْجِلِيزِيَّةٍ:

- كيف حَال ابنتنا العزيزة الأميرة فوقية؟

سلك حنجرته بصوت غليظ يشبه الشخير من أثر رَصَاصَةٍ قَدِيمَةٍ
استقرَّت فيها ولا تزال ثم تحدث: بخير.

- لِمَ لَمْ تَأْتِ لِمِرَافَقَةِ عَظَمَتِكَ؟

- فوقية عنيدة ولا تروقها الحفلات.

- الحياة ليست لطيفة بدون رققة يا صاحب العظمة.
- بابتسامة أجابها: العرش لا يترك وقتاً للعبث يا عزيزتي.
- ومن تكلم عن العبث؟ أنا أتكلم عن الزواج.
- فلنت منه ضحكة.
- لقد جرّبت خطّي مرة ولم أوفق.. أسيرات الأسرة العلوية صعبات المراس.. عنيدات.. ومُدللات أكثر من اللازم.
- أتفق مع عظمتك.. لذلك يجب كسر القواعد من حين لآخر.
- أشعل غلبوناً محشواً ببنغ «دانهل» المفضل لديه ثم ضيق عينيه: ماذا نعني بكسر القواعد؟
- رضا عظمتك غاية تتسابق عليها ربيبات الأسرة العلوية.. بجانب عائلات مصرية كريمة الأصل أيضاً.
- تقصدين الزواج بواحدة من عامة الشعب!
- ولم لا؟
- هذه سابقة ليس لها مثيل في الأسرة!
- لكل شيء بداية.. الزم من يتغير والمفاهيم تتبدّل.
- هل للأمر علاقة بقصر باكينجهام؟
- بدبلوماسيّة ازدادت منه قرباً: بالطبع نشاط سعد زغلول والاضطرابات المترتبة أزعجت العرش كثيراً في الآونة الأخيرة.
- توقيت غريب للبحث عن زوجة! البلاد في قمة الاضطراب.

- العكس صحيح، سلطان يتزوّج امرأة من العامة سيكون أكثر قرباً من قلب ذلك الشعب الطيب في تلك الفترة العصيبة، عرش أكثر استقراراً، ولي عهد «ذكر»، دماء مصرية خالصة، لن يملك المصريون سوى الولاء والطاعة، والمحبّة بالطبع.

يَرم شاربه في شرود أفاق منه بعد لحظات: ولكن.. من قد تكون؟
قاطعته مُتصنّعة دلالاً لا تجيده الإنجليزيات: يجب أن تكون أكمل وأجمل فتاة لتناسب عظمتك.. بالصدفة.. هنا في هذا الحفل اثنان تناسبان المقام السامي.. هل تلمح عظمتك صاحبة الفستان الأحمر الواقفة بجانب البار؟

رمق السلطان الفتاة ثم أردف: لقد سئمت البديئات يا عزيزتي.. زوجتي السابقة كانت مائتين وعشرين رطلاً.

- إذن أجد هوى عظمتك مع تلك الرقيقة ذات الفستان البرونزي في مُنتصف المَرَقص.

مَسَحَ الجسد بعينه للحظات قبل أن يبنسم: من هي؟

- نازلي.. كريمة عبد الرحيم باشا صبري.. محافظ القاهرة وخادمك المطيع.. يا له من شرف قد يناله!

- جميلة.. لكن من الشاب الذي يُراقصها؟

ابتسمت لما لمست الاهتمام ثم نظرت لأحمد وهو يراقص نازلي:

- مَأتأكد تماماً أنه أخ لا تجوز له.



في بدايات مايو ١٩١٩ كانت الثورة المصرية قد نجحت في نيل من ثقة الإنجليز في أنفسهم، أفلقت الجيوش الواثقة وهزّت في أكينجهام» عرش ملك ثابت.

لكنها أنهكت! ثقل الاحتلال أرخى عَضَلات الشوار وثبط الكثير من عزيمتهم فبدون جيش يقف بجانبهم وشرطة تذود عنهم وسُلطان مضى من أجلهم، ظل الاستمرار في التظاهر نزيهاً لا يتجلط.

كان ذلك قبل تصريح الرئيس الأمريكي بشأن القضية في مؤتمر صليح، التصريح الذي بقدر ما أثار من مَسَخَط وأشعل في الصدور ضياءً بقدر ما كان ضربة قاصمة بثّت اليأس بين ضلوع المصريين.. بعض أعضاء الوفد في باريس!

وكانت تلك المرحلة الثانية من الثورة.

مرحلة تخرج فيها الفلاحون وأهل الصعيد من العمل الثوري ضحبة مَسْخَف الوحشي ولفراغ بيوتهم من الأقوات، انحصرت الثورة تقريباً في القاهرة والمُدن المُجاورة، بقيادة الطلبة والمُحاميين والمُتَمَلِّين، نامرين بحياتهم مُقاومين إنذارات شديدة اللهجة بالطرد التعسفي، بضعة أيام تحدث في صفوفهم اختلاجة كاختلاجة مريض مُحَموم شتعل المَسيرات والمُظاهرات، يَجوبون الشوارع هاتفين ضد

الاحتلال رافعين رايات الحرية قبل أن يُقَابِلُوا بقمع وعنف شديدين
فيتفرقوا وتبقى بطولاتهم التي تتحوّل بسحر الأفواه إلى أساطير يتحاكى
بها أبناء البلد فخراً وتثيئاً لبعضهم البعض .

أمّا الوفد برئاسة سعد فقد جَاهَدَ لِيُبقِيَ قضية الاستقلال حيّة على
المنابر في أوروبا وخارجها رغم الخلافات الداخلية والانشقاقات،
جَمَعَ الشعب التبرعات تطوعاً من أجل استمرار عرض الفكرة، وتأكيداً
لمطلب الاستقلال أمام المجتمع الدولي ضد إقرار الحماية الإنجليزية
«الإجباري» على مصر، قاوم الوفد العراقي التي وضعها الإنجليز في
طريقهم، وخاطبوا مندوبي الدول المختلفة ليقابلوا بصمم كلما أتت
سيرة الاستقلال .

منذ الذي يُعارض كلمة الفصل الأمريكية؟ فمصر يجب أن تظل
حظيرة إنجليزية.. وغنيمة حرب ليس لها أن تُسأل في مصيرها مع
الوقت وتحت رعاية لورد «ألبي» المندوب السامي البريطاني الجديد
والأكثر شراسة في تاريخ الاحتلال والمعروف بـ «الشور الدموي»،
مع الوقت ضاقت قبضة الإنجليز على البلاد، ازدادوا إمعاناً في إذلال
المصريين واضطهاداً لحركتهم الوطنية، باتت الكرياج حَدَثاً عَادِيّاً لكل
من يُشتبه في أمره، ومثله مثل الرصاص، بدون إبداء سبب امتد النهب
والاعتداء كالنار في الهشيم عقاباً وتنكيلاً، قبل أن تنوّه بريطانيا عن
إرسال لجنة برئاسة وزير المستعمرات البريطانية اللورد «ملتر» للتحقيق
في أسباب اشتعال الثورة المصرية، مُهْمَّشَةً لدور الوفد المحوري في
تحريك القضية، ومُتجاوزة لشخص سعد!

كان مقهى «ريش» قد أصبح ملاذاً حميمياً لعبد القادر، غادر
بيون بنبة مُتَحَنِّجًا بالعمل، تاركًا سلامة النجس بوجه معجون وعين
طوبى بيّضتها النار، يُبعثر اللّعنات باسم ورد مُتَوَعِّدًا إياها بموت
سيء من بعد تشويه، يبحث عنها يوميًا في الشوارع والأزقة ويسأل
ها أصحاب بيوت الفواحش «الرسمية والسرية» ثم يترك عنوانه في
لحظة إذا ما صادفها أحدهم، أمّا بنبة فتأثرت بما أصابها من تلميذتها
سقراء المارقة، تصرخ في لبواتها ليفرجن سيقانهن ويزين استجلابًا
رزق، ودّعت عبد القادر بحرارة حين قرر الرحيل قبل أن تدس في
به خمسة جُنيّات ولقافة كوكابين تكفيه أيامًا.

زار عبد القادر حيّه مُتَخَفِيًا فاطمأن على أمّه وإخوته وملا حقيبة
بسه ثم غادر، سكّن قبر الخمر واستجلب من ميشيل صاحب
مقهى مرتبة تقيه جفاف أخشاب الأرضية، ينام فوق آلة الطباعة
مدفونة مُحْتَضِنًا زجاجة كونيّاك، مُريدو المكان والعاملون عرفوه
بد القادر القبضايّا، حامي المكان من الشغب، يقوم صباحًا ليجلس
نام المقهى قبل أن يؤمّن وصول أعضاء الحركة إلى القبر بسلام
لّا من ميشيل الذي لا تفارقه عيون الزبائن، بات اصطكاك الكتوس
ميميًا، همهمات الزبائن وصوت محمد عبد الوهاب بأغانيه الجديدة
مبيه بنشوة حلقات الذكر، سُكون غريب يجتاح كيانه ويخدر خلاياه،

قل استهلاكه للكوكايين لضعف موارده فاكتفى بالخمور، وانفتحت شهيته على الطعام مرة أخرى، حتى صَوَّت المَطْبعة المزعج رغم رتابته بات مُريحًا لأعصابه، والسبب.. دولت.

ما الذي فعلته مُختلفًا عَن بقية النساء اللاتي عَرَفهن فسَحَرهنَّ فذاقهن ثم ألقاهن؟ كيف جذبته تلك الصَّعيدية العُمرية؟ الغاضبة الغابسة النافرة منه المتحاشية حتَّى النظر في وجهه، أي راهبة هي؟ أي مُكبِّرة؟ يُسأل نفسه طوال اليوم فيُثار غضبًا ويقطب وجهه ويوشك أن يشتبك مع أحد الزبائن حتَّى تحضر فتبذد الغضب كدخان في الهواء، ويبقى وجهها، عيناها العسلتان الواسعتان، وشفاتها، وإسحاق القبطي أيرمقه بشك وإحباط حتَّى ينتهوا من طباعة المنشورات وترتيب حَرَكَات التوزيع والتأمين، قبل أن تبدل ملابسها لتخرج واحدة من ربيبات البيوت، كيف تفعلها؟ كيف تتحول فجأة من الوحشية إلى سحر الأنوثة؟ كيف تُطفئ لكننها الصَّعيدية وتشغلها كأنها تنزل مفتاحًا في لوحة كهرباء وترفعه؟ الحميم المُعطَّشة تصير جيمًا والياء الممدودة تقصُر مثل حبرتها التي تتحول إلى فستان!!

أضتته الأسئلة وأرهقته فتسلل وراءها مُراقبًا، سَحبه كعُبتها إلى الشوارع المزدحمة، انتظر الحبيب أن يظهر أو دخولها للمقهى ليلى تعمل فيه راقصة، لكنها ما لبثت أن فاجأته واختفت من عينيه وسط الجموع، هاج وماج وبحث بين الواقفين ساعة فلم يجدها، كالمِلح في الماء ذابت، تقهقر مهزومًا لتأتي في اليوم التالي إلى مقهى ريش وأول ما فعلته حين خرجت من المقهى أن اقتربت وورمقته بتحد:

- ليه مشيت ورايا إمبراح؟
- حكَّ عبد القادر مؤخرة رأسه ثم أجاب: صُدفة.. كُنْتُ... رايح
مبا سجاير.
- من فضلك ما تراقبنيش ثاني.
- أنا ما راقبتكيش.
- تركته فلاحقها: وأنتِ كنتِ رايحة فين؟
- خلّيك في خالك.
- تسمحي لي أوصلك؟
- شكراً.
- النهاردة حصّل ضرب نار قريب.. خلّيني أوصلك لأقرب
سكّة.. ما تحضرنا يا عم إسحاق؟ عم إسحاق؟ النبي ما تعمل
نفسك ميت.
- نظرت دولت لإسحاق فهزّ رأسه موافقاً.
- خلّيه يوصلك يا بنتي عشان الشوارع هايجة.
- مشيا في صمت لدهقتين قبل أن يُخرج عبد القادر من جيب سترته
رة فوتوغرافية صغيرة يقف فيها ممسكاً برشاش ضخّم أمام سيارة.
- شفتي الصورة دي؟
- نظرت فيها دولت ثم أشاحت بوجهها.

- أوتومبيلي ده.. كروسلي موديل ستة أربعناشر.. آخر إنتاج الشركة
قبل الحرب.. جفته من ظابط ما قعدش معاه سنة.. بريمو.. والله
كنت بجيب بيه ستين كيلو في الساعة.. وده رشاش كان معايا
برضه.. «مادسن» ألماني.

نظرت إليه نظرة جعلته يدفن الصورة بين أصابعه.. ساد الصمت
قبل أن يُردف: أنا كنت ماشي وراكي لمبارح-

- عارفة.

- ليه بتصدّي؟

...

- عليك تار في بلدكم؟

...

- مش إحنا في مركب واحد؟ المفروض...

قاطعته: المفروض تسمع الكلام وتعمل زي ما أحمد أفندي قال..
نشوف شغلنا وبس.

- لا حول ولا قوّة إلا بالله.. هو أنا بترازل لا سمح الله.. ده أنا
بوصّل الود بس.. وبعدين ده أنا أصولي من الصّعيد برضه..
ليا مرات عم من أسبوط.. من.. من نجع حمّادي.

- نجع حمّادي في قنا؟

- أيوة قنا صح.. سُفتي بقّة؟ بلديات.

توقفت فجأة فترقف: أنت عاوز إيه؟

- عاوز أعرف إزاي مزميز زي البدر في تمامه كده ما اتجوزتش
لحد دلوقت؟

- أنا مخطوبة لابن عمي.

وقف عبد القادر ولم تقف: ابن عمك؟

أكملت مشيها فأفاق من المفاجأة وأدركها: وأنت.. بتحبيه؟

...

- طب هو عارف أنت بتعملي إيه في مصر؟

- ده شيء ما يخصكش.. ولا يخصه.

- تبقي مش بتحبيه.

!!!...

حدجنه باستنكار قبل أن تتركه وتعبر الشارع، عبر وراءها متفادياً
لموراً أوقفته وضعدت سُلّمه فقفز بجانبها.

- اطلع يا أسطى ع الضاهر.

استدركه عبد القادر: اطلع يا أسطى ع الكورنيش.

ألقاها للعربجي فرمقته بغضب.. أردف:

- ابن عمك ده تلاقيكي مخطوبة له من وأنتي في اللفة.. فهربتي

من البلد على مصر عشان ما تتجوزيش.. أصل الست اللي تعمل

اللي بتعمله ده حاجة من اتنين.. يا عانس.. يا بتهرب من حاجة.

- لو سمحت يا أسطى على جنب!

-- لف بينا يا أسطى شوية.. صبرك بالله.. أنا لازم أقول لك كل
اللي في بالي.. أنا مش عارف أنتِ عملتي لي إيه! أنتِ غير أي
مزميز شفتها في حياتي.. أنتِ مملكة...

- شايف الشاويش اللي هناك ده؟ والمعبود لو ما نزلتش
حالاً هاندعه.

لمس عبد القادر في عينيها جذية وتهوراً فوقف على الحنطور:
- ماشي يا ريت الناس.. بشوقك.

ثم قفز.. استقر على الأرض فرفع صوته حتى تسمعه:

- بس على فكرة بقى أنا عاجبك.. باعرف نفسي لما بشاغل البال.

لم تعقب ولم تنظر وراءها.. هزّت رأسها في استنكار ومضى بها
الحنطور قبل أن تلاحظ الصورة التي وقعت منه.. أو ربما تركها عمداً
ليهرها.. صورته مع سيارته والرشاش.. التقطنها من كنية الحنطور
وتأملتها قبل أن تدسها في حقيبتها الصغيرة.



فيلا عبد الرحيم باشا صبري.. الجيزة

على غير العادة وفي غير وقته عاد الباشا من المحافظة، نزل من
سيارته يحمل في وجهه بُسرى وتوترًا عجلاً خطواته، حيًا العاملين
والخدم دون أن ينظر في وجوههم وصعد السلم العالي بسرعة لا تتفق
مع سنه، دلف إلى غرفة نازلي فأشار للخدمة العجوز أن تتركهما قبل
أن يحتضنها حُضنًا طويلاً كأنه لم يرها منذ سنة.

- فيه إيه يا بابي؟

- كل الخير يا حبيتي.. اقعدي.

أغلق الباب بإحكام ثم جرَّ كُرسبًا وجلس قبالتها.

- أنتِ تمام؟

- تمام يا بابي!

- مبسوطة؟

- مبسوطة! فيه إيه؟

- كان نفسي تكون نوبقة عايشة عشان تحضر اللحظة دي.

- الله يرحمها مامي.. بابي فيه إيه أنا قلققت؟

- عاوزك تتمالكي نفسك كويس وتسمعيني بهدوء ومش عاوز أي رد فعل على الكلام اللي هاقوله ده.. ده غير إن ما ينفعش حد يعرف من الخدم.. ولا حتى الدادا.

حفرت علامات القلق وجهها: حاضر.. فيه إيه؟

- السلطان.

- ماله؟!

- طلب إيدك.

مادت الغرفة بها للمحظات فارتعشت أطرافها واجتاحت جسدها عرق بارد فقامت لإرادياً.. مشت إلى النافذة حين أردف أبوها:

- مدام جرهام حرم مستشار الداخلية زارتني في المحافظة.. وفانحتني في الموضوع.. عارفة ده معناه إيه؟

التفتت إليه ولم تسأل فبدأ يخط بسبابته برؤاها في الهواء:

- نازلي عبد الرحيم صبري.. حرم عظمة السلطان.. سلطنة مصر.

لم تسمع الكلمة الأخيرة.. قرأتها بين شفتي والدها قبل أن تخفت التفاحيل وتنتشر البرودة في أطرافها ثم تعيد الغرفة فتختفي بغتة...

بعد ربع ساعة أفاقت.. رأت وجوه والدها والطبيب ومُربيها العجوز.. التقطت أذناها «الحمد لله.. مُشكراً يا حضرة الحكيم.. حضري لها الغدا يا دادا».. ثم خرج الجميع ولم يبق إلا والدها.. أغلق الباب وعاد إليها مُكتملاً ما بدأ قبل أن تغيب عن الوعي.. استندت بصعوبة إلى مخدتها ورمقته في بَهْتَان.

- عارف إن الخبر مش سهل.

- المفروض إن ليا اختيار؟

تأمل وجهها الباهت للحظات ثم مسح جبهتها بحنان قبل أن
يها: تتناقش يا نانا.

- إשמعنى أنا من دون البنات؟

- مفيش حاجة اسمها إשמعنى.. كل شيء مكتوب.. وبعدين
السُّلطان هيلاقى مين أحسن من نازلى؟

- يشوف قرية من قريباته يبهدلها.

- إيه الكلام ده!!

- يا يي أنت ناسى عمل إيه فى الأميرة شويكار؟ ضربه بيه وبهدلها لغاية
ما أخوها ضربه بالرصاص فى كلوب محمد علي.. الرصاصة
لغاية دلوقت فى رقبتة وصوته بشع.

- شويكار دي مجنونة.. سيرتها معروفة فى الخبل.. تسبب بيتها من
غير إذنه وتبعث له رسائل تطلب منه الصفع.. وأخوها مجنون
رسمي وبيتعالج فى مصحة فى لندن.

- وقمرتي ومديون.

- الراجل ما يعيوش يلعب قمار.. سعد زغلول يلعب قمار.

- دي بنته فوقية تقريبًا قدي!

- نانا يا حبيبتي.. إحنا بتكلم عن رجل غبر عادي.. السن هنا
مالوش معنى.. أنت مدركة يعني إيه تكوني مرات سُلطان؟ يعني

الدنيا كلها تصبح ملكك .. مَصْر فيها تلاتاشر مليون بني آدم ..
مليون ونص عامل .. ميت ألف إخصائي .. عشر نلاف حكيم ..
خمسين عالِم .. ثمن وزراء .. سلطان واجد ..

شُل تفكيرها وذَهَلت عيناها .. صَربَات قلبها باتت مَسْموعة نظرق
أذنبها بدويّ مؤلم .. نهيجها يترابِد والندى البارد ينشع من مؤخرة
رأسها وجبينها .. تنظر لوالدها فتراه مُلامًا معلقًا عليه شارب أبيض فوفه
طربوش .. لا تميزه أو نفهمه .. رَوح انفصلت عن جَسدها .. عقل فقد
رُشده .. تُباغتها عينا أحمد ونظرته إليها وهما يرقصان .. ابتسامة شفتيه
وهو ينطق كلمة «بحبك» .. النشوة التي اجتاحتها .. القُبلة الساحرة
التي اختلساها في الحديقة الخلفية للقصر .. الوعد ... قبل أن تُداهمها
اللحظة التي عَبر فيها السلطان .. بينهما .

- نانا .. أنت عارفة أنت غالية عندي قد إيه؟ أنت الملي فاضلة لي من
الدنيا أنت وشريف أخوك ..

صَارَعَتْ رغبة مَحْمومة في الصراخ منادبة اسم أحمد .. دُفِنَ نفسها
في حُضنه والبكاء .. التفتت لأبيها:

- أنا مش محتاجة الجواز دي!

- ليه نحرمني نفسك من شرف لا تتخيليه؟

- مش محتاجاه ..

- مش محتاجة تكوني علامة في التاريخ؟

- مدام جرهاام وعدت حضرتك بالوزارة؟

بأغته سؤالها رغم توقُّعه .. ابتسم بعصبية مكتومة وجز أسنانه ثم
هام .. تمم على طربوشه واتَّجه إلى الباب قبل أن يلتفت إليها:

- بُكرة مدام جرحام منتظر الكُعْ الفطار في فيلَّتْها .. العربية هاتكون
جاهزة الساعة ثمانية تمام .. ما تتأخريش.

قالها ورحل، تماكنت نفسها فقامت إلى التليفون، رَفعت السماعة
وأدارت القرص، طلبت من الستراي تحويلها بمقهى متاتيا، تلَقَّت
صَجيج رَقع أقراص الطَّاولَة وصباح الشُّدْل بالطلبات ثم صوتًا غليظًا:
قهوة متاتيا .. أفندم ... أفندم ...

- من فضلك ممكن توصِّلني بأحمد أفندي كبيرة.

- لحظة يا مزميل.

سمعت صَوْت الرجل يُنادي أحمد قبل أن تسمع صوته: آلو .. آلو.
أغمضت عينيها وتهدَّج نفسها فأغلقت الخط وارتمت على
سريرها، مدَّت يدها وسحبت من تحت الوسادة كتابًا يسن إحدى
صفحاته تذكرة دخول لمسرحية «قولوا له» .. نظرت في ظهرها فقرأت
كلمات كتبها بخطِّها:

«أحلى يوم في حياتي».



حديقة الأزبكية

اقترب النادل العجوز في زيّه القرمزي من المقعد المجاور للكوبيري الخشبي الذي بعلو البحيرة المغطاة بأوراق الزنبق الدائرية.. جلس أحمد وعبد الرحمن فهمي يستقبلان أشعة الشمس في صمت.. وضع النادل كؤوبي شاي ورحل قبل أن يتكلم الأخير:

- أوروبا كلها تقريباً آيدت الحماية على مصر.. آخرهم ألمانيا..
وقنصليات الدول رافضة بضغط من الإنجليز تجدد التأشيرات
للفرد عشان يسافر لعرض القضية.

- الوفد كده اتنفى بالفعل!

- المشكلة أكبر من كده بكثير.

التقط عبد الرحمن فهمي حقيبته الجلدية الموضوعه بين ساقيه..
فتح قفلها وأخرج رسالة ناولها لأحمد:

- عضو من أعضاء الوفد في باريس بعث الرسالة دي.

قرأها أحمد بعينيه.

«مُند وُمولنا وُجدنا بجمع الأبواب مُوسدة في وجوهنا، كل
الجهود والتساوي لم نؤد إلى نتيجة».

زفر عبد الرحمن: فيه تشقق.. جبهة معارضة ضد سعد باشا شايفة أنه لا يصلح.. مش عاجبهم تمسكه بالاستقلال الكامل.. شايفين إن مُمكن نوافق على استقلال منقوص أو نقدم تنازلات.

- والأفراد دول مؤثرين؟

- بشكل كبير.

- ويعرفوا عن المراسلات الخاصة مع سعد باشا؟

- طبعًا لا.. لكن شاكّين فيه.. بيراقبوا رسايله العادية ويفتحوها.. وأكثر من مرة نوهوا بالكلام.

- لازم نغير نمط الإرسال كل فترة.

- طبعًا.. وعلى الصعيد المصري أدبك شايف.. السلطان والإنجليز هدفهم الأساسي تهميش الوفد وسحب المفاوضات من إيده لصالح الأمراء عشان ينالوا رضا الشعب.. كمان الوزارة الجديدة اللي بتتشكل هاتعطل القضية كتير.. الكلاب شالوا الرجل المحترم اللي كان بيساند الوفد وخطوا بداله أسماء عندها استعداد تبيع البلد عشان بس يكونوا وزراء.. هانحتاج ضربات تحت الحزام.. ضربات مش عادية.. مش بمستوى ظابط أو مسئول بريد زي ما حصل قبل كده.

- وزراء؟

هز الرجل رأسه إيجابًا ثم سأل: إيه إمكانية تنفيذ ده؟

- المُعدات موجودة.. اتصالات.. مُراقبات أكثر.. وشخص جريء ينفذ.. شخص عارف كويس إن احتمال هروبه ما بتعداش خمسة في المئة.. قلب ميت.

- فكَرَّ وَرُدَّ عَلَيَّ.

- وهو كذلك.

هَمَّ أَحْمَدُ بِالْقِيَامِ حِينَ اسْتَدْرَكَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَهَمِي.

- نَازِلِي إِزِيهَا؟

التفت أحمد قبل أن تسأل لشفتيه ابتسامة لا إراديةً أجلسته ثانية:
أنا مترقب؟

- إطلاقاً.. نازلي هي اللي مترقبة.

- مترقبة؟

- أنت عارف إنها مربية في بيت سعد باشا.. وصفيّة هانم تكاد
تكون والدتها.. هو كمان وصاني عليها قبل النفي.

- منطقي.

- بتحبها؟

سكت أحمد لحظات.. يستوعب الخرق الذي حدث في رأسه
وتعزّت فيه الأفكار.. قبل أن يكشف ورقه دفعة واحدة:

- بحبّها.

- وبَعدين؟

- هانتجوز!

- إزاي؟

- زي الناس.. أول ما البلد تستقر هاكلم والدها بشكل رسمي.
- نازلي ما تنفعكش يا أحمد.
- قالها الرجل بدون أن يلتفت، كأنه يلقي بعقب سيجارة إلى الأرض
بإهمال.. أردف أحمد:
- حضرتك ليه بتقول كده؟
- بلدنا طبقات.. صناعة احتلالات.. مش سهل المزج بين طبقتك
وطبقة... مش بتاعتك.
- حضرتك تقصد طبقة أعلى.
- ما تخذش الموضوع بشكل شخصي.
- مع احترامي لكلام حضرتك أنا بحب نازلي.. ونازلي بتحبي..
- ثم إني بشتغل في مدرسة الطب و...
- وبتصنع متفجرات وبتشتغل في المقاومة.
- البنت الغنية والولد الفقير.. المسرحيات الخيالية.
- سعد باشا اتجوز صَفِيَّة هانم وهو أفوكاتو.
- نازلي وضع مختلف.
- هز أحمد رأسه وهمَّ بالقيام: عُمومًا أشكر حضرتك على النصيحة..
بعد إذنك.
- السُّلطان طلب إيد نازلي يا أحمد.

الكلمات أصابت مؤخرة رأسه فتوقف والتفت: السلطان مين؟!

- السلطان اللي ساكن قصر عابدين.

نجح الخبر في إفقاده التوازن: الكلام ده مش صحيح.

- إمتى آخر مرة شفتها؟

أجاب بشرود: في حفلة البارون.. من ثلاث أيام.

- كلّمتها بعدها؟

- اتكلّمت في التليفون.. لكن.. ما بنردش!

ساد الصمت لحظات ثقيلة قبل أن يقطعها عبد الرحمن: أحمد..

أنا مش عاوزك تتنذي.

- بعد إذنك.

تركه ورحل.. أغمض عبد الرحمن عينيه ألما ثم زفر وهو يشعل

عود ثقاب أحرق به رسالة الوفد متابعًا نارها التي تشبه كثيرا نارا
أضر بها منذ قليل.

في قلب أحمد.



قَار «كافيه إچيبسيان».. شارع وش الحركة.. الأزيكئة

وقفت السيدة بديعة في مُنتصف المسرح بفستان أسود متلألئ،
بدون كورسيه يقوم خصرًا أو سوتيان يرسم صَدْرًا عِصامي الاستدارة،
تضرب أصابعها الصَّاجات النحاسية ببراعة عَجبية متزامنة مع إيقاع
التخت الموسيقي ومن حَوْلها ثمانِي راقصات في بدلات ملوَّنة مُبهرة
يتقصعن في استعراض طالما خلب العقول وتحاكت به أخبار الفن
«الشارلستون».. انتهت المُقدمة الموسيقية حين توسَّطت المسرح قبل
أن يصدح صَوْتُها:

«يا حبيبي ونور عيني.. ده بعاذك يفضيني.. يا خفافتك

يا لطافتك.. أنا أبوسك من خدك».

تمايلت الصَّالة مع غنائها ودلال راقصاتِها فُرشَت المِزَات على
المناضد وفُتِحَت الزجاجات فاصطكت الكئوس ودارت الفتيات بين
أيدي المُريدين، في منتصف الرقصة نزلت الدرك ورد، بدت مُختلفة
كثيرًا، شعرٌ أسود فاحم وفستان جديد وحذاء كانت قد غادرت
الكنيسة بعد أن وعدت القس بالذهاب للجمعية الخيرية الأرمنية لتلقي
الإعانة والنفوع للخدمة الربانية نظير الطعام، حين وصلت الجمعية
شاهدت طوابير طالبي القوت والمحتاجين من عشيرتها يتكالبون

على الأغطية والأدوية، وقفت لساعة تتابعهم قبل أن تعدل عن قرارها، زَهِنت سَاعة عبد القادر التي تلقفتها منه فوق سلّم بنية واشترت بثمانها وجبة تقيم أودها وفستاناً، وصبغة سوداء أطفأت وَهَجَ شَعْرها قبل أن تتجه إلى الأزبكية مُتخفية في الخُصَلات الداكنة، طلبت من الحارس مقابلة السيدة بديعة مدعية أنها قريبة من لبنان، نزلت السلم وراءه مُلتصقة بالجدار، عيناها تأكلان بديعة وفرقتها أكلاً، تركها الحارس في الكواليس فوق كُرسي تنتظر النجمة أن تُنهي فقرتها حتّى خبت الموسيقى، لحظات ومَرّت بجانبها، المُعجبون يحفونها مُقبلين يديها والرائصات يسرن في ذيلها، تبعَت الموكب بإعجاب حتى دخلت غرفتها قبل أن يشير لها الحارس أن تتقدّم لتجد ورد نفسها في حُضرة ملكة الرقص الشرقي.

الغرفة كانت متوسطة، مُتخمة بالزهور، الحوائط مكسوة بصور أحجامها مُختلفة للنجمة وفي المنتصف مِرآة مُحاطة باللمبات الكهربيّة تعكس وَجْه بديعة التي أُمسكت بشاش مغموس في زيت الزيتون لتزيل به آثار العرق والزينة رافعة ساقها لخادمة تخلع عنها جورب شبك طويلاً يصل للخصدين.

- يا هلا حبيتي .. شو اسمك؟

أسدلت ورد خُصلة داكنة فوق العين الباقي فيها أثر ورم وأحاطت مرفقها بيدها وهي ترمق انعكاس بديعة في المِرآة:

- ورد.

- من وين من لبنان يا ورد؟

- بصراحة أنا مش من لبنان.. أنا من سوريا.
- ... أبضاي الصالة قال إنك من لبنان!!
- عشان أشوفك اضطريت أقول هيك.
- التفتت بديعة ونأملتها للحظات قبل أن تسألها: من وين من سوريا؟
- ماردين. —
- اقتحم الألم وجه بديعة: أكيد حَضرتي مذبحه الترك.
- كان عُمرِي ثلاثاش سنة.. عيليتنا كلهم ماتوا.. وأبي وأمي ماتوا
هنا بالمرض الإسبنولي.
- يا قلبي! افعدِي يا شاطرة.. هيدا مقدر ومكتوب.
- جلست ورد فأشارت بديعة إلى إبريق ليمون فصَبَّت الخادمة كوبًا
لته لورد.
- أقدر أساعدك إزاي يا ورد؟
- بدِي شغل.
- بتعرفي رقص تُركي؟ إسبنولي؟ عَجَمي؟ لبناني؟
- برقص عال.. وبتعلم بسرعة.. وبتغني كمان.
- بتغني لمين؟
- لحضرتك وللشيخ سلامة حجازي وللشيخ سيد درويش.
- تعرفي تغني إيه لسيد درويش؟ سمعيني صوتك.

تذبذب صوتها فمسحت على شعرها بحركة لا إرادية قبل أن
تستعيد نفسها محاولة منع الدموع من الانفلات، ثباتها اليوم سيحدد
ملايح مستقبلها، هكذا قالت لنفسها وهكذا خرجت كلماتها:

الحبيب للهجر مايل.. والفؤاد مبال إليه.. من جفاه الدمع
ساييل.. يا فاس قولولي اعمل ايه.

قاطعتها بديعة بابتسامة: صوتك حلو ووشك سميتك كثير.. بييجي
منك.. ساكنة فين؟

- ... ماليش مكان.

تأملت الكدمات في وجهها: أنت هربانة من حاجة يا ورد؟
- قصّة طويلة.

- سمعيني؟

تملكها الصمت وطأطأت رأسها فصرفت بديعة خادمتها بإشارة من
يدها وانفتحت: لو ما عرفت قصتك مش هاعرف أشغلك معايا.

بعد لمحات من الصمت والهرب من عيني بديعة حكمت ورد..
فاضت كنهر هشم سدّه.. أبكتها التفاصيل وهزت بديعة التي تأملتها
بثبات.. تُحقّق في الكلمات وتستفسر حتى انتهت وخمدت.. راح لونها
ونهج صدرها وتبلبل جبينها عرفاً.. اقتربت منها بديعة فقامت.. رفعت
خصلة ورد وتأملت الورم في عينيها ورعشة أصابعها اللاإرادية.. تقارم
الخجل والحاجة إلى الأفيون:

- كثير قاسيني على سنك.. وكثير محتاجة وقت عشان تقومي
على حيلك.

- فأملتها ورد في ترُقُب .. تنتظر منها كلمة تحييها .
- هاتباتي في كافيه إچيسيان مع البنات لحد ما تأجري مكان .. ولما تتعافي وتصيري بصحتك نتكلم .
- الله يخلبك ياست بديعة ويعلي شأنك كمان وكمان .
- على شرط .
- لو عرفت إنك اتعاطيتي أفبون ثاني رح تمشي .. وما راح توربني وشك هدا بمصر كلها .
- حاضر .
- وشرط كمان .. اسمك لازم تغيريه لجل لا يتابعك ها الزفت سلامة .. اسمك من اليوم ... «لينا» .
- هزّت ورد رأسها ولم تعقّب فابتسمت بديعة وفتحت الباب ونادت ..
لغات وأتاها المحارس .
- لينا بنست أخشي .. رح نبات هنا من اليوم ورايح .. لا تخرج إلا بإذني .. لا حدا يقابلها إلا بإذني .. مفهوم ؟
- مفهوم ياست الكل .
- ابتسمت ورد ففاضت عيناها .. ربت بديعة على كتفها وسلّمتها لارس الذي صاحبها لتخرج قبل أن يغلق الباب من ورائه .
- قضت ورد ليلتها في غرفة مع ثلاث فتيات ترعاهن السيدة بديعة عة صدر عُرِفَتْ بها مع المحتاجين وخاصة من أبناء جلدتها ساميات، حيثهن بصمت ثم تكورت على سرير متواضع كجنين

نُبذ، قاومت بصعوبة نوبة احتياج للأفيون نهشت خلاياها ببطء، مائة ألف نملة تحتك ببعضها تحت جلدها وومضات مُختلطة من ذكريات زبائن بيت نبية، أنفاس وأجساد وطأنها ولا تزال تفعل، طاردها بين الحلم والواقع في هذيان كريحه استنزفها واعتصرها حتى عضت بفكيها الملاء، داوتها الفتيات بكمدات باردة حتى خمدت بعد أن استولى عليها الضعف والإنهاك، غابت في ثبات لا يخلو من ارتعاش وارتعاد وكلمات مبهمة وصريخ محموم.



نفس اليوم.. وسط البلد.. كافيه «ريش»

هي.. كعادتها عابسة.. محموعة الروح والجسد لم يفلح الشتاء في تبديد الحرارة عنها.. في قمة تركيزها لا ترفع عينيهما عما تفعله يداها.. تجمع الحروف الباردة لتصنع بين أصابعها منشورًا سياسيًا يحرك القلوب.

هو.. كعادته لا يرفع عينيه عنها.. بغضب يتملكه كلما تذكر النسوة اللاتي سبّاهن وسلسلهن بين ضلوعه.. ومخالبه التي تكسرت واحدًا واحدًا على صخرة رفضها.. يتحرق شوقًا كي يصير في حوزته.. تدخل حريمه ليفقد الاهتمام بها.. يشعل النار في فستانها ولا يعود في حاجة لكسب ودّها.. ممارسًا نذالة تريحه من شغف زاد عن حده وطفح.. تصرخ نفسه: «ما الذي يسحرني فيها فكُلهن تمنعن قبل السقوط بين حبالتي.. لم لم تسقط؟»^{١٩}.

هي.. تشعر به.. يُحيطها من كل جانب ويُحاصر حتى كُحل عينيها..
غترق البرقع وينفذ إلى شفيتها.. يتنفس فيهما ويبت جنونه وشغفه..
حدجه بحدّة لِيبتعد.. تزرجه مثلما تزر جر طفلًا سخيًّا ليكف عن
قبّث.. صدمتها في ياسين لم تزل تشطر رأسها نصفين وحال البلد
لذي تعشقه وتخاف لحظة الرجوع إليه يؤرقها.. بجانب همّ إثبات
سها أمام صَفِيّة زغلول ومن ورائها أحمد وعم إسحاق.

أحجار ثقيلة معلقة في رقبتها

ليس من عاداته أن تُغيّر نثاية (أنثى بلُفته) من عاداته.. ابتعاده عن
كوكايسن لم يكن لضيق خال قدر ما كان مُوازياً لفتوتها التي أراد أن
جاريها.. يُقاوم الاحتياج المُلح للبودرة البيضاء ليصير كاملاً أمامها
لئلا هي كاملة أمامه.. يكاد يشعل النار في عم إسحاق ليُعرف سبب
ورها منه.. لم تُجد مُراقبته لها شيئاً.. كتومة لا تحمل عيناها أي بوادر
شغال.. مغرورة؟!

ليس من عاداتها أن تستشعر العشق بتلك الطريقة الجريئة الفجّة..
بشق الصّعيد صمت وتقاليد تُتبع وقداسة حتى الزواج.. من بعد ابن
م رُبعت إليه شفويًّا منذ بين الثالثة عشرة كان عليها أن تعيش كراهبة..
لا دير.. زهرة تفتح على استحياء فتلملم أوراقها وتحبس أريجها..
سطع عليها الشمس في القاهرة وتُروى جذورها في قريتها بالصّعيد
سط غيطان البرسيم.. نشاطها السياسي في القاهرة مُقاومة.. وفي
صّعيد عار وسفور.. كانت تعرف في قرارة نفسها أنها لا تناسب ابن
مها.. كما كانت تعرف أن ارتباطها به مَوْت مُؤجل لا فيكاك منه.. لكنها
م تكن تعرف أن العشق يتسلل مثل الوباء.. وأنه لا تجدي مُقاومته لأنه

لا يرى .. هو عبودية تُرتجى .. وقطار لا يتوقف في محطات إلا ليستزيد من الفحم فيسنعر .

كانت العادة بالنسبة إليه أن لا يستغرق الأمر أيامًا معدودات .. لكن الخيوط تلك المرة تتعقد وتشابك .. تلف حول رقبة .. تلجمه .. تشقه ببطء .. هو لا يحب .. فالحب وهم لا وجود له .. المجد للجسد الذي يغلي ويثور ثم تنطفئ جذوته «مؤقتًا» لتخبو معه أعنى حالات العشق .. الجنس هو المحرك دائمًا .. زيارة لبنة مستفي بالغرض .. مستجعلي أكثر مقاومة .. ظننت ذلك ولم أكن أعرف أن تلك الزيارة سنوكد حقيقة مرضي بدولت .. كم أود أن تستسلم .. أن تقترب .. وكم أود أن أطلق النار على عم إسحاق فقط لأتخلص من هم نظراته ناحيتي .

صارت الساعات التي نقضيها دولت في القبو السري لقهوة «ريش» هي الحياة بالنسبة لعبد القادر، لم يزد الصمد والمنع والإعراض منها إلا عنادًا ورغبة مَحْمومة تستعر فيه يومًا بعد يوم، نار لم تعد تطفئها أجساد عاهراته، نار أحرقت ما فات وما سيأتي، لم يردعه فضيح أمره ولا اللمزات أو الزجر الخفي، حتى كلمات عم إسحاق ضرب بها عُرْض الحائط .

ثم أتى يوم سار فيه وراءها، شعرت به ولم تعره انتباهًا، اقترب وناذى اسمها فلم تجبه، مدَّ يده ليلا مس مرفقها فالتفت إليه وصدفت وجهه .. بتضربيني يا دولت !! ظلت يده فوق موضع الصفعة للحظات قبل أن ينفجر في الجمع المتفرج بصرخة أرجعتهم إلى خطوط سيرهم، منذ تلك اللحظة انقطع عن الجلوس في محراب دولت، صار كل عمله

أن يراها قادمة، يتجاهلها، ويلمحها تخرج فيسبح برأسه في اتجاه آخر حتى تمُر، بقلب مُحترق، وكرامة لم ترجع إلى مكانها، حتَّى فتيات بنبة لم يستطعن سد الجرح أو تلطيفه، بل طال الأمد به بين الزيارة والزيارة وزهد كما العاجز، قبل أن ينقطع.

وللغربة فقد اضطربت دولت هي الأخرى، لم تُعد الوثيقة الجامدة، باتت تنظر للكرسي الصغير الذي طالما اتكأ عبد القادر على ظهره ليتمعّن فيها، تجده فارغاً فتزداد اختناقاً على اختناق، منه، ومن نفسها حين صفعته، ثم تدس وجهها فيما فعله عائدة إلى رداء الراهبة التي طالما لعبته ببراعة.. ولم تحبه يوماً.



ايمنى ميزاج



فيلا عبد الرحيم باشا صيري.. الجيزة

في الشُّرفة فَكَّتْ صَفِيَّةُ الْحِجَابِ لِتَسْتَجِدِّي نَسْمَةً تُخَفِّفُ مَوْجَةَ حَارَةِ
مَمْتَدَّةٍ مِنْذَ أَيَّامٍ، ارْتَشَفَتْ قَنْجَانِ شَايٍ مَنقُوشًا بِالْوَرُودِ وَهِيَ تَتَأَمَّلُ نَازِلِي
الوَاقِفَةِ بِجَانِبِهَا، شَبَحًا شَفَافًا لَا لَوْنَ فِيهِ، ذَهَبَتْ نَضَارَتُهَا وَابْتَسَامَتُهَا وَلَمْ
يَبْقَ فِيهَا إِلَّا الْجَحُوظُ وَالشُّرُودُ، شَهيقٌ مَتَوْتِرٌ وَزَفِيرٌ، وَلَا صَوْتٌ يَعلو
فَوْقَ نَبْضَاتِ قَلْبٍ مَتَوْتِرٍ نَظُنُّ فِي الْأَذَانِ.

- إِيهِ اللَّيِّ حَصَلَ عِنْدَ الزَّفْتَةِ جِرْهَامٌ؟

- رُحْتُ لَهَا السَّرَايَةَ.. كَانَتْ عَامِلَةً فِطَارٍ فِي الْجَنِينَةِ وَبَعْدِينَ قُمْنَا
اتَمَشِينَا.. ذَرَدِشْتُ مَعَايَا عَنْ زِيَارَاتِ أَوْرِبَا وَأَمْرِيكَا وَعَنِ الْمَوْضِعِ
الْجَدِيدَةِ.. بَعْدَ شُيُوبِ نَادَتِهَا الْكَمَّارِيَّةِ فَاسْتَأْذِنْتُ.. تَخِيلِي حَصَلَ
إِيهِ؟ شَفْتُهُ.

- السُّلْطَانُ؟

- كَانَ وَاقِفٌ جِوَا الْقَصْرِ وَرَا بَرَاغِيَانِ.. مَشَى بَايَسَ مِنْهُ إِلَّا عَيْنِيهِ..
بِيرَاقِبْنِي.. دَقِيقَةً مَا اتَحَرَّكَشْ.. حَسَّيْتُ أَنَّهُ بِيَاكِلُنِي بِعَيْنِيهِ.. أَوَّلَ
مَرَّةٍ أَحَسُّ الْإِحْسَاسَ دَه.. أَكْنِي أَتَعْرِيتُ.. وَشَيْءٌ نَمَلٌ وَعِرْقَتُ..
رَحْتُ قَايِمَةً مِنْ مَكَانِي.

- وَبَعْدِينَ؟

- رجعت .. قالت إنه جه بالصدفة .. زيارة .. طبعًا مش صدفة .. عاوز يشوفني عن قرب .. وسأب لي هدية.

فتحت نازلي أصابعها عن بروش على هيئة فراشة مرصعة بالآلماص .. تأملت صَفِيَّة البروش ولم تلمسه .. أردفت نازلي:

- حاولت ما أقبلش .. مدام جرهام قالت لي دي إهانة للعرش ومش إتيكيت.

- أنا مش متصورة إزاي يفكر في الجواز والبلد بالحالة دي ا كمان دي أول مرة يفكر حاكم من الأسرة يتجوز من الشعب!

- أنا مش موافقة .. وأعلى ما في خيله يركبه.

- فؤاد خيله عالي يا بنتي .. لكن برضه لو اطربقت السماغ الأرض يستحيل تتجوزي واحد بيخون البلد! ده سعد لو عرف .. يا الله .. أنت عارفة أنت بالنسبة له إيه.

- المُشكلة في بابي .. بريق العرش صعب يترفض .. عينيه على الوزارة .. أنا هانتحر لو أجبرني.

- إوعي يا نازلي .. إوعي .. فيه طرق كتير للتصرف يا بنتي .. الناس مش هاتسكت .. هاتكتب المنشورات في كل حنة .. هانقف ضده .. مش هايخذلك مننا.

غاصت نازلي في حُضن صَفِيَّة هربًا، أطلقت أنفاسًا حارة ودموعًا قبل أن تطوي السيارة حديقة القصر الدائرية وتتوقف لينزل منها والد نازلي .. نظر إلى الشرفة ثم صعد سلالم القصر مُسرِعًا.

- أكيد عرف إني هنا.. قالت صَفِيَّة.
- الخدم ينقلوا له كل حاجة.
- ما تخافيش.
- مَمْنونة يا مامي إِنَّكَ جبتي.. أنا عارفة إِنَّكَ صعب تسيبي البيت في الظروف دي.
- أنا أجبي لك في أي مكان وأي وقت يا حبيبتي.. ما بقاش فيه حاجة يتخاف عليها.
- لحظات وسمعتا طرقات الباب.. اتفضل يا بابي.. قالتها نازلي بعد أن مسح دموعها وارتدت صَفِيَّة الحجاب.. دخل الرجل وفي وجهه ابتسامة مُجبرة.. صَفِيَّة كانت الصديقة الأقرب لزوجته الراحلة.. لكنها لم تكن الأقرب إليه يومًا وخاصة بعد تمرد سعد السافر على الحياة السياسية الهادئة المستقرة.
- منورة يا صَفِيَّة هانم.. خطوة عزيزة.
- أهلاً يا باشا.
- قولي للدادا تحضر العشا يا نانا.
- لا ملوش لزوم أنا ماشية.
- لم يزايد على جملتها الأخيرة.. لثمت نازلي في جبهتها وبشتها الهمسات في أذنها ثم اقتربت من الباب قبل أن تتوقف وتواجه الرجل:
- توفيقه هانم الله يرحمها وكُلّنتي شأن نازلي قبل ما تموت زي ما حضرتك عارف.

- أنت والدتها يا صَفِيَّة هانم.
- ووالدتها بتقول نازلي محدّش يجبرها على حاجة.
- نظّر لنازلي بابتسامة ثم رجّع لَصَفِيَّة: خالص.. الأمر مافيهوش
أر.. مصلحة نازلي أهم حاجة عندنا كلنا.. ولّا إيه يا نانا؟
- أردفت صَفِيَّة: ومصلحةها مش في القصر يا عبد الرحيم باشا.
- اللي فيه الخير يقدمه ربنا.. نورتي يا صَفِيَّة هانم.
- لم ترد تحيته.. فقط أعطته ظهرها وخرجت.. ودّعتها نازلي حتى
ية التي تنتظرها في الباحة الأمامية ثم رجعت لأبيها الذي وقف
ل صورة لها في برواز تجمعها بأמהا.. دَخَلت نازلي من الباب في
سب مكتوم ووقفت أمام والدها الذي ابتسم لها:
- اتعشيتي؟
- صَفِيَّة هانم نازلة زعلانة.
- أنا جعان جدًا.. تتعشي معايا؟
- حضرتك عارف إنها في مقام مامي.
- الله يرحمها.. هي اللي سمحت لها بالتدخل في حياتنا..
لغاية دلوقة.
- لو مامي عايشة كانت هايبقى ده رأيها برضه.
- ما أفتكرش.
- مامي ماكانتش توافق أبدًا على صفقة.

- توفيقه كانت عاقلة.. وبتفكّر.. ودي مش صفقة يا نانا.

- داكور بابي.. طالما مش صفقة أنا مش موافقة.

شبكت يديها أمام صدرها فجلس على مكتبها الصغير في صمت، أخرج غليونًا حشاه تيجًا ثم أشعله بولاعة مقلوبة، نفث دخانه وهو يتأمل تحديدها قبل أن تزحف عيناه إلى كتاب نثأت من بين صفحاته أوراق وردة حمراء جافة، نظر في عيني نازلي للحظة فاختلجت قبل أن تمد يدها إلى الكتاب، لكنه كان أسرع، التقط الكتاب فتغير وجهها، بهتت، تلاحقت أنفاسها، رجع بظهره إلى الكرسي فجلست على طرف السرير بعينين جاحظتين، تأمل غلاف الكتاب المرسوم فيه بحيرة مُحاطة بالأشجار يسير على ضفافها شاب وفتاة.

- مجدولين.. الرواية دي قريتها وأنا في باريس سنة تسعين مثلاً.. ستيفن الحالم ومجدولين.. الضحية.. مشوقة.. بس نهاية مأساوية.. في الحقيقة كل القصص الناجحة نهايتها مأساوية.. روميو وجولييت.. عطيل وديمونة.. قيس وليلى.. يتعجب القراء لأن الحياة المستقرة بيعتبروها.. مُملة.

قلّب الصفحات في هدوء حتى توقف عند الوردة الحمراء الجافة.. رفع الكتاب إلى أنفه واشتم:

- الورد البلدي بيحتفظ بريحته فترة كبيرة.. دي لازم تذكرا

وضع الكتاب جانبًا: من أحمد... كبيرة؟

بوجوم لم تعقب.. لم تتقن الكذب مرة فتوترت أطرافها.. رمقته
فماس مَحبوسة فسلك غليونه ثم أردف:

- ولد لطيف جدًا.. وسيم.. من يوم ما سُفِته معاك في الحفلة
واسم عيلته ما راحش من بالي.. كبيرة.. اسم غريب.. فاكر إني
أكيد سمعته قبل كده.. لغاية ما قابلت نواء جيش.. صديق عُمر..
دردشنا سوا وسألته بفضول إذا كان يفتكر الاسم ده.. وافتكراه
فعلاً.. تخيلي!

سَكَت ولم يكمل فاشتعلت قلقًا.. تركها حتى خرج الدُخان منها
حست: وبعدين؟

- الكذب يا نانا أكثر صفة تخوف.. الرجل مُمكن يكون عينه زايغة..
قُمرت.. صَاحِب كاس.. لكن كداب! صعب.

نبضات قلبها باتت مدفعًا رشاشًا ضَغط جُندي زناده ونسي أن
فعه.. لَمَّا لمس الصُدمة فيها والخرس متمكنًا أكمل.

- طبعًا أنتِ ما توعيش على هوجة عُرابي.. عبد الحي كبيرة والد
أحمد.. اللي قال إنه مات بمرض.. كان بكباشي في أورطة
عُرابي.. واتقبض عليه معاه.. وأُعيد.. رميًا بالرصاص.

تندى جبين نازلي.. ضَمَّت يديها إلى صدرها كمن تعرَّت في ميدان
يء بالبشر قبل أن تتمالك نفسها وتشن هجومًا يائسًا:

- يعني بطل؟

- بطل في أورطة عُرابي اللي دَخَلت الإنجليز مصر.

- بايبي!!! أنت محافظ في حكومة الإنجليز.

- وسعد زغلول باشا برضه كان وزير في حكومة الإنجليز ورأيه إن التعاون معاهم يساعد أهل البلد.. أفضل من العزلة لغاية ما يكون لدينا قوة نقدر بيها نقف قدامهم.

- رجالة عرابي ما كانواوش خاينين.

- وتفتكري ليه أحمد ما قالش؟

ازدحمت الإجابات في حلقها ولم تخرج.

- مش ده بس اللي خباه أحمد.

!!...

- تفتكري محاولة اغتيال السلطان سنة ١٩١٥؟

هزّت رأسها إيجاباً.

- المُنفذ الرئيسي اللي رمى القنبلة تحت عربة السلطان أخذ حُكم مؤبد.. كان ولد تخمري.. صُباعه الإبهام مقطوع أنا متذكر.. وكان صديقنا العزيز أحمد كيرة مِن ضِمن المُشتبه فيهم لكن خرج لعدم وجود دليل.. وزار صديقه في السجن خمس مرات.

توقف قلبها للحظات وانسكبت دماؤها على السجادة.. وراء سكون أحمد كانت تستشعر دوماً رائحة حياة سرية أقصى تنبؤاتها لم تكن لتتعدى المغامرات النسائية.

- شوفي يا نانا.. الشباب من سن عشرين إلى خمسة وثلاثين بيكونوا في قمة الخطورة.. طيش.. تجارب قليلة.. حُب البطولة

ضد كيانات أكبر منهم.. وطبعاً دي من الحاجات اللي بتجذب الجنس اللطيف.. مش عيب.. كُلنا في يوم اتشاقينا.. وبعدين كبرنا.. عَقَلنا.. عرفنا إن الدم ما بيعركش قضية.. اللي بيعركها الحوار.. التفاوض.. خاصة أننا بنواجه أقوى جيش في الأرض.. مين يقف قدام الإنجليز يا نانا؟ أمّا إن الأمر يمتد للاغتيال.. الدم.. ده كثير.. كده إحنا بتدمر بلدنا بإيدينا.. أنا جالي كمان أخبار من مكتب الخدمات بتقول إنه بيوزع منشورات وليه نشاط سياسي.. ده شخص عمره ما هايقل.. الدم هايفضل مغمّي عينيه طول العمر.. وحياته هانفضل مزدوجة لازم يخفيها عن... أقرب الناس ليه.

- أنا مش مصدقة الكلام ده.

- لو مش مصدقاني.. اسأليه.

انتابتها عصبية لم تستطع السيطرة عليها.. فورة غضب أشعلت رأسها فقامت تجوب الغرفة وتحرق محتوياتها:

- أنا مش صغيرة عشان أحناج رقيب على تصرفاتي.. أنا عندي خمسة وعشرين سنة.

- بتسميها مراقبة.. أنا باسميها عناية.

قام الرجل وأحاط رأسها بكفيه ونظر في عينيها: صَبِي غَضَبِكَ عَلَى الشَّخْصِ الصَّحِيحِ يَا نانا.

سكتت.. طأطأت رأسها خجلاً وتخبّطاً.. أشاحت بوجهها ومشت حتّى الشرفة.. من بين الستائر بحثت عن قمر لم تجده.. تخلّى عنها

وغاب وراء الغيوم.. ترققت عيناها بدمع حين وقف أبوها خلفها
وهَمَس بين خصلات شعرها:

- هاسيك تتجوزيه وهانتظري معاه السعادة.. ما تعرفيش عنه
غير قشور.. شهر شهرين.. وتبدني تشوفي حقدّه وغله على
كل الطبقات الأعلى منه وكل صاحب سُلة.. عيلتنا كُلها
ضمن أعدائه.. وأنت متناهما انفصلتي.. مش هاتدري بنفسك
إلا وأنت بتزوريه في السّجن.. بتهمة الخيانة العظمى.. تعيشي
بعد كده منهوذة.. فيه ناس يا نانا أتخلقت عشان تصنع التاريخ..
بالعار زي «جافريلو برنسيب» اللي قتل وليّ عهد النمسا من
أربع سنين.. كان فاكر إنه بطل.. وماكانش يعرف إنه يشعل حرب
هايروح فيها الملايين.

التفتت إليه: كُل ده عشان أقبل أتجوز السلطان؟

- ولو حتى ما اتجوزتيش يا نانا.. ده شخص خطر.. أنا ممكن
بمكالمة تليفون للحكمدار أرميه في الممّتل وأنت عارفة..
ما تصعّيش الحياة على نفسك.. ده مش الشخص اللي
يناسب تاريخنا.

قالها ورحل.. سَحَب غليونه ودُخان.. وماتني جرام من قلب نازلي
قبل أن يتركها فريسة للتخبط.. والأموا.. فريسة لنفسها.. حتّى الفجر..
أطفأت نور العُرقَة وجَلست على أرض شُرفتها تستند الحائط.. حَرقت
خمس سيجارات من عُلبة تخفيها بين كتبها للطوارئ.. ذبلت واحترقت
وكسرت ظفرين في أصابعها قبل أن يتحجر كل ما فيها.. تملكها سكون

ولمخشب لا يُحركه سوى نفس تسحبه كل يضع ثواني مجاملة لجسدها..
إذا تذكّرت.. كان ذلك حين انقطعت صوت جسم يرتطم بزجاج الشباك
واسمها يُنادي همساً: نانا.. أفأقت من شرودها ورجعت للحياة تسترق
السمع كقطة منتبهة.. نازلي.. سمعتها ثانياً واستيقنت أنها قادمة من
الحديقة.. قامت ورنّت محاولة تمييز مصدر الصوت بين عتمة الحديقة
حتى لمحته.. كان واقفاً وراء شجرة يشير بيده إليها أن انزلي.. رُمقته
لثواني محاولة استيعاب حضوره حتى أشار بيده إشارة تعجب!!! لم
تُعط إشارة أنها رآته.. رُمقته لدقيقة قبل أن تدخل غرفتها وتتخشب فجأة
لا تعني ما تفعله.. فتحت دولابها والتقطت معطفاً داكناً.. ارتدته فوق
قميصها وخرجت.. نزلت الدرج ببطء متجنبة صوت احتكاك أخشاب
الأرضية.. وصلت إلى الباب الحديدي الكبير فمسحت دموعاً أطفأت
لمعة وجنتيها ثم أدارت المقبض.. خرجت إلى الحديقة غير عابئة
بهديميها الخافيتين.. غاصت أصابعها في العُشب تبحث بعينيها عنه
حتى تبيّته.. توارى وراء شجرة حتى جاءته على استحياء تنظر إليه في
صمت.. جذبها خلف الجذع بقلق وهو بنظر حوله ثم همس:

- أنت كويسة؟

- كويسة.

- كلمتك في انثليفون أكثر من مرّة على مواعيدنا والداذا هي
اللي بتردا

- أنت دخلت هنا إزاي؟

- من فوق السور.. فيه إيه؟

- سهل بالنسبة لك مش كده؟ تنظ الأسوار؟
- مش وقته يا نانا.. أنا سمعت حاجة مش عارف إذا كانت...
هو فعلاً السلطان...؟
- قاطعته: إزاي عرفت؟
- مفيش حاجة بتستخبئ.
- تفتكر الحياة دي مُمكن تكون عاملة إزاي؟
- سكت أحمد للحظات ثم أردف: مُجتمع مُزيف.. مريض..
هاتكوني فيه زي الضحية في بيت عنكبوت.. اللي برّه مش ممكن
يتخيل قد إيه أنت وحيدة وخايفة.
- ابتسمت في مرارة وطاقات رأسها إلى الأرض: تشبيه حلو
بيت العنكبوت.
- سحب نفساً إلى صدره وأخرجه تهدئة: وبُعدين؟
- بتحبني؟
- طبعا يا نانا.
- وإيه اللي مُمكن نعمله؟
- مُمكن نهرب.. نروح أي مكان ماحدث يعرفنا فيه.
- وتسبب شغلك... في مدرسة الطب؟
- طبعا.
- وتعيش حياة عادية مافيهش أحداث؟

- جَرَّبِينِي .
- طب ولو ما قدرناش ؟ هاتعمل إيه ؟
- هاقته ؟
- أَكْنَكْ عَمَلْتَهَا قَبْل كِدَه !
- لكل مرة أول مرة .
- مين اللي يَمْلِك العجراة يقتل سلطان ؟
- واحد مؤمن بخيانتة .
- واضح إنك طالع لو الدك الله يرحمه .. أكيد كان جريء زيك .
- جزر أحمد أسنانه : مش وقته .. نانا أنا مش هاسمَح للعاين ده إنَّه يقربُ لك .. بُكرة زي دلوقتي هاكُون مستنيكي .. هاوضب مواصلة ناخذنا لمكان بعيد .. مؤقتًا لغاية ما نشوف صِرفة .
- وتفتكر هايسيني لو عرف إنني هربت معاك ؟
- مش هايعرف عنك أي خبر طول ما هو عايش .
- هاتخبيني ؟
- الدبان الأزرق مش هايعرف مكانك .
- سكتت .. نظرت في عينيه حتى هز رأسه استغرابًا قبل أن تردف :
- مش عاوز تقول لي حاجة ما أعرفهاش عن الشخص اللي هاهرب معاه ؟

- عاوز أقول لك إتي بحبك... جدًا.. ومُستعد أعمل أي حاجة عشانك.

- مش عاوز تقول حاجة ثانية؟

- ...

ترقرقت عيناها بالدمع: وأنا كمان بحبك يا أحمد.

اقترب ولثم شفيتها بقبلة طويلة.. أغمضت عينيها وتركت النشوة تجتاح كل خلية فيها قبل أن يعترض يدها.

- بُكرة زي دلوقت.. ما تتأخريش.

انسحب وابتنامة وعد واثقة تغزو وجهه فصعد السور برشاقة ورفع يده مودِّعًا.. ظلَّت في مكانها متييسة تداعب الطين بين أصابع قدميها حتى اختفى.



في اليوم التالي.. قبل الفجر

قفز السور ووقف خلف الشجرة التي شهدت قُبَلتهما.. لمَّا اعتادت عَيْنَاه الظلمة راقب مدخل القصر وستائر شرفتها.. كَبِثَ في مكانه دقائق حتى اطمان للسكون قبل أن يلتقط حجراً صغيراً ويقذفه تجاه النافذة.. ارتطم بخفوت.. لحظات واقترب وَهَجَ شمعة يتراقص ومن ورائه ظل أزاح الستارة.. مَبِزَّها فرفع يده في إشارة.. رَمَقَتْه بنظرة طالت حتى أشار إليها ثانياً.. بجمود لم تُحرِّك ساكنًا.. لم يفهم.. قطب جبينه وفتح يديه

استفهام.. تفرقت عيناها ولم تتحرك فتقدم خطوة.. خطوات..
ى بات في منتصف الحديقة الوارفة.. رفع كفه إليها فهزت رأسها
ة.. تعرق جبينه من إشارتها.. أنزل يده وتسمّر محدقاً.. ظل يُراقبها
ى أدنت الشمعة من شفيتها وأطفأها بنفخة قبضت صدره.. ساد
لام ولم يبق إلا ضوء قمر أحذب ميز حدود جسدها.. لحظات
دلت نازلي الستائر ثم أغلقت النافذة.. ساد الصمت إلا من صوت
اق الشجر تتحرك على الأرض قرب قدميه.. تمالك نفسه ثم
حب.. يلتفت كل لحظة علّها تفتح النافذة أو تضيء الشمعة.. لم
ل.. صعد جذع الشجرة المائل ثم اعتلى السور.. نظر نظرة أخيرة
النافذة المعتمة ثم قفز.. دس يديه في جيبه وابتعد.





أمر سلطاني كريم

نحن فؤاد الأول سلطان مصر

«رسمنا بما هو آت»

«المادة الأولى»

عُيِّن عبد الرحيم صبري باشا وزيراً للزراعة.

«المادة الثانية»

«على رئيس مجلس وزرائنا تنفيذ مرسومنا هذا»

صَدر المرسوم بسراي القبة بتاريخ ٢١ مايو سنة ١٩١٩ من
أصليين يُحفظ أحدهما بديواننا والآخر برئاسة مجلس النُّظار.



٢٤ مايو ١٩١٩

سراي البستان بباب اللوق

بلا زينة أو أعلام كَانَ حال الشارع المواجه للسراية بُني منذ أيام
بمُحْضُور سَام وضِيفَة عَالِيَة المَقَام، سَاد النشَاط فِي الأجَوَاء فَكُنْست
الأَرْض وَغسلَها المِياه، مَصايِيع الأَرْضِفة جُلِيت واشتعل غَازها
فَأَصْءات الأَرْض بيقع هَادئة كل بضعة أمتار، بَسَط الفَرَّاشون يَسْجَادًا
أحمر عَرِيضًا أمام الباب الرئيسي وَرَضُوا بطول الشَّارع وَعَرَضه أواني
الزَّرْع والورود، رجال البوليس والخاصة السلطانية انشَروا فِي كل
مَكَان وَمِنْ ورائهم ذئاب مكتب الخدمَات، يَطوفون بين الناس مَسْحًا
وتدَقِّبًا، أَغْلَفوا الشَّوارع المُحِيطَة وَأَبعدوا أَصْحَاب الجلابِيب وَفَنشَروا
الأفنديَة والعربَات.

فِي نِمام الثامنة قَلَّت الحَرَكَة وسَاد الصمت.. اشْرَأبت الأَعْنَاف جِهَة
اليسار حين لاحت خيول النشْرِيفة مِنْ بَعْد تسير أمام القُرْبَة السلطانية
المَجْرورة بِحصانين.. انْفَنَح الباب الرئيسي للسراية فَوَقَف رجال
الحاشية فِي صَف مُنْضَبَط يُحاذون مُقَدِّمَات أَحَدِبتهم اللامِعة إِلَى
خِط أَصْفَر مَرسوم أَمامهم قَبْل أن يَخْرُج التشرِيفاني ثَم الشماشِرجي
يَنْبَعِهما السُّلْطان فُؤاد فِي بَدَلَة سَوداء مُرْصَّعة بِالنِياشِين والمِبدِاليات
يَفْطَع صَدْرها وشاح أَخْضَر عَرَبِض، فِي أَكْمامه أَزْرار مَعْدَنِيَة ذَهَبِيَة

عليها اسمه ويعلوه التاج، وفي كفه اليسرى قفاز أبيض، وقف فؤاد أمام الباب مُشبكاً يديه خلف ظهره يتطلع للموكب بجبين ازداد عبوساً حين لمح المصور يُعدُّ الكاميرا لالتقاط صور تذكارية، نهاه بإشارة من يده فاختمى حين توقفت العربّة الرئيسية أمام المدخل، هرع خادم إلى باب العربّة وجذب من تحته سلماً ذهبيّاً صغيراً له ثلاث درجات وفتح الباب، اقترب السلطان من العربّة ومد يده ليد أنثى في قفاز، استندت عليه ونزلت الدرجات في فستان أبيض متلألئ رفع ذيله من ورائها أربع فتيات صغيرات، أمام وجهها ياشمك أخفى فمها وأنفها وفوق رأسها ثبت تاج مرصّع بالألماس، انحنى الحاضرون إجلالاً قبل أن يدخل العروسان القاعة الرئيسية في صمت.

الحفل كان محدود الحضور، ضم فقط أمراء الأسرة وأقارب العروس ورجال الحاشية والوزراء، على أضواء الشموع جلسوا إلى مواثد رُصّت بالورود وأشهى المأكولات، عُقد قران وقُطعت كعكة من ستة مستويات قبل أن تعزف الفرقة السلطانية ألحاناً ناعمة لتشيكوفسكي ومونسارت، بعدها توسط العروسان القاعة، جلسا إلى مائدة نوالث العائلات الاقتراب منها لتقديم هدايا الزفاف الثمينة من الساعات المرصّعة والمجوهرات المَخنومة بحرفي فاء لفؤاد، ونون، لنازلي، قبل أن ينتهي الحفل بعد ساعتين ليقوم العروسان إلى العربّة السلطانية التي ستحملهما إلى سراي القبة حيث ستقضي نازلي ليلتها الأولى، ضربت سنابل الخيل الأرض فتحرك الموكب مُسرّعا في نفس اللحظة التي انكسر فيها ضلع أحمد كيرة نحت وطأة قبضة حديدية كفّ عن مقاومة صاحبها من دقائق

قبلها بساعة كان يسير هائماً مُخترقاً الشوارع .. يسد أذنيه عن أخبار
الزواج السلطاني التي تسربت إلى الأفواه وملأت الأذان .. زواج فؤاد ..
من نانا .. عاقداً العزم على إيجاد إنجليزي ثمين يستدرجه إلى فخ
ليقتله .. أو يتركه عن طيب خاطر ليُجهز عليه .. سيان .. فالقاتل والمقتول
يتلذذان كل على طريقته .. المهم أن ينسى .. ينسى أن ناناته اختارت
منذ اليوم أن تُصبح سيّدة .. سلطانه التي ستجمل للسلطان وتتعطر ..
وترتدي وتقلع .. تتركه ينهش جلدها .. يعب رَحيقها .. يستعبدُها
برضاها ويودعها حرم ملك مُغلَقاً لا تدخله الشمس إلا بإذن الستائر .

«اللجنة عليك يا نازلي ! لم ضحيتي بي وبفسك ؟ لم اقتلعتي جفوني
بسكين بليد ؟» .

أوقفته الأسئلة في منتصف حارة ضيقة مُلاصقة لكافيه إيجيبيان ..
بحث عن الإجابة تحت قدميه حتّى وجدها .

«أنت يا نازلي ! الأفعى والتفاحة معاً» .

قالها وأشعل سيجارة حين انتبه إلى وجود شخصين يسدان مقدمة
العسّارة .. يغال مكتب الخدمات لهم هيكل مألوف ورائحة لا تُخطئها
أنف مُدرب .. التقط بعدها حفيف الخطوات خلفه فالتفت ببطء .. زميل
ثالث يحكم غلق الفخ على بُعد أمتار .. قياساً كان الاستسلام حتمياً ..
لكن المقاومة واجبة تحليلاً للمأهية التي يقبضها هؤلاء الأوغاد ..
سحب أحمد نفسه من سيجارته حين تحركوا .. أخرج أحدهم من
معطفه هراوة خشبية وارتدى آخر قبضة حديدية فوق أصابعه .. من نوع
الأسلحة أدرك أحمد أن اللقاء درس تأديبي .. ثقيل .. كان ذلك حين
بات الأول على بعد مترين .. رقع هراوته ليهوي بها على رأس أحمد ..

تفادها الأخير قبل أن يقذف سيجارته في وجهه .. ضربت ما بين عينيه
 فنشرت شظاياها ففرع وكان ذلك كافياً ليهديه أحمد لكمة عانقت ذقنه
 المريض .. انثنى ألماً وسقطت هراوته حين طوَّح زميله قبضته المُدرَّعة
 بالحديد .. تركت على الحائط علامة غائرة وشرارة قبل أن يُودعه
 أحمد لكمة في رقبته لم تعجبه فأهداه أخرى أقنعتة بالسجود .. كان
 ذلك حين استعاد ذو الهراوة توازنه ووقف متحفزاً فتدخل الواقف في
 الخلف وهوى على أحمد بقلب طوب صغير أصاب مؤخرة رأسه ..
 ارتجبت الحارة وتفككت البلاطات المُحَدَّبة تحت قدميه فاستند على
 الحائط .. ثم عانق خذه الأرض .. تكالب عليه الثلاثة ركلاً وتهشيباً
 حتى انفجرت الدماء .. كسروا ضلعين وثلاث أصابع ثم ختموا الأمسية
 بركلة أخيرة في وجهه بعد أن انحنى أحدهم وهمس: المرأة دي إنذار ..
 المرأة الجاية رقبته.

أظلمت الحارة حوله إلا من وجه نازلي .. كما رآها أول مرة في
 حديقة بيت سعد .. كانت تبسم.

في نخجل ..



انقضت دقائق قبل أن يصير الباب الجانبي للمسرح .. أضاءت لعبته
 المُنشَخة بلاط الحارة الضيقة فتسرَّب عبق الرواد ونغمات المسرح
 المتداخلة قبل أن تنزل السلم قدمان رقيقتان مصبوغتان بالأحمر ..
 مُضطربة ترتعش تبغني خلوة صغيرة في جِذاء فُضي وفستان أسود
 صدره وإيمع، ووجه أخفاء قناع من أقنعة فينيسيا التنكرية المَكسوة
 بالريش .. مشيت خطوات تتحامل على ساقين واهنتين قبل أن تستند

الحائِظ وترتج فتفرغ عصاره معدنها.. بقايا أفيون في دمها تثير ثورة
 أخيرة.. هدأت أنفاسها من بعد سُعال عنيف فمسحت فيها بمنديل
 حين التقطت من ورائها أنثى خافتة.. ضيقت عينيه فميزت جسداً
 منكوراً.. نظرت حوله فلم تجد أحداً فمدت خطواتها فزعة نحو سلم
 الكافيه.. سعدته قبل أن تتأمل المسجى باستسلام.. نفسه اليائس
 ودماءه النازقة من تحته أبطأت حركتها.. بتردد نزلت السلم.. اقتربت
 منه في حذر تلتفت حولها.. وكثرته بمقدمة جذائها فاهتز ولم يستجب..
 انحنى عليه فمحص أنفاسه الخافتة فتأثرت من وجهه المَهْشَم وعَيْنيه
 المغلقتين بورم ينمو.. تنهدت في حيرة ثم حَسَمَت أمرها.. أجلسه
 بصعوبة فصرخ من ألم ضلوعه المكسورة قبل أن يُوارب عينيه.. أدرك
 قناعها للمحظات ثم غاب ثانياً.. نظرت إلى ملامحه ملياً تقيس خطوتها
 التالية ثم تخاملت وأسندهت.. في صَحوة استجاب لها فاتكأ إلى كتفها
 كاتماً صراخه.. صعدت معه السلم واتجهت به إلى غرفتها الصغيرة..
 هربت الباب بظهرها وأسجنته على كنية صغيرة تنام عليها قبل أن تهرع
 لطلب استغاثة.

أنهت بديعة فقرتها وأنت.. تأملته عن قرب ثم لامست طرفه ذقنه
 ونظرت في جيوبه.. وجدت فيها نقوده وساعته وبطاقة عمله بمدرسة
 الطب فالتفت لورد التي باتت لنا:

- بيشتغل حكيم! هايدا! مو ضربوه عشان يسرقوه.. هايدا انتقام..
 لازم نتصل بالبوليس.

فتح عَيْنيه بصعوبة وقبض على أصابعها برفق قبل أن يشدد عليها
 ويهز رأسه نفيًا: بوليس... لأ.

عَاجَلَتْهَا لِينَا: مُسْتَعِدَّةٌ أَخْلِيهِ فِي غُرْفَتِي لِحَدِّ مَا يَقِفُ عَلَى حِيلِهِ .

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِدِيْعَةٍ لِلْحَفَظَاتِ قَبْلَ أَنْ تَتَأَمَّلَهُ ثَانِيَةً ثُمَّ حَسَمْتُ أَمْرَهَا ..
اسْتَدْعَتْ طَبِيبًا يُونَانِيًّا تَعْرِفُهُ .. طَلَبْتُ مِنْهُ عِلاجَ الشَّابِّ الْمَجْهُولِ
وَالْكَتْمَانِ فَاسْتَجَاب .. صَرَخَ أَحْمَدُ حِينَ شَدَّ صَدْرُهُ بِرِبَاطٍ ضَاغِطٍ
لِتَلْتَحِمَ الضَّلُوعُ وَغَطَّى وَجْهَهُ بِشَاشٍ مُعَقَّمٍ بَعْدَ أَنْ مَسَحَهُ بِمَرِّهِمْ مَرَّطَبٍ
يُهْدِي الأَوْرَامَ ثُمَّ حَقَنَهُ بِمُهْدِي سَيْفِيْقٍ مِنْهُ بَعْدَ يَوْمٍ .

تَوَلَّتْ لِينَا مِنْ بَعْدِ فَقَرْتِهَا كِرَاقِصَةً وَمُرْدَّةَ كُورَالٍ خَلْفَ بَدِيْعَةٍ
العُنَايَةِ بِأَحْمَدَ .. تَرَكَتْ لَهُ غُرْفَتَهَا وَأَتَتْ لَهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيَّرَتْ
الشَّاشَ فَوْقَ جَرَحِهِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ دُونَ أَنْ تَسْأَلَ عَمَّا أَلَمَّ بِهِ رَغْمَ فُضُولِ
نَهْمٍ يَجْتَاحُهَا .. تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فَيُخَفِّتُ فِيهَا اشْمِزَازَ الذِّكُورِ الَّتِي
وَرَثَتْهُ مِنْ زِبَائِنِ بِنْتِهِ وَيَعْلُو شَغْفُهَا بِتَأَكُّدٍ كُلَّمَا انْقَشَعَ الْوَرَمُ عَنْ وَجْهِهِ
وَوَظْهَرَتْ مَلَامِحُهُ .

فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ نَظَرَ إِلَى عَيْنَيْهَا وَهِيَ تَعْتَنِي بِهِ فَارْتَعَشَتْ أَصَابِعُهَا
اضْطِرَابًا .. ابْتَسَمَ بِحُزْنٍ ثُمَّ التَّقِطَ عِدَدَ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ مَايُو مِنْ
جَرِيدَةِ الْبُورْصَةِ «La Bourse Egyptian» .. طَلَبَهَا حِينَ انْعَجَلَتْ غِشَاوَةٌ
عَيْنِيهِ جَزْئِيًّا .. قَلَّبَ أَوْرَاقَهَا حَتَّى تَوَقَّفَ عِنْدَ خَيْرٍ :

«إِنْ حَضَرَةُ صَاحِبِ الْعِظْمَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ «فُؤَادِ الْأَوَّلِ» سُلْطَانُ
مِصْرَ الْمُعَظَّمِ قَدْ نَظَرَ بِعَيْنِ الْحِكْمَةِ الْعَالِيَةِ الدِّهْنِيَّةِ إِلَى وَجُوبِ
النَّمْسِكِ بِمَا وَصَى بِهِ الدِّينُ الْحَنِيفُ مِنْ أَمْرِ الزَّوْجِ وَالْإِهْتِمَامِ بِهِ
فَعَقَدَ قِرَانَهُ عَلَى سُلَيْلَةِ بَيُوتَاتِ الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ حَضَرَةُ صَاحِبَةِ
الْعِظْمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ نَازِلِي عَبْدِ الرَّحِيمِ بَاشَا صَبْرِي» .

سَطُورٌ قَلِيلَةٌ قَرَأَهَا عِدَّةُ مَرَاتٍ حَتَّى حَسِبَتْهُ يَحْفَظُهَا لِئَسْمَعَهَا قَبْلَ أَنْ
يَقْطَعَ الْقَصَاصَةَ مِنَ الْجَرِيدَةِ وَيَضَعُهَا فِي مُحَفَظَتِهِ .

في اليوم الرابع لمّا جلست بجانبه لتغيير شاش صدره كانت المصافاة
افية ليمسح فيها ملامحها.

وكافية لكسر حاجز الصمت بينهما.

- الدكتور قال إنك راح تعيش.

- وده خبر كويس؟

- المفروض.

- اسمك؟

- لينا.

- شامية؟

- من ماردين.

- جيتي بعد المذابح؟

بدون أن تنظر في عينيه هزّت رأسها إيجاباً ثم أردفت: أهلي ماتوا
لويلا الإسبنيولي.. هنا في الأربكية.. والشّت بديدة عطفنت عليا
شغلتنني معاهما في الفرقة.

- البقية في حياتك.

انهمكت في ربط الشاش على أصابعه المكسورة متصنعة
لنشغال.. متاد الصمت للحظات قبل أن تقطعه:

- وأنت... شوقصتكَ؟

لم يعجبها ولم تكرر السؤال.. شرد في صورتها بين أبويها على ظهر
باخرة.. ألصقتها في طرف المرأة الكبيرة.

- أكيد رحلة قاسية إنك تسيبي بلذك وكل حاجة بتحبها.
- مصر قسيت عليا أكثر بكثير من سوريا.
- هي قاسية فعلاً... قالها بشرود قبل أن يتسم؛ على فكرة صُوتك حلو.. سمعتك مرة.
- الشّت بدبعة كتير بتسييني أغني لحالي.. لما تقوم بالسلامة أعزمك في الصالة وتسمعتي عن قرب.
- انتهت من تغيير الشاش بأكية وساعدته في الاتكاء على الوسادة ثم انسحبت.. قبل أن تصل إلى الباب تكلم.
- بنت كنت بحبها هي سبب الحادثة.
- توقفت ثم التفتت.. أردف:
- كنت فاكرها بتحبني... لغاية ما جالها غريس أغنى.
- استمحتته بصمتها أن يكمل.
- ومش أي غني.. أغنى واحد في مصر.. هي دي القصة الحقيقية..
- الشاطر حسن وست الحسن عمرهم ما اتجوزوا.
- لكن هادول ناس كانوا قاصدين يموتوك! ليش ما تبلغ البوليس؟
- فلتت ضحكة رغم آلام وجهه: أصل جوزها وأبوها... هما البوليس.
- كنت كتير بتحبها؟
- يمكن لأن في حياتي ما حسنت الحُب اللي حسيته معاها.
- يمكن تسامحها؟

شرد للحظات: ربنا اللي بيسامح.

ابتسمت مخففة: الله راح ينسبك ويطيب خاطرك.

- مُشكر يا لينا.. لولاكي ما كنتش...

نظرت في عينيه للحظة وابتسمت: اشكر الله.. والسبت بديعة..
والصدفة.. بعد إذنك.

في اليوم التالي ساندته إلى تليفون طمأن به عبد الرحمن فهمي وعم إسحاق ولم يذكر ما حدث.. أخبرهم بنية غيابه لأمر عائلي وأغلق الخط قبل أن تزيد استفساراتهم.. أما والدته فتلفت رسالة فيها كلمات مقتضبة.. أخبرها بسفر مفاجئ خاص بمدرسة الطب وأرسل مبلغاً يكفيها أسبوعاً.. تلقت بقلق لم تخفه وجلست شاردة تناجي صورة أبيه على الحائط.

بعد أيام بدأ التعافي يزحف ببطء.. انقشعت الأورام جزئياً من وجه أحمد وإن تركت مسحة بنفسجية.. أما الأصابع المكسورة والصلوع فجعلت حركته عميرة مؤلمة يلعن الكون ومن فيه إذا عطس أو سعل.. زارته بديعة مرتين لتطمئن على حاله ولسماع قصته.. وأدركت أن هناك المزيد خلف الرواية الرومانسية الركيكة التي طرحها لكنها اكتفت بإبتسامة سياسية منمناً لإحراجهِ وربتت على كتفه متمنية الشفاء.. أما لينا فكانت ملائكة حارساً أرسله الله.. تُنهي فقرتها خلف بديعة قبل الفجر لتأتيه بالفاكهة والسجائر والجراند.. يقضي الليل في قراءة نهمة لما يحدث في البلد خارج الغرفة.. وتقضي هي ليلتها على كُرسي في ركن لا تُبَارحه.. تتأملُه متصنعة مُطالعة مجلة موضة.. ثم يتبادلان حديثاً عاماً يهربان فيه من البوح بمكنون مؤلم يكاد يفيض منهما.

حكى لها عن سعد والثورة.

وحكت هي عن والديها ورحلتها المريرة هرباً من ذبح عشيرتها.

لم تحك عن العهر.

ولم يحك عن القتل.

تبكي فيضحكها.

ويشرد بعيداً فترجعه إلى الغرفة.

لا تفسر له لِمَا تعيش في كافيه «إيجيسيانة» سجنية بلا قضبان.

ولا يفسر لها كيف استحال حبّه خيانة وخيبة أمل.

قبل أن تستسلم أعينهما للنوم..

في اليوم الذي استطاع فيه المشي اتكأ على حائط الممر المفضي إلى الصلاة.. جلس إلى البار فطلب كأساً وانتظر.. دقائق وأعلن المقدم عن الفقرة.. خرجت بديعة متوسطة فتياتها وكانت لينا في الصف الخلفي.. تتلوى ببراعة في ديكولتيه أسود وتنورة قصيرة وشراب من الشبك.. أثارت انتباهه فشرّد في تفاصيلها وتباطأ الزمن.. لم تكن تلك الشاحبة الرقيقة التي تُعاني في شدّ رباط صدره وترتعش يدها بملعقة الشوربة وهي تؤكله.. رآها لأول مرة امرأة كاملة.. فأنته تكوي صدرًا وتُركع عائشًا تحت قدميها.. تُكرر كلمات الجوقة بعيون لامعة خلف قناعها المكسور ريشًا.. قناع يضاعف فتتها أضعافًا.. لمحت من خلال العيون المنقوبة فرّغ يده بتحية فابتسمت في سعادة قبل أن تنتهي الفقرة.. مشّت إلى البار دون أن تنزع قناعها.. لفّت إليها الروس وتلفت ثلاثة

عروض بالاستضافة فلم تستجب.. تجاهلتهم واستوت فوق الكرسي العالي بجانبه.

- ليش قمت من سريرك؟

- كنت عاوز أعرف بتعرفي ترقصي ولا لا.

ضحكت: عجبتك؟

- عجبتيني.. مش عارف لو ما كنتيش بتشتغلي أرتيست كنت هاتعملي إيه؟

- وعدت «أبونا» في البطرخانة مرة أروح الجمعية الخيرية الأرمينية أشتغل مع المحتاجين.

- فرق كبير!! وبعدين؟

- طلعت بعرف أرقص.

ضحكا ثم سكتا.. نظر في عينيها: هاتفضلي لابسة الماسك؟

- ما بحب الناس تعرفني.

- أنت فنانة ولازم الناس تعرفك.

- بره المسرح الناس ما بيعنيها أنا مين.

ارتشف من كأسه رشفة ثم رمقها للحظات طالت قبل أن يسألها:
أنت هربانة من إيه؟

لاذت بزحام الصالة فرازا من الإجابة ثم رجعت: هربانة من بلدي.

- أنت تقريبا مش بتخرجي من الكافيه؟ سمكة خايضة تخرج من المية.

- الدنيا بين حيطان الكافيه .. من ورا الماسك .. أجمل .. آمن .

- ولَمَّا غيَّرَ الفرقة زمرتها ويشيلوا الماسكات ؟

أشارت للقناع: الماسك مو هادا اللي على وجهي - ثم نظرت للناس حولهما - كل هدول الناس لابسين ماسكات .. أنت نفسك عابش بماسك!

نظر في عينيها كثيراً قبل أن يتكلَّم: عندك حق...

ثم سَحَبَ نفسًا لصدرة وابتسم: مُمكن أبقي أعزَمك على الغدا مرَّة؟ هانيقي معايا .. مش هاتخافي .

- أنت خلاص راح نمشي؟ اتعافيت؟

- أنا أحسن كثير .. مش ممكن أثقل عليك أكثر من كده .

فاطعته: ما حدا قال إنك ثقَلت .. خليك .. لحد ما تقدر تقف على حبلك .

- عندي التزامات لازم أقوم بيها .

ضربها الشرود .. نابعت يد الساقى وهو يخلط الخمر وترقرقت عيناها .. سحبت دموعها الكُّحل ونزلت من تحت القناع إلى ذقنها .. كانت تعلم أنه استغنى عنها .. استغنى كما استغنى العالم بأكمله من قبل .. مد يده ومسح دمعة من على خدَّها فقامت فجأة .

- هاشوفك؟

سألها .

— أنت بتعرف مكانى .

قالتها وابتعدت .. أنهى كأسه ثم رجع الغرفة .. دس قُصاصة الجريدة
في جيبه وارتدى مَلابسه بصعوبة قبل أن يكتب رسالة للسيدة بديعة ..
شكرها على المعروف الذي قدمته وفتح الباب فوجد لينا أمامه .. نظر
في عينيها لدقيقة قبل أن يمد يده ويُزيل القناع عن وجهها .. لاحظ
عينها اللتان اختلطت فيهما الدموع بالمساحيق فتلاحقت أنفاسها
وتعالت قبل أن تنفّس في حُضنه .. أغمضت عينيها وكتمت نفسها
قبل أن تبعد سنتيمترات وتطبع قبلة طويلة على شفثيه .. تركت عقبها
في أنفه ونكهتها في فمه وندبة بحجم رُصاصة في قلبه قبل أن تبعد
رُكُضًا .. لم تنظر وراءها حتى اختفت .. ظل أحمد في مكانه مُحاولًا
استيعاب اللحظة التي انقضت قبل أن يُلقي على الغرفة التي ضُمَّت
ألمه وراحته نظرة أخيرة ويغلق الباب .



«لا يجوز لمصري حُر أن يؤلف الوزارة في ظل الحماية البريطانية
على مصر» .

سعد زغلول باشا



رقم «٣٨٧» .. «عاجل»

من الجنرال سيمو أ. هـ. ألتنبلي إلى إيول كيرزون

- في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم أقيمت قنبلة بمنطقة جناكليس على سيارة رئيس الوزراء «محمد سعيد باشا» ولم يُصب... تم القبض على أحد المتطرفين^(١) ويُدعى «سيد علي محمد».. طالب بالمعهد الديني بالإسكندرية وجار التحقيق معه.

- العمليات الإرهابية بدأت تستهدف الوزراء المصريين جرّاء تصريح «سعد زغلول» الذي اتهم فيه من يتولون المناصب في ظل الحماية البريطانية بالخيانة.

ألتنبلي (هيلمند مارشال)

المندوب السامي

(١) المتطرفون: مُصطلح يُطلق على كل من يُطالب بالاستقلال التام أسرة بشمد زغلول وأعضاء الرفد... أما المُعتدلون فهم من يؤمنون بوجود إنجلترا كحامٍ للبلاد لكنهم يطالبون ببعض الحقوق المعقولة وهو ما يسمى بالاستقلال الذاتي.

سري.. نمرة ٢٤

القاهرة في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٩

سعادة سعد باشا زغلول

- الشعب متلهج جداً بما يراه يومياً من نكسف الإنجليز واستهتارهم بمطالب المصريين الحقّة واستهتارهم أيضاً بأرواحنا.. الجيوش الإنجليزية تطلق الرصاص بلا حساب وبلا مبالاة ولا يعلم إلا الله نتيجة هذه المأساة فنسأل الله الخلاص.. لكن ما يميزنا هو أن الروح الوطنية هائلة جداً ومتماسكة.

- استقال أمس «محمد سعيد باشا» من رئاسة الوزراء اعتراضاً على حضور لجنة «ملتر» الإنجليزية إلى مصر للتحقيق في الحوادث الأخيرة منذ نفى الوفد إلى مالطة، في محاولة لإدانة المصريين وتغليظ العقوبات عليهم وتضيق الأحكام العرفية.

- وقد أعد «محمد سعيد باشا» بياناً للسلطان فحواه أنه لا يقبل بوجود تلك اللجنة في ظل الظروف المضطربة التي تعانيها البلاد، وأن وجودها للتحقيق سيزيد من حالة الاضطراب ويهيج المصريين مما لا يدع مجالاً للمساعدة في التهدئة.. وطلب الإعفاء من منصبه.

- تم الاتفاق على تعيين «يوسف وهبة باشا» خلفاً له.. استياء شديد في صفوف الأقباط والبطريركية الأرثوذكسية بسبب قبوله المنصب في هذه الظروف وتم إصدار بيان إدانة ضده.

- نعتقد أن السبب الرئيسي لتعيين قبطي هو بث الفتنة بين عنصري الأمة الأصليين وبلد النفور، لذا أجمعنا كلمتنا على إسناد منصب وكيل الوفد الشاغر - لظروف اعتقال الكبل الحالي - إلى قبطي أيضاً لنرد كيد الإنجليز إلى نحورهم ونعلمهم أن مصر للجميع.

عبد الرحمن طهسي

القاهرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩

رقم «٤٠٦»... «عاجل»

من الجنرال سير أ. ه. ألفني إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية

- قُتل اليوم الكابتن «صمويل كوهين» من ضباط الجيش بوحدة العمال
بجوار مستشفى شبرا وتمكن المنفذون من الهرب.

ألفني (هيلد مارشال)

المندوب السامي



سري.. نمرة ٣٥

القاهرة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٩

سعادة سعد باشا زغلول

- أطلق الرصاص اليوم على خمسة جنود بريطانيين بجوار مصلحة
السكك الحديدية بالقاهرة.. أصيب أحد الجنود إصابة خطيرة
وفر الفاعلون.. وفي نفس اليوم قُتل ثلاثة ضباط بريطانيين بجوار
قنصل القنصلية.

- نرجو التعميل بتوفير المبالغ اللازمة للأعمال السرية.. فقد صرفت من
جيبى الشخصي أكثر من ١٤٣ جنيهًا في فترة لا تتعدى شهرين.. هناك
صعوبة في طلب المزيد من أموال التبرعات لأن أمين الخزنة بطالبي
بإبصالات دفع موقعة من سعادتك شخصيًا!

عبد الرحمن فهمي

القاهرة في ٢ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ. ه. ألكسبي إلى إيرل كيرزون وزير
الخارجية.. رقم «٤١٨».. «عاجل»

- قُتل ضابطان بريطانيان بجوار محطة كوبري الليمون بالقاهرة.. هرب
الفاعلون.. الاغتيالات تتطور تطوراً سريعاً مع ملاحظة أنها تقتل
ضباطنا وتكتفي بإرهاب المصريين المتعاونين!

ألكسبي (هيلد مارشال)

المنذوب السامي

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ. ه. ألتنبي إلى إيرل كيرزون وزير
الخارجية.. رقم «٤١٩».. «عاجل»

- وصلت لجنة «ملتر» إلى القاهرة ولم يعلن عنها في الجرائد إلا يوم
الوصول تحسباً للاضطرابات، تم تسكينها في فندق سمبراميس مع
حراسة مشددة.

- أصدرت أوامري للحكومة المصرية والدواوين بتحضير ملفات
الحوادث المصرية وشهادات الشهود من تاريخ ٨ مارس الماضي حتى
الآن وتم تجهيز مكتب بوزارة المواصلات لتسهيل عمل اللجنة.

- تزامن وصول اللجنة مع وصول رسائل تهديد بالقتل للوزراء المصريين
وبعض المسئولين ذوي الشأن، عثر كل وزير على مكتبه أو في البريد
الخاص على رسالة ملخصها أن التعاون مع اللجنة والاستمرار في
المنصب سيعرض حياة الشخص المعني للخطر، والإبقاء منظمة
«اليد السوداء».

- تم اتخاذ اللازم من تدابير أمنية مشددة وجارٍ التحقيق مع الموظفين
المرافقين للوزراء.

ألتنبي (هلهل مارشال)
المندوب السامي

نمرة ١٥

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩

أرجو الالتزام فيما يخص لجنة «ملتر» بالمقاطعة وعدم التعاون أو إبداء طلبات، والتمسك بالمفارضات مع الولد فقط.

سعد زغلول باشا



القاهرة في ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ. ه. ألفنبي إلى إيرول كيرزون وزير الخارجية.. رقم ٤٣٦ «عاجل»

- في الساعة المباشرة والنصف من صباح اليوم ألقى قبلي قنبلتين على رئيس الوزراء «يوسف وهبة باشا» أثناء سير موكبه ولكنه انعطأ.. ثم القبض على الفاعل واسمه «عريان يوسف سعد».. اعترف بجريمته بلامبالاة وجار التحقيق معه بسجن الاستئناف للوقوف على باقي أعضاء المنظمة الإرهابية.

- صرح المنهم بأنه قصد اغتيال رئيس الوزراء لأنه مسيحي مثله كيلا تستغل بريطانيا الحادثة لإشعال الفتنة بين المسلمين والأقباط.. ونبحث مع السلطان الحكم الراوع لأمثاله.

- أعضاء لجنة ملتر يواجهون مشكلة حقيقية في التواصل، سادت المقاطعة بين المصريين الذين يرفضون الحديث أو التعاون ويجيبون على أسئلة أعضاء اللجنة دائمًا بعبارة مستفزة: «أسأل سعد زغلول»!

ألفنبي (فيلد مارشال)

المنذوب السامي

سري

٨ يناير سنة ١٩٢٠

من الجنرال سيمر أ. هـ. ألتنبلي إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية.. رقم «٤٦٦»

- ردًا على الاستفسار الخاص بالمنظمة المتطرفة التي تستهدف ضباطنا والمسؤولين المصريين.. فإن منفذي الانفجارين الآخرين اللذين تم إلقاء القبض عليهما مؤخرًا اعترفوا - بعد ضغط - بأسماء تم التحقق من أن بعضها غير حقيقي وبعضها لم يستدل على مكانه مثل «سيد الباشا وأحمد كيرة وعبد الحكيم محمود».. وجرّ البحث عنهم.

- وبالتعاون مع مكتب الخدمات السرية تبين أن منظمة «اليد السوداء» المتطرفة تتكون من خلايا عنقودية منفصلة / متصلة لا يعرف فيها الفرد سوى الشخص الوحيد القائم بالتكليف وإصدار الأمر.. وغالبًا يكون اسمه مُحرّفًا.. نجحوا في شهرين فقط في قتل سبعة وعشرين جنديًا من جيشنا.

- نرجو إحكام السيطرة على مُراسلات «سعد زغلول» فإن الشك قائم بضمّوّه في التحريض على التطرف.

ألتنبلي (هيلد مارشال)
المندوب السامي

سري.. نصره ٨٦

القاهرة في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- هناك شخصان سيجومان في الفترة القادمة حول أعضاء الوفد لادعاء المساعدة في العمل الوطني، إنما لم يأتيا إلا للتجسس لصالح الإنجليز فأرجو الحذر... ملحوظة: مُرفق صورتهم وبياناتهما.
- نشط قلم المطبوعات نشاطاً زائداً في مراقبة الجرائد والتضييق عليها، فهو يستدعي أصحاب الجرائد ويهددهم بالقتل إن لم يمثلوا في لهجتهم ويحذرهم من التمرض للحالة العامة ووضع الحماية وأخبار الوفد.
- النقدية المتاحة على وشك النفاد لتضييق السلطة الإنجليزية على جمع التبرعات... أرجو مخاطبة الأمة في خطابكم القادم حول أهمية مساعدة الوفد.
- ألقى مجهول قنبلة على سبّارة إسماعيل سرّي باشا وزير الأشغال في منطقة المنيرة.. لم تتم إصابته.

عبد الرحمن شهامي

أبشاق الغزال .. مَرَكز بَنِي مَزار.. المِنيا

بمرور الأيام لم يعد لأم ياسين شَاغِل سوى مُتَابعة من أرسلوه لها
بَدَلًا من ابنها، خيال المآنة الذي فاق خيالات الغيطان صَمْتًا وموتًا،
طَائِفَ يَجُول بِبُطء قُرْب الشَّرْع وأطراف الحقول ثم يَجْلِس فلا يُحَرِّك
الهواء فيه سوى الجَلباب، صُورته وَسَط أهل البلد الصَّغِير بدأت تدنو
من صُورة المَجْدُوب لولا مَكَانَة آل فهمي بينهم وهيبة رُجوعه الأليم
من الحرب الكُبرى، مَتَبُوءة تخافه الأَمْهَات على أبنائها، وغريب ينزوي
عنه رفاق ما عادوا يَعْرِفُونه، لا يَمْشِي إِلَّا وتبعه أُمُّه على مَسَافَة، تُراقِب
سلوكه الغريب منذ عاد، تَكَلِّمه فلا تسمع منه سوى كَلِمَات مُشْتَتَة،
ترجوه الزَواج من خَلِيلَات العَاقِلَة أو بنات الجيران فيأبى إِبَاء الرهبان،
أو العَجِزَة! نَسأل الأولياء في أَضْرَحَتهم: «هل خَصَّوه الكُفْرَة المَلَاعِين؟
هل بَدَّلوه؟ هل لَبَسَه عِفْرِيَت جِثْم على صَدْره ولف خَطْمه على قلبه لِيَمْنَعه
من الزَواج؟»، مَلَأَت البَيْت بِغُورًا في حَضْرته وصَنَعَتْ لَهُ حِجَابًا رَفَضَ
أَنْ يُعَلِّقَه فَعَيَّطَتْه فِي جَلْبَابِهِ سَرًّا، ابْتَهَلَتْ وَنَضْرَعَتْ إِلَى اللَّهِ: «فَلْتُحْيِي
يَاسِينَ وَلَدِي الَّذِي أَعْرِفُه.. أَوْ لِيَمُتْ كَرِيم السِيرَة كَمَا ظَنَنْت لَسَنِينَ أَنَّهُ مَاتَ».

هكذا ظل الحَال يَسِير من سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأ.. يَزِيدُهَا انْظِرَاؤُه كَرَبًا عَلَى
كَرْب.. حَتَّى أَتَى يَوْم غَفَلَتْ عَنْهُ دَقَائِقُ فَاخْتَفَى.. لَمَّا قَارَبَت الشَّمْسُ
الْمَغِيبَ وَلَمْ يَعُدْ اسْتَعْلَتْ قَلْقًا.. خَرَجَتْ تَبْحَث عَنْهُ بَيْنَ الْحَقُول فِي

رعة تتزايد حتى سَمعت جلبة في أرض ليست بأرضه.. أرض وقف
محبها على مسافة منه يراقبونه بخذر.. ما إن رآوها حتى أكبروها
طلبوا العون على إخراجهم بسلام.. نظرت إلى بكرها بقلب يحترق
سم اقتربت.. كان الأخير فارحاً ساقه وبهجة لم تعدها منذ عاد يرفع
أمه ويرشفه في الأرض حفراً.. رُكبناه كانتا تحت مستوى السطح..
دت فلم يستجب.. منهما لم ينتبه.. يتمتم بكلمات مُترسلة.. يُكلم
مخصاً يرقد في الحفرة التي تَتَّسِع بين قدميه.

- ياسين.. ياسين!!

نادته بعدة حين بانت على بُعد أمتار منه فبتر حركته وتوقف.. رفع
أسه ونظر إليها بهدوء ثم ابتسم ابتسامة عصبية.

- بتعمل إيه في أرض وهدان يا ياسين؟ سألته.

أجابها بعد دقيقة: أصل عَطِيَّة ابن أبو وهدان كان... كان إصير على
وجه... جَبَل ما الرصاصة تصيبه.

اقترب أهل الأرض مُنتبهين حين مرَّ ذُكر الرصاصة بأذانهم..
نصنين لاسم ابن لهم ذهب مع ياسين ولم يعد.

- وأنت سُلمت فين عَطِيَّة ابن أبو وهدان يا ياسين.. مِش جُولت
يا ابني إِنْك فارجت وركبت الجطر؟

سألته أمه فرفع فأسه وضرب ضربتين في الحفرة ثم توقف.. نظر لها
للناس بعينين متحجرتين ثم أردف:

- لازم أغسله.. ما يصحش يجابل ربنا بجلابية نجسة.

خَرَجَ وَالِدَ عَطِيَّةَ مِنَ الْجَمْعِ وَاقْتَرَبَ مِنْ يَاسِينَ : أَنْتَ تُسَفِّتُهُ يَا ابْنِي ؟
شَفَتَ عَطِيَّةَ ؟ عَطِيَّةَ انْطَخَ ؟ اللَّهُ لَا يَسِيئُكَ انْطَجَ .

- يَاسِينَ .. رُدْ يَا وَلَدِي ... أَنْتَ جَابِلْتَ عَطِيَّةَ ؟

سَقَطَ الْفَأْسُ مِنْ يَدِ يَاسِينَ فِي الْحُفْرَةِ .. أَخَذَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ثُمَّ رَفَعَ كَفَّيْهِ
وَتَأَمَّلَهُمَا كَأَنَّهُمَا نَبْتَا اللَّتَوِ مِنْ ذِرَاعِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْحُفْرَةِ وَسَطَ
ذَهُولِ أَصْحَابِ الْأَرْضِ وَالْأَبِ الْمَكْلُومِ .. بِهَدْوٍ سَارٍ خَارِجًا مِنَ الْغَيْطِ
مَتَمَتًا فِي سِرِّهِ :

أَوَّلُ وَاحِدٍ كَانَ شَمْبَانِ بْنِ مَمْوُضَ الْبَجَالِ .. تَانِي وَاحِدٌ كَانَ عَطِيَّةَ بْنِ
أَبُو وَهْدَانَ .. نَالَتْ وَاحِدٌ كَانَ هَوِيضَةُ ابْنِ مَرْعِي " .

لَمْ تَمَالِكِ الْأُمُّ نَفْسَهَا .. وَضَعَتْ كَفَّيْهَا عَلَى فَمِهَا تَمْنَعُهُ مِنَ الصُّرَاخِ
وَوَاسَتْ صَاحِبَ الْأَرْضِ بِدُمُوعٍ وَدَعَاوَاتٍ قَبْلَ أَنْ تَجْرِيَ مُحَاوَلَةَ
الْلِّحَاقِ بِيَاسِينَ .





الأربعاء ١١ فبراير سنة ١٩٢٠

«أمر كريم إلى رئيس الحكومة»

«حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء»

المنة لله وحده، بما أنه في الساعة العاشرة والنصف من مساء
الأربعاء المبارك الموافق ١١ فبراير سنة ١٩٢٠، قد من الله
علينا بولد ذكر أسميناه «فاروق»، فقد استصوب لدينا لإصدار
أمرنا لدولتكم، إحاطة لعلم هيئة حكومتنا بهذا النبأ السعيد،
وتعميم نشره في جميع أرجاء القطر، وأنه أسأل الله القدير
المنان أن يجعل هذا الميلاد مقروناً باليمن والإسعاد للبلاد
والعباد من فضله وكرمه.

امضاء



كافيه «ريش»

جو القبو كان حارًا خانقًا، لا شأن له بموجة البرد التي اجتاحت البلاد منذ بداية فبراير، جلس إسحاق على كُرسيه العالي أمام منضدة ينظف خزانات مُسدسات إنجليزية ويحشوها.. غَنيمة آخر عملية وزاد للعمليات القادمة.. فيما استقر عبد القادر على كرسي قصير يهز قدميه في رَتابة وينقر بيديه المنضدة في ملل:

- هو عريان يوسف سعد اللي ضرب رئيس الوزارة ده تبعنا؟ إيد سودا برضه؟

- ما أعرفش.

- يا عم إسحاق! ده أنتو نصارى زي بعض؟

نظر إسحاق للسقف وزفر في يأس: والإنجليز كمان نصارى.. قلت لك ما أعرفوش.

- مش مآمن لي أنت!

لم يعره اهتمامًا فأردف عبد القادر:

- طب واللي رمى قنبلة على وزير الأشغال في المُنبرة؟

- ما أعرفوش.

- هو إيه أصله ده؟

- كل حاجة بتتعرف بمعاد.

- يا مقدّس إسحاق أنا من يوم ما جيت وأنت بتقول الكلام ده!

- أنا لسة ما قدّستش.. ناولني الفرشة.

ناوله عبد القادر فرشة رفيعة دسّها إسحاق في فوهة العسّس لتنظيفه.. استطرد عبد القادر:

- هو فيه عملية جاية؟

- المسدّسات لازم تبقى نظيفة حتى لو مفيش عملية.. واسكت شوية عشان أركز.

زفر عبد القادر ثم قام من مكانه وأشعل سيجارة.

- الأرضة مكتومة.. اطلع اشرب سيجارتك برّة.

خبط عبد القادر الباب مُستاء حائقًا وخرج إلى الصالة.. جلس إلى البار وطلب كأسًا وهو يستعرض ثمانية أشهر قضاها في ذلك المكان.. نائمًا في قبو فوق مطبعة وفي يده مسدّس.. ثمانية أشهر يستمع لأغاني الصبر من الفتى محمد عبد الوهاب ولم يقتنع.. ثمانية أشهر تم فيها تنفيذ أكثر من عملية ولم يُشارك في أي منها.. كانت الحجة دائمًا إدمانه الكوكايين.. «أنت لست متزنًا.. الأمر لا يحتاج لقوة بل هدوء أعصاب لا تملكه، وتهور تعلى به عينك حين تستنشق البودرة البيضاء.. الآن وقد استشفى منه لا زالت مشاركته مؤجلة! اللعنة على أحمد ويده السوداء.. المتأثّق يُصبره بحجج مائعة ويقطّره عم إسحاق بكلمات

مُبهمَة وحكم بائدة عن الصبر.. شعور قاتل أن يقضي وقته في جِراسة
مجموعة ساكنة لا تتكلم.. مُمرضة مُسننة ويقطي يجيب أسئلته بقطارة..
وصعبيديّة! تسقيه نازًا.. تتجاهله.. تتحاشاه.. نافرة منه بلا سبب كفرس
بري.. الرفض! شعور مُهين لم يجربّه من قبل.. فقد الإلحاح يسحره
عند أهديها.. ولم يفلح استعراض العضلات معها.. حتى لحن
الكلمات لم يفد والتجاهل لم يثنها أو يرقّق لها قلبًا.. منبِعة دولت..
حصينة كقلعة في جزيرة.. باردة صلبة.. وخميلة.. لونها ضرب من
الجنون.. عينها بحر رائق لا يهزّه موج.. ورفضها... لا يزيده إلا شغفًا
واهتمامًا.. وولعًا.. حتّى بهية القعر تلميذة بنة وما لنصفها التحتاني من
تأثير خاص عليه؛ بطل سحرها.. لم تعد تُغريه أن يقربها.. كل النسوة
بتن فواكه معطوبة فقدت طعمها.. مُقارنة بدولت.

لم ينتشله من جزّات أسنانه سوى أحمد الذي دخل الكافيه.. أشار
إليه بعينيّه فتبعه.. في القبور ارتقى أحمد على كرسي وفي يده جريدة
فتحتها ليطلع ما فيها باهتمام.. أشعل عبد القادر سيجارة رغم نظرات
عم إسحاق.. كمحظات لم يستطع فيها كبح عصبيته.. انفجر بغتة:

- أنا مش هاكمل اللعبة السوداء دي.. شوفوا لكم خد يُحرس
المكان؛ دي شغلانة عيّل صُغِير.. أنا وافقت آجي هنا عشان
أشتغل.. وبطلت البودرة عشان أشتغل.. ونمت أرديحي في
التربة دي باحُرْس المطبعة عشان أننيل أشتغل.. مش كلام ده..
أنا مش صغير عشان أشوف عيال قِلّة تروح تنفذ عمليات وأنا
قاعد هنا في دار مُسنين.

رماه إسحاق بنظرة ضيق ثم عاد لعمله فأردف عبد القادر. والنبى
يا عم إسحاق ما تبص لي كده أنت بالذات.. أنت بتنفطني بالكلام أكنّى

مش فاهم حاجة.. أنا أبو المفهومية.. وأبويا اتقتل عشان البلد دي..
يعني تصحوا كده وتشوفوا حل في الموضوع ده أحسن يمين الله...

قاطعہ أحمد بدون أن يرفع عينيه عن الجريدة: مش أنت الوحيد
اللي مات له حد عشان البلد.. إذا كنت محتاج العملية دي عشان
تنصف سيرتك وسط أهلك يبقى أنت جيت للمكان الغلط.

ترك أحمد كلماته تخترق صدر عبد القادر قبل أن يُردف:

- أنا مأخر مُشاركك لغاية دلوقت عشان ما ينفش تنفيذ عملية بدافع
الانتقام.. اللي بنعمله ده بنعمله عشان البلد.. الاستقلال.. الانتقام
لوحده هايحولك لوحش.. إحنا محتاجين ذكاء مش عضلات.

حدّجه عبد القادر بغضب وشهيق متحفّز.. أغمض عَينيه وألقى
برأسه إلى ظهر الكرسي محاولاً استيعاب السؤال المفاجئ.. ساد
الصمت للحظات قبل أن يعتدل وينظر في وجه أحمد: مفهوم.

- مَحْمَد شفيق باشا.

- نعم!

- وزير الزراعة.

- ماله؟

- هانفذ فيه عملية بعد أيام.

أخَرَسَت الكلمات عبد القادر.. ظل يحدّق في أحمد غير مستوعب
فأردف عم إسحاق:

- مالك؟ اتخرست يعني لَمَّا جه سُغل!

.. ما اتخرستش ولا حاجة... قَدْهَا وقُدود إن شاء الله.

أغلق أحمد الجريدة يحنق استشعره عم إسحاق الذي التقطها وفتحها ليقراً فيها خبر ولادة ولي العهد.. ابن نازلي.. أدرك ما يضطرم في نفس زميل الكفاح فطوى الجريدة يأسى ونظر لأحمد الذي تحجّرت عيناه ثم قام وواجه عبد القادر.

تلاحقت أنفاس عبد القادر وانتفخ أنفه نهيجاً: خَلَّيْهَا على الله.
أردف أحمد:

- من بكرة هانبدأ التدريب.. نام بدوي وتتقابل بعد الفجر في الغابة المتحجرة في المقطم.. دلوقتي سييني شوية مع عم إسحاق عشان عندنا شغل.. لو حد جه من المجموعة خليه يستنى برة لغاية ما أخرج.

كأنما أنفاسه خرج عبد القادر من القبو بعدما تلقى دعوة إلى القبر.. في الشارع أمام الكافيه أشعل سيجارة بيد لأول مرة ترعش.. أحكم كوفيشه ودَعَكَ يديه تثبيتاً ثم مسب نفسه مرة قبل أن يسب الإنجليز مرّات.. تطلع إلى الشارع كأنه يراه لأول مرة.. دقائق وانتشله مَجِيء دولت.. تباطأت خطواتها حين اقتربت منه.. كان عليه أن يؤمّن طريق دخولها.. نظر إليها بقلق لم تعهده فيه.. لم يقترب منها كما كان يفعل.. لم يتصنّع جسده الحركات ليجذبها.. لأوّل مرة تلمح في عينيه الحاجة إلى صديق لا الشوق والهيام.. اقتربت.

- فيه حد جوّة؟ سألته.

- عم إسحاق وأحمد.. بيتكلموا في شغل.. استني لما يخرج.

لاحظت أصابعه التي تمسك السيجارة.. ترتعش وهي تقترب من فمه.

- أنت عيان؟

هز رأسه نفيًا.

- إيدك بتترعش.

- خليكى جوة عشان البرد.

- أنا مش بردانة...

قالتها فساد الصمت.. لاحظت نظراته للشارع والمارة بشرود.

ته: حصل حاجة أنا ما أعرفهاش؟

لم يرفع عينيه عن الشارع.. زفر دخانًا واضطرابًا وجوعًا لحياة قديمة

ت: الدنيا صغيرة أوي.. الواحد بيتهيا له في لحظة إنه فاهمها.. وفي

ثلة... يكتشف إنه مش فاهم حاجة خالص!

- أنا مش فاهمة!

- ولا أنا.

- ... !!

- ما تزعلش مني إذا كنت ضايقتك قبل كده.

- ... !! له بتقول الكلام ده؟

- أهه... ما تزعلش وخلاص.. أنا عمري ما كنت بعاكسك..

أنا فعلاً كان نفسي...

؟؟...

- كان نفسي أتعرف عليك في ظروف أحسن من كده... استني أحمد لما يخرج وبعدن ادخلي.

قالها وعبر الشارع.. دس يديه في جيبه ومد خطواته مُبتعدًا يداري عيين ررقهما الدمع.. ظَلَّت تتابعه في حيرة وتستعيد كلماته حتى اختفى.

في الغرفة انتهى إسحاق من تنظيف المسدسات وتزويدها بالرصاص وهو يتأمل أحمد الغارق في أفكاره شاردًا تُدير أنامله رصاصة بحركة سريعة منتظمة وهو يطالع باهتمام جريدة «المسلة» الساخرة التي يُحررها «بيرم التونسي».. سأله إسحاق:

- فيه إيه؟

- نظر له أحمد قبل أن يطوي الجريدة ويناولها له.. قرأ إسحاق أربعة أبيات كتبها بيرم التونسي نكايه في ولادة فاروق ابن فؤاد ونازلي:

الوزة من قبل الفرح مدبوحة والعطفة من قبل النظام مفتوحة
ولما جت تتجوز المفضوحة قلت استكتوا خلوا البنات تنسخر

عقب إسحاق: بيرم ده مش هايحييها لبر لغاية ما مكتب الخدمات ينشوه.. هو ماله ومال إن السلطانة خلفت بعد سبع ولأتمن شهور! ما فيه ابن ستة وسبعة.. إوعى يكون ابنك يا نمس؟

لم تُضحك الدعابة أحمد.. أردف إسحاق: بزيادة يا ابني.. كنت متخيل إيه؟ هاتختفي من حياتك زي دخان السجارة؟
لم يُعجبه.. تنفس بعمق وأغمض عينيه.

- انسأها يا أأمد.. واحة وراحت لآال سبببها.

- نسببها.

- نكذب على عمك إسأاق!

- أنا بقبب أكره البرايد.. عشان ما أشوفش اسمها.

- لو بآحبها اديها عذرها.. الملك له آآكماته.

- اديها عذرها؟ دي باعآني يا عم إسأاق!

- ويا آرى كآآ هاآآكبببها عن آبانك؟

سقطآ الرصاصة من ببب بآى أأمد على الأرض.. نظر إسأاق
عنبه وهز رأسه:

- لأ طبآ.. كآآ هاآفضل طول الوقت منآوزة واءآ آانبب.. فوق

يا أأمد.. أنآ آببب.. واعمبب.. آآبأ لك إنهاب ممكن آبآبب

معاك الأوضة هنا ونطبع منشورات.. نبات معاك ببسبون

وآاكل أآ آاجة عشان نأاطرآ.. آآزل معاك مآآاآرات ونشبب

علم.. ما قآآرآش المسافآآ صآ.. ركبآ بربمو وآآآركآ آرسو

فبب آرماي مش رابآ آارآك اللبب آولآآ فبباب.. وبمكن بكون

ماعآآش آآآرة أصلاً.

- بب كمان آبببببب.

- بب كمان ما قآآرآش المسافآآ.. لغابة ما آآه السلطان.. فآآآ

فبب نبسباب.. انسأابا.. ركز فبب آربفك اللبب آآآآه.

سكتا.. طرق الصمت أذنيهما حتى قطعه أحمد بزفرة حارة؛ أنا تعبان
يا عم إسحاق.

- فيه يا بني شعرة بين النسيان والغفران.

- مش قادر أغفر.

- يبقى الانتقام هايحولك لوحش.. أنت اللي لسة قايل.. انساها
يا ابني عشان تعيش.

هز أحمد رأسه ثم التقط الرصاصة من الأرض وقام.. دسها في
خزانة المسدس وشد الأجزاء وصوب في الفراغ.. في وجه لا يريد أن
يُمحى.. ثم أنزل الفوهة وأدار المسدس ليناولهُ لإسحاق ثم خرج.



هابة المتحجرة.. جبل المقطم

بل الشروق بدقائق

الشعاع الأبيض المُشرب بؤرة السماء رَسَم على الأرض ظلالاً
بهمة تتحرك ببطء، أغصان وجذوع مُتناثرة تحجرت منذ ملايين
سنين في الوادي، صنعت طرقاً وحواجز ومغارات، تخلل الرياح
مَسافات بينها فتحدث صَفيراً وسط ضباب يهيم قرب الأرض ليخفي
بسف السيقان.

وقف عبد القادر متدنّراً بمعطف وكوفية وفوق رأسه كاسكيت
سوف لم يغنيه من برد، أطراف أنفه وأذنيه تكاد تقع من الصقيع، عانى
شغل سيجارة وسط الريح وسبَّ أحمد كبيرة في سرّه ثلاث مرات قبل
أن يظهر الأخير، مُرتدياً زي صعيدي ملتحقاً بشال أخفى نصف وجهه
بحمل في يده مشنة فوقها منديل، بلا كلمة تأمل المكان من حوله
منتكشفاً قبل أن يكشف وجهه ويقترب.

.. مالتقيتم غير الحنة دي نتقابل فيها.. أنا نشفت م البرد.

لم يجبه أحمد.. انشغل بإخراج منديل محللوي كبير من جيبه..
حبه وأخرج منه عدّة صور تاولها لعبد القادر.. صوراً ملتقطة في
سوارع لرجال غلاظ يرتدون السترات فوق جلابيبهم وفوق رؤوسهم
رابيش مستقيمة ملقاة إلى الخلف.

- مين دول؟

- دي صور المخبرين اللي ممكن تقابلهم يوم التنفيذ.. عاوزك تحفظهم كويس عشان لو قرب حد فيهم أو اشتبه فيك قبل وصول الهدف هاتلغي العملية.. حطهم في جييك.. تحفظ أشكالهم كويس وترجعهم لي ثاني.

دسهم عبد القادر في جيبه بعدما قلبهم سريعًا حين أخرج أحمد من سيالته مسدسًا.. أخرج ساقته وأدارها ليضمن على سبع رصاصات تببت بداخلها قبل أن يُغلقها ويُمسك المسدس من ماسورته ويناوله لعبد القادر.

- قلت لي إنك بتعرف تضرب نار؟

- كان معايا رشاش «ماديس» ألماني.

- المسدس حاجة ثانية.. محتاج قرار صبح لأن طلقاته محدودة.

جذب عبد القادر إبرة الضرب وصوب على زجاجة بييرة فارغة وقرينة نسيًا.. وأطلق طلقتين.. أصابتها الرصاصة الثانية فتناثرت شظاياها بدوي مزعج.. نظر لأحمد في سخرية فالتقط أحمد منه المسدس وصوبه إلى عُصن رفيع متحجر يبعد عنهم مسافة كبيرة.. جذب الزناد وأطلق فأصابه قبل أن يُعطي المسدس لعبد القادر.

- هاتحتاج شوية تمرينات عشان المُسدس خفيف عليك.

- هو أنا هانفذ العملية بالمسدس؟

- لا.. بالقبيلة.

- آمال إيه لازمة المسدس؟

- يعني .. يمكن تعرف تهرب.

ابتلع عبد القادر ريقه فجلس أحمد على صخرة وأشعل سيجارة فيما
نا عبد القادر التصويب على أهداف من الشجر المتحجر .. بعد عشر
صاصات وإرشادات من أحمد تركزت في طريقة الإمساك الصحيحة
للمسدس وتنظيم النفس تمكن من إصابة أهداف بعيدة نسبياً قبل أن
يقنه أحمد بعض التعليمات بشأن زر الأمان وإخفاء المسدس وطريقة
تجه أجزائه والتخلص منه في حالة التتبع .. حين انتهيا دس أحمد يده
حت منديل المشنة والتقط عبوة أسطوانية متوسطة الحجم .. ناولها
بهد القادر:

- دي عروستك.

!!....

نظر عبد القادر للعبوة بروع فأردف أحمد:

- لو خفت منها مش هاتعرف تستخدمها.

بحذر التقطها عبد القادر من يده .. وزنها .. تأملها كما يتأمل المرء
نبيل مشنقته أو رصاصة أخيرة في مسدس انتحاره.

- هاحس بحاجة؟ سأل عبد القادر.

- القنابل دي بتنفجر قبل ما توصل الأرض .. قبل ما تستوعب
هاتكون في عالم ثاني.

.... -

- لَسَّةُ القرار في إيدك!

- أنا مش متردد.

التقطها أحمد من يده بحذر وابتعد خطوات قليلة إلى سفح منحدر
يطل على واد صخري متوسط العمق.

- ركّز كويس.. عشان تخلط المحاليل جوة العبوة لازم نشد الحبل
ده الأول.

وأشار بيده إلى دوبارة غليظة تتدلى من منتصف القبلة.

- لما تشد، السوايل بنخلط.. أنت كده في مرحلة الخطر.. أي رجّة
غير محسوبة هاتنفجر فيك.. سنة خمستاشر شاركت زميل لبّا في
رمي قبلة على السلطان حسين كامل.. كنا بنجرّب القنابل هنا
في القابة برضه.. وفي يوم اتأخر لحظة في رمي قبلة.. انفجرت
بدري.. شظية منها قطعت صباعه ده.

وأشار لإبهامه ثم أشار إلى صدغه: وعملت لي الجرح ده.

ابتلع عبد القادر ريقه: وصاحبك ده مات؟

- لا عايش.. مسجون مؤبد في سجن طره.. راجل.. عذبوه رفض
يعترف عليا.. المهم.. زميتك لازم تكون هادية.. استعمل نقل
القبلة في إنك تمرّجها مرة وترميها على المكان اللي هايكون
فيه الأوتومبيل بعد ثوانٍ.. لاحظ إن الموكب ييمشي بسرعة ستين
كيلو في الساعة على الأقل.. يعني لازم توصل العبوة في نفس
وقت مرور الأوتومبيل.

وضع أحمد القنبلة بجرح على الأرض ثم التقط حجراً أرجحه في
هواء مرة قبل أن يرفعه عاليًا مُستقلًا ثقلاً ويطلقه من يده ليسقط على
بد عشرة أمتار منه .

- فهمت ؟

- فهمت .

- داري روحك ورا الجذع اللي هنالك ده وركز معايا .

ابتعد عبد القادر قبل أن يستتر أحمد خلف صخرة كانت يومًا
حجرة .. تابعه عبد القادر وهو يجذب الدوبارة الغليظة قبل أن يرجع
.. في الهواء بالعبوة فيلقبها عاليًا ويحني رأسه .. قبل أن تلمس الوادي
شئ واحد انفجرت مُحدثه دويًا شديدًا وصدى ضرب سفح الجبل
تردد في الفراغ .. ساد الدخان الخائق للحظات قبل أن تبدد الريح ..
ترجا من سائرهما يسمعان طينًا يصم الأذان .. طل عبد القادر على
مكان الانفجار فرأى حفرة حديثة تنصاعد منها الأدخنة .. بهدوء سأله
حمد: تجرّب ؟ هز عبد القادر رأسه موافقة دون أن ينبس بكلمة .. ناوله
حمد عبوة أخرجهها بعناية من الحقيبة .. التقطها عبد القادر في حذر
لم تبارحها عيناه .. أشار أحمد إلى الدوبارة الغليظة ثم ابتعد في هدوء
أشعل سيجارة قبل أن يستتر خلف شجرة .. لحظات ووقف عبد القادر
نلف الصخرة .. نظر لأحمد الذي ابتسم وهز رأسه محثًا إياه أن يلقبها ..
سحب عبد القادر نفسًا إلى صدره ثم جذب الدوبارة بحذر وأرجح يده
م طوّح القنبلة في الهواء بصرخة عصبية وارتدى على الأرض بسرعة
تاميًا رأسه بيديه .. لم يحدث انفجار .. ظل على هذه الوضعية لدقيقة
أمللة حابسًا أنفاسه حتى لكزه أحمد بمقدمة خذائه :

- قوم.

- ما انفجرتش!!

- لأن فيها مِة.

وقف عبد القادر يحذر ونظر للعبوة التي نثرت المياه حولها قبل أن ينظر لأحمد بغضب: هو إيه أصله ده؟

- بقول لك صديق ليا طار صُباعه في غلطة.. أقوم أنا وراك قنبلة حقيقية في أول مرة تدريب؟! المرة الجاية ترمي واحدة حقيقية.

قالها أحمد وتركه مُحاولاً السَّيطرة على غَضبه.. التفت بقايا العبوتين ووقف بجلبابه المَكسو بالتراب كفلاح انتهى من بذر أرضه حين اقترب عبد القادر.

- ليه قررت إني أنا اللي اقتل الرجل ده بالذات؟

- عملنا قرعة على اللي يقتله وطلع اسمك.

- بس كده؟!

- بس كده.

- يعني صُدفة؟

- كل القرارات التاريخية مبنية على الصدف.. الحرب نفسها قامت صدفة.

- وليه الراجل ده بالذات؟

- بعد ما رمينا القنبلة على الوزير اللي قبله كش واستقال.. انتهزت الوزارة والإنجليز اتجننوا.. ما حدش قابل يمسك المنصب

في ظل الحماية .. حتى لما السلطان عمل معاش مُستديم مدى الحياة للوزرا عشان يغريهم والإنجليز زودوا الحراسات عليهم .. برضه الناس لسة بترفض .. خايفين .. مسميناً المتطرفين .. يبجي محمد شفيق وسط كل ده ويقبل ثلاث وزارات يباشرهم في وقت واحد .. أشغال وحربية وزراعة!

- يابن الكااااالب .. طب وبالنسبة لي .. لو نَفَدت؟

- من القبلة وحرس الوزير؟ دي القصة الثانية اللي هاندرسها تمام.

التقط أحمد غصناً يابساً ورسم على الرمال دائرة كبيرة.

- إحنا مسحنا المكان واخترنا موقع التنفيذ .. ميدان الضاهر .. عند ناصية الشارع ده مع آخر ترام ١٧ .. ده طريق الهدف من بيته للوزارة كل يوم.

ثم نغز الأرض بنقطة بين مُربعين رسمهما على أطراف الدائرة.

- هاتقف هنما .. بين دكان ماتوسيان بتاع الدخان .. والمراحيض العامة .. عشان تكون مَذاري من اليمين والشمال .. الساعة ثمانية ونص بالظبط بيخرج الوزير من بيته .. تسعة إلا تلت بيكون في الميدان .. هاتكون متنكّر .. حضّرنا لك هدوم سفرجي .. تلبسها فوق هدومك العادية.

- اشمعني سفرجي؟

- هاتفرق معاك؟

- لا.

- سفرجي عشان طيعي إن السفرجية الصبح بينزلوا يشتروا طلبات البيوت.. قبل نص ساعة من وصول الهدف هاي عدي جنبك واحد يسبب لك السبّ ده.. وقبل وصول الوزير بدقيقة هاي عدي قدامك موتوسيكل فيه واحد منّا.. هاي رمي تحت رجلك جُرنا.. ده معناه إن الموكب على بعد لحظات منك وإن الهدف في الأوتومبيل اللي وراه.. أول ما تشوفه ترمي القنبلة.

سكت أحمد للحظات نظر فيها إلى عيتي عبد القادر اللتين لم ترمشا قبل أن يرسم على الرمال أربعة شوارع متفرعة من الميدان.

- لو حرس الوزير ما قدروش عليك - وأشار في الرمال إلى شارع خلف نقطة وقوف عبد القادر - هاتهرب من شارع النزهة.. تجري بأقصى سرعة.. بعد ناصيتين هتلاقي على شمالك خرابة.. ترمي فيها هدومك والمسدس.. هيلقطهم منك زميل هايكون مستيك.. وتمشي بعدها عادي وما تبصش وراك.

- أروح على فين؟

- هاتعرف بعدين.

لاححت ابتسامة على وجه عبد القادر من بين غبار المعركة التي دارت نظرياً أمام عينيه فأمسك أحمد بقدميه وأنزله من سماء الأحلام.

- ده طبعاً لو نجيت من القنبلة ومن الحرس.

اكفهر وجه عبد القادر وكسته الجدلية قبل أن يسأله:

- ولو اتقبض عليا؟

- دي القصة الثالثة.. تحت الضغط طبعاً وارد نتكلم؟

- أنا راجل ابن راجل .

- الإنجليز ما عندهم مش حدود للتعذيب .. إحنا فعليًا مالناش تمن بالنسبة لهم .

- أنا بيعت نفسي للموت .. هاحضن قبيلة وأفف قدام الرصاص وعملتها قبل كده .. مش هاتفرق لو عذبوني .

- هانشوف .. ركز معايا .. لو الوزير عاش .. يبقى أنت حاولت تهدده وتخوفه عشان وافق يقبل الوزارة وخان البلد .. يعني ماكانش فيه نية تقتله .. مفهوم .. وده ممكن يخفف الحكم من إعدام لأشغال شاقة .. افكر .. الاعتراف بنية القتل يعني إعدامك .

- ولو مات ؟

- مش هانقدر نهرب من الإعدام .. وساعتها يبقى نقول إنك قتلت عشان يبقى عبرة للي يمسك الوزارة في فترة الحماية .. ولو ما قدرتش تستحمل التعذيب الورقة دي هتلاقي فيها ثلاث أسماء ممكن تذكرهم .

- أفن ؟!!!

- تفتن إيه ! دي أسماء بعض الخونة اللي عاوزين نتخلص منهم ..

- فهمت .. وأنت هانكون فين ؟

- مش هاسيك لحظة .. فيه حاجة كمان ...

قالها وأخرج من جييبه قرصًا صغيرًا جدًا لونه أبيض مغلفًا لموفان داكن .

- في حالة التعذيب الشديد أو التهديد بالقتل .. ده قرص سيانيد .

- بسم؟

- ثلاثين ثانية بالطبط.. مش هاتلحق تحس بحاجة.

- ما يلزمينش... التنفيذ إمتى؟

- لما القنابل تجهز.

ساد الصمت لحظة فتوقفت الريح احترامًا قبل أن يُردف عبد القادر:

- أحمد... لو مت...

عاجله أحمد: أمك والمحنة كلها هاتعرف دورك يا عبد القادر..
والأهم من ده كله بلدك.. مش هاتروح مدر.

هز عبد القادر رأسه وزفر نفسًا حارًا يحرره التوتر حين ربت أحمد
على كتفه.

- كفاية عليك كده النهاردة.. بكرة نعاين مكان التنفيذ.. وبالليل
عازمك على العشاء.. أهم حاجة تحافظ على هدوء أعصابك.

كان يعرف أن كلماته لا تبث طمأنينة في شخص تقرر مصيره مقدمًا..
الساثرون إلى الموت دائمًا يتبعون الخطوات نفسها.. سيودع النوم
عينيه.. سينظر للشرائع والناس كأنه يراهم لأول مرة.. سستتابه فرحة
مبالغة يتبعها صمت مطلق ووجوم.. سيختم إنجيلا أو قرآنًا أو تورا
ويبتهل في كل لحظة.. أو يطوف ببنات الأرض جميعًا يشرب
من رحيقهن ليخفف روعه.. كل من ودعهم أحمد بعدما أعدهم لم
يخرجوا عن ذلك الخط.. وفي النهاية.. إما إلى سجن.. وإما إلى قبر.

ودائمًا كان القبر أخف وطأة.

بَرْد فبراير أخرج من الأفواه بُخَارًا وأخفى أيدي المَارة في السُّترات،
ان الوقت قرب المَغرب حين وصل أحمد وعبد القادر إلى ميدان
ظاهر، في خُطى متمهِّلة اقتربا من مكان إلقاء العبوة المُحتمل،
ستوعب عبد القادر جغرافيا المكان قبل أن يتمشيا في شارع النزهة
تتو رأيا المخاربة، تمم أحمد على خط السير قبل أن يشقَّا طريقهما تجاه
ر «كافيه إچيبسيان»، كان عبد القادر على مَوعد عشاء على شرف قيامه
لمهمة، طقس يحرص عليه أحمد مع كل روح قبلت التضحية بنفسها
ن أجل الاستقلال، وداع بسيط ورسالة شكر وتقدير من المنظمة إلى
د لا يكاد يعرف من الأعضاء أكثر من أربعة أفراد.

قُرب ناصية شارع المغربي المُطلَّة على ميدان إبراهيم باشا وحين
حرفا ليعبرا الشارع استوقف عبد القادر النداء: عبد القادر أفندي...
تفتت الأخير فوجده... يقف في بقعة مظلمة أمام جدار.. اقترب.. لم
يلح الشال العريض المَكبوس تحت طربوشه غير المُستوي في إخفاء
جبهه المتعجن كشمعة ذابت فوق جذع يابس ولا عينه التي احترقت
ايضُت.. بث النفور في وجه أحمد الذي تفحصه بشك قبل أن يمد
ـ إلى عبد القادر زاحفًا:

ـ عاش مين شافك يا عبد القادر أفندي.

اقتضى الرد من عبد القادر لحظات حاول فيها تخطي بشاعة التشوّه
في وجهه واستحضار كلمات تنهي اللقاء بسرعة:

- أهلاً يا سلامة! بتعمل إيه هنا؟

- درب طياب زبونه شاحج.. بقالي فترة باجي أسحب من هنا.

- الرزق يحب الخفية.. سلم على نسوانك.

- ما اتعرفناش بالأستاذ!

نظر عبد القادر لأحمد الذي أجاب سلامه بلا تردد: فهمي.

- عاشت الأسامي يا فهمي أفندي.. مفيش كده أبداً لطف

ومفهومية.. إحنا لازم نعرف.. تشرفني مرة في البيت.. فرقة

كعب لغاية درب طياب.. محسوبك سلامة النّجس...

باستغراب نطقها أحمد: نجس!!

- عدم اللامؤاخذه اسم اتعرفت بيه من صغري.. شقاوة عيال..

دلوقتي بيقلوا سلامة المحروق...

قاطع عبد القادر فيض التعارف فسحب أحمد من ذراعه:

- يدوبك يا سلامة عشان عندنا مشوار.. سلامو عليكو.

مدّا خطواتهما ابتعاداً.. عبرا الميدان واتجها صوب شارع وش

البركة.. تبعهما سلامة رافعا ذيل جلبابه.. أسرع حتى لحق بهما:

- خدوني معاكم.. كده كده رايح وش البركة.

لم يعرفه عبد القادر انتباهاً ولم يشأ أن يفتعل شجاراً أو ينهره فسلامة

إن كان يجبد في الحياة شيئاً من بعد القوادة فهو التجريس.

بعد بضع خطوات بدأ سلامة في الثثرة، يلغو كيبغاء حبيس، حكى
 هن بنبة التي باتت أكثر عصبية وتحكم، وعن سنية «السودا» التي
 أصابها داء الزهري وكيف سرَّحوها من الخدمة بذكاء قبل أن تحتضر
 أمامهم وتلوث الفراش وسمعة البنسيون، ثم حكى عن السوق من بعد
 الاضطرابات وكيف ابتعد جنود الإنجليز عن درب طياب خوفًا على
 أنفسهم من العمليات الانتقامية التي ينفذها «المتطرفين المخابيل»
 الله يخرب بيت أهاليهم، قبل أن يسأل عبد القادر فجأة عن ورد إن كان
 لمحمها، اكتفى عبد القادر بهزة رأس نافية وكانا قد وصلا إلى البار فترك
 أحمد يتعد عدة خطوات والتفت لسلامة ووضع يده على كتفه:

- سلم على بنبة.

أخرج سلامة من جيبه ورقة صغيرة وسحب عبد القادر خطوتين
 بعيدًا عن أحمد: مش عاوز كوكو؟

- لا أنا خلاص.

دسها سلامة في كفه: دي واجب من عندي.

نظر عبد القادر للورقة التي استقرت في راحته بتردد ثم التفت
 لأحمد الذي وقف أمام البار ينتظر للافئة عليها صورة بديعة مصابني
 قبل أن يرجع لسلامة الذي أردف: النبي قيل الهدية.

- ماشي يا سلامة.. تُشكر.

ربت عبد القادر على كتفه وابنسم مضطربًا وابتعد قبل أن يستدركه
 سلامة: لو.. لو شفتها.. ابقى أدينني خير.

رقع يده فأنكشف نصف وجهه ذائب فامتعض عبد القادر:

- ماشي يا سلامة.. ماشي.

ابتسم سلامة في ودواخفى وجهه ثم عبر الشارع إلى ناصية مقابلة للبار.. استقر ورمى شباكه.

- مين النجس ده؟ وإيه اللي شوّه وشه كده؟

سأل أحمد فأجابه عبد القادر: قصّة طويلة أحكيها لك بعدين.



بعد أن أوّصد مزلاج الحمام وقف عبد القادر أمام مرآة وأسند يديه على حافة الحوض، على ضوء اللبنة الصفراء تأمل عَيْنين تشعبتا بعروق حمراء وسواد جرى تحتها، شفّتين بهت لونهما ويدين ترتعشان، الأرق كان قد نخره كشجرة مريضة تقاوم السقوط في أي لحظة، منذ عُرِف بالمهمة المؤكّلة إليه غادره التوم بلا رجعة، أن يعرف ويمعاد موته، أن يُقتل أو يُعيش مشوّهاً في غياهب سجن، أن يهرب، أكثر ممّا هو هارب، تلك كانت قائمة الاختيارات الإجبارية التي عليه أن يواجهها بعد أيام.

لم يشعر عبد القادر يوماً بما يشعر به الآن رغم ماضيه مع البوليس والإنجليز، الألم يغزوه كيمسّمار طويل بارد يخترق الضلوع، ضيق صدر وثقل لم تعد تحتمله الأكتاف، وفوران يجري في عروقه ليسعر ويحرق، هياج، هياج اسمه دولت، انقلب والخوف من الزمن القصير المتبقي هيّج ذكوره وبت فيه رغبة معطوبة ناحيتها، يُريد أن يندفن فيها، يختبئ، يبكي بحرقه ويصرخ، مرة أخيرة، قبل أن يودعها.. مدّ يده وفكّ البابيون الذي يطبق على رقبته وحرر الزر، شهق نفساً طويلاً إلى

رنتيه ثم أخرج من جيبه ورقة سلامة الصغيرة، أفرغ المسحوق الأبيض فوق الحوض ثم سجد بأنفه خشوعاً، كاد يستنشق أولهما قبل أن يمسك برأسه ويقوم، صُرب الحائط بقبضته ثلاث مرات ثم نظر لنفسه في المرأة، مسح دَمْعَة لإرادية وهو يرمق البودرة، قبل أن يُعثرها بكفّيه وينثرها، سوّى بعد ذلك قميصه بسرعة وعقد البابيون ثم أسكت نهيجه بصفعة على خدّه، غَسَلَ بعدها وجهه بالماء ثم خَرَج.

صَوْت الموسيقى بدأ أضعافاً مضاعفة في آذنيه، أبواق حَرْب تزوم، تماسك وتخلل الرءوس حتّى وصل لمنضدة بعيدة نسبياً عن المسرح جلس إليها أحمد، بلا كلمة ارتدى بجانبه وأشعل سيجارة، لفَّهما الدخان وصخب الموسيقى وصمت احترامه أحمد قبل أن يبدأ عبد القادر في ثرثرة طائشة تتخللها ضحكات عَصِيَّة وحركات يدين كافح أحمد كيلا تُطيح بزجاجة النبيذ المفتوحة، حكى ذكريات طفولته ونشأته، اجتر كيّف كان مهاباً، قدوة أقرانه من أبناء الحي ومحطّ حَسَدِهِم، حكى عن نسوته اللاتي هَمَنَ فِيه عَشَقًا وعن معاركة ضد أنداد أذافهم الهزيمة بقوته المفرطة، ثم اكتأب حين جرى لسانه بذكر أبيه، تسكت واكفهر وجهه، شرد، ثم هرب ثانية إلى مغامراته مع فتيات الحي ونسائه، شرب خمس كنوس نبيذ قبل أن يغطّي أحمد حافة كأسه السادسة بأصابعه.

- كفاية يا عبد القادر عشان نعرف نروّح.

تحولت ثرثرته فجأة إلى سيرة بيت بنية وعاهراتها، وعن قصّة تشوّه سلامة بالنار من مصباح الكبير وسين، وعن ورد التي لم يقابلها أحمد، ضحك بهستيريا قبل أن تصمت تمامًا، نزل الطعام في الأطباق حين

بدأت فقرة بديعة مصابني في العزف، انسابت الفتيات كال مياه الجارية يُحطن بديعة من كل جانب، وفي الخلف، دائماً في الخلف، كانت ورد تتفتح، ورد التي نسيت اسمها للمرة الثالثة من «فارتو هي» الأرمنية إلى «ورد» المصرية ثم «لينا» الشامية، مسحت الصالة من وراء القناع قبل أن تعلقو شفيتها ابتسامة حين وقع بصرها على أحمد فرفعت ذقنها تحية، ابتسم الأخير ثم تابع عبد القادر الذي تأرجح بين متابعة الفرقة والرغبة في الثرثرة ليُطمئن نفسه، أكل جزءاً من شريحة اللحم ثم تيسس كتمثال لم ينته منه نحاته، ينظر للشوكة بين أصابعه حتى طقطق أحمد أصبعيه فتنبه.

- أنت شامم؟

- أنا مبطل البودرة من زمن.

التفت أحمد ليتابع لينا بين الراقصات تملأ ج.. عصفور يشتهي قصصه الاختياري.. كان قد دأب على زيارتها أسبوعياً.. تنتهي من فقرتها فتأوي إلى منضدته.. يشاد لان حديثاً مقتوحاً وأخباراً طازجة.. عن كل شيء.. إلا عنهما.. وخاصة الماضي.. اتفقاً بدون أن يتفقا على أن يخلقا سيرنه ولا يتطرقا إليه طالما أرادا الاستمرار في اللقاء.. لا هو يُريدها أن ترى الدماء على يديه ولا هي تريده أن يخوض متراً في أحوال ماضيها بيت العهر.. اكتفيا منذ زمن بانجذاب صامت ورغبة ناضجة تعي تماماً أن الوقت غير مناسب إلى أن يصبح.. مناسباً.. وأن أي كلمة حب ستعني حتماً بداية سريعة لنهاية.. مع كل لقاء تزداد فيه حفرًا ويزداد هو معها شوقاً وتعوداً.. لم تُمنح ذكرى نازلي فيه.. ظل تخوين الأنثى حاضراً لا يختفي وإن وهن.. كانت تطرق على قلبه كنقاط المياه.. نقاط مُلحّة متواصلة مستمرة.. نقاط بعد وقت تغلق الحَجَر.

- انتشله من شروده صوت عبد القادر الذي عبّ كأسه السابعة.
- مرافقها بقالك كثير؟ ولّا حُب؟
- التفت إليه أحمد: ...!!
- المزمز مازيل اللي عينك ما فاوتها لحظة.. أم ريش أسود دي..
- ليتنا؟ لا دي صديقة عزيزة.
- صديقة!! مفيش هنا أصدقاء.
- ممكن تمسك نفسك عشان هاتخلص نمرتها وتيجي تقعد معنا شوية؟ مش عاوز لخبطة في الكلام.
- يعني آخر مرة هكون معاك ومش عاوز تفتح لي قلبك؟
- أنا ما قلتش إني بحبها.
- مش لازم تقول.. عينك فاضحالك.
- أنت سكران.
- أنا ما بسكرش.. أنت مكسوف.. بقة بدمتلك جاييني من قفايا لغاية هنا عشان تعزمني ع العشا؟ أنت جاي تشوفها.
- أبوة جاي أعزملك ع العشا.. وأشوفها.. فيها حاجة؟
- مفيش.. بس برفكس المزمز مازيل.. عود يوناني أكيد؟
-
- تبقى إيطالية.. العود ده إيطالي.
- بنفاد صبر ألقاها أحمد: أرمنية.

- أيرة منا كنت لشه هاقول .. باهن .. صحيح أنت مش متجوز ليه؟

- ما أنت مش متجوز.

- آه بس أنا مدلّع نفسي .. ما أنا حكيت لك .. إنما أنت بحس إنك من البيت للشغل وم الشغل للبيت .. وساعات بتموت في الإنجليز .. ههههههههه

- أنا مش فاضي للحب.

- مفيش حد مش فاضي للنسوان .. أنت حاجة من اتنين .. يا حبيت ولا طولتش .. يا مالکش فيه .

رمقه أحمد بلا تعبير فدرس عبدالقادر وجهه في الطبق دقيقة قبل أن يرفعه ثانية: تفكر ربنا هابسامحني؟

على إيه؟

- أصلي حاسس إن عمري ما انتهت له .. أستغفر الله العظيم يا رب .. أقصد يعني .. عمري ما حشيت حقيقي .. موجود في سابع سما طبقا فوق العرش وتحفه الملائكة ولا تدرکه الأبصار وليس كمثله شيء .. أنا حافظ نص القرآن لغاية سورة النمل .. لا استنى العنكبوت .. بس مش عارف ليه ربنا بالنسبة لي أستغفر الله العظيم زيه زي ملك الإنجليز كده .. عارف إنه موجود بس مش ممكن أفكر أقابله .. عمري ماشفته .. ولا هاشوفه .. بس موجود .. أنا طول عمري كنت مشغول عنه .. الفتونة .. أبويا .. النسوان .. الفلوس .. الكامب الإنجليزي .. النسوان ...

قاطعه أحمد: أنت قلت النسوان مرتين!

- حاسس إني لما أقابله من هايقابلني.. هايقول لي أمشي أجري
ياض يا عبد القادر أنا ما خلقتكش.. أنت شيطاني.. ويسيب
عليا زبانية جهنم ترنني علقمة سخنة وتولع فيا ويرموني من
فوق السحابة.

- طب وهاتعمل إيه؟

- هارجع أقعد عند بنة.. وأشتغل معرّص مع سلامة النجس.. ما هو
أكيد هو كمان هايطرد بوشه الملعخن ده.. أقعد أطير كده عنده
في سقف الشقة.. وأزوم بصوت عالي وأرعب النسوان.. بالذات
بهية القعر.. أصلها مفترية أوي بنت الكلب.. بس عليها حنة...

قاطع خواطر النبيذ تصفيق رواد القاعة حين انتهت الرقصة..
انسحبت الفرقة وانسكب الستار على المسرح وكان آخر ما رأى أحمد
نظرة وعد من صاحبة القناع.. «أنا آتية».. هذا التصفيق فظهر صوت
عبد القادر الذي لم يتوقف عن الكلام.

- رُحيت راقعه قلم كوّعه زي أسير يوناني وقع في إيبد الترك..
وهبشته لوتامية طرقت عظام وشه ويعدين جرجرته م الجاكّة
وقلت له إياك أشوف وش أمك هنا ثاني يا خبؤ.

- أنت بتتكلم عن إيه؟؟!!

- عن سعيد جرح اللي ضربته في الزرايب.

- أنت إيه اللي وذاك الزرايب.. مش كنت بتتكلم عن ربنا؟

- أيوة صحيح.

- أنت بتضحى بنفسك عشان بلدك.. وده وزنه كبير عند ربنا
يا عبد القادر.

- يعني هايقابلني؟

ابتسم أحمد: هايقابلك.. ومش هايقول لك امشي اجري يا ض
يا عبد القادر أنا ما خلقتكش!

شردت عينا عبد القادر في الفراغ وارتعشت ابتسامة في عينيه حين
اقتربت لينا.. في منتصف طريقها ابتسمت لأحمد قبل أن تتفحص
بعينها الجالس بجواره.. أبطأت خطواتها للمحظة حين تأملت وجه
عبد القادر ثم توقفت بغتة.. رَمَقَها أحمد باستغراب قبل أن يرفع يده
مُشيرًا لها أن تقترب.. كَمَسَ رَأْسَها حتى رأسه في الأرض لم تتحرك..
انتبه إليها عبد القادر ولم تزد لها نظره إلا إصرارًا على الانسحاب..
الهرب.. نسيت أنها ترتدي فناعًا.. أنها لم تعد ورد.. قام أحمد فرفعت
كفَّها تستيقه.. اقترب فتوترت أطرافها.. رواد منضدة بجانبها لاحظوا
ارتعاش أصابعها في استغراب.. قام أحمد فابتعدت خطوة.. عبث
وجهه استغرابًا وحَذَقَ في عينها حين دارت على عقيها.. استبقها
حتى التقط عضدها.. التفتت.

- فيه إيه؟ مالك؟

- تعبانة.

- حاسة برايه؟

- دايدة شوية.

- تعالي اقعدى واشربي حاجة مُنعشة...

قاطعته: ما في داعي.. أنا رح أروح...

قاطعها: مفيش داعي إيه! أنا مش هاسيبك تمشي وأنت تعبانة.

كان ذلك حين برز عبد القادر من وراء كسف أحمد.. نظر إليها بابتسامة ثملة قبل أن يمد يده:

- كينيش.. بيس.. يك؟ ثم نظر لأحمد وترجم: يعني كيف الحال بالأرمني.

رمقته ورد للحظات ثم أجابه: أحمد الله.

- بتتكلمي عربي!! إيه يا مازيل! أنا شكلي يخوف أوي كده؟ اسم القمر إيه؟

استغرق الرد منها نصف دقيقة: لينا.

سلمت عليه فلم يدها تحية.. ثم تملك رفاهية الانسحاب.. تقدمهما عبد القادر إلى المنضدة فجلسوا.. صَبَّ عبد القادر لها كأس نبيذ فامتنت.. أنفاسها تهذجت وهي تتابعه من خلف القناع.. ابتسم فأولت وجهها شطر الصالة المفتوحة متفادية النظر في عينيه حين لمح في عنقها «ثلاث حسنات متجاورة»! ثلاث حسنات لفتت نظره من قبل! في رقبة أرمنية شقراء.. صعد بعينه فلمح لون الذهب في منابت الشعر يقاوم الصبغة السوداء.. نزل إلى رسخ مكنظ بأساور لم تخف أثر جرح انتحار قديم.. طار الكحول من رأسه دفعة واحدة.. رمقها لدقيقتين وهي تستمع لكلام أحمد قبل أن يهمس بخفوت حين التقت أعينهما: ورد! نظرت إليه ففهمت قبل أن يقاطعهما أحمد: حاسة بيايه؟

نظرت إليه ولم تُجبه .. كانت تنتظر ضربة استباقية من عبد القادر لكنه لم يفعل .. رمقها طويلاً ثم نظر لأحمد الذي لم يقرأ في عينيه شيئاً حين عرفت الفرقة لحنًا من موسيقى الفالس .. ترقص؟ على غير عاداتها طلبت من أحمد .. استعرب طلبها وإن لبّاه بلا تفكير .. قامًا تاركين عبد القادر الذي لم يرفع عينيه عنها .. يسأل نفسه: «هل يعرف أحمد تاريخها؟ هل يحبها؟» .. لم يجد إجابة فصّب كأسه الثامنة.

توسّطت ورد المرقص بين ذراعَي أحمد قبل أن تدفن نفسها في حُضنه .. لحظات من التمايل غير المتماشي مع إيقاع أغنية It's time to say good night قبل أن يسألها: مالك النهاردة؟

- مين هادا الشخص المني أنت قاعد معة؟

- صديق ..

- من وين بتعرفه؟

- بتشبهه عليه؟

هزّت رأسها نفياً ولم تعقب .. تنظر لعبد القادر فتهرب بعينيها .. صدّرت إليه ظهر أحمد ستوارية من عينيه الثاقبتين فسألها:

- فيه حاجة مزعلاكي؟

- بفكر أمشي من هون ..

- هاتروحي فين؟

- كل مرحلة وإلها مطالبها .. عم بافكر أرجع سوريا ..

- سوريا؟!

- بلدي.. رح أكون على راحتى هناك.

- ده كلام فارغ.. الأترالك مش هايسيبوكى فى حالك.

- ما عم بحس بأمان طول الوقت.. عم بحس إنى بختنق.. ما عدت قادرة اتنفس.

- أمان! أنت تقريباً مش بتخرجى من البار يا لينا!

أشاحت بوجهها: الظروف بتبدل.

صَمَتَا فاشتعل الصُّراع فى نفسه كما اشتعل منذ تسعة أشهر.. البحث عن تعريف لو ضعه من بعد نازلى كان أمراً مُعقّداً.. يحتاج لقاموس لم يُكتب بعد.. سأل نفسه مرّات: «هل يُحب لينا؟ هل يشتهيها؟ هل يستأثر بها فقط؟ أم هو التعود؟» كانت لخفّتها تتأرجح بين كل تلك المعاني ولا تملأ واحداً.. إلا أن فكرة فراقها كانت بثقل مكواة حديدية استقرّت بين رثتيه.. مكواة سَاخنة.. ضاق صدره واتقدت فيه عَصِيية كبجها بصعوبة.. صَمِط على يديها فنظرت فى عينيه.. «أنا خايف أحبك».. ردّدها نفسه وقرأتها ورد فرنا ببصره بعيداً يشتكى إلى الموسيقى.. «نازلى أهدتني رابطة عُقْ.. ساعة جيب «زينيث» موديل السنة.. ومنديل مذئيل بأول حرف من اسمها.. الـ Ni الملعونة.. قبل أن تأخذ روحى.. ثقني فى الحب وفى نفسى.. ولدغة لن ألدغها مرّة أخرى فأظن يوماً أني أهل للارتباط.. اخرجي يا نازلى من رأسي.. ابتعدي.. فلياكلك هنيئاً مريئاً من زار شفّيتك بعدي.. سيكتشف بصماتي فى أول قبلة.. امنحيني الفرصة كي أحيا ثانية».

- تتجوزني؟

صفعته ورد من وراء القناع وفي عينيها دموع تترقرق ثم أردفت :

- خدني من هون.. وديني لمطرح ما حدا يعرفه.. ما عدت أوثق
بحدا غيرك يا أحمد.

تجمّد.. تيس.. سحب نفساً لم يخرج وضرب على قلبه ضربة أخيرة
لعل أحداً يفتح الباب.. قرأت في عينيه تردداً.. رفضاً.. رمقته بشك ثم
اشتمت رائحة حرق ومرارة تأكلها.. سحبّت أصابعها من بين أصابعه
فتركها تنسل.. ابتسمت بآلم.. قبل أن تبتعد.. وقف عبد القادر مُحاولاً
استيعاب الموقف.. ظل أحمد في وضعه وسط الراقصين وحيداً حتى
لَقَت الأنظار قبل أن يتشله عبد القادر.. أرجعه إلى المنضدة فجلسا.

- زعلتها؟

- مالك؟

- مفيش..

- اسمها لينا؟ ده اسمها الأصلي؟

- بتسأل ليه؟

- لا.. أبداً.. أصل الأرستقراط دايماً يغيروا أسمائهم.. تعرفها من
قد إيه؟

أجابه بشروء: تسع شهر.

- بتحبيها؟

صَبَّ أحمد كأسًا تجرعها دفعة واحدة ثم ترك الحِساب على المنضدة وقام: يلاً بينا.



قبل دقيقتين كانت ورد ترمق انعكاسها في مرآة عُرفتُها الصغيرة التي آوت أحمد أياً ما حتى اسشفي.. لم يتخذ الأمر أكثر من دقيقة تفكير.. رائحتها فاحت وقريباً سينجذب الذباب.. عبد القادر سيفشي حتماً ماضيها.. أفضل لها أن ترحل بكرامتها.. أن تهرب مرة ثالثة.. أخرجت حقيبتها التي أتت بها من قريتها المنكوبة في سوريا.. لملت ملابسها ودمست فيها الصورة التي تجمعها بأبيها وأُمها.. كتبت خطاباً للسيدة بديعة شكرت فيه كرمها ورحمتها واعتذرت عن الاختفاء المفاجئ.. أغلقت حقيبتها وتركت قناع الريش بجانب المرأة قبل أن تتسلل من الباب الخلفي للبار.



حين خرج أحمد وعبد القادر إلى الشارع توقفا تحت يافطة انقاء للمطر الذي انهمر بشدة.. لحظات واستدار أحمد إلى عبد القادر مُجيباً:

- مش عارف.

- مش عارف إيه؟

- مش عارف إذا كنت بحبها ولا.. ساعات بحس إنني بحبها..
وساعات بخاف من الفكرة.

مَطَّ عبد القادر شُغْفِيهِ لَمَّا لَمْ يَجِدْ مَا يَقُولُ: «فَاللَّهِ هَرَفْتُ يَا صَدِيقِي
أَنْ حَبِيبَتِكَ نَخَفِي عَنْكَ اسْمُهَا الْحَبِيبِي وَمَا ضَعَا طَامِضًا وَرَاءَهُ ١٩٠٥هـ، كَانَ ذَلِكَ
حِينَ لَمَحَهَا عَبْد الْقَادِر نَخْرَجَ مِنَ الشَّارِعِ الضَّيِّقِ الْمَجَاوِرِ لِلْكَافِيَةِ
حَامِلَةً حَقِيقَةً مَتَوَسِّطَةً وَتَحْمِي رَأْسَهَا مِنَ الْمَطَرِ بِجَرِيدَةٍ.. قَبْلَ أَنْ
يَلْمَحَ سَلَامَةَ النَجَسِ فِي الْجَهَةِ الْمُقَابِلَةِ.. يَقِفُ عِنْدَ النَّاصِيَةِ يَبَادِلُهُ
الِابْتِسَامَ بِنَصْفِ قَمٍّ.. يَطُوقُ الزَّمْنَ وَخَفَّتِ الْأَصْوَاتُ بَغْتَةً.. سَلَامَةُ
أَدَارَ رَأْسَهُ نَاحِيَةَ الْيَسَارِ.. نَاحِيَةَ وَرْدٍ.. سَيَعْرِفُهَا.. سَيَعْبُرُ الشَّارِعَ رَكَضًا
نَاحِيَتَهَا وَهُوَ يَسْتَلُ مِطْوَاتِهِ الْمُقَوَّسَةَ مِنْ جَيْبِ جِلْبَابِهِ.. سَيُدْرِكُهَا قَبْلَ
أَنْ تُدْرِكَ الْمَسْكِينَةَ اقْتِرَابَهُ.. سَيَسْلُ ذِرَاعَهَا بِيَدٍ وَبِالْيَدِ الْآخَرَى سَيَعْمِدُ
نَصْلَهُ بَيْنَ ضُلُوعِهَا.. سَتَسْقُطُ وَلَنْ تَلْفُظَ أَنْفَاسَهَا الْآخِرَةَ قَبْلَ أَنْ يُمَزَّقَ
وَجْهَهَا وَيَسْلَخَ جِلْدَهُ.. سَتَخْتَلِطُ دِمَاؤُهَا بِالْمَطَرِ قَبْلَ أَنْ تَتَسَرَّبَ بَيْنَ
الْبَلَاطِ الْمَحْدَبِ.

- سَلَامَةُ ...

نَادَاهُ عَبْد الْقَادِر فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ.. لَمْ يُمَهِّلْهُ وَقْتُاً لِلْإِجَابَةِ.. أَرَادَ أَنْ يَشْغَلَ
عَيْنِيهِ فَقَبَّرَ الشَّارِعَ رَكَضًا بَيْنَ الْحَنَاطِيرِ وَعَرَبَاتِ الدُّوْكَارِ تَارِكًا أَحْمَدَ
خَلْفَهُ.. مُتَابِعًا بَعِينِيهِ وَرَدَّ الَّتِي تَوَقَّفَتْ وَالتَفَتَتْ بِفَرْعٍ حِينَ سَمِعَتْ اسْمَ
سَلَامَةٍ.. كَانَ ذَلِكَ حِينَ لَمَحَهَا الْآخِرَ.. تَلَاقَتْ عَيْنُهُ السَّلِيمَةُ مَعَ الْعَيْنَيْنِ
الْفِيرِ وَزَيْتَيْنِ فَتَعَارَفَا.. جَزَعَتْ مَلَامِحُهَا حِينَ حَدَّجَهَا سَلَامَةُ بِظَفَرٍ..
ذَنَبَ عَشْرَ عَلَى حَمَلِهِ الْهَارِبِ.. حَمَلَ أَشْعَلَ فِيهِ النَّارَ قَبْلَ أَنْ يَفْرُبَ بَيْنَ
الْأَشْجَارِ.. فَجَاءَ وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ عَبْد الْقَادِر رَكَضُ الْمُشَوِّهِ.. فَزَعَتْ
رُءُودُ فَتَسَمَّرَتْ مَكَانَهَا وَسَقَطَتْ حَقِيقَتُهَا عَلَى الْأَرْضِ بِجَانِبِ قَلْبِهَا
تَحْتَ الرِّصِيفِ.. تَابَعَ أَحْمَدُ عَبْد الْقَادِرَ الَّذِي انْطَلَقَ وَرَاءَهُ

سلامة.. ثم رأى ورد.. لما أصبح سلامة على بعد أمتار أخرج مطوانه..
تحركت ورد كغزالة متأخرة تعجى أحمد ناحيتها في اللحظة التي طوّح
عبد القادر ساقه بين ساقَي سلامة الذي تعثر فسقط أرضاً.. ارتدى
عبد القادر فوقه حين قفزت ورد في حنطور مر من أمامها.. أمرت
العربجي بالسرعة فضرب كُرباجه في الهواء قبل أن يصل أحمد..
نظرت إليه من بين خصلاتها المبللة.. شاهدته يركض خلف العربة
رافعاً يده مُشيراً إليها أن تنتظر.. أن لا تترك طعنة إضافية بين ضلوعه:
«ليتاستني».. صرخ فهَمَسَتْ: «اسمي مش لينا يا أحمد».

ابتعد الحنطور ولم يستطع أحمد مُجاراته.. كان ذلك حين هوى
عبد القادر على وجه سلامة بلكمة ثم جرّه إلى حارة بين بنائين.. سَمَرَه
في الحائط بقبضته ثم أطبق على عنقه الممجنون قبل أن يُخرج من جيبه
مطواة مكسوة بالصدف محفورة عليها شعار الجيش الإنجليزي..
وضعها تحت ذقنه فصرخ بحسرة قبل أن يهمس في أذنه:

- اسمع يا بغل البرك.. أشوفك تحوم ولّا ألمحك تخرجم هنا ثاني
هالمخبط خلقتك أكثر ما هي ملخبطة.

- ده أنت طبّختها من الأول بقّة عشان تلهف البت ١٩ اتفتت معاها
تولع فيّا وعمّلت النمرة دي عشان تخلع بيها م البنسيون.

كَمَح عبد القادر أحمد قادمًا فضتط على عنق سلامة: لو شفتك
هنا ثاني الدبان الأزرق مش هايعرف لك طريق جرّة.. هايجيوك من
الشفخانة يا ابن المحروقة.. غور.

وأطاح به عبد القادر فسقط في بركة مياه مطر.. وقف متألماً يلملم
جلبابه المبتل: ماشي يا عبد القادر أفندي.

ثم ابتعد أمتارًا إضافية أبلغته مأمنا فرفع الشال من فوق رأسه المشوّه وأردف:

- وماله.. ياما وراك البنات غلبت رجاله بشتبات.

التفت إليه عبد القادر: يلاً يا ابن المرة.

غاب سلامة في ظلمات الحارة حين اقترب أحمد.. رمق عبد القادر باستغراب فعاجله:

- كان عاوز يبيع لي بودرة.

- الشخص ده يعرف لينا؟

- لينا مين يا عم أحمد؟

أمسك أحمد بتلابيه: أنت بتكذب يا عبد القادر.. المعرّص ده كان ببجري وراها ليه؟ إنطق؟

بنفاد صبر زقر عبد القادر وهو ينظر في عيني أحمد.. لحظة طالت أدرك خلالها أنه لن يستطیع المضي في تغطية ورد أكثر من ذلك.. انتزع يافته من بين أصابع أحمد:

- ما اسمهاش لينا يا أحمد..... ما اسمهاش لينا.



في اليوم التالي سيفجّر عبد القادر ثاني قنابله في الغابة الحجرية بالمقطم.. بعد قتلته الأولى التي فجّرها أمس بين ضلوع أحمد حين سرد له قصّة لينا التي كانت ورد.. ورد التي قابلها في بيت بنية.. عاهرة من عاهراتها.. عرض له ماضيها المأساوي مع أسرتها ومحاولة

انتحارها.. ولم يحك بالطيع عن رَطلها أو قضائه ليلة كاملة نائماً على ظهرها.. سَمِعَ أحمد دوي الحقيقة في أذنيه ولم يُعقَّب.. بلا رَدَّة فعل هز رأسه بهدوء وأردف:

- بكرة مَعادنا في نفس المكان الساعة ستة.. سلام.

افترقا فتابعه عبد القادر وهو يتعمد حتى اختفى فهمس لنفسه:
أديك أم غباء أهلي؟.

قبل الشروق حضر أحمد.. كان يرتدي زي عامل من عمال العنابر وفي يده حقيبة حديدية ترقد بباطنها العبوة الناسفة ومن ورائه أنثى في حَبْرَة وبرقع.. اقترب غير بادٍ عليه أثر مما سَمِعَ أمس.. وضع حقيته على الأرض وسط الضباب الخفيف وفتحها حين أنزلت دولت برقعها.. لم تتحدث.. تفحصت المكان من حولها هاربة من عيني عبد القادر اللتين لم تغادرا وجهها.. أزاح أحمد شريحة حديدية تحمِل المِعدلات وأخرج من تحتها الموت في عبوة.. وضعها بحرص على الأرض ثم أخرج زي السفرجي في كيس وناولته لعبد القادر الذي أفاق من شروده ووضعها أمام صدره قبل أن يلاحظ رغيغ عيش إفرنجياً (فينو) موضوعاً في الجيب حين أردف أحمد:

- بكرة التنفيذ.

برقت عينا عبد القادر: بكرة؟ بكرة بكرة؟

- الوقت ضيق وكل ما أتأخرنا البوليس ومكتب الخدمات يغيروا خطوط السير والشوارع.. بكرة سبعة ونص الصبح هاتكون في الميدان.. بين دكان ماتوسيان بتاع الدخان و...

أكمل عبد القادر : والمَراحِضُ العامة .. عشان أكون مَذاري
يمين وشمال.

- الساعة ثمانية ونُص بالظبط يخرج الوزير من بيته .. تسعة إلا تلت
يكون في الميدان .. قبلها بنص ساعة هاتوصلك العبوة من زميل ..
تكون أنت واقف زي ما اتفقنا .. تستنى الجرنال اللي هاتيرمي
تحت رجلك ...

أكمل عبد القادر وعيناه لا تفارقان دولت: بعدها بدقيقة
يبجي الموكب.

- تمام كده .. تنفذ وتدخل شارع التزهة .. يرمي مُسدسك وتغير
هدومك في الخرابة اللي شفتها وتخرج .. تمشي لآخر الشارع
وتركب الترام .. أما لو شكيت إن فيه خد بيلاحقك ومش هاتقدر
تهرب .. فاكتر مدرسة الهلال اللي شاورت لك عليها بعد حوالى
تلتوميت متر من الميدان؟ بواب المدرسة زميل .. هاساعدك
توصل من غير شوشرة .. لدولت.

نظر عبد القادر إليها حين أردف أحمد: دولت مُدرسة في المدرسة
دي .. هاتخيلك بمعرفتها نغاية ما الشوارع تهدى وبُعدين تخرج.
أجابه عبد القادر بشرود: مفهوم.

- دولت جاية النهاردة عشان تنسق معاها وتراجع التحرك .. وعشان
تسألُك يعني في حالة ... عن وصيتك إذا جيتت توصِّل حاجة
للوادة أو إخوانك.

ثم ابتعد أحمد ليتيح مساحة من الحرية .. حاول عبد القادر التماسك
ثم تكلم:

- سلّمي لي عليها .. وقولي لها إني مش غيل طايش .. وإني أخذت
حق أبويا .. وإني .. يحبها رغم الجفا.

التقطت دولت كلماته في ثبات ظاهري قبل أن يسود صمت
قطعه أحمد:

- عاوزك تجرب العبوة دلوقتي عشان نتأكد إن كل حاجة ماشية تمام.
بشبات سَحَب عبد القادر عَيْنِيهِ مِنْ عَيْنِيهَا وَالتقط العبوة من
الأرض .. للحظات هَاجمه هَاجِسُ أَنْ يَفْجِرَهَا فِي الْمَسَافَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ
عَلَّهَا تَصْطَحِبُهُ إِلَى مَلَكُوتٍ لَا تَمْلِكُ فِيهِ رَفْضًا أَوْ نَفُورًا!

ابتعد أحمد ومن ورائه دولت .. تواريخا خلف صخرة .. وزن
عبد القادر العبوة ثم جذب الفتيلة وَطَوَّحَ الْقَبِيلَةَ إِلَى الْوَادِي الصَّخْرِي
الجباف وانحنى .. دوى الانفجار وتعفرَّ الهَوَاءُ لِلْحِظَاتِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ
الصدى ويسكن الوادي.

- أشوفك بكرة.

قالها أحمد بعد أن جَمَعَ شِظَايَا الْعَبْوَةِ وَأَغْلَقَ حَقِيصَةَ الْمُعِيدَاتِ ..
رَحَلَ مَعَ دَوْلَتِ تَارِكًا عَبْدَ الْقَادِرِ لِيَتَحَرَّكَ بَعْدَهُمَا بِدَقَائِقِ تَمْوِيهَا .. ظَلَّ
يرمق دولت التي أسدلت البرقع على شَفَتَيْهَا وَأَنْفَهَا وَابْتَعَدَتْ حَتَّى
بَاتَتْ كَعُودِ كَبْرِيتٍ قَبْلَ أَنْ تَخْتَفِيَ.



السبت ٢١ فبراير ١٩٢٠

٧:٣٠ صباحًا

مسجد الظاهر بيبرس كان محفوفًا بالنخل من كل جانب، يتوسط الميدان بأسوار مُرتفعة أخفت من هيئته ما يدل على أن هذا المكان كان مسجدًا، لا مئذنة ولا قبة، فقد هَدَمَ الفرنسيون مئذنته سنة ١٨٠١ م واستخدموه كقلعة حربية مدَّة وجودهم في مصر، ثم حوَّله الإنجليز حين أتوا بجيوشهم إلى مذبح للحيوانات قبل أن يتم العفو عنه وتُغلق أبوابه على خليط من روائح الروث والدم.

عبد القادر كان واقفًا كما اتفق، أمام المسجد، بين المَراحِض العامَّة ودكان ماتوسيان للدخان الذي اشترى منه علبته الأخيرة، بدت ملابس الشُّعْرجي عليه كأنها ستفتق في أي لحظة وتطير أزرارها لتُصيب المارة، يترقب ما حوله في صمت، أنفاسه بطيئة وشفته تتحرك كأن بآيات القرآن همَّسًا مُجَاهِدًا لتذكُر تربيها، يكاد يسقط ميتًا من شدَّة اختلاج صدره، يُقاوم ضربات قلب تتسارع في اضطراب ووساوس قاسية تنهاه عمَّا هو مُقدم عليه، تستعرض بطولاته البائدة على الأرض، وفوق السرير، تستدعيها ذاكرته حادة واضحة، في كأمب الإنجليز، فوق فتيات بنية، وفي معارك الحارات بجانب أبيه، ثم تُسمِّعه الوساس نعيه بصوته:

«رحمة ونور على روح المرحوم عبد القادر شحاتة الجن!!»

ثم تحكي له الوسواس عن الأوقات التي ستفوته من بعد الموت،
عن بلده الذي سيتطهر من الأنجاس قتله أبيه ومتوجيه بإكليل العار بين
أهل حيّه، وتحاكى عن «التأيات» التي سيرثها غيره ويرتعون فيهن
كيفما شاءوا، عن سيرته التي ستطمس كشواهد القبور المنسية وعن
الجائزة التي ستُمنح لمن يعثر على رأسه من بعد الانفجار.

وعن دولت.

دولت التي لم يستطع أن ينتقل بها من مرحلة الصّيد إلى طور
العشق.. لن يترك فيها بصمة أو يفرس فيها زرعة.. ستتزوج غيره ولن
تُسمّي ابنها بعبد القادر.. ديك أم الحياة كلها.. ينفخ هواجسه فتعاود
الإلحاح عليه كالذبابة.. تنفخ فيه الجنون.. اهرب.. انفذ بجلدك.. أهـي
موضة السنة أن تموت أيها الأبله؟! هل الكفن هو البدلة الجديدة التي ترغب
في اقتنائها؟ سيكسطن أمعاءك من على البلاط المُحدّب يسكين بسبوسة
ومثلق القطط ما تبقى منك...

لحظات وقاطع هواجسه المتشابكة كالأغصان عربة يد تحمل
أسبئة من كل الأشكال والأحجام.. يدفعها عجوز بسيط لم يكن من
الصعب إدراك أنّه إسحاق.. مُمارسًا دوره الطبيعي في الحياة.. عجوز
سخيف يحمل الموت بين يديه.. اقترب من عبد القادر وأبطأ.. سبت
يا ابني؟ سأله ولم ينتظر إجابة.. التقط من العربة ثلاثة أسبئة من الخوص
مُغلقة بغطاء.. عرّضها على عبد القادر الذي رمقه قبل أن يختار أكبرها
حين نصّحه إسحاق أن يلتقط المتوسط.. أخذ عبد القادر السبب
وناول إسحاق كل النقود التي كانت في جيبه.. ابتسم الأخير قبل أن
يرحل جازًا عربته.. وضع عبد القادر السبب بهدوء على الأرض ثم

رفع غطاءه.. العبوة كانت ملفوفة في ورق أصفر.. تشبه لفة لحم من
الجزائر.. قَضَّ الورق من حولها وعان الدوبارة الغليظة الخارجة من
متنصفها قبل أن يضع السبت بين قدميه ويُخرج ساعته لينظر فيها حَصْرًا
للوقت المُتَبَقِي من عُمره.. عُمره الذي يَنْقُص مع كل ثانية يومًا كاملاً..
عقرب ملعون يركض كأرنب يفر من صقر مُحَلَّق.. ترك ساعته وتابع
السيَّارات والحناطير الداخلة للميدان بقلق سَحَق كيانه.. يرمق النّارة
مترقبًا ظهور أفراد مكتب الخدمات الذين سينتَشِقون رائحة الخوف
فيه كالكلاب المسعورة.. قبل أن يعفروه.. استحالت الأرض من
تحت جمرات يقف فوقها كفقراء الهنود.. يتصبب العرق رغم برودة
الطقس.. ظل على تلك الحال حتى برز من الشارع ضابط إنجليزي..
تفتت رتتا عبد القادر وتبددت أنفاسه حين رآه يُعَدِّل من وَضْع البيريه
فوق رأسه قبل أن يتجه ناحيته في خطوات واسعة.. تحفّزت خلاياه
فحمل السَّبَب بيد وبالأخرى نحسُّس المسدّس الموضوع في ظهره..
لما أصبح الضابط على مسافة مترين منه جذب عبد القادر إبرة ضرب
النار.. كان ذلك حين رفع الضابط رأسه ونظر لعبد القادر الذي تنفس
الصعداء وهو يتابع عيْنِي أحمد من تحت البيريه نرمقته في هدوء..
ديك أمك يا أحمد.. زفرها عبد القادر تمتمة حين ألقي أحمد بإهمال
جريدة كانت تحت إبطه قُرب قدمي عبد القادر.. كانت تلك الإشارة
تعني أن الموكب قادم بعد دقائق معدودات.. هَزَّ أحمد رأسه طمأنينة ثم
كبس البيريه على عينيه واخفى في شارع جانبي حين ارتفعت طقطقات
الموتوسيكل تتعالى قادمة نحو الميدان.. التقط عبد القادر السَّبَب من
الأرض وأخرج اللقافة الصفراء منه قبل أن يلف الدوبارة على أصابعه

مُتَحَفِّزًا.. في اللحظة التالية بَرَز موتوسيكل يَحْمِل الضابط الكشاف..
 اقتحم الميدان يفرق الناس ببوق عالٍ ومن ورائه موتوسيكل آخر عليه
 ضابط يَحْمِل رشاشًا مُعلَقًا بحزام إلى صدره.. ثم ظهرت السيارة..
 سوداء لامعة مازكة كاديلاك.. تسير بِسُرعة وتحمل بداخلها الموت..
 استعد عبد القادر لسحب الدويارة حين أصبح الموكب على مرمى
 البصر.. ميَّز الوزير من بين الزجاج متدثرًا بكوفية وميز بجانبه سكرتيره
 أصلع الرأس.. حين أصبحت السيارة على بعد ستَّة أمتار التقطت عيناه
 رأسًا صغيرًا.. رأسًا فوقه شعر مَعْقود بضفيرتين في نهاياتهما شرائط
 حمراء.. نزل عبد القادر تحت الرصيف مقتربًا.. يترين إصافيين
 تأكد فيهما أن في السيارة طفلة.. أسقط في يده فنييس.. أصابعه
 قابضة على دويارة العبوة لا تتحرك.. اعتصر الحبل الذي يفصل بين
 الحياة والموت.. بين عبد القادر والمرحوم عبد القادر.. ثوانٍ ومَرَّت
 السيارة من أمامه.. رمقته الطفلة في بَراءة قبل أن يختفي ضجيج
 الموتوسيكلات ولمعة الكاديلاك ووجه غريمه الذي كان منشغلًا في
 حديث مع سكرتيره.. دقيقة وقفها عبد القادر مُحاولًا تدارك أنفاسه
 قبل أن يُرخي أصابعه عن الدويارة ويضع القبلة في السَّبت ويَرَحُل..
 حسب تعليمات إجهاض المهمة تخلص عبد القادر من ملابسه ثم
 توجه إلى قهوة بميدان العباسية.. هُناك وجد أحمد جَالِسًا في بدلة
 عادية بجانب فينجان من القهوة وطاولة مفتوحة، وَضَعَ السَّبت تحت
 الكرسي وجلس فالتف أحمد وفتح الطاولة ثم التقط حجَرِيَّ النرد..
 اتخذ الأمر من عبد القادر دقائق لينقشع عنه الدهول قبل أن يتكلم:

- أنا...



قاطعه أحمد: صح إنك ما نَقَذْتش.. الأطفال مش هدفنا.

- لا أنا كنت هاقولك إن أنا كنت هاضريك بالنار وأنت
بالبدلة الإنجليزي.

- تضرب ظابط من غير ما يتعرض لك؟ وإنجليزي؟

- أعصابي ما كانتش مستحيلة.

رَمَى أحمد حَجَرِي النرد فأتى بواحدین فنظر لعبد القادر: المرأة
الجَاية ما تسرعش.. ولأَمْفِيش مرّة جاية؟

رمقه الأخير لدقيقة كاملة قبل أن يلتقط الحجرين ويلقيهما..
استقرتا على ستين فابتسم ثم أردف:

- زي ما إحنا.. بالنسبة للأمانة؟

- سيبها في مكانها تحت التراييزة لما تقوم.. بكرة معادنا في
نفس الوقت والمكان.. هتلاقى شنطة جنب رجلي فيها اللبس
الجديد.. شُد حيلك.

هز عبد القادر رأسه وقام.. تابعه أحمد حتى اختفى.



الأحد ٢٢ فبراير ١٩٢٠

قبل ساعة من مرور محمد شقيق باشا وزير الأشغال كان عبد القادر قد استقر في مكانه بين دُكان الدُخان والمَراحِض العامة، يَرتدي زي عَسكري بوليس كَاملاً وفي يده عَصا رِجال الدوريات، كأس النبيذ التي احتساها فجرًا كانت مُفيدة في تهدئة أعصابه بجانب سيجارة مستوردة ساعدت في تنظيم أنفاسه، كُلّما تمتم بالفاتحة على رَوح أبيه تذهل عيناه في منتصف قراءتها ويتشتت تفكيره فينسى أين توقف فيعيد قراءتها من البداية حتى ينفد صَبره فيسبّ الدين! ثم يستغفر الله فيقرأ الفاتحة.

مرّت ربع ساعة مارس خلالها فحص المارين قبل أن تلتقط عيناه مُخبرًا من مُخبري مَكتب الخدمَات، عَرفه من الصور التي زوَّده بها أحمد، لفّ الرجل حول المِيدان ثم توقف ونزل عن الدراجة، عدل من طربوشه ومسح بعينه المِيدان تأمِينًا قبل أن ينظر لعبد القادر مَلِيًّا ثم يُعيّيه بهزة رأس، رَدّها الأخير وهو يلفف العصا بشًا للثقة، كان ذلك حين اقترب ماسح أحذية عجوز سَخيف يَحمل الموت بين يديه، لم يكن بالطبع سوى إسحاق، اقترب من عبد القادر وأبطأ، وَضَعَ صندوقه بجانب قدم الأخير ثم سأله: نلَمَع يا حضرة؟ لم يردف عبد القادر..

عيناه لم تفارقا مُخبر مكتب الخدمات، رفع قدمه على الصندوق فأخذ إسحاق يُلَمِّع الحذاء مُندمجًا قبل أن يهمس:

- اعمل نفسك بتديني فلوس.

أخرج عبد القادر نقودًا تاولها لإسحاق الذي قام وابتعد كأن عبد القادر قد أمره بشراء شيء.. أنزل عبد القادر قدمه وفحص الصندوق بطرف الحذاء فوجد العبوة الناسفة مُستقرة بداخله.. سَحَب نفسًا عميقًا ونظر للمُخبر فلم يجد.

- صَباح الخير يا شاويش.

التفت عبد القادر بجانبه فوجد المُخبر.. تمالك نفسه فلكرز الصندوق بين قدميه وأغلقهما إحكامًا ثم استدار: صَباح الخير يا حَضرة.

- أنت تبع إيه؟

أجابه عبد القادر بثقة حاول تأكيدها بهزّة من عَصاه: تُمن الأزبكية.

- اسم الكريم إيه؟

ارتجل عبد القادر: إسحاق.

- إسحاق إيه؟

- إسحاق... حنا.

- إسحاق.. حنا؟ عاشت الأسامي!

قالها الرجل مبتسمًا وهو يتأمل ملامح عبد القادر وجسده المَفْتُول قبل أن يردف:

- وأنت قديم بقعة في الأزبكية؟

- يووه.

أشاح الرجل بوجهه جهة الميدان ثم أشعل سيجارة تأمل من بين
دُخانها جسد عبد القادر المقتول الذي لا يتفق مع هيئة تلك الفئة من
رجال البوليس المهمشين، تابع خيط عرق مضطرباً يسيل من تحت
طربوشه على ذقنه فسأله:

- أنت مع البكباشي سراج عبد العال بقعة؟

هز عبد القادر رأسه مُغمضاً عينيه تأكيداً: أبوة.

ألقي الرجل سيجارته والتفت لعبد القادر: لكن البكباشي سراج
عبد العال انتقل الصعيد من ثلاث سنين!

تحسَّس عبد القادر مُسدسه الموضوع في حزام خصره وهو
يرمق المُخبر.. لحظة لم تطل قبل أن يقاطع حديثهما ضابط بريطاني
بلهجة صرامة:

- ماذا تفعلون هنا؟

اعتدل المخبر كمن مسَّته الكهرباء ثم أجاب: أنا من قوة مراقبة
المنطقة يا فنديم.. مكتب الخدمات.

- هل تُدرك أن موكب الوزير على وشك الوصول بعد دقائق؟

أجابه المُخبر وقد توغَّل الارتباك فيه: أعرف يا فنديم.

- إذن لماذا لم تتخذوا أهبة الاستعداد؟

- يا فنديم أصل الفرد ده...

قاطعه الضابط الإنجليزي بصرامة: لا وقت عندي للترهات..
تفضلاً كلُّ إلى موقعه.

تبيس المُخبر.. بدّل نظره بين الشاويش المشكوك فيه أمره
والإنجليزي الغاضب الذي نهره: هيا.. تحرّك يا أبله.

عبر المُخبر الميدان ثم وقف في مكان يكشف القادم من الشارع..
لم تترك عيناه عبد القادر الذي اقترب منه الضابط الإنجليزي وهمس:

- كنت عاوز تضربني بالمسدس إمبراح هه؟

ابتسم عبد القادر ولم يُعقّب فأردف أحمد:

- موكب الوزير جاي بعد دقيقة واحدة.. أنا وراك.. ما تخافش.

هزّ عبد القادر رأسه حين سمع الطقطقة ثم برز مونتوسيكال الضابط
الكشاف ومن ورائه مونتوسيكال يحمل رشاشاً مُعلّقاً إلى صدر ضابط
آخر.. ثم لاحت السيّارة السوداء.. لامعة ماركّة كاديلاك.. تهذّجت
أنفاس عبد القادر فانحنى على صندوق التلميع.. سحب العبوة
وأمسك بالدوّارة.. جمحظت عينا المُخبر وهو يتأمل زميله المزيف..
نزل عبد القادر تحت الرصيف مُقترباً من خط سير السيّارة.. نظر
خلف الزجاج فشاهد الهدف وبجانبه سكرتيره.. لا أطفال ولا شيوخ
ولا نساء بجانبه.. بلغت ضربات قلب عبد القادر حد الجنون فتلجّم
لسانه حتّى عن نطق الشهادة.. كان ذلك حين عبّر المُخبر الشارع
مُسرعاً الخُطى.. مُتأخراً.. من مدخل بيت يحتل ناصية شارع التزهة
تابع أحمد ما حدث.. حين باتت سيّارة الوزير على بعد أربعة أمتار من
عبد القادر جَذب الدوّارة فأيقظ العبوة النائمة.. رَفَع يده عالياً ملقياً بها
تجاه السيّارة وهو يتأمل وجه الوزير الذي جمحظت عيناه.

قبل أن يدوي الانفجار...

انفجار أرعش زجاج الفصل الذي تدرّس فيه دولت بمدرسة هلال.. كانت جالسة على كرسيها خلف مكتب خشبي بجانب سبورة م تكتب عليها سوى تاريخ اليوم.. ٢٢ فبراير ١٩٢٠م - ٢ جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ.. شاردة في ساعة حائط مُعلّقة تأملت فيها عقرب نواني حتى دوى الانفجار.. ارتج الفصل قنضت التلميذات ثرثرتهن لُمن بفزع يتكوّن وراء النوافذ العالية يُتابعن الشارع الذي يركض الناس ناحية الميدان.. غرقت عينا دولت ففتحت كفّها عن صورة غيرة.. صورة لعبد القادر يقف باعتزاز أمام سيارته الكروسلي التي الما تحدث عن أمجادها.. صورة تركها يوماً على كُتبة الحنطور ههوا أو عمداً.. تأملت ابتسامته الواثقة قبل أن تمالك نفسها وتقوم حية النافذة مزينة الفتيات لتبدو طبيعية في رد الفعل.. وربما تلمحه كُض ناحية المدرسة يطلب الاختباء.. أقسمت.. لو عاش لتكف عن مدّه بجفاء.. لتكف عن مُقاومته فمُقاومته لم تزدها سوى رغبة فيه.. حصّت وجوه الناس الرائضة تبحث عن يسير عكس اتجاههم.. حينها.. لمُحظّات ودخل الفصل بواب المدرسة يلهث.. نظر في عيني لى: أنسة دولت.. المديرية تقول محدّش يتحرك من الفصل.. وفيه ساذ تحت ع الباب طالب يقابلك.

اقتنع قلب دولت بالنبض ثانية ووافقت رثتها أن تنفّس.. أغلقت اب الفصل وركضت في الطرقة الطويلة خلف البواب قبل أن تقفز سلام.. كادت أن تتعرّ في خبرتها الواسعة حتى وصلت إلى باب الكبير.. كان يقف بانتظارها وفي عينيّه التيه الذي رآته فيها آخر

مَرَّةً.. الذنب الذي لن يُكفَّرَ عنه جَحِيمٌ بِزبَانِيته.. اقترَبْتَ منه مُحاولَةً
استيعابٍ وُجوده.

- ياسين! إِيهِ اللّٰهِ جَابَكَ يَا ياسين؟ حُصِلَ حَاجَةٌ فِي الْبَلَدِ يَا خَوِي؟
أُمِّي بِخَيْرٍ؟

أَفَاقٌ مِنْ شُرُوده: بِخَيْرٍ.. غَاوَزَ أَتَحَدَّثُ مَعَاكِ.

تَطْلَعْتَ وَرَاءَهُ بِقَلْقٍ عَارِمٍ مُتَابِعَةً الشَّارِعَ وَالْعَازَةَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ
نَاحِيَةَ الْمِيدَانِ قَبْلَ أَنْ تُرْدِفَ: مَا جَوْلَتِشْ إِنَّكَ جَائِي يَمْنِي!
- مَا دَرَيْتِشْ بِنَفْسِي إِلَّا وَأَنَا فِي الْجَطْرِ.

بِهَلَعٍ نَظَرَتْ وَرَاءَ كَتِفِهِ: يَا سِين.. مَشَى مَا عَرَفَ أَتَحَدَّثُ مَعَاكَ
دَلُوقِيْنِي.. ارْجِعِ الْبَلَدَ اللَّهُ يَرْضَى عَلَيْكَ عَشَانَ أُمِّكَ وَأُوْعِدْكَ هَانِزَلْ
آخِرَ الْأَسْبُوعِ أَتَحَدَّثُ مَعَاكَ كَيْفَ مَا بَتْرِيدُ.

قَالَتْهَا وَأَمْسَكَتْ بِمِرْفَقِهِ نَدْفَعُهُ إِلَى بَابِ الْمَدْرَسَةِ الْكَبِيرِ.

قَبْلَ دَقَائِقِ طَسَارِ عَبْدِ الْقَادِرِ ثَلَاثَةُ أَمْتَارٍ إِلَى السُّورَاءِ.. زَحَفَ بِظَهْرِهِ
عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى اصْطَدَمَ بِكُشْكِ السَّجَانِرِ الَّذِي تَبَعَثَتْ بِضَاعَتِهِ مِنْ
أَثَرِ الْانْفِجَارِ.. ارْتَجَّتْ رَأْسَهُ وَصُمَّتْ أُذُنَاهُ.. تَشَوَّشَتْ عَيْنَاهُ وَأَعْمَاهَا
الدُّخَانُ الْخَائِنِقُ وَرَغْمَ ذَلِكَ لَمَعَ السَّيَّارَةُ السُّودَاءُ تَبْتَعِدُ.. انْفَجَرَتْ
عَجَلَتُهَا الْخَلْفِيَّةُ وَتَكَسَّرَ زَجَاجُهَا لِيَصِيبَ الْوُزَيْرَ لَكِنَّا تَبْتَعِدُ مُسْرِعَةً..
بِضَعُوبَةٍ جَلَسَ مُحَاوِلًا اسْتِيعَابَ مَا حَدَثَ.. رَفَعَ كَفَّهُ إِلَى جِرْحٍ فِي
جَبْهَتِهِ انْهَمَرَتْ مِنْهُ دِمَاءٌ اخْتَرَقَتْ رُمُوشَهُ صَابِغَةَ الْمَشْهَدِ أَمَامَهُ بِالْأَحْمَرِ
الْقَانِي.. لَكِنَّهُ مَيَّزَ الْمُخْبِرَ.. يَقُومُ مِنَ الْأَرْضِ مَخْتَلِ التَّوَازُنِ ثُمَّ يَنْحَرِّكُ
نَحْوَهُ شَاهِرًا هِرَاوَةَ غَلِيظَةً يَعْرِفُ عَبْدَ الْقَادِرِ تَمَامًا وَقَعَهَا عَلَى الرَّأْسِ..

نَادَتْ أَعْصَابُهُ عَلَيْهِ لِيَتَقَبَّضَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ .. شَهَقَ نَفْسًا فَلَمْ يَسْتَقْبَلْهُ
صَدْرُهُ .. بَاتَ الْمُخْبِرُ عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ مِنْهُ فَرَفَعَ هِرَاوَتَهُ وَهُوَ يَصِيحُ
بَسْبَةً لَمْ تَصِلْ إِلَى أُذُنِهِ .. أَغْمَضَ عَبْدُ الْقَادِرِ عَيْنَيْهِ مُسْتَسْلِمًا لَخِيطَةِ لَمْ
تَصِلْ .. حِينَ فَتَحَهُمَا وَجَدَ الْمُخْبِرَ مَتَكُومًا بِجَانِبِهِ بَعْدَ أَنْ تَلَقَّى ضَرْبَةً
رَضَّتْ فِيهِ شَيْئًا مَا .. نَظَرَ يَمِينَهُ فَرَأَى أَحْمَدَ يَجْذِبُ يَاقَتَهُ مُسْتَحْثًا إِيَّاهُ أَنْ
يَقُومَ .. اسْتَجَابَ عَبْدُ الْقَادِرِ بِضُعُوبَةٍ وَهُوَ يَسْتَقْبِلُ أَوَّلَ الْأَصْوَاتِ فِي
أُذُنِهِ .. خَافَتِ مَرْتَعِشَةً لَكِنَّهَا كَافِيَةٌ لِيَتَأَكَّدَ أَنَّهُ حَيٌّ ..

الخطبة «ب» .. اركض.

قَامَ عَبْدُ الْقَادِرِ مُسْتَنِدًّا عَلَى أَحْمَدَ وَرَكَضَا تَجَاهَ شَارِعِ التَّرْهَةِ .. اخْتَرَقَا
ذَهُولَ النَّاسِ وَفَضُولَهُمْ يَمْشُونَ عَكْسَ الْإِتْجَاهِ لَا تَكَادُ الْعَيُونَ تَتَبَّعُهُ
لَهُمَا .. حِينَ بَلَغَا الْخُرَابَةَ تَوَقَّفَ أَحْمَدُ عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ يُرَاقِبُ عَبْدَ الْقَادِرِ
الَّذِي دَخَلَهَا .. زَمِيلٌ كِفَاحٍ خَلَعَ عَنْهُ مُسْتَرْتَهُ السَّوْدَاءَ وَالطَّرْبُوشَ .. الْبَسَهُ
سِتْرَةً رَمَادِيَّةً وَكَاسَكِيَّتَ أَخْفَتَ جِرْحَ جَبْهَتِهِ وَأَخَذَ مِنْهُ الْمَسْدُسَ حَسَبَ
التَّعْلِيمَاتِ .. خَرَجَ بَعْدَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ فَأَشَارَ لَهُ أَحْمَدُ أَنْ يُكْمَلَ السَّيْرَ فِي
نَفْسِ الْإِتْجَاهِ .. مَشْيًا حَسَبَ الْخِطَّةِ حَتَّى لَمَعَا الْمَدْرَسَةُ .. كَانَ ذَلِكَ
حِينَ التَّقَطَّ أَحْمَدُ صِبَاغَ الْمُخْبِرِ مِنْ وَرَائِهِ .. يُزِيحُ النَّاسَ وَمِنْ خَلْفِهِ
رُجُلًا بُولِيْسَ انْضَمًّا إِلَيْهِ مِنَ الْعَدَمِ وَمَلَأَ الْأَجْوَاءَ صَفِيرًا .. قَدَّ عَبْدُ الْقَادِرِ
خُطَوَاتَهُ مَقَاوِمًا التَّرْنِجَ وَمِنْ وَرَائِهِ أَحْمَدُ .. يَتَابِعُ الدَّمَاءَ الَّتِي تَنْهَرُ عَلَى
هُنُقِ زَمِيلِهِ .. النَّفْتُ فَوَجَدَ الْمُخْبِرَ قَدْ اقْتَرَبَ مَعَ زَمِيلِيهِ فَنَظَرَ إِلَى شَارِعِ
مُزْدَحَمٍ مَنفَرَعٍ مِنْ شَارِعِ التَّرْهَةِ ثُمَّ صَاحَ فِي النَّاسِ بِعَرَبِيَّةٍ رَكِيكَةٍ: الرَّجُلُ
الَّذِي رَمَى الْقَنْبِلَةَ هُنَاكَ .. وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى كَوْمَةٍ مِنَ الْبَشَرِ يَسِيرُونَ .. هَرَعَ
النَّاسُ كَيْسَرَبَ سَمَكٍ مَتَنَاعِمٍ إِلَى الشَّارِعِ .. تَحَبَّتْ مَوْجَةُ الْبَشَرِ زَمِيلِي

المُخبِر وإن أكمل الأخير طريقه في نفس الاتجاه.. خلف عبد القادر..
يُوقف الناس وينفحص الوجوه بحثًا عنه.. خلع أحمد سترته الإنجليزية
وقبّعته فألقاهما في صندوق زباله ورفع يافته.. بدا بدون طربوش
كأفندي نسي قواعد اللياقة.. سار مُسرّعًا متابعًا عبد القادر حتى
أمسك بهرفقه وانعطف به تجاه مدخل المدرسة.. أشار إلى الباب ثم
التفت خلفه ووقف في ركن غائر في الحائط.. كان ذلك حين انعطف
المُخبِر.. انتظره أن يعبر أمامه ثم ناداه:

- يا حضرة.

التفت المُخبِر فنلقى لُكمة خاطفة في ذقنه أخلت بتوازنه للمحظات
كانت كَفيلة أن لا يلحظ عبد القادر وهو يدلف إلى المدرسة.. تلقاه
أحمد بين يديه وأسدله على الأرض ثم أشار لجمع من الناس يقفون
على بعد: يا إخواننا الراجل سُورق الله بكرمكم.. أقرب استبالية.

ألقاه أحمد بين أيديهم خائر القوى ثم عبر الشارع وتوارى خلف
شجرة.. فسي تلك اللحظة صار عبد القادر أمام دولت وجهًا لوجه..
كانت مُمسكة برُسخ شاب صعيدي شارِد برتدي جلبابًا ذاكنا ويحمل
ملايحها.. لما رآته تصارعت الفرحة في وجهها والقلق.. التفت إلى
ياسين وقالت:

- ارجع البلد الله يرضى عليك عشان أُنك وأوعدك هانزل آخر
الأسبوع أتحدث معاك كيف ما تريد.

قالتها ودفعته برفق خارج المدرسة مُطمئنة إياه بعينيها أن لا يقلق
وأشارت لبواب المدرسة: اقل الباب يا عم عاشور.

تابمها ياسين في دھول وهي تُسائِد عبد القادر الذي يترنح بين يديها.. التفتت إليه وهزّت رأسها بابتسامة حتّى واره الباب فسحّبت عبد القادر إلى غرفة تقع تحت بشر سلّم.. أغلقت الباب عليهما وأمسكت بوجهه تتأمل عينه التي امتلأ بياضها بالدم، وجرح جبهته النازف.. أنت كويس؟ سألته فهزّ رأسه نفيّاً ثم أردف بإعياء: أنا بحبك يا دولت.. تبيست للحظة ثم أفأقت فأخرجت منديلاً من جيب حبرتها وكبسته على الجرح فيما كان يتأملها بوهن وعينين تخبوان.. أجلسته على الأرض وراء يانوس كبير: ما تتحركش لغاية ما أرجع.. هزّ رأسه بضعف فخرّجت وأغلقت الباب بالمفتاح.. صعدت إلى فصلها تتأمل من شبائيكه قوأت البوليس وهي تمسّط المنطقة بحثاً.. على الرصيف المقابل كان أحمد واقفاً خلف الشجرة.. يتابع باب المدرسة والشارع والمُخبِر الذي بدأ يفتق بين أيدي الناس.. حاول السيطرة على انفعاله حين لحق به زميله من البوليس ليوقفاه على قدميه ويستفهما.. أشار المُخبِر بيد إلى باب المدرسة ويده الأخرى للاتجاه المُعاكس فتفرقا كلٌّ إلى وجهته.. راقب أحمد المُخبِر وزميله يقتربان من باب المدرسة حين اصطدما بشاب صعيدي خارِج منه.. أمسكاه فبدأ في أيديهما قاهلاً مُريباً.. خلع المُخبِر لبدته من فوق رأسه وألقاها أرضاً ثم أمسك أذنيه ليفحص وجهه فتشج الصعيدي وعبت ملامحه قبل أن يدفعه.. أوقعوه أرضاً وكملا أيديه خلف ظهره ونفخت صفارة.. لحظات وحضر رجل بوليس آخر استلم الصعيدي.. أما المُخبِر فضرب باب المدرسة عدّة مرات.. انفتح فتبادل مع البواب كلمتين قبل أن ينحيه بقوة ليدخلا.. نظر أحمد لدولت في الشباك.. شحّب لونها حين

فهمت.. خرج رَجُل البوليس ونفخ صفارته عدّة مرات فجذبت زملاءه
الذين انتشروا في المنطقة كالنمل.. هروا إلى المدرسة فهوى قلب
دولت وهي تنزل السلم بحذر وسط موجة الطالبات تراقب البواب
بين أيدي رجال البوليس يُمسكون يافته ويُكيلون له التهديد والوعيد..
بأدلهما نظرة يأس وهو يتابعهم يحومون حول الغرفة التي يقبع فيها
عبد القادر.. شهبوا الأسلحة وصاحوا أن سلم نفسك.. وأن المكان
مُحصّر.. ثم استجمعوا أمرهم وضرب أحدهم الباب بكعب بندقيته
قبل أن يدخلوا مُسرعين.. لم تسمع دولت مقاومة أو أنيناً.. فقط وقع
خبطة على رأس.. لحظات من الصمت خرج بعدها رجلان يجبران
عبد القادر من قدميه.. يدها مقطورتان خلفه وجسده مرخي والدماء
ترسم من خلف رأسه خطاً متعرجاً على البلاط.. بضعوبة كتمت
شهقتها تحت البرقع وتكومت التلميذات من حولها يتابعن المشهد
المثير قبل أن يتابعه أحمد في الشارع وهم يسحبوه إلى سيارة تنتظره
أمام الباب.



سري.. لمرّة ١٣٢

القاهرة في ٦ مارس سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- غادر صباحاً من ميناء القاهرة الجوّي اللورد «ملتر» رئيس لجنة التحقيقات في أسباب الثورة.. اتجه إلى لندن مع أفراد لجنته بعد أن أنهى تحقيقاته والتي لم يجد فيها أي تعاون من أي مصري شريف.
- لسيّ معلومات تفيد بأنّه سيقدّم تقريره للملك في لوندرة^(١) لم يفتح المفاوضات مع الحكومة المصرية منتجياً الوفاء.
- تم تغيير أسلوب المراقبة على أعضاء الوفد ونتوقع اعتقالات في المرحلة المقبلة.. سيتم إخطار سيادتكم بالأسماء المقترحة لحل محلنا في حالة الاعتقال.
- تم إعلان الرقابة على الصحف من جديد.

عهد الرحمن فهمي

(١) لوندرة: لندن.

انعكست صورة سعد زغلول على زجاج النافذة، في كامل هندامه رغم الإرهاق المتوغل في ملامحه، شاردًا يحشو بفرته تبغًا وهو يرمق جسر «واترلو» المتهالك الغابر فوق نهر التايمز، الثلوج كست أشجار خديقة فيكتوريا العامرة وأسطح الأبنية وقعات المازة، أشعل تبغه ثم سحب نفسًا وهو يُراجع في قرارة نفسه مآل إليه أمر وفده، منذ خضر إلى باريس وهم يُعاملون مُعاملة الدول المغلوبة في الحرب، رُفض استقبالهم في المؤتمر وحُرموا من حق تقرير المصير الذي نالته دول أخرى أقل أهمية، هذا بخلاف تجسّس الإنجليز عليهم في كل لحظة ورفض منحهم حق التحرُّك إلى أنحاء أوروبا لإعاقتهم عن عرض قضيتهم، خريف سريع زحف على حلم الاستقلال ونفوس أصدقائه ومعاونيه، حاصرهم اليأس، يلمس اصفرارهم بين يديه يومًا بعد يوم كأوراق شجر ماضية إلى دُبُول، مما اضطره إلى فصل بعض الأعضاء الجزعين لتأثيرهم السلبي على البقية التي تقاوم الجفاء والتجاهل اللذين مارستهما وفود الدول، رجال باردون مختالون كالإوز دعاهم الوفد إلى اجتماعات ومآدب مؤلّتها تبرّعات الأمة لعرض قضية مصر ورغبتها في الاستقلال، دعوة لم يُجيبها إلا مندوب إيطاليا مُجاملة

ورفضها الباقون بدبلوماسية! أما الجرائد فأغلبيتها مؤالية للإنجليز،
تطعن الوفد بادعاءات قحواها أنه حركة مُوجَّهة في الأصل ضد
المواطنين الأوربي، وأنها ذات صبغة دينية عُنصرية! كان ذلك قبل أن
تنتهي لجنة التحقيقات بقيادة وزير المُستعمرات «ألفريد ميلنر» من صُنع
ملف تحقيق عما حدث أثناء الثورة، وتُقرر فتح المُفاوضات مع مصر،
ليس مع سعد زغلول بل مع الحكومة المصرية متمثلة في شخص
«عدلي باشا يكن».

أيقن سعد أن اللعبة مماثلة، سياسة يُمارسها الإنجليز منذ احتلوا
مصر، ما أسهل صُنع شرح بين ضقتي أمة رابكة، حُكومة وشعبًا، أعضاء
وفد، تنثر بذور الخلاف فتتوه الأراء وتشتعل منافسات السطوة، كان
عليه الاختيار، إما التصميم على أن المُفاوضات لا يصح أن تتجاوز
الوفد الذي فوّضته الأمة بالتوكيلات، أو أن يندمج مع مُمثل الحكومة
الرسمي حتّى يفوّت الفرصة على الإنجليز في دق إزميل الشقاق.

قطع أفكار سعد خبط على الباب، دلف شاب شعره مفروق بيسكين
ويدها مثلجتان رغم القفاز الذي صافح به سعد:

- مساء الخير يا سيدي... الفيكونت^(١) «ميلنر» يتظرك
في الصالون.

تبعه سعد في طرقة طويلة ثم مصعد نزل بهما إلى الدور الثاني
قبل أن يتوقفا أمام باب جرار لصالون فخم، التفت الشاب لسعد ثم

(١) الفيكونت: رتبة من رتب النبلاء.

ضَمَّ كَفَّيْهِ فِي ابْتِهَالٍ مُهْذَبٍ وَهَمَسَ: سَيَكُونُ كَرَمًا مِنْ سَيَادَتِكَ أَنْ تَطْفِئَ السَّيْجَارَةَ.

رَمَقَهُ سَعْدٌ يَهْدُوهُ قَبْلَ أَنْ يَسْحَبَ مِنَ السَّيْجَارَةِ نَفْسًا طَوِيلًا جَدًّا ثُمَّ يَدْفِنُهَا فِي رِمَالٍ مَطْفَأَةٍ نَحَاسِيَّةٍ مَحَاوِلًا السَّيْطِرَةَ عَلَى أَعْصَابِهِ، ابْتَسَمَ الشَّابُّ ثُمَّ جَذَبَ الْبَابَ الْجَرَّارَ، فِي الدَّاخِلِ كَانَ الْفَيْكُونَتُ «مِلْنَر» يَجْلِسُ فِي كُرْسِيٍّ وَثِيرٍ غَاطِسٍ مِنَ الْجِلْدِ الْكَابِتُونِيَّةِ، رَجُلٌ فِي أَوَاخِرِ الْعَقْدِ السَّادِسِ، عَيْنَاهُ حَادَتَانِ جَرِيَّتَانِ وَشَارِبُهُ كَثِيفٌ يَنَافِسُ شَارِبَ سَعْدٍ، يَرْتَدِي بِدَلَّةٍ كُحْلِيَّةٍ مَقْلَمَةٌ تَحْتَهَا صَدِيرِيٌّ وَفِي يَدِهِ أَوْرَاقٌ يُطَالِعُهَا عَبْرَ نَظَّارَةِ مُسْتَدِيرَةٍ اتَزَلَقَتْ عَلَى أَنْفِهِ وَبِيَدِهِ الْآخَرَى سَيْجَارٌ مُسْتَعْلٍ!

التفت سعد بغتة للشاب الذي طلب منه إطفاء السيجارة فلم يدرکه، كان قد أغلق الباب عليهما، انتبه ملنر لصوت الباب فتحنى الأوراق جانبا وقام مادًا يدا كسولة إلى سعد:

- سعد باشا.. سعيد بمقابلتك.

- أشكرك يا سيادة الفيكونت.. كنت أظن قبل أن أدخل أنك لا تُدخِّن! سكرتيرك للتو طلب مني إطفاء...!

قاطعہ الرجل: نعم نعم.. غريب أنني أدخِّن الآن أمامك.. لكنني في الواقع أكره دخان الآخرين.. يكون مُحَمَّلًا بِثَانِي أَوْ كَسِيدَ الْكَرْبُونِ.. عَبَّقَ أَنْفَاسَهُمْ.. وَضَغَاتِنِ يَحْلُو لَهُمْ أَنْ يَنْفَسُوها فِي سَقْفِ غُرْفَتِي.. لَكِنْ اسمح لي...

فقطع الرجل كلماته واتجه إلى صندوق خشبي فتحه وأخرج منه سيجارًا ثمينًا.. التقط مقصلة صغيرة من فوق المكتب قطع بها طرفه ثم لوح به إلى سعد.

- أنت ضيف استثنائي يا سعد باشا.

نظر سعد في عيني الإنجليزي لحظة طالت حتى أناخ الرجل
السيجار بين أصابعه وابتسم ثم تمشى إلى منضدة تحمل زجاجات:

- يبدو أنك تفضل السيجارة المعتادة.. لعلك تريد كأسًا؟
نبيذ؟ سكوتش؟

- أشكرك.

- كما تريد... كيف حال صحتك؟ سمعت أنها مُتَعَلَّة قليلًا.

- طقس لندن لا يُفيدني.. لكنني أتحسن.

- تمنياتي لك بدوام الصحة يا باشا.. لنجلس.

صبَّ الرجل لنفسه كأسًا ثم جلس بجانب سعد.. قرأ عِدَّة أسطر من
أوراقه مُتظاهراً بالانشغال ثم وضعها جانبًا وخلع نظارته:

- مِستَر ديفيد لويد جورج رئيس الوزراء يُرسل إليك تحياته.. كان
يُريد أن يُقابلك لكنك بالطبع تتخيل ازدحام جَدُوله.. هل تستمتع
بالإقامة في لندن أنت ورفاقتك؟

- نستطيع أن تسأل عيونكم التي نحوم حولنا طوال الوقت.

- حِمَاية الوفد المصري من أولوياتنا يا باشا.. قل لي.. إلى أين
ينوي وفدك أن يتجه بعد لندن؟ عودة إلى مصر؟

- ليس بعد أن نجد مُستمعًا رشيديًا يؤمن أن مصر تستحق مكانها
تحت نور الشمس.. وأن تعترفوا صراحة بإلغاء الحِمَاية
بلا مِماطلة أو تملُّص.

- دعنا من الديباجات السياسية التي تقولونها للصحافيين في
مآذبيكم يا باشا.. ألا ترى معي أن الذي حدث في الشهور الماضية
يُعدُّ مُعْجِزَةً.. يتم اعتقالكم في مارس ١٩١٩ ثم يتم الإفراج عنكم
بعد شهر.. والآن ترون أنفسكم في لندن تُستقبلون استقبالا لم
تعهدوه.. أليست الحياة مليئة بالمفاجآت السارة؟!

- أولا.. اعتقالكم لنا ليس بوجبة تُشكرون عليها.. ثانيا.. استقبالكم لنا
في بلدكم ليس مُعْجِزَةً بل هي مُفَاوِضَات مُلْزِمة.. ثالثا.. كلماتي
تلك ليست ديباجات سياسية بل هي مطالب أمة وتحفظاتها
على مذكركم التي قدمتموها والتي تُرْسِخ الاحتلال والحماية
بمُستَيات مُختلفة.. نحن هنا نبحث عن حق ضائع وقانون يحمي
أمة تُعاني.

خلع الرجل نظارته وابتسم: كيف لم تهين لك خبرتك الطويلة أن
تعرف أن مصر ليست بعد دولة قادرة على إدارة نفسها؟

- أقوانينك تهين لك إصدار أحكام نهائية على الشعوب
وتحديد مصائرهم؟!

- فيما عدا الوصايا العشر التي نزلت من السماء كل قانون هو أمر
ينسبى يتغير مع الزمن.. يضعه الأقوى حسبما يجد المصلحة
العامّة التي يراها بشكل أكثر وضوحا.

- مصلحة إنجلترا الشخصية.

- مصلحة إنجلترا هي مصلحة مصر.

احتد سعد: تلك هي الديباجات الصحفية.

- في الأيام القادمة ستشاهد الوضع الاقتصادي في مصر وكيف سيتغير للأفضل تحت إشرافنا.. ولا تُنكر أن مصر استفادت الكثير طوال الحرب.. على الأقل سددت الكثير من ديونها لفرنسا وإنجلترا.

- استفاد أغنياء الحرب.. أما الفقراء فأكلوا التراب.. هناك ما يزيد على مليون شخص أخذوا من أراضيهم وماتوا في خدمة جيوشك.. الرب لا يرضى عن تلك المهانة.

- دَعِ الرب جانباً فلا شأن له بتلك المسألة.. فالله لو رآها فكرة ظالمة لنتكلم.. أما عن الذين ماتوا فهي الحرب يا عزيزي.. كما أن السلطة العسكرية دقعت لهم الرواتب مُقابل خدماتهم.

- هراء.. ذهبوا بالسُّخرة وماتوا بلا ثمن.. وجودكم أصبح غير مرغوب فيه.

- الوجود البريطاني طفل تَمَّت ولادته مُنذ ثلاثة وثلاثين عامًا الآن... قاطعه سعد: طفل غير شرعي.

- لكنه وُلِد.. وكبر.. هل تستطيع أن تقتل طفلاً غير شرعي.. يجب أن تعلم التعامل معه.. بجانب أنه أخذ على عاتقه إدارة بلادكم بمنتهى الحكمة.. هل تخيل أمر مصر إذا دخلت الحرب الكبرى بدون راع يعمل على حمايتها؟ هل تفضل الرجوع تحت العباءة العثمانية من جديد؟ بلادكم يا باشا ومركزها الجغرافي يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها.

- فقررتم أنتم يا فاعلي الخير أن تحتلوها خوفاً عليها.. أرجوك يا سيدي لا تتحايل بالمعاني فأنت تعلم أن مصر أمة جربت

الاستغلال لعقود من قبل ولم تنهوا.. وكلانا يعلم أنكم حين دخلتم مصر دخلتم تحت غطاء تأديب عرابي وقمع ثورته.. والآن حجتكم انتهت ومات أصحابها.. لِمَ لا ترجعون بلادكم وتبقى الصداقة فيما بيننا؟

- إنك تطلب شيئاً كبيراً مُقابل لا شيء.. ماذا ستقدم مصر بالمقابل؟ صداقة! وماذا تملك مصر غير الصداقة؟ أي مجنون يرغب في مُعاداة التاج البريطاني بعد النصر الساحق الذي حققناه؟ بأي حال أنا لم أقابلك اليوم لنناقش فلسفة الوجود البريطاني الذي لا تقدرون قيمته فلست أنا الشخص المناسب لتلك المهمة...

قاطعه سعد بحدة: ومن هو هذا الشخص المناسب؟ مليكك جورج الخامس؟

- نعم.. ولك أن تسأله بنفسك إن استطعت.

- هذه ليست دبلوماسية!

- سمّها ما شئت فكما قلت لك لم آت لمناقشة فلسفة الوجود.

قام سعد من مكانه.. أغلق أزرار المعطف استعداداً لإنهاء المقابلة: حسناً لماذا إذن طلبت الاجتماع؟

قام الرجل واتجه لمكتبه: لأن لديّ رسالة من أجلك.. وعرضاً.

زفر سعد في ضيق فأردف الرجل: من فضلك.. اجلس.

جلس سعد فالتقط الرجل من فوق مكتبه تلغرافاً نظر فيه ثم اقترب من سعد وأردف:

- اليوم صباحًا أرسل لورد ألباني برفقة من مصر.. بالطبع تعرف فحواها.. قبل العاشرة صباحًا حدثت محاولة اغتيال أخرى لوزير الأشغال العمومية محمد شفيق.. تم القبض على الجاني وهو شاب اسمه عبد القادر شحاتة.. يعاني ارتجاجًا في المخ وسيتم استجوابه قريبًا بسجن الاستئناف.. بالطبع سيرفض الاعتراف بأنه ينتمي لمنظمة اليد السوداء.

- وما شأني بذلك؟

- هل تنكر معرفتك بمنظمة اليد السوداء؟

- هل هذا تحقيق؟

- هل تدرك كيف تضر الأعمال الطائشة بالقضية؟

- لا أستطيع لوم من يرى أن تولي الوزارة بعد كل ما حدث في مارس الماضي هو الخيانة بعينها.

- لا تنس أنك توليت وزارتين من قبل يا باشا.

- هذا صحيح.. كنت أعمل من أجل مصلحة بلادتي حين كنتم تتوغلون في المناصب التي نصّب كلها في سلتكم.. كنا نؤمل فيكم خيرًا ونظنكم تعزّمون الرحيل فإذا بكم تعزلون الخديوي بأمر من ملككم وتولون سلطانًا بلا سلطة حقيقية.. رجالًا لا يمثل سيادة مصر بل سيادة إنجلترا.. أي أننا الآن نشاهد جورج الخامس وهو يفاوض جورج الخامس.. ثم تعلنون الحماية وتخوضون بنا حربًا شعواء كثر فيها جرحانا وموتانا.. وأخيرًا تنوون البقاء بزعم أن مصلحتنا مشتركة! أي مصلحة مشتركة

وأنتم تغتصبون ثلاثة عشر مليون نفس فوق ثلاثمائة وخمسين ألف ميل مُربَّع بمواردها؟ تنشُدُّقون بمبدأ تقرير المصير الذي زعم الرئيس الأمريكي أنه حق لكل الشعوب ثم تستثنوننا منه.. لا بد هنا من وقفة يا سيدي الفيكونت.. تولي الوزارة من بعد كل تلك الإهانات يُعد بالفعل خيانة لمصر.

- إذن أنت توافق على الاغتيالات السياسية؟

- أنت تبحث عن نُهمة لتلصقها بالوفد.

- بالنسبة لشخص اشترك من بعد انقلاب عُرابي في...

قاطعه سعد: حركة عُرابي لم تكن انقلاباً.. قلب وضع معكوس يُسمَّى اعتدالاً

- أباً كان المُسمَّى.. من اشترك في منظمة تُدعى «الانتقام» بالطبع يرى الحياة من منظور متطرّف.

- مستر ملتر.. إذا كان لديك تحفظات على شخصي فلم اجتماعنا؟
لم لم تتحدّث مع ممثل الحكومة عدلي باشا يَكن في ذلك الأمر؟
ظل ملتر ضامناً بحسب كلماته حتى نغزه سعد:

- إذا كان لديك من أجلي رسالة فمن الأفضل أن تُبلغها.. لا أملك وقتاً للجدال العقيم.

- الرسالة التي أود إبلاغك بها هي أن عيوننا ترصد الاغتيالات بدقّة وستصل قريباً إلى خيط متين نتبعه.. وإن لم تتوقف تلك الأعمال المُتطرفة سيكون لنا رد فعل ليس في صالح وفدك أو القضية.

- أهذه رسالة أم تهديد؟

- بل هو الواقع الجديد.. نحن نملك معلومات عن كل العاملين في الوفد.. بداية من سكرتير اللجنة المركزية السيد عبد الرحمن فهمي لأصغر معاونين.. صدّقني إذا قلت لك إن ملفاتهم تتضح يوماً بعد يوم كثير منهم يلتهم كل ما يراه.. مسألة وقت قبل أن يتم الزجُّ بهم في السجون.. إذا أردت برفاقتك خيرًا فلتوجد طريقة للتعاون.

- وماذا أنتم فاعلون بعد ذلك؟ أستمثقون شعب مصر كله؟

- أعوانك في الوفد قد يواجهون تهمة خيانة عظمى تصل للإعدام.. وكل من تسول له نفسه الإضرار بمصالح الإمبراطورية سيقطع رأسه.

- اقطع رأسًا وسينمو بدلًا منها عشرة.

- اعتقد أنك لا تدرك خطورة ما تقول يا باشا.

- بل أدرك كل كلمة أنفوه بها.. وقد سمعت رسالتك فما هو العرض؟

- حسنًا.. العرض هو العودة لبلدك الذي بالطبع تفتقده.. زوجتك.. بيتك.. تهدئة الأوضاع والنفوس.. العمل على الاستقرار والبناء من أجل المصلحة العامة.. المساعدة في إبعاد رفاقك عن السجون.. وربما لاحقًا.. المنافسة المضمونة على العرش.

- العرش؟

- ولم لا؟ ففكر جيداً.. ألم تحلم يوماً ببصري يتولى عرش بلاده؟
فلاح بسيط يحكم بالعدل.. من يستطيع ذلك غير سعد زغلول؟
أنت رجُل ذو شهرة ومكانة لا بأس بها.. لم تُضيّع ما تبقى من
عُمرك بسبب العناد؟ لم لا تختم حياتك بمنصب مرموق واسم
يُكتب في التاريخ بين الزعماء بدلاً من التمسُّك بسرَّاب خالم
تعرف جيداً أنك لن تجد عنده ماء.

خدجه سعد مُضيقاً عينيه: إنني أفضل أن أكون خادماً في بلادي
المستقلة على أن أكون سلطاناً مُستعبداً في بلادي المحتلة.

- لم تخلف ظني.. عنيِد وخالم وتعشق الدياجات الصحفية التي
تُطبع منشورات لتقرأ ثم تُلقى على الأرض لتدهشها الغيول.. إن
كُنْتُ خائفاً من أن يقول المصريون لقد لفظ سعد زغلول مبادئهِ
فأنت لا تعرف الشعب المصري.. عاش السلطان مات السلطان..
ذلك دسنوركُم.

- أنت لا تعرف شيئاً عن شعبي.

- ها أنت تقول شعبي.. هذه بداية طيبة.

- وفّر علي نفسك كلمات لن تجني منها طائلاً يا سيد ملنر.

- بل وفّر علي نفسك وعلى وفدك غناء تسوّل التبرعات والتسكُّع
في أوروبا لاستجداء التعاطف.. أتعرف معنى أن تكون سلطاناً؟!
لن تكثرث للنقود من اليوم ولن تُعبأ بقرض بنك «كريدية ليونيه»
الذي يُثقل كتفك.. ثمانية آلاف وخمسمائة جنيه هه؟ ستؤني

صَلاحيات لم تُجَزَّ لأحد من الأسرة المالكة قبلك .. نفوذ حقيقي
يَجعل منك حَاكِمًا فريدًا من نوعك .. ستفعل ما تشاء كيفما
تشاء .. سيُسطر اسمك في التاريخ كأول حاكم مصري يحكم
مِصر في العصر الحديث .. ستُدفن وستُخلَّد ذكراك في ضريح
عظيم تأتي من أجله الوفود للقاء نظرة على جَسَدك بدلا من
مقابر قرينك الصغيرة.

رَمَقه سعد للحظات بلا تعبير ثم قام .. أخرج من جيبه عُلبة صَجاثره
وَوَضع واحدة في فمه .. أشعلها وتفت دخانها باستمتاع في السقف ثم
تمشى بهدوء نحو الباب قبل أن يلتفت:

- أتعرف .. قرض «كريدية ليونيه» أصبح سبعة آلاف ومائتي
جنيه الآن.

- هل هذا هو ردك الأخير؟

ابتسم سعد: هو كذلك.

قالها وخرج .. توقف أمام مسكر تير الفيكونت ملشر .. رَمَقه بازدراء
قبل أن يسحب من السيجارة نفْسًا طويلاً ثم يُسْقِطها على الأرض
ويدهسها بنعل حذائه.



بعد يومين

حمام الثلاثاء

البُخار كان يكسو الهواء الساكن، تغذيه مياه ساخنة تضخها
مواسير تمر من تحت مُستوقد للقمامة مجاور للحمام، تشتعل فيه
النفايات فتنتقل الحرارة إلى المواسير التي تصب بدورها في مغطس
حجري واسع تستحم فيه الأجساد ثم تستلقي من حوله على البلاط
عارية إلا من فوط تداري الغورات، نائمة على وجوها في استرخاء
مُستسلمة لأيدي رجال غلاظ يفركون جلودها بليف خشن وأحجار
تستخلص الخلايا المتهالكة والعرق والإرهاق لتبث النشوة والنشاط.

عبد الرحمن فهمي كان مُلتحفًا بشكيرًا كبيرًا لم يخف قلقه، يجلس
على مصطبة حجرية في ركن، صامتًا غابسًا كحجر، يتأمل رواد المكان
المتنشين بالبخار ويتابع عقارب ساعة نحاسية استقرت بجانب محفظته
ونظاراته، دقائق لم تطل حتى حُصر أحمد يلف خصره ببشكير لم يخف
ندبات وخياطات المعارك القديمة، أبطأ خطواته حين التفت أعينهما
فهزَّ عبد الرحمن فهمي رأسه مطمئنًا فاقترب أحمد، جلس بجانبه
بعد أن جذب منشفة غطى بها شطر وجهه المُواجه للمغطس ورواد
الحمام، كمح عبد الرحمن ماسورة مُسدس ملفوف حول فخذ أحمد
فهمس بدون أن ينظر في وجهه:

- ذاري سلاحك .

أخفاء أحمد: ليه غيرنا مكان المقابلة؟

- المراقبة عليًا اتغيرت .. تضاعفت .. فيه حاجة بتحصل .

- اختراق؟

- أو اعتراف .

- عبد الفادر ما يعرفش حاجة عن حضرتك .. ولو عرف ما ينكلمش .. أنا واثق .

- هو جاله ارتجاج وكان في شبه غيبوبة لغاية إمبراح .. ممكن يكون اتكلم تحت تأثير البنج أو سألوه أول ما فاق .. المتهمين بيكونوا في حالة ضعف وصراحة في اللحظة دي .. ولو مش هو اللي اتكلم يبقى فيه تسريب حصل من حد ثاني وده أخطر .. هو مكان خلتيه كان فين؟

- كافيه ريش .. مع ماكينة الطباعة .

- ودابرتة كانت كام شخص؟

- أنا وتلاتة .. من إمبراح وقفت نشاطهم مؤقتًا .

- لو جه اسم كافيه ريش في التحقيقات مكتب الخدمات هاعصروا العمال لغاية ما يعرفوا المترددين .. لازم تنقطع كل صلة بعبد الفادر والمكان .. هو كان بيبات فين قبل كده؟

تردد أحمد حين تذكر قصّة بيت بنبة التي حكّاها عبد القادر .. أردف:
- الموضوع مُعقّد شوية .. ناس مش هاساعدوه في شهادته .

- وبيت أهله؟

- أصعب... ما راحش هناك من سنة تقريباً وكل أهل الحي عارفين.

- لازم حد يشهد إنه كان ببيات عنده... لازم تنقطع نهائياً كل صلة

بيه وبالكافية... الاستجواب ها يبدأ من بكرة بحضور وكلاء نيابة

مصريين وإنجليز وميش عارف ها يقدر يستحمل في أيديهم لغاية

إمتى.. ده غير إن المحاكمة عسكرية.

أطرق أحمد برأسه للأرض... الاحتمالات تتخط في رأسه ككرة

تنس جُن جنونها في غرفة بلا شباك ولا باب... قطع عبد الرحمن

أفكاره: الفترة الجاية لازم يعرفوا إن واحد يقع بيطلع بداله عشرة...

خصوصاً إن الوضع مع أصدقائنا في باريس مش مُطمئن خالص...

جمود وتراجع.

توترت ملامح أحمد فقام وأحكم البشكير على وسطه: هادرس

العملية الجاية وأوفي حَضرتك بالتفاصيل.

- خلّي بالك على نفسك.

رَحَل أحمد مُتخطياً ستائر البخار وفُصول المُستقلين وسَفْحاً حَادّاً

لا أرض بعده.



بعد أسبوع

غرفة التحقيقات بسجن الاستئناف

استوى على كُرسيه في هزال وضعف، الأصفاد في قدميه ثقيلة ضيقة ومربوطة في خصره ويديه، في مواجهة دائرة الضباط المصريين بالإضافة لوكيل حكمدار القاهرة آرثر باشا، يُترجم بينهما مترجم مُعتمد ويُسجل الأجوبة كاتيب التحقيقات ومن خلف كتفيه مُخبران غليظان، يصفعانه إذا تبجح أو تذمر، وإذا لم يفعل شيئًا صفعاه ليفعل، بدا في حالة مُقلبة بين العُصب والإعياء من أثر الحجز الانفرادي وبقايا الارتنجاج، حُرب نفسية مارستها المحققون ببراعة استحلابًا لمعلومات لم ينطق بها رغم فقدانه أغلب أظافر يديه وكيّ تمشّى على باطن فخذه، بالإضافة لكدمات السحل الباقية من يوم القبض عليه والتي يصعب تمييزها عن رُضوض الانفجار الذي خلف له ارتجاجًا جعله يتقيأ طوال ليلتين ويستعر حرارة حتى حاصرتة الهللاوس، زاره أبوه «اليجن» في الزنزانة مرة، صامتا مثل آخر عهده به، صدره وبجبهته تزينا بالرصاصات الإنجليزية ينظر إلى شبّاك يتسلل منه ضوء الشمس ليلاً لم يكلمه لكنه نظر إليه وابتسم ثم أدار وجهه ثانية قبل أن تنوء ملامحه في ظلمة الغرفة.. غفا عبد القادر بعدها ثم عاد، عاد على صوت نداء

حارس يهمس من فُرجة في الباب برسالة: «اثبت يا عبد القادر وانكر صلتك بالقهوة».

أثناء التحقيق كانت الأسئلة تنطلق منهم جميعًا في وقت واحد، كالإعدام رميًا بالرصاص الكل يتنافس للفوز بالقلب، تتنوع استفهاماتهم بين السؤال المباشر والخبث، أو التهديد، أنكر عبد القادر ألف مرة وجود شركاء له: «أنا ضربت عليه القبلة عشان يخاف.. عشان براعي رينا فينا وما يتولاها الوزارة.. طب والقبلة جبتها منين؟ اشتريتها من ظابط إنجليزي اسمه بيتر.. بيتر إيه؟ ما أعرفش.. تقدر توصف شكله؟ الدنيا كانت ضلّمة وكان لابس بيرييه.. طب لون شعره كان إيه؟ نقول طور يقولوا احلبوه! قلت لابس بيرييه! كنت ببات فين؟ كنت ببات كل يوم في مكان.. ليلة الحادثة قضيتها في سيدنا الحسين.. إيه صلتك باليد السوداء؟ ما أعرفهمش».

ثم طُرق الباب، دخل أحد المُخبرين ليهمس في أذن الضابط بكلمات قام على أثرها وتخرج، أكمل الباقي أسألهم لذائق قبل أن يعود الضابط ومعه رجل يحمل بين ضلوعه بذور الطاعون والكوليرا ووباء الإنفلونزا الإسبانية، دخل ينصف شال مكبوس تحت طربوش غير مُستو، لم يُخفِ وجهًا متعجّنًا أو عينًا يبيضها الحرق، بثّ النفور في وجوه الجالسين قبل أن يقف قرب المكتب الذي يجلسون خلفه، سأله الضابط الذي اصطحبه بعد أن سجّل اسمه في سجل التحقيق.. سلامة عبده نجانني.. الشهير بـ «سلامة النجس».

- تعرف الشخص ده؟

- إلا أعرفه.. عبد القادر أفندي.

- إحكي ظروف معرفتك بيه.. واللي أنت قلت لي عليه برّء.

نظر سلامة في وجه عبد القادر المحتقن فابتسم إليه مُطمئناً بغم
احترقت جوانبه ثم قال:

- عبد القادر كان عشرة عُمُر يا سعادة البيه.. زبوني.. راجل كسيب
وغاوي.. حاكم أنا عندي بيت مرخص في ذرب طياب.. القصد..
عبد القادر أفندي بعد أبوه الله يرحمه ما مات في المظاهرة...

قاطعه الضابط آرثر الذي تكلم لأول مرة منذ بدء التحقيقات:
مُظاهرة؟ سألها بعربية سليمة.

- أبوة يا سعادة الباشا.. المُظاهرة اللي كانت طالعة على بيت سعد
باشا في مارس.. حاكم أبوه كان فتوة كبير.. وشهرته الحين.

حين تُرجمت تلك المعلومة لآرثر انتبه.. نظر إلى عبد القادر متلمساً
ملايح والده الذي عرفه زمناً قبل أن يقتله بيده.

أكمل سلامة:

- شوف يا باشا بقى البني آدم وقلة الأصل.. بعد ما مات أبوه أويناه
وصرفنا عليه لأنه ما كانش ينفع يرجع حتته حاكم كان بيشتغل مع
مُعسكر إسماعيلية والأهالي غضبانين حبتين.. الكلام ده كان قبل
ما يهاجمه بمترلوز.. وفي يوم أخشع البيه ابن الأصول ألاقيه
بيحشي قنبلة بالبارود.. بتعمل إيه يا عبد القادر أفندي؟ أنا لازم
أموت الخونة اللي كانوا السبب في موت أبويا وسمعتة ببيير طم

باسم سعادة البية الوزير.. يا عبد القادر أفندي اعقل يا عبد القادر
أفندي ما يصحّش.. رأسه وألف جزمة يعمل عمله.. بعيد عنك
يا سعادة البية الدويح الودن أمر من السحر.. هو ليه أصحاب
تشوفهم تشوف الخبل كده في عنيهم ما تفهم شياطين ولا مدرك
إيه.. المهم.. رُحت طارده وقلت له هابلخ البوليس.. وعنهما...

رمقه عبد القادر بلا تعبير.. خلايا جسده كانت تستعير ثم تنفجر
واحدة واحدة بصوت مسموع.. أكمل سلامة روايته في يقين:

- يقوم يعمل إيه؟ يضربني بلمبة مولعة جاز.. زي ما أنت شايف
سمادتك.. عاهة مستديمة.

وكشف سلامة عن حرقه فامتعض المحققون وأمره الضابط
المصري بتغطية عاهته.. أردف سلامة: الله يسامحه.. ربنا كريم
يا سعادة البية إن الباشا الوزير سليم وقع البعيد في أيديكم.. كله إلا
الدم.. إحنا لينا غيركم عشان نَقِل عقلنا.

ويكى سلامة بخرقه حقيقية فصجبه المُخبر إلى الخارج وهو يردد
أن له طلبًا عند الوزير وحلاوة سلامته من الاعتداء.

تم تسجيل شهادته وسؤال عبد القادر عنها.. أفاق من شروده بعد
دقيقة وكف عن جز أسنانه قبل أن يصرُح: معرّص نجس.

تم إنهاء التحقيقات بدون أن يُسمح لعبد القادر بالاستعانة بمُحام
إلا بمُحام إنجليزي عَيَّنه من أجله ورفض عبد القادر الكلام معه،
أضيفت شهادة سلامة ومُخبر مكتب الخدمات الذي ألقى القبض على

القادر وعسكريي البوليس اللذين طارده ولم تفلح النيابة في إقناع
مد من المارة أو أصحاب المحال بالشهادة على عبد القادر لتأكيد
حمة، رَفَضُوا تضامناً مع موقفه، بعدها بيومين تم تحديد ميعاد النطق
بحكم، في نفس اليوم الذي حَضَرَتْ فيه إلى سجن الاستئناف سيِّدة
ييلة، طلبت مُقابلة الضابط المسئول عن التحقيق مع عبد القادر،
سِتْ أمامه ورفعت الشبك من فوق عينيها ثم قالت بهدوء:

- عبد القادر يُسَحَّاتة يبقى عشيقي.. كان بيبات عندي في الشقة..
وكنا هانتجوز.



بعد ساعات

استقر عبد القادر مُكبَّل اليدين فوق كُرسي خَشبي وَسط عُرفة خالية.. لم يقترب منه أحد لساعة زَمَن سَبَّ فيها كُل مَنْ حَقَّقوا مَعَهُ حَتَّى أَرَهَقَ فطَاطاً رَأْسَهُ عَلَى صَدْرِهِ فِي صَمْتٍ.. لحظات والتقطت أذناه وقع خُطوات تقترب.. انفتح الباب عنها واقفة بين الضابط المصري الذي استقبلها وآثر الإنجليزي الذي أثار حضور اللقاء بنفسه.. تُرتدي فُستاناً أَحْمَرَ مَيَّزَ خَصَرَهَا.. فِي رُؤُوسِهَا كُحْلٌ وَفِي عَيْنَيْهَا عِشْقٌ لَمْ يَعْهده.. تنحَّى الضَّابطُ المِصرِي جَانِباً فَانْدَفَعَتْ نَاحِيَتُهُ وَالْأَصْفَادُ فِي يَدَيْهَا.. قام مَذْهُولاً مَحْبُوسِ النَفْسِ:

- دولت!!

لم يُكْمِل.. أَغْلَقَتْ فَمَهُ بِشَفَتَيْهَا.. أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا وَتَنَفَسَتْ فِيهِ.. ثُمَّ تَسَحَّجَتْ شَفَتَيْهَا وَطَعْنَتْ خَدَّيْهِ وَجَبْهَتَهُ وَهِيَ تَزْفِرُ: «حَبِيبِي» ثُمَّ نَهَمَسَ بِجَانِبِ أُذُنِهِ: «جَارِنِي».

همس عبد القادر: إيه اللي جابك هنا؟

أجابته بصوت يُسَمِعُ مِنْ خَلْفِهَا: ما كانش ينفع أسيبك تأخذ حُكْمَ وَيَفْتَكِرُوكَ مُنْظَمَ لِمُنْظَمَةٍ سِيَاسِيَّةٍ عِشَانِ تَدَارِي قِصَّةَ حُبِّنا.

أخرسه تصريحها.. جَاهِد عَقْلَهُ لِيَسْتَوِيب مَا تَقُولُهُ.. مَجْنُونَةٌ..
نَطَقَتْهَا عَيْنَاهُ فَحَرَكْتَ شَفَتَيْهَا:

- هَانُ رُوحَ أَنَا وَأَنْتِ فِي ذَاهِيَةٍ

نَظَرَ خَلْفَ كَتِفَيْهَا لِأَرْثَرِ الْإِنْجِلِيزِيِّ الَّذِي يَفْحَصُ مَلَامِحَهُ حِينَ
عَاجِلَتُهُ ذُولَتْ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ:

- أَنَا بِحَبِّكَ يَا عَبْدَ الْقَادِرِ.. مَشِ مَحْتَاجٌ تَبْقَى بَطْلُ عَشَانِ أَحَبِّكَ.. إِيهِ
الَّذِي عَمِلْتَهُ دُهُ يَا مَجْنُونُ؟

نَظَرَ إِلَى عَيْنَيْهَا الَّتِي تَرَفَرَفَتْ مَطَرًا فِي صَيْفٍ قَيْظًا! لَا يُمَكِّنُ لِنَلِكِ
الدَّمُوعُ أَنْ تَكُونَ كَمَالِيَّاتٍ مَسْرُوحَةٍ مُتَقَنَةٍ.. مِثْلَ بَارُوكَّةٍ وَقِنَاعٍ وَأَصْبَاحٍ
رَخِيصَةٍ تُقْنِعُ مُتَفَرِّجًا بِأَنَّ الْبَطْلَةَ تَفُورُ عِشْقًا فِي الْبَطْلِ.. السُّخُونَةُ الَّتِي
تَزْفُرُهَا.. الْإِبْتِسَامَةُ الْمُتَرَدِّدَةُ الَّتِي تُرْعِشُ أَسْفَلَ وَجْهَتَيْهَا.. الصَّمْتُ..
وَالْكَلِمَاتُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ.. اللَّعْنَةُ!! أَجِثْتُ الْآنَ لِنَتَقَذِيبِي يَا نَحْمَرِيَّةُ؟
لِتَقْتَلِينِي؟ لَا فَرْقَ.. فَالْأَقْدَارُ شَاءَتْ أَنْ أَزْهَدَ فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ مِنْ
أَجْلِ طَعْنَةٍ مِنْ تِلْكَ الشِّفَاهِ.. لَا بَأْسَ إِنْ كَانَ وَجْهَكَ آخِرَ مَشْهَدٍ فِي
الْمَسْرُوحَةِ.. لَا بَأْسَ إِذَا ضَمَمْتِكَ أَمَامَ الْجُمْهُورِ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ السِّتَانِ
آخِرَ يَوْمٍ فِي الْعَرْضِ.. كَأَنَّكَ حَبِيبَتِي.. اللَّعْنَةُ عَلَيَّ الْيَوْمَ الَّذِي ظَنَنْتُ
نَفْسِي فِيهِ بِحَارًا.. وَأَنَّكَ نَسَمَةُ هَوَاءٍ تَحْمِلُ عِطْرًا مُخْتَلَفًا.. لَمْ أَعْلَمْ
وَقْتُهَا أَنَّكَ مُقَدِّمَةُ إِعْصَارٍ.

- لِيهِ؟ لِيهِ يَا دُولَتُ؟

- مَشِ مُمَكِّنُ كُنْتُ أَسِيكَ.

اكتفى الضابط آرثر بما رآه فسحب ذلت من مرفقها وناولها للضابط المصري الذي أوقفها بجانبه.. وضع يده على كتف عبد القادر ليجلسه بحيث يكون ظهره إلى ذلت.. سحب كرسياً قبالة وجلس يُتابع وجهيهما قبل أن يُنادي المترجم ويشير للكاتب أن يكتب الأجوبة وراءه ثم وجه كلامه لعبد القادر: منذ متى وأنت تعرفها؟
- سنة.

- هل تعرف اسمها كاملاً؟ أين تسكن؟
تردد عبد القادر للحظة قبل أن يُقرر حكي قصته الحقيقية معها..
قصة عاشق حفظ تفاصيل محبوبته وعدّها عليها أنفاسها شهوراً:
- ذلت عبد الحفيظ فهمي.. من أبشاق الغزال المنيا.. ساكنة في شقة إيجار في الضاهر.. مُدرّسة إنجليزي في مدرسة الهلال..
بتحب يسمر محمود سامي البارودي وعلي الجارم.. وتسمع الشيخ سيّد درويش ومحمد عبد الوهاب.
سأل آرثر: علامة مُعيّنة في جسدها؟

- أنت راجل قليل الحياء.
ابتسم آرثر ابتسامة واسعة ثم صغعه بظهر يده صغعة شديدة.. فتح خاتم ذهبي يرتديه جرحاً غائراً في خد عبد القادر.. نظر آرثر لخاتمه المحفور فيه اسمه والدماء التي خضبت حروفه فأخرج من جيبه منديلاً مسح به قبل أن يسأله:
- هل كنت نبيت في شقتها يوم الحادث؟

صَمَتَ عبد القادر للحظات ثم التف لينظر إلى دَوْلَت فصَرَخ فيه
آرثر: هل كنت تبیت في شقتها؟

طاطاً عبد القادر وجهه للأرض: أيوة.

- هل تنتمي هي الأخرى لمنظمة اليد السوداء؟

بعصبية رفع رأسه: لا سودا ولا بيضا.. أنا فجَّرت الراجل ده عشان
ترجَّعوا سعد باشا.. ده آخر كلام عندي.

حكَّ آرثر أنفه للحظات: حسنا.. أخرجوها.. بل اخرجوا جميعاً.

خلت الغرفة فقام ينظر إلى الشارع من بين حَدِيد الشَّبَاك للحظات
ثم عَادَ إلى عبد القادر الذي نَزَف جرحه وأردف بهدوء:

- أتعرف؟ ستذهب معك إلى المشنقة.. فهي مُشتركة في الجريمة
بأيواء مُتطوِّف ومعرفتها بهدفه.. صدَّقني قد تكون عنومستها هي
الدافع الحقيقي خلف إحساس الوطنية المُباغت الذي تُعانيه..
لو تزوَّجتك لنسيت كُل شيء ولأرادت الاستقرار والإنجاب..
أتمنى أن تكون قد استمتعت معك بأي لحظة لطيفة في ذلك
العالم البغيض قبل أن تُفارقه.

- دَوْلَت ما تعرفش حاجة.. أنا اشتريت القنبلة وأنا اللي
قررت أرميها.

- يا لك من ساذج قصير النظر.. كم تُشبه أباك!

نظر إليه عبد القادر في عدم استيعاب:

- تستغرب أنني أعرفه؟ سأحكى لك القصة أيها البائس.. قصة فتوة الحي الذي لم يكن يوماً ضد وجودنا.. فتوة الحي الذي نال سطوة المنطقة بمباركتنا.. فتوة الحي الذي يتقاضى الهبة الشهرية مني شخصياً ليشتري بأمثالك من الخالعين الذين يفسدون الحياة بخيراتهم الضئيلة وحماستهم الساذجة.. ألم تسمع منه اسم آرثر باشا وكيل الداخلية من قبل؟

توترت ملازم عبد القادر أردف آرثر

- لا بُد أنه كان يخجل من حكى تلك القصة أمامك.. لكنها الحقيقة.. أنتم شعب لا يقرأ.. لا يفقه.. تأكلون وتنكرون مثل القطط كما تقولون.. والدك كان يتقاضى مني شخصياً راتبه الشهري منذ تولي فتوة منطقة الناصرية.. هكذا كان الحال لسنين.. حتى تلفت خلايا دماغه تدريجياً ربما بسبب الأفيون الذي يعضه أو الخمر سيئ الصنع.. يسكين.. المهم أنه انقطع عن زيارتنا.. أعتقد أن السبب كان رغبته في زيادة المرتب.. أو أن جزار الفخار التي يخفي فيها النقص لم يعد لها مكان تُدفن فيه.. تلك مرحلة جديدة في عُمر كل مُرتزق.. تبدأ لديه أعراض الإحساس بالأهمية.. تتحول إلى ندبة.. ثم عداة كاملة مصحوب بغباء.. الجنون بعينه.. في الأيام الأخيرة أرسلت له أكثر من مرة وفي كل مرة كان يمتنع عن زيارتي.. حتى أتى يوم وجدته أمامي في مظاهرة.

تيسس عبد القادر ونهذجت أنفاسه.. ذلك الرجل كان ينبش في جرح مفتوح.. بسكين صدئ.. أكمل آرثر:

- لَمَسْتُ فِي عَيْنَيْهِ ذَاءَ الشُّعَارِ.. رَكَضَ نَحْوِي كَالْمَجْنُونِ يَبْغِي
قَتْلِي.. أَعْمَى نَسِي سَيِّدَهُ.. نَسِي مَنْ كَانَ يُطْعِمُهُ.. لَا تَأْخُذْ الْأَمْرَ
بِمَحْمَلِ شَخْصِي.. الْمَرْحَلَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ ذَاءَ الشُّعَارِ لَا عِلاجَ لَهَا..
مُحْزِنَةٌ.. أَرَدَيْتَهُ.. ارْتَعَشَ قَلِيلًا ثُمَّ زَاغَتْ عَيْنَاهُ قَبْلَ أَنْ يَتَبَوَّلَ عَلَى
نَفْسِهِ.. مَاذَا كُنْتَ تَتَوَقَّعُ مِنِّي؟ أَنْ أَتْرَكَهُ يُهَاجِمَنِي؟

انكسر في فم عبد القادر طرف ضرس.. نفر عرق جبهته وحاول أن
يقوم فتأهب آرثر ووضع طرف عصاه المُرَيَّنَةِ بِالتَّاجِ الْمَلَكِيِّ الْبَرِيطَانِي
عَلَى كَتِفِهِ لِيُجِلِّسَهُ:

- دَعْنِي أَكْمِلْ كَلِمَاتِي حَتَّى تَتَّضِحَ الصُّورَةُ.. يَمُوتُ الثَّائِرُ «النَّبِيلُ»
مِسْتَرُ «الْجِنِّ».. وَيَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ شَابٌ مِثْلُكَ ضَمَحَلُ التَّفَكِيرِ..
مُحَدَّثٌ فِي عِلْمِ السِّيَاسَةِ.. وَلَا يَعْأُ أَنْ يَتَعَلَّمَ.. يَعْمَلُ مَعْنَا
وَيَكْسِبُ قُوتَ يَوْمِهِ مِنْ خِدْمَةِ الْمُعْسَكِرِ.. يَشْتَرِي بِقُدُونَا سَيَّارَةً
جَدِيدَةً وَبَدَلَةَ طِرَازِ السَّنَةِ رَسْمَهَا مَصْمُومٌ بِانْجِلِيزِي.. ثُمَّ فَجْأَةً تَأْتِيهِ
الْقَضِيَّةُ عَلَى طَبَقٍ مِنْ فِطْصَةٍ.. الْإِنْتِقَامُ.. فَيَنْدَفِعُ كَالرَّصَاصَةِ الطَّائِشَةِ
بِلَا هَدَفٍ وَقَدْ امْتَلَأَتْ جَنْبَاتُهُ بِرُوحٍ وَطَنِيَّةٍ حَدِيثَةِ الْعَهْدِ.. لِيَنْتَهِيَ
كَيْفَاحَهُ حُفْرَةً فِي حَائِطٍ أَوْ فِي جَسَدٍ لَا يَعْرِفُهُ وَلَا يَخْدِمُ قَضِيَّتَهُ
الْمَزِيْفَةَ.. ذَلِكَ أَنْتَ.. رَّصَاصَةٌ بِلَا هَدَفٍ.

كَانَتْ الْكَلِمَاتُ الْأَخِيرَةُ كَغَيْلَةٍ أَنْ يَقْرَأَ عَبْدُ الْقَادِرِ مَطْلِقًا صَرَخَةً عَالِيَةً
قَبْلَ أَنْ يَتَلَقَّى ضَرْبَةً مِنْ عَصَا آرثر أَسْقَطَتْهُ أَرْضًا.. ثُمَّ أَرْدَفَ الْأَخِيرُ:
- سَعْدَمٌ.. لَيْسَ لِمَحَاوَلَةِ قَتْلِ الْوَزِيرِ.. بَلْ بِتُهْمَةِ الْغَبَاءِ.

لَمَّا أَغْلَقَتْ زَنْزَانَتُهُ أَطْبَقَ جُفُوتَهُ.. جَلَسَ فِي رُكْنٍ يَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ
وَهِيَ تَزْحَفُ نَحْوَهُ بِطُءٍ مِنْ فَتْحَةِ السَّقْفِ.. تَرِيْسَمُ عَلَى الْأَرْضِ صَلِيْبًا

حَدِيدًا اِكْتَسَى تَدْرِيجًا بِلَوْنِ الْقُرُوبِ .. لَوْنِ الْجَمْرِ الَّذِي يَتَدَفَّقُ فِي
 الثَّرَوقِ .. النَّارُ الَّتِي تَشْوِي جَوْفَهُ .. يُصْلِي قَلْبَهُ حَرِيقًا كُلَّمَا تَذَكَّرَ وَجْهَ
 آرْتَر .. الْكَلِمَاتُ وَهِيَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ الْبَيْضَاءِ الْمُسْتَوِيَةِ الْمِثَالِيَةِ ..
 عَيْنِيهِ الْمُسْتَرَحِيتَيْنِ .. ثِقَتَهُ .. غَطْرَسَتَهُ .. وَطَنَهُ الَّذِي لَا تَغِيبُ شَمْسُهُ ..
 تَفَاصِيلُ لِحَظَاتٍ قَتَلَ أَبِيهِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ دَبَابِيْسَ حَادَةٍ وَإِبْرَ خِيَاطَةٍ
 تَسْرِي فِي الْمَرِيِّ .. إِحْسَاسٌ بِالْعَجْزِ تَوَغَّلَ حَتَّى شُلَّتْ حَرَكَتُهُ .. دُمُوعٌ
 انْهَمَرَتْ وَلُعَابٌ سَالَ وَرَقَبَةٌ طُوْطِطَتْ لَا إِرَادِيًّا عَلَى صَدْرِهِ .. نَشِيْجَ مَرْقَةٍ
 فَقَامَ يَضْرِبُ بِبَابِ الزَّنَازَةِ بِقَبْضَتِهِ حَتَّى شُرْخَ أَصْبَعِهِ .. ثُمَّ سَقَطَ عَلَى
 رُكْبَتَيْهِ .. يَوْمَانِ بِلَا أَكْلٍ وَلَا شُرْبٍ .. تَجَاهَلُوهُ ثُمَّ هَدَّوْهُ وَضَرَبُوهُ .. نَقَلُوهُ
 إِلَى مُسْتَشْفَى وَفِي لَحْظَةٍ غِيَابٍ عَنِ الْوَعْيِ نَادَى دَوْلَتَ .. أَتَوْهُ بِهَا فِي
 غُرْفَةٍ يَقْسِمُهَا قَضِيْبَانِ حَدِيدِيَّةٍ عَلَيْهَا تَقْنَعُهُ بِالْكَلامِ .. جَلَسَتْ عَلَى كُرْسِيٍّ
 خَشَبِيٍّ أَمَامَهُ .. شَعْرَهَا مَحْلُوقٌ كَأَوْلَادِ الْمَلَاحِيْنِ .. فِي عَيْنَيْهَا مِسْحَةٌ
 بِنَفْسِجِيَّةٍ وَفِي شَفَتَيْهَا تَوْرَمٌ .. رَمَقَهَا مِنْ وَرَاءِ ضَعْفِهِ فَقَامَ مِنْ سَرِيرِهِ
 وَاقْتَرَبَ بِصَعُوبَةٍ بِسَبَبِ الْأَصْفَادِ وَهُوَ يَرْمِقُ الْعَسْكَرِيَّ الَّذِي وَقَفَ
 بِجَانِبِ الْبَابِ .. جَلَسَ أَمَامَهَا يَتَأَمَّلُ وَجْهَهَا فَابْتَسَمَتْ مُلَطِّفَةً .. هَمَسَتْ:

- مِشْ بِنَاكُلْ لِيهِ؟

- ضَرْبُوكِي؟

- أَنَا كُوَيْسَةٌ .. مَا تَقْلُقْشِ .. أَنْتِ لَازِمٌ نَاكُلْ يَا عَبْدَ الْقَادِرِ.

- لِيهِ؟

- عَشَانِ مَا يَنْفَعُشِ تَخْلِيهِمْ يَشُوفُوا ضَعْفَكَ.

- إِزَايَ تَعْمَلِي كِدَهُ؟

ابتسمت ولم تُعقّب فهَسَس: وليه اختارك أنت؟

- أحمد مالوش ذنب.. أنا جيت من وراه.

- جيتي عشانِي؟

نظرت في عَينيه متضرّعة أن يَصُمْتُ.. أردفت:

- ما تصعّْبش المَوقف.

لامس القضيبان بأصابعه: دَوِلت اِكفاية.. أنا عُمرِي ما حَيّت حَد قَدُّك.

بدون مَجْهود ترقّرت عَيناها بدمعة.. انحدرت سَاخنة.. سَقَطَتْ على أناملها فنظرت إليه للحظات طَالَتْ حَتَّى رَجَعَ بظَهْرِهِ بَعِيدًا عَن شُعاع الشَّمْس المَار بَيْنَهما.. هَمَسَتْ باختناق:

- طُول عُمرِي كُنْتُ عارفة إن اللّمحظة دي هَاتيجي.. بَخَاف مِنها أَكُنْها الوَبا.. بهرب.. بس كنت عارفة إنها هَاتيجي.. عَارَف... أنا بهرب مِن يَوْم ما وعيت عَ الدنيا.. مَش مِن اللّمحظة دي بس.. بهرب مِن المَنيا.. مِن ابن عُمِّي اللي مَكْتُوب يَتَجَوَزني.. مِن التَقاليد.. العَار اللي يَجْرُه ورايا ذنب زي دِيل الفِستان.. عَار إِنِّي بِنْتُ.. بنت بس ا حَتَّى أَخويا اللي مَرَبِّينِي وعُمرِي ما شُفْتُ فِي عَينيه دَه.. ما بَقِيتش قَادِرَة أَشوفه.. بَقِيَ واحد تَانِي.. أنا قَطَعْتُ بِإيدي كُل خِيَط يَفْكَرني بِيهم.. يَضْعَفني.. صَمَّمْتُ أَكُون عَرُوسَة.. بَس عَرُوسَة خَشَب مَلُونَة زي عرايس الأراجوز وصندوق الدنيا.. مِن غَير جِبَال تَحْرُكها.. تَشُدّها.. إِيه هُو الحُب؟ لِيه؟ يَعمِي إِيه؟ كُل يَوْم كنت بِسأل نَفْسي السَّوَال دَه لَغَايَة ما جيت أنت... واللي كُنْتُ خَايِفَة

منه حَصل .. إحساس إني بتسحب وراك .. ما أبقاش يملك نفسي ..
كان بيكرْ هني فيك كل لحظَة ببص لك فيها .. بقاومك عشان
ما أقعدش في يوم على الكرسي ده .. أقول الكلام ده ... في عالم
تاني كان مُمكن ... أحبك زي ما أحب أحبك .. زي ما المفروض
كان يكون .. ساعتها مكتش هخاف أقولك .. وما كنتش هتتوجع
لَمَّا تسمع .

ساد الصمت .. توقفت الشمس عن الدوران وصَدت القضبان قبل
أن تتساقط على الأرض منسُخة .

- كُل اللي أقدر أقدمه لك .. إني أعرفك إنك مش لوحده .. وإني
ممكن أعمل أي حاجة عشان تعرف .. إني ما بقشس مُهتمة باللي
راح .. ولا اللي جاي .. وإن الدنيا كلها بقت لون واحد يوم ما
ودّعتك في المقطع .. وإن ساعة الانفجار أنا مُت قبلك .. وكُونك
عايش .. حتى ولو مُؤقتاً .. أحسن حاجة حَصلت لي .

- دولت ...

- بحبك .

كان ذلك آخر ما قالته .. قامت واقتربت من الحارس .

- دولت ...

ناداها عبد القادر فنظرت إليه في تومل قبل أن يسحبها الحارس من
مرفقها ويُغلق الباب .

على قلب عبد القادر .



في تمام الثانية عشرة ظهرَ رَافِعُ المُصوِّر الإيطالي وَجْهَهُ إلى السَّقْفِ
الرُّجَاجِي المُنصَنَف في العُرْفَةِ الرَّاسِعة، اطمأن على زاوية الضوء
العمودية ثم أشار لمرئيتين تطوفان حَوْل المَهْد المَطْلِي بماء الذهب
كي تبتعدا، تَمَّت الأولى على المَلابِس الناعمة واطمأنت الثانية على
الشعر المَمْسُوح بالزيت قبل أن تنتحيا جَانِبًا، ضَبَط الإيطالي وَضَع
المَهْد في نصف الصُّورة تمامًا وراعى أن تظهر الناموسية المُرَكَّشة
والتاج المَنحوت فوقها ثم رَكَز البُورَة على الوجه الأبيض ذي المَلَامِيح
الألبانية الفرنسية الذي طُل من بين الملاءات المُرِينَة بالتاج فرفع الغطاء
عن العَدْسَة، عَدَّ بالإيطالية ثلاث عدَّات قبل أن يَضَع الغطاء ثانية ويَهْمِس
بالإيطالية: ممتاز.. اقتربت السُّلطانَة مِنْهُ مُبتَسِمة وسألته بالفرنسية:

- ألا يَجِب على الأمير أن يَرْتَدِي مَلابِس ذَاكِنَة بعض الشيء؟
الصورة يطفئ عليها الأبيض.. أخشى أن تصبغ باهتة!

التفت لهما المُصوِّر وهمَّ أن يُجِيب بأدب جَم حين اقتربت يسر
تايلور ضامة يديها إلى بعضِها وفي هدوء أردفت:

- الأبيض أساسي في الصُّور الرّسمية للأمرء الصُّغار.. بالإضافة
أن مواصفات الصُّورة مُتَّفَق عليها مُنذ أيام يا مولاتي وغير
قابلة للتغيير.

رَمَقْتَهَا نازلي بغلٌ قبل أن تستطرد:

- لا بأس أن تُبذل المُربيات ملابس الأمير ويتم تصويره ثانية بالملابس التي اقترحتها.

ابتمت مسز تايلور ابتسامة صفراء:

- مولاتي.. على الأمير الآن أن يرتاح لأن ميعاد طعامه قد حان..
قد نجعل ذلك الاقتراح في وقت آخر.

زفرت نازلي نفسها مسموعاً ثم رَمَقَتْ صَغيرها الذي يُحرك يده في هدوء قبل أن تخرج من الغرفة والشرر يتطاير من ورائها، يحرق السجاد الأحمر وأطراف النباتات في المزهريات النحاسية اللامعة، تلعن في سرّها مسز تايلور؛ تربية الأمير الصغير والسلطان المُقبل، إنجليزية صارمة لا تعرف معنى الرحمة، أتى بها فؤاد إلى القصر يوم برزت بطن نازلي لتعتني به وتُشرف على تربيته، مُنذ اليوم الأول دُبَّت الخلافات بينهما وبعدما وُلِدَ بساعات قامت قيامة، فبالسلطة المُحوّلة من السلطان إلى مسز تايلور كان على السلطانة أن ترضخ.. «نازلي.. ماذا تعرفين أنت عن تربية الأطفال؟ لازلت صغيرة لتحمل مسؤولية سلطان المستقبل.. تايلور قادرة على تنشئة طفل سليم على الطريقة الأوروبية.. من فضلك لا تتدخل في شئونها فهي تعرف ما تفعل».

صَاحَت حوايط القصر بنازلي فجأة، كيف ترى ابنها بميعاد؟ تلغمه نديها بميعاد؟ وتطلب رؤيته وهو يستجم وقد يؤذن لها أو لا يؤذن، خوفاً عليه من البرد! تحملت كثيراً حتى أتى يوم اشتعلت فيه غضباً بسبب ضيق وقت وجود فاروق معها، انتزع منها انتزاعاً تحت إشراف مسز تايلور فخرجت مُسرعة إلى غرفة فؤاد، اشتكت إليه بانفعال وصوت

نسي نفسه فما كان منه إلا أن صَفَعَهَا وأمرها بالإذعان! بَكَتْ نازلي كما لم تبك من قبل، أغلقت على نفسها الحَمَام سَاعَةً، جلست تحت الدُّش تسد بالمياه أذنيها، مُحاولَة تبريد رُوح شُويت، تتحسس الصَّفعة على وجتها وتجتري لحظاتها مع حبيب غابت عنه؛ تمشية الشارع، الأفلام والمسرحيات، القُبلة الأخيرة في حديقة القصر، وقوفه أسفل شُرَفها منتظرًا ولحظة إغلاقها الستائر... ثم تتابع الخطبات على الباب لتبدد كل الذكريات وتستحثها على الخروج. أفاقت نازلي واستجابت لتجد والدها في الانتظار، حَكَّتْ ما حدث فسكت، ذَرع الغُرْفَة ذهابًا وإيابًا يفكِّر ويُقدِّر قبل أن يضم وجتها براحتيه وفي حُطبة بليغة يهمس بهدوء أن ذلك أمر طَبِيعِي بين الأزواج، وأن المَصْلَحَة العامَة تتطلَّب أحيانًا، بعض القسوة.. والتنازل: «ثم من راكبي حين صفحك؟ ألم تكونا وحيدين في الغرفة؟ ما يحدث بين الأزواج يجب أن يظل بين الأزواج».

نظرت إليه نازلي ولم تُعقِب، عَرَفَتْ منذ ذلك اليوم أن للقصر قانونًا، وأن لعلاقتها بابنها قانونًا، تأكل بقانون وتخرج بقانون، وتُمارس الجنس في وقت مَحْتوم، بقانون، وأن العَرش بمن عليه فوق كل قانون، عَرَفَتْ إحساس زائفة بيت العنكبوت، التشبيه الذي سمعته من فم أحمد يومًا في حديقة بيتها، مُحاطَة بالخيوط وحيدة خائفة، كلُّما تحركت ازدادت اشتياكًا، ترفل في ثوب أبيض مُرَصَّع تتأكد يوميًا أنه سيصير كفنًا، ففؤاد بتجربة مع زوجه سابقة عارضت نزواته وذُلَّتْه بثروتها أدرك أن المرأة واجب أن تُقهر، وأن الغيرة عليها أمر لا مَحَالَة منه، خاصة إذا لم تكن ربيبة أسرة مائكة، جَمِيلَة وصغيرة، من ذا الذي يتنبأ بسلوكها خاصَّة مع فارق السِّن؟

كان عليه نبذاها في رُكن مُذهب، أحاطها بسيّدات العائلة المتلألئات،
تقرأ في أعينهن الحقد والحسد والتملُّق فتبتسم مُرغمة، تمشي في
الحزم ملك شاردة تنتظر أن تُنعم عليها يسز تايلور بوقت مع صَغيرها
تفضيه، أو تجلس هائمة أمام المَرج الأخضر تتأمل نور الشمس وهو
يسير فوق العُشب يلامسه ويُحييه ولا يقربها، لم تشعر بنفسها إلا وهي
تكتب في ورقة، صَفحة كاملة بِحَظ عانى لِيُقرأ قبل أن تطوي ما كُتبت
وتُخفيه في صدرها، بعد يومين أتى والدها وفي عينيه غَضَب لم تعهده،
سحبها من يدها إلى الحديقة في صمت وانتظر أن يتعد الخَدَم قبل أن
يُخرج من جيبه الورقة التي كتبها منذ يومين، ما إن رأتها حتى رَفَضت
قدمها حَمَلها فجَلَسَتْ على مَقعد يَسع اثنين، جَلَس بجانبها وقَضَّ
الورقة بُعيد قراءة ما فيها بعينه قبل أن يتكلم بدُون أن يَنتظر إليها:

- يَسْمعي عَن هَارون الرشيد؟

-

- أشهر خليفة عَبَّاسي.. هو اللي أُوْحى بشخصية شهريار في ألف
ليلة وليلة.. ومسرور السيَّاف كان عبد عنده فعلاً.. جَعفر البرمكي
كان أهم وزير عند الرشيد.. أقرب واحد لقلبه ومن عيلة دايمًا
كانت في خِدمة العرش.. عيلة اسمها البرامكة.. الرشيد كان
عنده أخت اسمها العبَّاسة.. قالوا إنها أجمل نساء العَصْر وقتها..
حَبَّها جَعفر.. حَبَّها بدُون إذن الرشيد.. واتجوزوا.. فضلوا فترة
مُكتفين بالجوابات السرية.. وفي يوم راجت له.. مُتخفية.. قضت
مَعاه ليلة.. ليلة واحدة.. هَارون الرشيد عِرف.. الخليفة صعب
تستخبي عنه حاجة.. عيون كثير تمنى تخدمه.

سَكَتَ أَبُو هَا لِلْحِظَاتِ أَخْرَجَ فِيهَا عِلِيَّةٌ ثِقَابَ أَشْعَلٍ مِنْهَا وَاحِدًا مَرَّةً
مَحَتَ قَلْبَ نَازِلِي حَتَّى اشْتَعَلَ ثُمَّ تَحْتَ الرِّسَالَةِ الَّتِي كَتَبَهَا مُنْذُ يَوْمَيْنِ..
رَدَفَ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ الْوَرَقَةَ تَتَحَوَّلُ لِرَمَادٍ:

- عَارِفَةُ عَمَلِ إِيهِ هَارُونَ الرَّشِيدِ؟ قَتَلَ جَعْفَرَ.. وَحَبَسَ كُلَّ عِيَلَةِ
الْبِرَامِكَةِ وَصَادَرَ أَمْوَالَهُمْ.. وَمَاتَتِ الْعِيَّاسَةُ فِي نَفْسِ السَّنَةِ.. أَقْرِي
تَارِيخَ يَا نَانَا عِشَانِ تَتَعَلَّمِي.

لَمْ تَرْمِشِ.. لَمْ تَتَنَفَسِ.. عَيْنَاهَا كَانَتَا مُتَشَبِّهَتَيْنِ بِفَرْعِ شَجَرَةٍ ضَعِيفٍ
مُحَرِّكَةِ النِّسَمَاتِ.. نَثَرَ أَبُو هَا رِمَادَ رِسَالَتِهَا فِي الْحَدِيقَةِ ثُمَّ ضَمَّ بِقَبْضَتِهِ
صَابِعَهَا.. فَرَكَهَا بِالرَّمَادِ الْأَسْوَدِ ثُمَّ صَغَفَهَا حَتَّى نَأَلَمَتْ.. لَمْ تَتْنِ..
أَمَعَتْ عَيْنَاهَا وَتَحَمَّلَتْ الْأَلَمَ حَتَّى نَكَلَمَ:

- الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنَّ الشَّخْصَ الَّذِي بَعْتِيهِ بِالرِّسَالَةِ هُوَ خَدَّيْجُكَ
وَيَخَافُ عَلَيْكَ.. كَانَ أَكْسَبَ لَهُ يَوْضَلُهَا لِلسُّلْطَانِ.. لَكِنَّ اللَّهَ
يُيَسِّرُ.. دَهْ بِخِلَافِ إِنْ الْوَلَدَ نَفْسَهُ غَيْرَ مَكَانَ إِقَامَتِهِ... مِشْ
مِصْدَقُ إِنْ كُلِّ الَّذِي أَنْتَ بَقِيَّتِي فِيهِ دَهْ وَلَسَّهْ بِتَفْكَرِي فِي عَيْلٍ
تَافَهُ زِي أَحْمَدُ كَبِيرَةٌ.. أَنْتِ عَارِفَةُ مُمَكِّنِ يَحْصِلُ إِيهِ لَوْ فَكَّرَ
يَبِيعُ الْجَوَابَ دَهْ لِلجَّرَايِدِ الْمُعَارِضَةِ؟ مُتَخِيلَةٌ مَوْقِفِي هَايَكُونُ
عَامِلُ إِزَايِ؟ اسْمُ عِيَلَةِ صَبْرِي هَايَتَمَحِي مِنَ الْوُجُودِ يَا صَاحِبَةَ
الْعِظْمَةِ.. مِشْ هَا سَمَحَ لَكَ بَدَهْ يَا نَازِلِي.. مِشْ هَا سَمَحَ لَكَ أَبَدًا.
نَفَضَ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا وَالرَّمَادُ ثُمَّ قَامَ.. نَظَرَ إِلَيْهَا نَظْرَةً أَخِيرَةً ثُمَّ ابْتَعَدَ
بَلْ أَنْ تَسْتَدْرِكُهُ:

- أَتَمْنَى نَكُونُ اسْتَمْتَعْتُ.

التفت إليها: استمتعت بإبه يا فظيظ؟

- كرسي الوزارة اللي قعدت عليه بست شهور بس قبل ما يستبدلك.
رمقها بغیظ جز أسناته قبل أن يتعبد، استأذن في مُقابلة السلطان فأذن له، دَخَلَ عليه وَكَانَ فِي مَعِيته وَزِير الدَّاخِلِيَة يناقشان حركة الاغتيالات المتفشية ويتباحثان الحُكم على المَسْجُون السِّيَاسِي الذي ألقى القنبلة مؤخرًا على مُحَمَّد شفيق باشا وزير الأشغال، صرَّح وزير الداخلية بأن القضاء يرى الإعدام، أمَّا آرثر باشا وَكِيْل الداخلية الإنجليزي فرأيه أن السَّجْن المؤبد أفضل.

- رأيك إيه يا عبد الرحيم باشا؟

أفاق الباشا من سُروده على سُؤال زوج ابنته؛ السلطان، فتدارك: رأيي من رأي آرثر باشا يا صاحب العظمة، الولد اكتسب شعبية كبيرة، صورته بتتباع في الشوارع، إعدامه هايحول له لبطل.

أردف وزير الداخلية: الحُكم المُخفف هايجرأ ناس ثانية غيره.
قال السلطان: المؤبد مش حُكم مُخَفَّف.

عَقَّب عبد الرحيم صبري: الولد ده أظن بيكون أضعف واحد في المنظمات دي.. أقلهم ذكاء.. عشان كده بيختاروهم ذايماً لتنفيذ العمليات.. رأيي إن الأولى نسيب اللي زيه يتنسوا في السَّجْن.. يُخرجوا على القبور.

وَجَّه وزير الداخلية كلماته للسلطان: قرار صَاحِب العظمة؟

مَسَحَ فؤاد شعره بيده قبل أن يحسم الجدل: مش سليم نصنع بطل
من نكرة.. مؤبد.

انتهى اللقاء فخرج عبد الرحيم صبري في إثر وزير الداخلية.. تمشياً
في رواق القصر وقبل أن يصل ساحة السيارات.. انحنى الأول على
الأخير وهمس: فاكّر الولد اللي كتت كلمتك عنه يا باشا؟ أحمد كبيرة...
توقف وزير الداخلية والتفت باهتمام: الولد اللي كان بيتسأخف
على صاحبة العظمة.. طبعاً.

- أنا كنت أظن أنه تم اعتقاله.

همس الرجل: لا.. الحقيقة أنا شيعت له رجالة من عندي..
كسروه تماماً.

- هو.. الولد ده معروف مكان إقامته؟

- هو رجع عمل حاجة ثاني؟

- وهو المفروض نتظر يعمل يا باشا؟ مش كان ليه نشاط سياسي؟
أكيد له صلة بالاعتيالات الأخيرة.. أنا كنت حكيت لك ماضي
والده.. إذا أضفنا كمان ماضيه المنحرف ومحاولاته الدنيئة إنه
ينول من شرف صاحبة العظمة...

قاطع الوزير: واضح واضح يا عبد الرحيم باشا.. ده أمر ما يتسكتش
عليه.. أوعدك إني هاشوف حل نهائي معاه.

أخرج وزير الداخلية ورقة وقلمًا.. سطر اسم أحمد كبيرة بخط
واضح ودسّها في جيبه ثم ودّع عبد الرحيم باشا ورحل.



سري.. نمرة ١٤٧

القاهرة في ١٢ يوتية سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- ألقى إبراهيم حسن مسعود مُحاسب بوزارة الصحة قنبلتين على سيارة
رئيس الوزراء الجديد مُحمد توفيق نسيم.. تم القبض على المتفد
وجار التحقيق معه في سرايا التياية.

- اعتقالات تعسفية تسود العاصمة وتضييق على مندوبي الوفد خاصة
في المُحافظات.

- صدر الحكم على عبد القادر شحاتة صَاحِب مُحاولة اغتيال محمد
شفيق باشا بالمؤبد وتم إيداعه سجن طره.

عبد الرحمن فهمي

سري.. نمرة ١٤٩

القاهرة في ٢ يولية سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- اعتقل أمس عبد الرحمن بك فهمي.. دأهمت السلطة منزله بعد منتصف ليلة ١ يولية.. كما تم اعتقال سبعة وعشرين شاباً من شباب الوفد.. التهمة المعلنه في محاضر الضبط «إنشاء منظمة سرية باسم «اليد السوداء» تهدف إلى خلع السلطان».

- اقترح تجميد النشاط السري حتى تهدأ الأوضاع.. نرجو إيفادنا برأيكم الكريم في المسألة وكذا الرد المناسب لما حدث حيث هكفت هيئة محامي الوفد منذ اليوم على دراسة الموقف لاتخاذ التدابير المناسبة وإصدار بيان عن الوفد وكذا الترافع عن الزملاء المسجونين.

- تم تكليفي مؤقتاً بإدارة سكرتارية لجنة الوفد المركزية.

مصطفى النحاس

حَدِيقَةُ الْأَرْبَعِيَّةِ

جَلَسَ أَحْمَدُ لِعَشْرِ دَقَائِقَ عَلَى مِقْعَدٍ خَشَبِيٍّ فِي أَطْرَافِ الْحَدِيقَةِ، يَقْرَأُ جَرِيدَةً وَبِالْيَدِ الْأُخْرَى بِأَكْلٍ سَطِيرَةً، اقْتَرَبَ مِنْهُ رَجُلٌ فِي مِئْتَصَفِ الْأَرْبَعِينِيَّاتِ تَحْمِلُ عَيْنَاهُ حَوْلًا طِفْيفًا، تَفْحَصُ رُؤَادَ الْمَكَانِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ بِيَجَانِبِهِ وَيَضَعُ عَلَى الْمِقْعَدِ حَقِيْبَةً جِلْدِيَّةً كَانَتْ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَهْمِيٍّ، لَمَحَهَا أَحْمَدُ بِطَرَفِ عَيْنِهِ حِينَ تَخَلَّعَ الرَّجُلُ طَرَبُوشَهُ فَكَشَفَ عَنْ رَأْسِ طَمُوحٍ لِلصَّلَاحِ، دَقِيقَةً وَتَكَلَّمَ بِدَوْنِ أَنْ يَلْتَفِتَ:

- أَنَا اسْمِي مُصْطَفَى النَّحَّاسُ.. طَبْعًا جَالِكَ خَيْرٌ إِن أَنَا...

قَاطَعَهُ أَحْمَدُ: غَنِيٌّ عَنِ التَّعْرِيفِ يَا مُصْطَفَى بِكَ.. حَضَرْتُكَ تَوَلَّيْتُ سِكْرَتَارِيَّةَ اللَّجْنَةِ.

- عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِكَ كَانَ حَائِيسٌ إِنَّهُمْ هَاصِدُرُوا أَمْرَ الْإِعْتِقَالِ قَرِيبٌ مِنْ بَعْدِ الْعَمَلِيَّاتِ الْأَخِيرَةِ.. سَابَ لِي التَّعْلِيمَاتُ كُلُّهَا وَكَلَّفَنِي أَحْقَقُ اتِّصَالٍ مَعَالِكَ عَشَانِ نَتَنَاقِشُ فِي بَعْضِ التَّفَاصِيلِ.. أَوَّلُ حَاجَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِعَبْدِ الْقَادِرِ شِخَانَةٌ.. هَلْ لَهُ عِيْلَةٌ مُمَكِّنٌ نَكْفُلُهَا؟

- أُمُّهُ وَإِخْوَانُهُ.

- فِيهِ إِعَانَةٌ هَاتُخْصِصْ لَهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْوَفْدِ.. هَاجَتُنَا الْعُنْوَانُ.. كَانَ فِيهِ كِمَانُ الْبَنْتِ اللَّيْلِ شَهِدَتْ مَعَاهُ.. اسْمُهَا...

- دُولت.

- سَعَد باشا مُهْتَم بِأَمْرِهَا بِشَكْلِ شَخْصِي.

- دُولت مُتَمَاسِكَةٌ.. رَاحَتْ شَهِدَتْ بِدُونِ عِلْمِي فَاسْتَبَعْدَتْهَا
مِنَ النِّشَاطِ.. أَخُوهَا شَابٌ غَلْبَانٌ قَبَضُوا عَلَيْهِ يَوْمَ تَنْفِيزِ عَمَلِيَةِ
عَبْدِ الْقَادِرِ وَلِغَايَةِ دُلُوقْتِ مَفِيْشِ أَيِّ خَبَرٍ عَنْهُ.. يَا رَيْتَ لَوْ فِيهِ
إِمْكَانِيَّةٌ نَعْرِفُ مَكَانَهُ...

- طَالَمَا مَشَى مُسْتَدْلِينَ عَلَى مَكَانِهِ يَبْقَى الَّذِي قَبَضَ عَلَيْهِ مَكْتَبُ
الْخِدْمَاتِ مَشَى الْهَوَلِيسِ.. يَتَاخَذُ فِي الرِّجْلَيْنِ وَيَتَنَسَّى فِي
الْمُعْتَقْلِ مَا يَتَسَجَّلُشْ اسْمُهُ وَلَا يَتَقَدَّمُ لِلنِّيَابَةِ لَكِنْ هَا حَاوَلَ أَعْمَلُ
بَحْثَ عَنْهُ.. هِيَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَتَّهِمِ كَانَ فِيهِ...؟

قَاطَعُهُ: دُولتٌ صَعِيدِيَّةٌ جَدَّعَةٌ.. كَانَتْ مُمَكِّنٌ تَعْمَلُ كَيْدَهُ مَعَايَا
شَخْصِيًّا.. هِيَ بِسِ أَخْطَأَتِ الْحِسَابَاتِ.

- عَظِيمٌ.. دَهْ يَنْقَلِنَا لِنَقْطَةَ ثَانِيَةٍ.. الْفَتْرَةُ الْجَايَةِ لِأَزِمٍ...

قَاطَعُهُ أَحْمَدُ: لِأَزِمٍ نَكْثُفُ الْعَمَلِيَّاتِ.

رَمَقَهُ النَّحَاسُ فِي صَمْتٍ ثُمَّ أَرْدَفَ: اِعْتَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِكَ زَائِدُ
الْوَضْعِ غَيْرِ الْمُطْمَئِنِّ مَعَ أَصْدِقَائِنَا فِي لَنْدُنٍ يَخْلُئِنِي أَقُولُ...

قَاطَعُهُ أَحْمَدُ: لِأَزِمِ الْإِنْجِلِيزِ يَعْرِفُوا إِنْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِكَ مِشْ هُوَ
الَّذِي وَرَا الْعَمَلِيَّاتِ.. وَدَهْ أَدْعَى لَتَنْفِيزِ عَمَلِيَّاتٍ بِشَكْلِ أَوْسَعِ.

- السِّيَاسَةُ دُلُوقْتِي بِتَقُولِ نَنْتَظِرُ لِغَايَةِ مَا نَشُوفُ الْمُحَاكَمَةَ رَايِحَةً
عَلَى فِينِ.

التفت له أحمد.. فتحت صفحة في الجريدة على عنوان كبير..
«المؤامرة الكبرى».

- أظن اسم القضية كفيّل يأتنا نعرف المحاكمة رايحة فين.. حُكم
الإعدام من أول درجة مضمون يا مصطفى بك.
رَفَر الرَّجُل: عندنا مُشكلة ثانية.

قالها والتفت من حقييته الجِلدية وَرَقَة مَطْوِيَة وَضَعَهَا بِجَانِب
سَاق أحمد.

- الإخطار ده طلع إمبارح بالليل من حِكمدارية البوليس.. اتوزع
على المُخبرين.
التفت أحمد الورقة وقرأ.

سَري جَدَا

«أحمد عبد المحي كبر، يَمُكِّل كيميائي بمدرسة الطب، خطير
في الاغتيالات السياسية، فائح اللون، متوسط القامة وذو شارب
وعمره حوالي ٣٨ عامًا.. اقْبِضُوا عليه حَيًّا أو ميتًا».

بلا تعبير ابتلع أحمد ريقه وكَوَّر ما تبقى من شطيرنه في الورقة
وَأَلْقَاهَا فِي سَلَّة بِجَانِبِهِ ثُمَّ وَضَعَ وَرَقَة الإخطار قُرْب النحاس الذي
دَسَّهَا فِي الْحَقِيبة وَأَرْدَف:

- لازم نختفي الفترة الجاية.

- عِنْدِي صديق فِي الْحُسَيْن هاقعد عنده مُؤَقَّتًا.

- المسألة ما يقتضئ تغيير مكان سكنك.. أعتقد لازم تفكر تبعد أكثر من كده.

- برّه البلد؟ ده استبعاد؟

- ما تفهمنبش غلط.. آخر كلمتين في الإخطار معناهم بيقول كده.

- أنا مش جبان.

- ده مش جُبِن.. أنت على قائمة الإنجليز حي.. أو ميت.. محتاج

إيه ثاني عشان تفكر؟

- محتاج أعمل عملية جديدة.

النفث إليه النحاس.. بعصية همس: أنت ليه مش قادر نفهم إن الدم مش ممكن بخدم المُفاوضات.. العمليات بتزيد عناد الاحتلال ورغبته في الانتقام.. المُحتل عنده بَدَل العسكري ألف وبَدَل القائد مئة.. العملية الواحدة بتكلفنا كتير ومش بتؤدي لأي نتائج إيجابية بالعكس... الناس في الشارع هي اللي بتنضر واللي بيموت وينجرح من المصريين أكثر من الإنجليز.. بُص للي بيعمله غاندي في الهند.. الساتياغراها^(١) بنحقق نتيجة حقيقية وبتعمل ضَغط دولي بيحرك القضية بجدة.

- مصر مش الهند.. والساتياغراها فكرة سلبية.

- طول ما عدوك أقوى لازم تكون أكثر دهاء.. العُنف بيأذك أضعافه.

(١) الساتياغراها: مصطلح باللغة السنسكريتية يتألف من كلمتين «ساتيا» وهي الحقيقة، و«غراها» وتعني الصمود وانتمسك بالموقف؛ وهي فكرة المقاومة «اللاعنفية» التي ابتدعها المهاتما غاندي لمقاومة الاحتلال والاستبداد من خلال العصيان المدني الشامل وبدون إراقة دماء.

- ده مش رأي سعد باشا اللي في يوم من الأيام وقف ورا عرابي!
 - ده رأي الوفد اللي بيحاول يحصل على الاستقلال.. ما تخليش
 الانتقام بعميك يا ابني.
 - سيادتك عارف إن الأرض مش بتشرب الدم.
 - أنا عارف تاريخ والدك.. وهو تاريخ مُشرف.. لكن.. لكل وقت
 أدان.. الثائر الحقيقي لازم يكون عارف إمتى ينشط.. وإمتى
 يهدأ عشان المصلحة العامة.. إحنا مش هانمول خاليًا أي
 عمليات سرية.
 - يبقى هاشتغل لوحدي.
 - تُخد بالك.. سُقوطك مش هايكون زي سقوط زمايلك..
 سقوطك معناه سقوط الخيوط كلها.. أنت الوصلة الوحيدة بين
 المجموعات.. ما تجاوزفش.. الوقت حرج جدًّا.
 قام أحمد وزرر سُترته: سعد باشا إزّيه دلوقت؟
 أجابه الرجل بعد لحظات: بيحارب.. على ترابيزة المفاوضات.
 - يبقى هانفضل نحارب وراه.. لغاية الاستقلال.
 رمقه النحاس ولم يُعقّب فأحنى أحمد رأسه في احترام: نهارك
 سعيد يا مُصطفى بيه.
 قالها وكَبَس طربوشه مُبتعدًا.



سِجْن طُورَة .. جنوب القاهرة

حين دخلت سَيَّارة الترحيلات إلى ساحة السجن دَّارت حول نفسها ثم رَجعت بِبطء حَتَّى بَات بَابُهَا الخلفي في مُواجهة المَبْنَى، فَتَحَ الحُرَّاس الباب الحديدي وصَاحوا في المَسَاجين فنزلوا تَباعًا وفي أيديهم وأرجلهم الأغلال توسوس، على يَمين ويسار المَمر الطويل وَقَفَ الحُرَّاس وبأيديهم قُضبان حديدية غليظة، يَلُوحون بها في طقس يُعرف بينهم بـ «بطابور الاستقبال»، تلقى أوَّل المَسَاجين ضربة على ظَهره فركض بِقَدْر طول أغلال قدميه فتبعه الباقون جَزَعًا، انهال عليهم الحُرَّاس ضَرْبًا وتحطيمًا فزادوا بأيديهم فوق رءوسهم مُراوغين، عبد القادر كان السَّابع بين رُملائه، رَكَضَ بقوة مُتجنبًا الضربات بانحناءات ودفعات بأيدي لا تكاد تصل إلى رأسه لتحميه، حَتَّى تعثر في أغلاله، سَقَطَ فحاصرتَه القُضبان الحديدية ضَرْبًا إلى أن أغشي عليه.

حين أفاق حَلَقُوا شَعْرَهُ بِمُوسَى ووضعوا في قدميه أغلالًا ثقيلة تصل إلى ثلاثة كيلوجرامات ثم أودعوه غُرْفَةً حَبَسَ انفرادي... بعد ثلاثة أيام من الظلمة الخالكة انعدم الزَّمن، فَقَدَ عبد القادر القُدرة على تفريق اللَّيل من النَّهار وعدد الأيام، يلتبس أبعاد الغُرْفَة الضيقة مَرَّةً واحدة في اليَوم حين يتسَرَّب ضَوء خافت من كُوَّة في بابها الحديدي القصير عندما يَنتَحِل ليلُقى إليه طَبَق حِساء ورَغيف متلبَّد يسمونه «الجراية» وكُوْز ماء تجري فوقه الطفيليات، رَفَضَ في أول يَوم أن يأكل، ثم صرخت معدته

ونغزته البرودة نهاية اليوم الثاني فأقبل .. في نهاية اليوم الرابع لم يعد يتساءل عن طبيعة الجساء بعد أن أكل بنهم، كما لم تُعد رائحة الدلو الذي أُنجم بفضلاته تؤثر فيه .. ثلاثة أيام أخرى في الظلام وبدأت تُهاجمه نوبات الهلوسة، ألوان غريبة تراها خدقاته، تحرك كالسراب البعيد، تلوّى كنار في ربح، ثم تلتقط أذناه أصوات حشرات تحتك أجنحتها فينتفض، يصرخ في الفراغ بقضب، ثم يخط الباب بهستيريا والحواشي، يُنادي استغاثة، يُسب كل من قابلهم في حياته، وأولهم نفسه، ثم يكي بحرقه، قبل أن تتابه موجة ضحك غصبية تشرخ رثيه، ثم يسكن، يهمد، يتمدد على البلاط البارد فأقدا القدرة على التفكير، فأقدا الإحساس بالبرودة التي تطعنه وتتخلل عظامه، يُمد يده التي لا يراها إلى سقف لا يراه، سقف بدأ يشك في وجوده، قبل أن تتجلى دولت، تقترب في سُكون وتلتقط يده، تحتضنها ثم تتلاشى.

ثم فُتح الباب يوما، الشمس كانت حاضرة بذات نفسها، فُصوها أعمى خدقيه فصرخ برُعب وضرب الهواء بيده في هستيريا حتى دخل ثلاثة رجال، بهزال قاومهم فتلقى ركلات في معدته ثم سمحوا به من قدميه إلى الخارج قبل أن يلقياه على أرض رطبة في حَمَام، جرّده من ملابسه ثم رثوا فوقه بؤدة بيضاء راحتها نفاذة وفتحوا عليه مياهًا صرخ من برودتها، أنموا تغسيله فوضعوا قُرصًا مرًا في حلقه ثم كفّوه في لباس من الخيش وقميص أزرق مكتوب على صدره رقم قبل أن يودعوه غرفة مزدوجة في زنزانة لا تتعدى مساحتها مترين ونصفًا في منرين، جلس على السرير السفلي بجانب جردل الفضلات وفي الحائط الأيمن فوقه كوة صغيرة مُغطاة بالشبك الحديدي على ارتفاع ثلاثة أمتار، تطل على الزنزانة المُجاورة لها.

بعد أيام بدأ عبد القادر يستوعب حياته الجديدة، بهدوء، فهم من زميل الزنزانة العجوز أنه يسكن في عُنابر السياسيين، وأنه هو الآخر مسجون منذ سبع عشرة سنة في تُهمة الاعتداء على هابط إنجليزي ويتنظر إتمام المؤبد، مثله، عَرَفَ أيضًا أن حياة السجين تبدأ في الفجر وتنتهي في الخامسة مساءً، تنطفئ الأنوار وتخفُّ الحركة إلا من همسات المساجين وسباب الحراس، عَرَفَ أيضًا أن النقود الورقية لا قيمة لها، وأن العملة هنا هي السجائر، مَنْ لا يملك سجائره لا يملك نفسه، والأفضل له أن يعيش في خدمة مسجون ثري على أن يعتدى عليه في الغداة والأصال.

بسبب هيكلة العَرِض ونُهمته أكلوه نَفْطِيع الجِجَارَة في المحجر، يذهب في الصباح الباكر ليفضي بومه في النكسر والتحميل حتى مغرب الشمس، يرجع في طابور مع مجموعته ليستحموا جماعيًا ثم يتناولوا وجبة لا تُغني عن جوع.. لازمه الصَّمت والشرود لأيام، يحاول أن ينخيل انتهاء الكابوس، بعثه من عالم الأموات، بعد خمسة وعشرين عامًا، وبنخيل دولت، ثم تستقر عيناه على زميله العجوز، شَعْره الأبيض وعوده الفارغ ويديه المعروفين فبحسب سنين عُمره المتبقية حتى يلقاها فتهدج أنفاسه قبل أن يُغِيض عينيه ويذهب في سُبات عميق لا يفيق منه.. ولا يريد.. حتى التقط يومًا هَمَسًا من جدار الغرفة المُجاورة.. هَمَسًا بنادي اسمه:

- عبد القادر.

اعندل عبد القادر ونَظَرَ إلى الكوَّة العالبة فسمع اسمه ثانية.

- مين؟

- اطلع فوق.

قام عبد القادر ينظر للكوة الصغيرة: أطلع إزاي؟

- ليف طرفين البطانية عُقدة واربطهم في حديد الشباك يمين
وشمال.. مُرجيحة يعني.

همَّ عبد القادر أن يعود للنوم قبل أن يتردّد، سَحَبَ نَفْسًا إِلَى صَدْرِهِ
ثُمَّ قَامَ، صَعَدَ فَوْقَ السَّرِيرِ وَعَقَدَ أَطْرَافَ الْبَطَانِيَةِ بِالْقُضْبَانِ الْحَدِيدِيَةِ ثُمَّ
قَفَزَ فَوْقَ قَوْسِهَا الْمُتَدَلِّي لِأَسْفَلٍ، اِتْرَنَ قَرْمَنَ مَنْ وَرَاءَ الْقُضْبَانِ وَجِهَا
نَحِيلًا، عَيْنَيْنِ وَاسِعَتَيْنِ فَوْقَ أَنْفِ خَادٍ وَشَارِبٍ رَفِيعٍ، مَسْحَةَ الضَّعْفِ
لَمْ تُخْطِئْهَا عَيْنَاهُ رَغْمَ الظُّلْمَةِ، كَانَ يُمَسِّكُ الْقُضْبَانَ بِيَدٍ وَبِالْيَدِ الْآخَرَى
الْمُنَاقِصَةَ إِلَيْهَا مَا نَاولَ عبد القادر سِجَارَةً.

- امسك.

لم يتردد عبد القادر.. التقط السِجَارَةَ وَأَشْعَلَهَا بِعُودِ ثِقَابٍ مَمْدُودٍ:
- تُشْكِر.

- أنت اللي رَمِيتَ القنبلة ع الوزير؟

- أنت مين؟

- أنا واحد عَمَلْتُ زَيْكَ كِدْهَ مِنْ خَمْسِ سَنِينَ.. بَسَ أَنَا رَمِيتَ الْقَنْبِلَةَ
عَلَى السُّلْطَانِ ذَاتَ نَفْسِهِ.

قَالَهَا وَمَدَّ يَدًا بِأَرَبِ أَصَابِعٍ: مَحْسُوبُكَ نَجِيبُ الْأَهْوَانِي.. مُؤَبَّدٌ فِي
مُحَاوَلَةِ اغْتِيَالِ السُّلْطَانِ.

استعاد عبد القادر كَلِمَاتِ أَحْمَدَ فِي الْعَابَةِ الْمُتَحَجِّرَةِ بِالْمُقَطَّعِ:
«سنة خمسناشر شاركت زميل ليا في رمي قنبلة على السلطان حسين كامل..»

كنا بنجرَّاب القنابل هنا في الغاية برضه.. وفي يوم اتأخر لحظة في رمي القنبلة.. انفجرت بدري.. شظية منها قطعت ضباعه.

صافحه عبد القادر فأردف الرجل: أحمد إزيه؟

نظر عبد القادر في عينيه بثبات: أحمد مين؟

- الجرايد بتجيني بعد ما الطباط يقروها.. الخبر كُتب عن خلطة القنبلة بتاعتك عشان يعمل سبق.. الخلطة دي ما يعملهاش في مصر كلها غير أحمد كيرة.. والعبد لله.. كُنا دُفعة واحدة في مدرسة الطب.. شعبة الكيمياء.

أنا مش عارف أنت بتكلم عن مين!

همَّ عبد القادر أن ينزل فابتسم الرجل مُستدركا: أنا أخذت إعدام وليست البدلة الحمراء شهر.. وما نطقش.. ولما اتخفف الحكم لمؤيد برضه ما نطقش.. لو كُنت عاوز أبيع أحمد كُنت بيعته من خمس سنين يا صاحبي.

رمقه عبد القادر لدقيقة قبل أن يتكلم: أنت عاوز إيه؟

- أنت عارف ليه حكموا علينا مؤبد مش إعدام؟

- ليه؟

- عشان اللي بيتعدم بيعيش.. يبقى شهيد.. بطل.. أما اللي بيتسجن.. بيموت.. ستين كمان في طرة وهاتفهم كلامي.

ساد الصمت دقائق تأمل فيها عبد القادر العجوز النائم بجانبه في الزنزانة قبل أن يلتفت للأهواني:

- هو اللي إحنا عملناه ده صح؟

- إحنّا يا صاحبي عَمَلنا الجَريمة الوحيدة اللي لو كملت المُتهم يُخرج بَريء.. وإذا ما كَمِلتِش المُتهم ياخذ إعدام.. لو كنا قتلنا السلطان وكنا مُنظَّمين كان زمانا إحنّا اللي بنحكم دلوقت.

- نُحكم؟ حتّى لو قتلة؟

- كل اللي قبلنا قتلوا عَشان يحكموا.. ومش مَحَمّد علي دَبِج المَماليك؟ حد قال له تَلت التلاتة كام؟ عَشان تقيم دولة الحق لازم تزيل الباطل.. حتى لو بالدم.

- بس إحنّا في السُجن!

- وسيدنا يوسف كان في السُجن.. بس شوق رَبِّك بعد كده علّاه إزّاي ونَصْرُه.. أول خطوة هي إتك تتمزل عن المُجتمع الفاسد.. تتأمل.. تفكّر.. لغاية ما توصل للحقيقة.

- وإيه هي الحقيقة؟

- الحقيقة مش تحرير أرض من إنجليز ولا أتراك، الاحتلال كله احتلال، والأرض دي بتاعة ربنا، تحرير مَصر الحقيقي تطهير الناس من الخونة، فكرك المحتل بيغلينا بسلاح؟ أبدا، بيغلينا بالرجالة اللي امستعمر روحهم، الوزرا الأنجاس اللي لو ما قتلناهمش يقووا المحتل والمَلِك الكافر، لازم يكون فبه جماعة جريئة تقاوم، طليعة، إحنّا الطليعة دي، وأول خطوة إننا اتعزلنا هنا عَشان نشوف الأمور بشكل أوضح، افكر عزلة الرسول في مكّة ثلاث سنين، كانت المفتاح للخروج من الظلم، طالما رَبِّك ما يحكمش علينا بالموت، يبقى شايل لنا مُهمّة أكبر.. افهم.

- ساعات بحس إنه نسيني .

- أعوذ بالله .. فوق يا صاحبي .. دَوام الحال من المَحال .. لَمَّا
تِفشل بتفشل عشان فرطت في حقك .. نغَيّر من نفسنا والدور
هايبقى بُكرة ع الظالم .. يَعني حَد كَانَ يَصَدّق إن سَعَد زغلول
وزير حُكومة الإنجليز اللي حَمَاه ييضى مُصطفى باشا فهمي راجل
الإنجليز الأول في مصر هو اللي يُطلب الاستقلال !

- عُمرى ما فهمتها دي .

- كُل وقت وله أدان .. مَا هو بَرَضه مَا اتولدش وفي بُقَه مَعْلَقَة ذَهَب ..
اتسجن وشقي وشاف .. النهاردة السُّلطان ذات نفسه بيكش من
اسمه .. إحنا كمان هانخرج يا صاحبي واسمنا هايكبر .. إحنا أول
ناس ضحَبْنَا مَا نَسَاش .

قالها وأشار لكفّه مقطوعة الإبهام .

- غريبة إن لَسَه فَبِكَ أَمَل !

- طالما مَا مُنَاش ييضى فيه أَمَل .. وهاييلى لنا شَأْن كبير أوي .. أوي ..
هافكر .. وهانحرر البلد دي من الأوساخ .. مش هانموت هنا
زي الكلاب يا صاحبي .

رغم الأمل الذي بثّه الأهواني في نفس عبد القادر إلا أن الجملة
الأخيرة قبضت صدره : الموت كالكلاب .. اقشعر بدنه حين تخيل
نفسه مُلقى في حَمَام السُّجن البارد وعُمره فوق السنين .. مَلْفُوفًا
في قُمَاش مُنْسَخ ينتظر استلام أحد أقاربه الجثة .. لاحظ الأهواني
شروده فسأله :

- أنت متجوّز؟

أفاق عبد القادر من شروده: لا.

- تبقى صاحب كرسي في الأزيكّة.

- كُنت.. وبطلت.

- جيّيت.

- إزاي عرفت؟

- الراجل ما يطلّش زيارة الأزيكّة غير لما يجب بجد.

- وأنت.. متجوّز؟

- طلّيت الطّلاق من سنتين.. اتجوّزت دلوّفتي ومعاها فاروق..

على اسم السّلطان الصّغير.

سحب عبد القادر آخر نفس في سيجارته قبل أن يطعم الحائط
ببقاياها.. أردف:

- هاتجب تقابلها لما تخرج؟

أجاب الأهواني بحسم: أحب.. عشان تعرف إنها ضيّعت من أيديها
بطل.. وتعرف أنها لو صيرت كانت نالت.

- إزاي واثق من الخروج؟

- البركة في سعد باشا إن شاء الله.



كَانَ جَسَدُ آرثر وَكِيلٍ جَعْدًا رَافِدِيَّةً دَاخِلِيَّةً مُتَمَاسِكَةً الْعَصَلَاتِ
بِالنَّسْبَةِ لِرَجُلٍ تَجَاوَزَ الثَّامَنَةَ وَالْخَمْسِينَ، مُنْذُ حَضَرَ إِلَى مِصْرَ وَتَسَكَّنَ
جَزِيرَةَ الزَّمَالِكِ لَمْ يَتَخَلَّ يَوْمًا عَنِ رِيَاضَةِ الْجَرِيِّ، يَسْتَقِظُ بَعْدَ الْفَجْرِ،
يَجْرِي بِالْبَنْطُلُونِ الْقَصِيرِ لِنِصْفِ سَاعَةٍ حَتَّى فِي الشِّتَاءِ قَارَسَ الْبَرْدَ، قَبْلَ
أَنْ يَدْخُلَ النَّادِي لِيَجْلِسَ فِي «الليدو»، حَمَامَ سَبَاحَةِ الْكِبَارِ وَمُلْتَقَى
السِّيَاسِيِّينَ وَطَبَقَةِ الْأَرِسْتَقْرَاطِيِّ، يَضَعُ نَظَّارَتَهُ الشَّمْسِيَّةَ فَوْقَ عَيْنَيْهِ،
يَسْنُدُ رَأْسَهُ وَغَضْذِيهِ عَلَى خَافَةِ الْحَوْضِ الْكَبِيرِ الْخَالِي مِنَ الْمَرْتَادِينَ
مُذَلِّيًا بِجَسَدِهِ فِي الْهِيَاءِ الدَّافئةِ بِاسْتِرْخَاءٍ، يَتْرَكُ الشَّمْسَ تَخْفُضُ وَجْهَهُ
بِحُمْرَةٍ عَلَى حُمْرَتِهِ وَتَصْبِغُ شَعْرَهُ الْكَسْتَنَافِي بِلَمْعَةٍ زَاهِيَةٍ، وَيَمْدُ يَدَهُ بَيْنَ
الْعَمِينَ وَالْآخِرِ لِاتِّقَاطِ الْمَكْسُورَاتِ مِنْ طَبَقِ عَامِرٍ وَكَأْسِ نَبِيذِ أَحْمَرٍ
يَرْتَشِفُهُ عَلَى مَهْلٍ.

لِحَظَاتٍ وَحَضَرَ صَدِيقٌ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ، انْزَلَقَ بِخَفَةِ إِلَى الْحَوْضِ
قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ النَّادِلِ زُجَاجَةً بَيْرَةً، نَظَرَ إِلَيْهِ آرثر مُتَرَقِّبًا قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ:
- قُلْ لِي خَبِيرٌ سَعِيدٌ.

عَاجَلَهُ الرَّجُلُ: حَصَلَ.

اعتسدل آرثر وار تسمت على شفّتيه ابتسامة: لا وقت
للمزاح.. هل...؟

- قلت.. لك.. حصل.

- وأين هي الآن؟

- مُستَلقية في شَفَّتِي.

أغمض آرثر عَينيه في نشوة ثم زَفَر

- يا إلهي.. أتعرف.. حين رأيَتها للمرّة الأولى لم أتخيلها سوى في
بيتني رغم حالتها المُزرية.. لقد حققت جِلَمي يا شيطان.. كيف
فعلتها؟

- النقود اشترت المَسِيح يا صديقي.

ضحك آرثر: عندك حقّ.. كم دفعت؟

- مائة جنيه مصري.. أما الرحلة إلى الصعيد لجلبها فكانت بحق
شاقة.. لا أعرف كيف يتحمل هؤلاء البشر تلك الشمس!

- سأعوضك بسهرة لن ننساها ولكن احكِ لي كيف حالتها؟

- لبوّة فاتنة ستنسبك فائنات لندن.. طوال الطريق لم أستطع منع
نفسي من تأمل منحنياتِها المثيرة.

ضَحِك آرثر من التعبير: هل لا يزال مفتاح الحياة في يدها؟

- نعم.. ويعلو الرأس قُرص رَع وثعبان كُوبرا كامل بلا شروخ..
المصري القديم لم ينس حتى حفر حلماتها تحت غلاتها
الشفافة.. ماذا ستفعل بها؟

- ستسافر معي إلى لندن بالطبع.. سيُسعد صُوفيا كثيرًا اقتناء أميرة
مصرية من الألبستر.. لها مكان خالٍ في الصالون الإفريقي.
- عليك الحذر.. فهي ليست مجرد تمثال.. إنها سيخمت
يا صديقي.. إلهة الحرب.

صَجِجًا وقرعًا كأسيهما ثم نجرعاهما قبل أن يرفعا أيديهما عاليًا
طلبًا للمزيد.. اقترب النادل منهما يحمل صينية.. وقف للمحظات
كانت كافية أن يلتفتا حين استقرت في جبهة كُل منهما رصاصة أرخت
العضلات قبل أن يطفيا فوق الماء.

سِجْن طُرة.. التاسعة صباحًا

عشرون مَقْعَدًا خَشَبِيًّا تراصوا في أربعة صُفوف تحت سَقَف العُرفة
الواسعة، جَلَس أقارب المَسَاجِين عليها وبجَانِبهم يسّال تحوي
مأكولات تم تفتيشها بدقة وعلب سجائر مخفّية، تترقب أعينهم الباب
الحديدي الذي سيأتي منه الغائبون الحاضرون.

دقائق ووسوست الجنازير فانتبهت الرءوس، انفتح الباب وانهمر
المَسَاجِين يجرّون سلاسلهم كُل يبحث بعينه عن جذر مقطوع يصله،
عمّت الفرحة الوجوه وقام ذروهم يتلقفوتهم ويحتضنونهم، ضحكات
عَصَبِيَّة متألّمة وأعين ترقرت وأطفال تلعب حولهم غير مستوعبين
الظرف أو التَمَكّن، لم يتبق غير عبد القادر، وقف وحيدًا في بدلته
الزرقاء وقد حلق شعره وازداد نحافة، يُدير رأسه في المَقَاعِد بحثًا

عَمَّنْ طلب زيارته قبل أن يلتقط يدًا مرقوعة من المقعد في رُكن بجانب نافذة، اقترب منها ببطء تعيقه السلاسل، تأمل خصلة شعر تسللت من تحت وشاح أزرق رائق وعينين برتقا من الكدمات فتكحلت وشففتين حَجَزتا وراءهما الكلمات، جلس بجانبها بلا كلمة، نظر إلى لمعة عينيها فابتسمت حتى اضطربت فأشاحت بوجهها إلى حقيبتها تُبعثر ما فيها لتُخرج له الطعام.

- وحشتيني.

خفتت الأصوات من حولهما وتلاشت الجدران.. أردفت: أنت كمان... أوي.. عامل إيه؟

- بتعود يوم بعد يوم.

- سجنك مش هايطول.. أنت بقيت بطل.. بيعاين الجرايد بيعبعوا صورك في السُر.

- مش بافتكر الكلام ده لَمَّا يحسب فاضل لي كام سنة...

سكتت لَمَّا لم تجد ما تقول.. لحظات قبل أن يسألها.

- أحمد إزيه؟

مدت يدها تحت وشاحها.. عبثت بخصلة فأخرجت شيئًا أخفته في قبضتها.. فأولته لعبد القادر وهي تهمس:

- باعت لك السلام.

رَمَقَ عبد القادر الحراس فوجدهم مشغولين عنه ففتح قبضته بهدوء.. بين أصابعه استقر خاتم ذهبي.. خاتم محفور بحروف

إنجليزية بارزة.. ARTHUR.. صَم عبد القادر قبضته على الخاتم ثم
رَمَقَ دَوْلَت بعينين لمعتا من الدمع غير مصدَّق.. هَمَسَتْ:

- النهاردة الصُّبَح قبل ما أُجَي لك.. أحمد بنفسه.. الخبر
هايتنشر بكرة.

- أنا مش مصدَّق!

- بيفكر ك بيوم ما اتقابلتوا في بيت الأُمَّة.. لما قال لك إنه هايحب
لك حقك.

ترقرقت عَيْنَاه واهترَّت أعصابه: هو كويس؟

- نفسه يزورك.. لكن الوضع بقى خطر.. العيون صاحية وفيه إشارة
بالقبض عليه.

نأمل الخاتم ثانية قبل أن ينظر في وجهها:

- عارفة...

سكت فتركته.. جال ببصره بعيدًا قبل أن يعود إلى عينيها:

- أوقات كثيرة باغضب منك.. بلومك وأعاتبك أكنك حاضرة
فدّامي.. أكن كل اللي خَصَل في حياتي سببه أنت.. وبعدين
أفوق.. وأقول أنت كنت أعقل.. يمكن الزمن غلط.. والظروف..
بس يمكن لو كنت جاوبتيني.. كان... أو يمكن ما كنتش...
دولت.. أنا حيتك بجد... مش زي أي واحدة قابلتها وحياة من
جمّعنا.. بس ذكرياتي معاك.. ملهاش ريحة.. ومش عارف أبطل
أتوجع.. ولا قادر أبطل ألوم نفسي على اللي عملته فيك.

أغمضت عينيها مُحاولَة تما لك نفسها: عبد القادر... أنا...

- أنا.. يهمني أعرف حاجة.. هاتفرق معايا رغم إن ما بقاش فيه
حاجة مُمكن تفرق.. كلامك اللي قلتيه المرة اللي فاتت...

- حقيقي يا عبد القادر.

زفر وهو ينظر من النافذة إلى زَميله العجوز في الزنزانة.. يجلس
في باحة السّجن وحيدًا شاردًا في فراغ.. ينتظر زيارة لم تُعد تأتي..
زيارة ماتت أو يشت.. اسود وجهه فعاد إلى دولت وفي عينيه ألم
فابتسمت تخفيًا:

- فرج ربنا قريب أوي.

- أنا باعرف الأخبار كُلّها وأنا قاعد هنا... هنا فيه ناس منسيين
بقالهم عشرين سنة.. وفيه ناس ما بتكملش.. يتموت.. بيغسلوهم
بخرطوم ويشيعوا تلغراف لأهاليهم وبعدين يدفنوهم في تُرب
الصدقة... مش مصدّق إن ممكن تكون دي نهايتي.

- دي عُمرها ما هاتبقى نهايتك.. سَعِد باشا راجع.. وكل حاجة
هاتغير.. صدّقني راجع.

سَاد الصَّمْتُ بَعْدَ كَلِمَاتِهَا قَبْلَ أَنْ يُعْلِنَ الْحَرَّاسُ أَنَّ زَمَنَ الزَّيَارَةِ قَدْ
انتهى.. نظر في عينيها:

- أنا طالب منك خدمة.. ما تقطعيش زيارتي.. لغاية ما تتجوزي.

- عبد القادر...

- أتمنى لك كل السعادة.... رغم إنني مش قادر أتخيلك مع
حد غيري.

قبضت على أصابعه في قوة محاولة منع عينيها من البكاء.. لحظات
ونادى الحراس بانتهاء الزيارة.. سلّلت أصابعها منه فابتسم وهمس:

- خُدي بالك من روحك.. وقولي لأحمد إن هديته دي أغلى هدية.

اختنقت الكلمات في حلقه قبل أن يسحبوه إلى طابور.. لم يفارق
عينيها حتى خالت بينهما القضبان الحديدية.. لَمَّا أغلق عليه باب زنزانته
أخرج من جيبه خاتم آرثر.. تأمله.. ثم ارتداه وابتسامة ظفر تغزو شفّتيه.



سري.. نمرة ٢١٩

القاهرة في ٦ أكتوبر ١٩٢٠

- صدر أمس قرار محكمة الاستئناف في قضية المؤامرة الكبرى بالحكم
على عبد الرحمن بك فهمي بخمسة عشر عامًا.

بعد يومين.. غناير السُّكك الحديدية ببولاق

انطلقت صفّارة انتهاء الدوام فخرج العمّال، طُوفان من السترات الزرقاء والوجوه المغيرة تندافع ببُطء في لحظة خسر حَقيقية تفرّقوا بعدها كلٌّ إلى اتجاه، بعد دقائق هدأت الحركة وانتشرت الجُموع، قبل أن يُغلق العنبر بابه خرج إسحاق، فوق رأسه قبعة وفي يده حقيبة جلدية صغيرة تكفي لاحتواء عبوة فارغة من الزنك تصلح قنبلة، مشى مسافة كبيرة حتّى ركب تراماً قربه من بيته، هبط منه في ميدان مُزدحم فوجد على الرصيف شاباً يرتدي جلباباً وفي يده جردل غراء وفُرشة، يلصق إعلاناً على عامود نور، إعلاناً فيه وجه مألوف، اقترب من الشاب الذي أتم عمله ونظر للورقة التي تتوسطها صورة، صورة لأحمد كيرة ترجع لأعوام مضت، كان فيها أنحف وشاربه أقل كثافة، قرأ الكلمات المكتوبة تحت الصورة:

مُكافأة ٥٠٠٠ ج.م

«تُعطى مُكافأة خمسة آلاف جُنيه مصري لمن يقدم معلومات تؤدي إلى القبض على أحمد عبد الحّي كيرة، يعمل كيميائياً بمدرسة الطب، فاتح اللون، متوسط القامة وذو شارب وحمرة حوالى ٣٨ عاماً، خطير في الاغتيالات السياسية ومشتبه في تورطه بقتل آرثر باشا وكيل حكمتار العاصمة، كل من يقدم هذه المعلومات يكون منسمولاً بالحماية التامة والسرية ولا يُستدعى أمام أي هيئة تحقيق رسمية أو قضائية».

أشعر بدن إسحاق فنظر حوله قبل أن ينتزع الورقة من الحائط
ويدهسها في جيبه ويمضي مُبتعدًا.

اصطفّت الأجساد في طابور طویل على الرَّصيف المُلاصِق للبوابة
الخشبية الكبيرة، ملابس رثة وقبعات بالية وأبدان أكلها الجُوع من
وقت الحرب ثم الثورة.. كانت الجَمعیة الخیریة قد أعلنت مُنذ أيام عن
تقديم إعانة لرعايا الكنيسة الأرمنية لمواجهة البَرَد، لحاف ومُصل مُقوّم
ووجبة مُشیعة، نهافت الجُموع حتّى من غیر المُسیحیین فتجاوزت
الجَمعیة شرط الانتماء للمُجالیة وفتحت أبوابها للجَمیع.. بالداخل
كان الدّفء طاعیًا والهَمّسات، الوجوه كالحیة واجمة والأعین جاحظة
یصبغها وهج الشُّموع بضفرة على ضفرة الفقر، یرمقون بعضهم فی
جُمود، یتکلمون بدون كلمات، ثم یتسّمون فی تعاسة حین یتحفون
الغُطاء یتلقون المَصَل فی أوردة نحیلة غاطسة قبل أن تُحیط أیدیهم
طبق الشوربة الساخن ویقضّون قطعة نُخبز مع مُكعّب لحم، یتلقون
وَجبتهم العزیزة من أیدی ثلاث فتيات یقفن خلف مائدة تحمل القدور
الساخنة یرتدین زیا مُوحّدا، ثوبا رمادیا مائلًا للزرقة وغطاء رأس
أبيض وفوق أنوفهن کمامات تحمیهن من الأمراض.

لَمّا أصبح على بُعد مترین من المینضدة نظر إلى عَینِها فوق الکمامة،
لم یُخطئ الوجوم البادی فی الحدقتین الغیر وزتین، اقترب حتی بات
أمامها وبدون أن ترفع وَجْهها التفتت طبقه المَمْدود وصَبّت الشوربة
فیه، لَمّا تأخر عن الالتقاط نظرت إلیه حتّى عَرفته، ارتجفت عیناها

وتهدّجت الكمامة أمام أنفها وهي تتأمل ذقنه الكثيف والنظارة الطبية
المُستديرة التي يرتديها! عاجلها:

- هاستناكي برّه.

وسحب طبقه ثم ابتعد.

في كابينة الشرايم جلست بجانبه، ذقائق لم يتبادلا أثناءها كلمة،
يسترق النظر إلى صفحة وجهها ولا تلتفت، فقط الصليب فوق صدرها
يعلو ويهبط باضطراب رغم الهدوء البادي عليها، نزلا ثم دلفا إلى
مطعم إيطالي جلس فيه من قبل مع نازلي، وضعت كرامتها على المائدة
بجانب طربوشه، طلبت حلييا وطلب قهوة، تأمل بشرتها الشفافة، عينيها
التي تعكس مربعات المقرش البيضاء والحمر، وأاملها الرقيقة التي
ترتعش قلقلًا على جوانب الكأس الفارغة.

- راهبة؟

هزّت رأسها بنعم ثم نظرت في وجهه: ليش متنگر؟

- البوليس بيدور عليا.

- عملت شيء غلط؟

ابتسم: اتخانقت مع ظابط إنجليزي.

- كيف عرفت مكاني؟

- قلت مرّة إنه اتعرض عليك شغل في الجمعية الأرمنية.. فكّرت
أكيد هلاقيكي هناك.

- ذاكرتك هايلة! شو جابك يا أحمد؟

- جاي أشوفك يا لينا.. ولأورد؟
- أرجوك.. إذا كنت جاي تعاتب أنا فيا اللي مكفيني.
- أنا مش جاي أعاتبك.. أنا بدور عليك من آخر يوم كنا مع بعض..
لقيت عليك الصّالات كلها.. مقيش مسرح ما دخلتوش.
- وشو بدك بكل ها التعب؟
- ما قدرتش أتخيل إنك تختفي من حياتي بالشهولة دي.
- هربت من عيّنه إلى ما وراء رُجاج المَطعم: كلام.
- أنت مش فاهمة حاجة.
- ترفرقت عيناها فالتفتت إليه: فهمني.. فهمني ليش في اللحظة اللي
احتجتك فيها رفضت تكون معي.. تركتني لحالي ورُحت.. فهمني
ليش عم تتعب حالك هلا وتدور علي؟ إحساس بالذنب؟
- زي ما عندك الجانِب اللي يتخبّيه يا لينا.. أنا كمان عندي
جانِب بَخْبِيه.
- والجانِب اللي بتعرفوا عني طبعًا يخلّيني مش لايقة! أنا كنت
عارفه إنك رح تستعر مني وصدقني لو بقولك ما انصدمت.
- أنا عرفت اللي اتعرضتي له.. ومتخيل المَك.. وكفاية إنك
قاومتى.. ليه ما حكيتيش؟
- عُمر ما الراجل بينسى ماضي واحدة.. مَهْمَا حاول يتظاهر
بالعكس.. رح يضل دايماً متذكر إنها كانت في يوم من الأيام
مشاع.. وإن كل جزء فيها مش هو أول واحد لمسّه.. حتى
لو مو ذنبها.

- ماضيكي ما يخصّنيش في حاجة .. أنا دورت عليك بعد ما عرفت
اللي حصل لك .. صدّقيني .. أنا ما كنتش أعرف إني بحبك .

- مو صحيح .. أنت بتحب واحدة تانية .

- كنت .. كنت بحب .. حلم غريب .. نسيته معاك .

أغمضت عينيها للحظات ثم تكلمت :

- إيش الجانب اللي ما أعرفوش عنك ؟

سحب نفساً ورجع بظهره إلى الكرسي ينظر في وجه غزاه الألم
والتخبط .. لمّا طالت اللحظات أردفت :

- مش مُجبر بحكي !

- أنا محتاج أحكي لأنني محتاج أحس إني عايش .. وإني مُمكن
أسند على كتف حد .. أنا تعبت إني دايماً لوحدي .. تعبت من
شكّي في أقرب الناس ليا .. تعبت إني أناام بعين مفتوحة وعين
مقفولة .. أنت الوحيدة اللي حميت بالراحة معاها .

- إسمعني أنا ؟

- تصدّقيني لو قلت لك مش عارف .. يمكن عشان أنت البني آدم
الوحيد اللي دخل حياتي سن غير ما يستأذن .

قالها وسكت .. تركته ينظم نفسه حتى تكلم : أنا اترددت وإحنا
بنرقص في الكافيه لنفس السبب اللي باعثني هي عشانه .. كانت بتحب
حد ما تعرفهوش .. خبيت عنها حقيقتي .. ولمّا عرفت ما سامحتنيش .

- ليش ما صارحتها ؟

- ما ينفعش.

- عُمرِكَ ما رَح تَساها.

- صدَّقيني.. لحظة ما كُنّا بِنرقُص كُنْتَ فعلاً نسيتهَا.. بس لما سألَتيَنِي لَقِيتَ نَفسي بِكَرَّر نَفس الخطأ مَعاكِ.. بعَرَفَكَ بِشخصية ما تشبهنيش.. واحد أنا نَفسي ما أعرفوش.

- على العموم ما ضَل مطرَح للحكي.. كل شيء انتهى.

- حتَّى لو مِش عَاوِزة تشوفيني تاني.. أنا حَابِب إنك تعرفي أحمد الحقيقي.

ارتعشت أصابعها رَغَمًا عَنْهَا.. نظرت في عَيْنِهِ دَقِيقَةً فاقترَب واحتضَن أطراف أصابعها بِراحته ثم أَرَدَف:

- أنا اسمي أحمد عبد الحكي كيرة... مواليد ١٨٨٢

لَمْ يَكُن يَتَوَقَّع أَن يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْم يَفْتَح فِيهِ حُجَرَاتِهِ الْمُظْلِمَةَ.. يُزِيل العناكب التي رَبَّأَهَا وَأَطْعَمَهَا بِيَدَيْهِ لِتَنْزِل المَخِيط فِي وَجْهِ المَتَطَفِّلِينَ.. يَغْلِقُ فَيَخَاشِ الدَّبِيبَةَ وَيَمْسَحُ سَمُوم الفُثْرَانِ المَدْسُوسَةِ فِي الأَركَانِ ثُمَّ يَكْنَسُ المَسَامِيرَ المُنْثُورَةَ عَلَى الأَرْضِيَّةِ.

حَكَى عَنْ حَيَاةٍ أُخْرَى غَيْرِ الَّتِي حَكَاهَا لِنَازِلِي.. حَيَاتِهِ الَّتِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَعِيشُهَا.. بِلَا تَفَاصِيلٍ.. عَرَفَهَا أَنَّ الدَّمَاءَ حَقِيقَةٌ لَا تَجْرِي فِي عُرُوقِهِ.. بَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ.. دِمَاءٌ إنْجِلِيزِيَّةٌ زُرْقَاءُ وَأَحْيَانًا يَضْطَرُّ لِلدَّمَاءِ الحُمْرَاءِ إِذَا تَضَوَّرَ جَوْعًا.

عَرَفَهَا أَنَّ حَيَاتِهِ تُشَبِّهُ كَثِيرًا حَيَاةَ الذَّنَابِ.. وَأَنَّ مَنْ يَفْقَدُهُمْ يَوْمِيًّا مِنْ القُطْبِيعِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَكْتَسِبُهُمْ.. عَرَفَهَا أَنَّ دُمُوعَهُ خِرَافَةٌ يَتَدَاوِلُهَا النَّاسُ،

وأنه بالفعل يفتقد جريانها على وجهه .. عرفها أن الحب في حياته لم يكن واردًا وأنه كان نظرية خرقاء تثير السخرية في نفسه والشعور بالضعف .. حتى نبض قلبه يومًا بلا اتفاق .. حلم غريب مثير مزدهم بالتفاصيل .. حلم غاص فيه وثيل حتى تلقى طعنة أيقظته .. قام من غفوته كافرًا بالأنثى وبالحب والحياة .. وب نفسه .. أدرك أنه الطفل الذي عَشِق القمر وظن كل الظن أنه قريب حين احتوته أصابعه فقبض ولم يجد غير شراب وسخرية .. ساذج أخرق أدرك متأخرًا أن القمر في السماء وأنه حجر مُرَصَّع بالحُفر وله وَجْه مُظْلَم نظنه قضاء ..

ثم عَرَفَهَا أنها فتاة تسير على الأرض ..

وأن فيروز عَيْنِهَا وذهب بشرتها والرقعة التي خُرِطَ بها تَحْصَرُهَا ليسوا أجمل ما فيها .. فكُم جَمِيلَةٌ صادف ولم يقنع القلب ا وكم فاتنة قابل ولم تعرَّضه على الحياة .. تحرقه مثلها .. تفرقه فيها .. ترويه وتغسله .. تصالحه على نفسه .. مثلها .. رغبته فيها نَمَتَ بدون ماء .. بدون هواء .. بدون أرض .. عِشَقَ تَوَعَّلَ حتى النخاع حين ظن يومًا أنه لن يراها ..

والبوم بات العشق درجات تنتهي .. عند أطراف قدميها ..

سَمِعَتْ قِصَّتَهُ فغاصَّت في الكرسي .. غَرِقَتْ حتى لَامَسَتْ القاع وَلَمَّا سَكَتَ طِفْتُ .. نظرت في عينيه ثم شهقت .. تفرقت حدقتها فانسلَّت أصابعها من أصابعه إلى الصَّليب المعلق في رَقَبَتِهَا .. ضَمَّتْهُ في راحتها وهَمَسَتْ:

- حقيقتك .. مَارَحَها تَغْيِيرُكَ عِنْدِي .. المُهِمُّ أَنْتَ هَلَا هُون .. لكن ...

- أتأخرت؟

- ...!

ارتعشت شفتاه بابتسامة: لينا.

- ورد.. اسمي ورد يا أحمد.

ابتسم وطأطأ رأسه إلى المائدة ثم نظر وراء النافذة مُحاولاً منع عَيْنِه
الانفلات قبل أن ينظر إليها.. أردف:

- أنا يمكن أسافر يا ورد.. سفر طويل.

- على وين؟

- لسة ما قرّرتش.

- مش رَح أشوفك ثاني؟

- مين عارف!

قامت.. عدلت من وضع الوشاح الأبيض فوق رأسها والتقطت
بيتها: تعرف مكانني.. خلّي بالك على نفسك.

خرجت من المطعم فتابعها من خلف الزجاج حتى تلاشت.



ميناء الإسكندرية.. صباح اليوم التالي

لم تُبطئ الأمطار نشاط عمّال الشحن والتفريغ أمام الباخرة العملاقة «سردينيا»، ينقلون إلى جوفها شحنات قطن وحُبوب ستصنع في أوروبا ثم يُعاد تصديرها إلى مصر ملابس وأطعمة.. أمام الباب الخاص بالمُسافرين وقف ضابط إنجليزي يفحص بدقة جوازات السفر، يمتد أمامه طابور طويل يتحرك ببطء بسبب تشديد الحكومة الإنجليزية على السفر منذ بداية الحرب رغبة في منع التجسس أو هروب ذوي المَواهب المفيدة، لحفّظات واقترب من الضابط رجل كتّ اللحية فوق عينيه نظارة طبّية مُستديرة.

- بونيجورنو.

ألقاها وناوله جواز سفر إيطاليًا.. نظر الضابط في الصُورة الشمسية ثم في وجه المُسافر.

- أين تعيش في صقلية يا سنيور باولو؟

- سانتا آنا.. بقرب الكاتدرائية.

- وماذا تفعل في مصر؟

- تجارة حرّة.. لي سبع حاويات من الحُبوب في الباخرة.

قد الضابط يديه بالباسبور:

- يحيا تشيزاري موري^(١)

أجابه أحمد بابتسامة من خلف لحيته: يحيا تشيزاري موري.

رُفعت المرساة وحُلَّت العِبال فتأمل الإسكندرية تبتعد، اجتاحه الصَّمْت وعانى صدره فراغاً موحِجاً فأشعل سيجارة لم يسحب منها نفساً حتى بات الشاطئ في حُجْم عُقبها، ثم انطبقت السماء على الأرض.

في الساعات الأولى حاول استيعاب أقدار زَمَت به في البحر، يتم كل ساعة على الذَّن المُستعار ومسدسه المربوط بحزام إلى ساقه ويتجنب الحوارات قدر المُستطاع جفاظاً على حصيلة الإيطالية المتواضعة التي يُجيدها، ثم يتزل عليه الليل فتراءى له حَيَّياته في النجوم، الأولى اغتصبها الإنجليز، الثانية تزوجت ملكاً والثالثة زفَّت نفسها للمسيح في السماء!

لَمَّا رَسَت الباخرة في مرفأ صقلية تسلَّل أحمد إلى سفينة القته في ميناء «هامبورج» ثم ركب مركباً صغيراً أحمله إلى «إسطنبول»، ما إن لامس بلاط الشارع حتى بدأت مهمته الأساسية .. الاختفاء.



(١) تشيزاري موري: مُحافظ خلال الفترة العاشية في إيطالي عُرف عنه الحزم في التعامل مع عائلات المافيا حتَّى سُمِّي بالمُحافظ الحديدي.

مَرَّتْ الأيام على مصر ثقيلة، تترقب مفاوضات لندن بفضول الأطفال أمام عرائس صندوق الدمى، معركة ملاحمية بين بطلهم الفارس الشعبي سعد وغريمه الشرير ملنر، عرض طويل شاق أنكه المتفرجين وخطم معنوياتهم، البحث عن صيغة استقلال تُرضي طرفي المفاوضات - احتلالاً ومحتلاً - صار سراً كلما اقتربوا منه لم يجدوا عنده ماء، تمسك كل من الرجلين بموقفه حتى انكسرت مائدة المفاوضات فغادر سعد لندن عائداً إلى مصر، استقبل استقبال الأبطال منذ وطن الإسكندرية وقرر استئناف معركته من أرضه التي غاب عنها زمناً، وما هي إلا أيام وقشلت المفاوضات بين ملنر وعدلي باشا يكن الممثل الحكومي لمصر لأن الأخير خشي أن يقبل بما رفضه سعد فيكتب عند الناس منهاوتاً في طلب الاستقلال.

أما الإنجليز فكان عليهم إنجاح المفاوضات، بأي ثمن، للحد من فرصة حدوث ثورة مثل التي حدثت في مارس ١٩١٩، العقبة الوحيدة لم تكن سوى سعد العنيد وشعبيته، ساقوا إليه أصدقاءه قبل الأعداء يُنذرونه ويهدّدونه مغبة تصليب رأيه فأبى، ضيقوا عليه حُرَيته للحد من إثارة للنفوس ضد الاستقلال المنقوص الذين يُروجون له قبل أن يضطروا إلى نفيه مرة أخرى إلى جزيرة سيشل، فطالما بقى سعد في مصر فإن السياسيين «المعتدلين» سيخشون الاتفاق مع إنجلترا.

وعمت الإضرابات مصر مرة أخرى.

ثورة ثانية أكثر نضجًا، استعملت المقاطعة فيها للمرة الأولى ضد كل ما هو إنجليزي، محلات، بنوك، سُفن، شركات تأمين وتجارة، بدايات عصيان مدني عَجَلَتْ باستقالة وزارة عدلي باشا يكن ولم يقبل أحد بعده أن يشكل وزارة، فالقبول يعني التفريط فيما أجمعت عليه القوى الوطنية.

التفريط في سعد زغلول.

مع الضَّغط الشعبي كان على البريطانيين عَقْد صَفْة.. تصريح من طرف واحد لم يجرؤ على توقيعه إلا سُلطان أراد أن يُصبح ملكًا وأن تُصبح الولاية في ذريته بعد ما رُزق بذكر.. تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م.. وينوده إلغاء الحماية على مصر والاعتراف بها دولة مُستقلة ذات سيادة، إلغاء الأحكام العرفية، تهئية البلاد لحياة دستورية برلمانية عن طريق وضع دستور للبلاد وإجراء انتخابات برلمانية.. مع الاحتفاظ بتحفظات أربعة تقضي على كل ما فات:

- الحق في تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر.
- الحق في الدفاع عن مصر ضد أي اعتداءات أو تدخلات خارجية.
- الحق في حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.
- الحق في التصرف في السودان.

تحفظات أرجعت البلاد إلى حالة ما قبل الحرب «مقابل» عَلم أخضر جديد بهلال واحد بدلًا من الأحمر العُثماني بأهلته الثلاثة، لقب مملكة بدلًا من سُلطنة، دستور تم تمريره بسلاسة في غياب المُزعج سعد، ومادة في نظام الأسرة المالكة تُبقي العرش في ذرية أكبر أبناء جلالة ملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور.. «فؤاد».

سعيد «فؤاد» بإعلان استقلال بلاده فأقام احتفالات - قاطعها

الشعب - وتوافدت رُسُل الدُّول الأجنبية لتقديم التهاني، قابل الملك الرجال وأرسل السيِّدات إلى الحرملك لتهنئة الملكة «نازلي»، جذع نخره الشُّوس من الداخل وترك الوجه بملايح دُمِية رُسمت على شفثيها ابتسامة مزمنة لن تتغيَّر حتى ولو أُلقيت من نافذة، تقف في القاعة البيزنطية بقصر عابدين مُنتصبة هادئة والتاج الجديد منغرز في رأسها، تُحيي السيِّدات الرَّاكعات بكلمات محفوظة وتلقي كُل بضع دقائق نظرة على صغيرها النائم بين يدِ مُربِّيته مسز تايلور لتراه. لندعوات، تنتهي المراسم لتخلع زيتها وتنزع تاجها وتستلقي على فراشها واجمة قبل أن تسمع خطواته قادمة، يخلع طربوشه وبدلة التشريفة والخاتم ليسقط بثقله فوقها بدون كلمة، تنغرز سلسلة حرف الـ N في منابت صدرها، بسيط، بألم، بضعية وبين لحظات الصُّمود والهبوط فوقها تسحب لرفثيها نفساً يُقيبها في منطقة الرُّوعي وتذكر لحظة أهداها أحمد السلسلة، تراه وهو يُخرجها بسحره من وراء أذنها، أصابعهما المتشابكة في شارع عماد الدين، قُبلة قصر البارون خلف التمثال الرخامي، ثم تفيق على خوار في وجهها يحمل عبق تبغ ملكي، ينفث شهوته ثم ينتهي فيرتمي فوق صدرها كالقنيل، يذهب في سنة قبل أن يوقظه شخير بالكد قبل أن يتوقف قلبها بلحظات! يفيق فينظر إليها كأنه يراها لأول مرة، ثم يتدارك نفسه فيقوم ليُسعل غليونه.. بلا كلمة.. تنمض عينيها مُقاومة التقوى من بقايا رائحته وتكوم علي نفسها كالجنين حتى يَخرج إلى عُرفته فتقوم إلى الحمام، تفتح مياه الدُّش فوق رأسها دَهراً، تغسل بصماته وصفعاته قبل أن تشعل سيجارة، تتأمل من بين دُخانها صُورتها المُبهمة في المِرآة، تمسح البخار لترى وجهها، عيني، وجُروح غرز التاج في جبهة.. وخيوط بيت العنكبوت!



١٦ سبتمبر ١٩٢٣ م

«الحق يا جدع.. إلحق يا جدع.. عودة سعد باشا ز غللول غدا..
عودة الباشا ورفاقه إلى مصر غدا.. إلحق يا جدع».
ما إن نطقها الطفل النحيل حتى هجم الناس عليه يتخطفون الجريدة
منه ليتأكدوا الخبر.

«بحر سعد باشا يوم ١٢ سبتمبر من ميناء مارسيليا على ظهر
البخرة «الونس» قاصدا مصر، تصحبه حرمه المصون السيدة
صفية زغللول وبصحبتها السيدة هدى شراوي وبعض إخوانه من
أعضاء الوفد».

في اليوم التالي وصلت البخرة التي تقل سعد إلى الإسكندرية،
استقبله الشعب استقبالا فاق استقباله بعد نفيه الأول، طافوا بموكبه
شوارع الإسكندرية يتأمل الجموع من سيارته يُحييهم ويلقي الورود
والهتافات حتى نزل في فندق كلاريدج، استراح حتى العاشرة مساء
قبل أن يتوجه إلى قصر المنتزه حيث كان الملك فؤاد في انتظاره..

دخل سعد باشا متوكئا على عصاته أكثر من ذي قبل، مقاو ما آلام عظام
ورعشة في أصابعه تليق برجل في الثانية والسبعين، استقبله تشريفاتي
القصر والموظفون بحفاوة وحماس قيل أن يدخل غرفة المكتب التي

تعمّد فؤاد أن يتركه فيها لعشر دقائق قبل أن يفتح التشريفاتي الباب
ليُعلن أن جلالة الملك في الطرقة فقام سعد، التقطت أذناه الخطرات
الواثقة قبل أن يدلف من الباب وجه منتفخ متورّد وشارب أنف، تقابلت
الأيدي تحت النجفة الكبيرة.

- سعد باشا.

- جلالة الملك.

- أصبحت عجوزًا يا صديقي!

قالها فؤاد بالفرنسية فأجابه سعد بمثلها: من لِمَ يَمُت صَغيراً
يتحمل كثيرًا.

- لن تتخيّل مدى اشتياقي لسهرة من سهرات كلوب محمد علي..
أفقدتلك الأيام بشدة.. كنت أكيل لك الهزيمة وراء الهزيمة.

- كانت أيامًا جميلة يا جلالة الملك.

استويا على كُرسيين مُتقابلين أمام تمثال نصفي للخديوي إسماعيل،
والد الملك، استأذن التشريفاتي لدخول صينية تحمّل الشاي، وَضَعَهَا
السفّرجي ثم أغلق الباب عليهما، أشعل فؤاد غليونيه بهدوء ثم تكلّم:

- كيف كانت رحلة العودة؟

- مُجهد.. لكن استقبال الناس جعلها هيئة على قلبي.

- أتمنى أن تكون آخر رحلات النفي.

- أتمنى.. ولو أنني لا أظن!

ضحك فؤاد: ومن سيفيك غيري بعدما حصلنا على الاستقلال؟

- جلاله الملك | الإنجليز ما زالوا يَرتعون في شوارعنا .
- بنود الاستقلال تعطيتهم الحق في الدفاع عن مصر ضد أي اعتداءات أو تدخلات خارجية .
- جلالتك .. إنني أحفظ جيدًا بنود الاستقلال المَنقوص .
- رمقه فؤاد لثواني ثم هز رأسه : لم تخيَّب ظني يا صديقي القديم ..
- سعد هو سعد .. عنيد لا تغيِّره الأيام ولا تزيده التجارب خبرة .
- جلالتك تسمي المُطالبة بالاستقلال التام قلة خبرة ؟!
- بل وقلة بصيرة .. يَبدو أن الجموع التي هتفت باسمك .. وأتكلم هنا عن الجموع التي يُموِّلها رجالك من التبرعات .. قد حَجَبَت عَنْكَ حقيقة جَلبة .. حقيقة أن ذلك الشعب لا يعنيه استقلال تام أو يشعر باختلاف إذا اختفى الإنجليز من الوجود .. ذلك الشعب الطيب يُريد حياة مُستقرة هادئة .. حياة أفسدتها أنت عليه منذ أربع سنوات حين جلبت موضة الثورة إليه .
- الثورة ليست موضة .
- قام فؤاد مُحَتَدًا : بل موضة من لا مُنصب له .. من يفتقر للاهتمام .. من فشل من قبل وراء عُرابي .. من انزوى عن المناصب فأراد أن يُشعل الشوارع ليُضيء دُنباه المُظلمة غير عَابِي بالعواقب .
- قام سعد : جلالتك .. إن الثمن الذي ندفعه من دمائنا هو الذي سيجقق لنا الحُرِّية في النهاية .
- حُرِّية !!!

تمشى فؤاد حتى النافذة ونظر من خلالها لثوان قبل أن يلتفت
لسعد.. قال بهدوء:

- هل تعلم أن أبي الخديوي إسماعيل كان ينوي إعلان استقلال
مصر في الوليمة الكبرى التي أقامها بمناسبة حفل افتتاح قناة
السويس والتي دُعي إليها ملوك وملكات العالم؟
- سمعت تلك الرواية.

- أتعرف لِمَ تراجع؟ خوفًا من كلمة دمائن التي تنطقها ولا تعرف
ثمنها.. خوفًا على مصر.. والآن وبعد خمس وخمسين سنة
وصلنا إلى عقد معاهدة مع إنجلترا فيها فائدة للفريقين.. فيكون
لهم ما يريدونه في القناة ويكون لنا حكم البلاد.. فتأتي أنت لتقول
دماؤنا ستحقق الحرية!!

- أنا لا أنوي إشعال الشوارع أو إراقة الدماء.

- وماذا ستفعل إذن؟ الثورات لا يُراق فيها ماء الورد.

- سأدخل الانتخابات البرلمانية.

ضحك فؤاد: لقد عرفت جميع أنواع الناس، أمراء، عمّالًا، سائقي
المركبات، فلاحي الحقول، جنودًا وقوّادًا، عرفت الفقر، وأعرف أن
ما تنوي فعله لا يُمَت بصلة للمصلحة العامة، بدلًا من أن نهض ونبني
تريد أنت أن تُشعل ثورتك الجديدة في البرلمان.

- فلندع الشعب يقول كلمته.

قام فؤاد منهيًا المُقابلة: لن تصل للبرلمان طالما كنت أنا فوق
ذلك الكرسي.

- فليمدد الله في عُمر جلالتك.. أستاذن مولاي في الرحيل..
جسدي في حاجة إلى راحة من عناء السفر.

لم يُعَقَّب فؤاد، أشاح بوجهه واتجه إلى الشُرْفَة، فتح بابها وخرج إلى الهواء، خرج سَعد من الغرفة فاستقبله التشریفاتي ليُوصله إلى سيارته، مَشَى طرقة طويلة حتى التقطت أذناه وقع أقدام أنثى تقترب، وصيفة من وصيفات القصر همست في أذن سَعد:

- جلاله الملكة باعته رسالة.. وبتعذر لمعاليك إنها ما قدرتش
تيجي لظروف خارجة عن إرادتها.

دش سَعد الرسالة في جيبه وخرَج إلى مَشَى رَكِب في نهايته سَيَّارة
فيما كانت نازلي تُلَاحِظُه مِن وَراء سَتائر شُرْفَة بَعِيدَة عَالِيَة، تحركت السيارة
ففتَح الرسالة، لم يكن مَكْتُوب فيها غير كَلِمَات قليلة بدون إمضاء:

«بابا.. حَمد الله على السَّلامة.. ادعني لي.. وسامحني».



جَرت الانتخابات البرلمانية ودَخَلَ سَعد المُنافسة فاكتمَح بِأَنصاره
مَقاعد مَجْلِس النواب، ١٩٥ مَقْعَدًا مِن ٢١٤ وفاز أحدهم في دَائِرَة
كان الخصم فيها رئيس الوزراء نفسه! تولى سَعد رِئاسة الوزارة في ٢٨
يناير عام ١٩٢٤ رغم أَنف الملك، وكان أول القرارات التي اتخذها
الإفراج عن المساجين والمُعْتقلين السياسيين بإصدار قانون خاص
بالعفو عنهم.



سجن قرّة ميدان.. القلعة

- ياسين.. ياسين...

انتبه في منتصف النداء الثالث فقام من فوق البلاط البارد واقترب من الباب المفتوح.

- أنت انطردت؟! -

...

- إفراج.

- هه!!

- إفراج.. عفو.. هاتخرج.. هاتروح على بلدك...

هز رأسه ولم يُعقب، سحب الحارس خارج الزنزانة فرفع أمام الشمس يداً يحجبها، أنهوا إجراءات خروجه مع عدد من المعتقلين قبل أن يلفظوهم في سارع، لم تكن معه نفود حين اعتقلوه فوقف ساعتين يُحملق في الفراغ قبل أن يمشي، ليومين متواصلين أ نام ليلة في مسجد وأخرى على رصيف وفي الثالثة استلقى فوق ظهر قطار «قشاش» يترجرج به في رنابة، يتابع سماء تمر فوقه وسحاباً مُختلِطاً بدخان الفحم، ويجتر شهوراً مضت، شهوراً لم يُغمض فيها عينيه لحظة، ازداد نحافة وهزالاً، وجمع في ظهره توقيعات سياط مصرية

بجانب السباط الإنجليزية، بحثوا تحت جلده عن معلومة لا يملكها ووراء عينيه عن آخر يدعيه حتى ينسوا منه بالقوه في زنزانه ضَبْقَة خالية ما لبثت أن ازدحمت برفاقه الذين قتلهم يدها في الأيام الأولى اكتفوا بالنظر إليه صامتين، قبل أن يبدأ الهمس بينهم، وسوسة زفيعة نخرج من بين شفاههم وتتعالى، وسوسة لم يفلح معها سد أذن ولا صراخ، قام يدفعهم ويخط الباب بقوة حتى أتى الحراس فكبلوه وكنموه ثم القوه ثانية في الزنزانه، مع رفاقه، ظل صامتا يتأملهم برعب وهم يقتربون حتى باتوا على بُعد ستيمترات من أذنيه قبل أن يصرخوا كلهم في وقت واحد، صرخة رفيعة حادة شقت عقله وقلبه وحررت مئانة البول بين قدميه، من يومها لم يعد ينكلم أو يصرخ، فقط يُحملن في الجدران من حوله كالأصم الأبكم.

حين وصل الفطار المنبا ترك السماء ونزل، هام حتى وصل فريته أبشاق الغزال، استقبلته أمه وإخوته بكاء وتساولات لم يجب عنها، قبل أن يسأل عن دولت النبي لم نسمع أخبارها منذ رحلت، ربت أمه على كتفه وهمست: دولت يا ياسين.. أخذك.. وين راحت يا ولدي؟ بجالها نملات سنين لا حس ولا خبر أبكت بكاء مَرَبْرًا نحول لعويل قبل أن نصرخ ونضرب صدره بكل قوتها تريد أن نُحيي قلبًا كف عن الخففسان، لم يُقاوم، تركها تضربه حتى خارت فواها فنظر إليها بصمت ثم دَخَلَ غُرفته، نام يومًا كاملاً حتى حسبته أمه قد مات قبل أن يقوم بلا كلمة، نمثال من تماثيل المساخط يسير بلا أقدام، اتجه إلى أرضه فخرث وبذر وروى ثم اختار مجلسًا جلس فيه وسط حقله، خيال مائة يُفزع الطيور، قبل الغروب قام فجاء حين كَمَح في الشمس وجهًا، وجه دولت، لم ينفذ يده أو بسوي جلبابه، فقط اتجه إلى محطة الفطار.

مَكْتَب مُصْطَفَى بَاشَا النُّحَاس بِمَقَرِّ رِئَاسَةِ الْوُزَرَاءِ

انْقَضَتْ نِصْفُ سَاعَةٍ مِنَ الْإِنْتِظَارِ قَبْلَ أَنْ يُخْرَجَ السَّكْرَتِيرُ مِنَ الْغُرْفَةِ
وَيَقْتَرِبَ مِنْ عَبْدِ الْقَادِرِ وَنَجِيبِ الْأَهْوَانِيِّ اللَّذَيْنِ قَامَا مِنْ كُرْسِيهِمَا.

- آسَفُ يَا أَفَنْدِيَةِ أَنْتُمْ أَكِيدَ مُقَدَّرِينَ الْمَشْغُولِيَّاتِ .. مُصْطَفَى بَاشَا فِي
إِنْتِظَارِكُمْ.

زَرَّرَ الْأَهْوَانِيُّ سُرْتَرَهُ وَعَدَلَ طَرَبُوشَهُ ثُمَّ نَظَرَ لِعَبْدِ الْقَادِرِ الَّذِي
فَقَدَ عِدَّةَ كِيلُوجَرَامَاتٍ، ابْتَسَمَ فَنَغَمَزَهُ الْأَخِيرَ بِعَيْنَيْهِ ثُمَّ دَلَّفَا إِلَى الْغُرْفَةِ
الْوَاسِعَةِ الْمَكْسُوءَةِ بِالسَّجَادِ، مُصْطَفَى بَاشَا النُّحَاسُ كَانَ عَلَى كُرْسِيهِ
خَلْفَ مَكْتَبٍ عَرِيضٍ يُنْهِي مُكَالَمَتَهُ، قَامَ مِنْ مَقْعَدِهِ فَهَرُولَ الْأَهْوَانِيِّ إِلَيْهِ
مَاذَا يَدَا وَمَنْ وَرَائِهِ عَبْدُ الْقَادِرِ، سَلَّمَ عَلَيْهِمَا بَرْدًا ثُمَّ أَشَارَ إِلَيْهِمَا لِيَجْلِسَا
قَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ مُكَالَمَتَهُ بِعُجَالَةٍ وَيَلْتَفِتَ إِلَيْهِمَا مُبْتَسِمًا:

- آسَفُ عَلَى إِنْكُمْ أَنْتَظَرْتُمْ بَرَّةً كَثِيرًا.

ابْتَسَمَ الْأَهْوَانِيُّ: يَا بَاشَا إِنْحَنَّا أَنْتَظَرْنَا اللَّحِظَةَ دِي سَنِينِ فِي الْلُومَانِ ..
مَعْقُولُ مَا نَنْتَظَرُشْ سَعَادَتُكَ .. دَائِمًا كُنْتَ أَقُولُ لَزْمِيلِي إِنْ فَرَجَ رَبَّنَا
هَآيِيَجِي عَلَى إِيْدِ سَعْدِ بَاشَا .. وَاللَّهِ ...

- اللَّهُ يَخْلُقُكَ يَا نَجِيبَ أَفَنْدِي دِهْ بِرَضِهِ الْعِشْمِ .. أَهْلًا يَا عَبْدَ الْقَادِرِ ..
حَمْدُ اللَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ يَا ابْنِي.



أردف عبد القادر: الله يسلمك يا سعادة الباشا.

صَبَقَ النحاس جرسًا تحت مكتبه ثم استطرد بابتسامة:

- أنا عاوز أقول لكم إن تقديم المساعدة المُمكنة من أهم أولويات
سعد باشا من ساعة ما تولى الوزارة.

أردف الأهواني: الله يكون في العون ويخلي لنا الباشوات كلهم.

دَخَلَ سَاع فأمره النحاس أن يتولى طلبات ضيفيه فطلبها على
استحياء شايًا.. استغل النحاس الدقيقة المُهدرة وأخرج من درج مكتبه
ظرفين وضعهما أمامه ثم أردف حين أغلق الباب:

- للأسف وقتي محدود أنتو عارفين مشغوليات الوزارة، وطبعًا أنا
برضه مقدر إنكم لسة خارجين ومحتاجين تقضوا وقت مع العائلة
الكريمة والأقارب، فأنا هاكون مُختصر في كلامي لغاية ما يكون
لينا لقاءات تانية بإذن الله، طبعًا عايزكم تعرفوا إن سعد باشا مُهتم
جيدًا بكل الناس اللي حطّوا كفنههم على أكتافهم وقت الثورة وما
بَعْدَهَا... و...

قاطعه الأهواني: يا باشا إحنا رقبينا فدا مصر وسعد باشا.

ابتسم النحاس بود: أنت قضيت كام سنة في السجن
يا نجيب أفندي؟

- ٩ سنين ومِت شهور.. أنا بلا فخر صَاحِب أخطر مُحاولَة اغتيال
بعد اغتيال بطرس غالي رئيس الوزارة سنة عشرة.. الوحيد اللي
واجه حرس السُلطان والوحيد اللي...

قاطعه النحاس بعدما لمع ساعة الحائط : مفهوم مفهوم طبعاً..
وأنت يا عبد القادر أفندي؟

- أربع سنين يا باشا.

دفع النحاس الظرفين بلطف ناحية ضيفيه: إحنا محضرين ظرف
لكل منكم فيه إعانة بسيطة، طبعاً مش قد المقام ومش أجر التضحيات
لكن أهـ حاجة تساعد في المصاريف لغاية ما تستلموا عمل في
أقرب وقت.

رَمَقه الأهواني في صمت قبل أن يتسم:

وهي إيه طبيعة المنصب اللي هاستلمه يا باشا؟

- بالنسبة لك يا نجيب أفندي إحنا محضرين لك وظيفة كاتب في
بنك مصر.

أظلم وجه الأهواني: كاتب!

- في بنك مصر... بمأهية تمانية جنيه في الشهر.. طبعاً ده عثمان
بداية التعيين لكن في أقرب وقت...

- تمانية جنيه!! أنا...!! أنا ضحيت بروحي سنة خمستاشر يا سعادة
الباشا!! ضحيت وما ذكرتش اسم حد من زملائي.

- للأسف يا نجيب أفندي أنت معاك شهادة الكفاءة^(١).. يا ريت كان
فيه حتى شهادة توجيهية كنا عرفنا...

(١) شهادة تؤهل حاملها لشغل الوظائف الدنيا في الحكومة أو لمواصلة الدراسة حتى
إتمام الشهادة التوجيهية التي تعادل الثانوية العامة.

قاطعه الأهواني: يا سعادة الباشا... هو واحد زَيِّ المفروض بتعَيِّن بشهادته؟ أنا لبا تاريخ... بقول لسعادتك ضحيت بنفسي...

- ما حدّش أنك تضحيك با تجيب أفندي.. إنما... كفاءتك في العمل مربوطة بخبرتك وشهادتك اللي حصلت عليها وطبعًا أنت بقى لك فترة في السجن.. وتدرجك الوظيفي لازم يكون...

- يعني ما عننش أنفعش؟! يعني اللي ركبوا الكراسي أنصف مِنِّي!
- العمل الفدائي شيء والكفاءة شيء ثاني يا نجيب أفندي.. سياسة العمل العام ليها مطالبها وأنت راجل وفاهم إن...

قاطعه الأهواني كأن لم يسمعه: يعني محمد توفيق نسيم اللي كان بيلم أعضاء الوفد في اللومان يمسك المالية! ومحمد سعيد اللي كان ماسك الوزارة ساعة الثورة يمسك المعارف! وأنا أخرج أشغل كاتب! ليه؟ عشان ضباعي مقطوع؟

- يا نجيب أفندي أنت كنت مُنتظر تخرج من السجن يمسك وزارة؟
قام الأهواني من مكانه فتوتر عبد القادر وقام هو الآخر محاولاً تهدئة الموقف.

- ما سعد باشا اتسجن واتنفى وخرج ع الوزارة.. وسعادتك اتنفيت ورجعت وزير مواصلات!

اقترب عبد القادر من زميله وهمس: اهدى يا نجيب أمّال.

نظر إله النحاس بهدوء ولم يُعقّب.. أردف الأهواني: يعني إيه يضيع من عمري نسع سنين وبُعدين اللي خانونا بركبوا الكراسي.. طب ودم

الشَّهَداءُ؟ النَّاسُ الَّلِّي راحوا في ١٩؟ وُصِّباعي الَّلِّي طارده.. بح؟
أنا عاوز أقابل سَعْد باشا.

- صَلِّي ع النَّبِّي يا نجيب.. مش كده يا جَدع...

- سيّني يا عبد القادر.. سيّني أَتَكَلِّم.. أنا مش غلطان.. لو ما قابلتش
سعد باشا هاعمل نصيبة هنا...

قام النحاس: من فضلك يا حضرة.. أنا مقدّر محنتك لكن حافظ
على كلامك إحنا في وزارة مش في اللومان.

- بتعايرني سعادتك باللومان؟! اللومان الَّلِّي ضاع فيه
عُمري عشانكم.

- عُمرك راح عشان الاستقلال.. عشان مصر.. مش المفروض
يا أفندي تكون مُتَظَر أجِر عن الوطنية.

- ده كلام إنشا ينفع في المَدارس.. كُل الَّلِّي عَمَلوا ثورات ركبوها..
كانوا دايماً أولى من الَّلِّي اتخاذل ورفض يشارك.

أَمَسَكَ النحاس بالظرف وأشار به إلى الأهواني: يا نجيب أفندي
الَّلِّي اختار العُنف مش أحسن من الَّلِّي اختار الحوار.. كلنا بنحاول
والكل على طريقته.. استلم وظيفتك دلوقت وأوعدك أوصل صُوتك
لسعد باشا...

- سعد باشا خلاص.. لبس توب الأفوكاتو من تاني.

قالها ورَحَل تاركًا يد النحاس ممدودة.. فتح الباب بعُنف فتأسف
عبد القادر للوزير بكلمات مُرطبة ووجه مُستعطف قبل أن يلحق بِزَمِيله

الشائر على السِّلْم.. أَمْسَكَ مِرْفَقَهُ لِيُوقِفَهُ: أَنْتِ اتَّجَنَّيْتُ فِي عَقْلِكَ يَا جَدَّع
أَنْتِ؟ إِيهِ الَّلِي أَنْتِ عَمَلْتَهُ مَعَ اتَّحَاسِ بِأَشَادَهُ؟!

- حَاطِينَ لَنَا حَسَنَةً فِي ظَرْفٍ وَوُظِيفَةً كُحِّيتِي؟ دِي دَقَّةُ النَّقْصِ مَعَ
الْأَبْطَالِ الْحَقِيقِيِّينَ.. أَنْتِ أَكْمَنْتِ قَضِيَّتِ أَرْبَعَ سَنِينَ مِشْ حَاسِسِ
بِالَّلِي شَفْتَهُ.. مَرَاتِكَ مَا سَابَتْكَشْ.. حَيَاتِكَ مَا انْتَهَتْشْ.. هُوَ دِهِ الَّلِي
قَلْتَ لَكَ عَلَيْهِ.. الْمَحْتَلِّ مِشْ يِغْلِبُنَا بِسِلَاحٍ.. يِغْلِبُنَا بِالرَّجَالَةِ الَّلِي
اسْتَعْمَرُوا رُوحَهُمْ.

- أَنَا حَاسِسِ بِيكَ يَا نَجِيبِ بَسْ مِشْ كِدَهُ.. الْكَلَامُ أَخَذَ وَعَطَا
وَالرَّاجِلُ مَا اتَّأَخَّرْشْ.

- أَنْتِ هَاتِعُومِ عَلَى عُومِهِ! الْبَلَدِ دِي مَدْيُونَةٌ لِي بِعَمَرِ رَاحٍ.. عَمَرِ رَاحِ
يَا عَبْدَ الْقَادِرِ.

قَالَهَا وَابْتَعَدَ.. رَمَقَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ حَتَّى اخْتَفَى قَبْلَ أَنْ يَصْعَدَ السِّلْمُ
مُجَسِّدًا فِي مُحَاوَلَةٍ لِرَأْبِ الصَّدْعِ مَعَ الْوَزِيرِ حِينَ وَجَدَ رَجُلًا يَقِفُ
فِي انْتِظَارِهِ.

- عَبْدَ الْقَادِرِ شِخَاتَةٍ.

رَمَقَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ بِجَهْلِ: مِينِ سَعَادَتِكَ؟

- أَنَا صَدِيقِ عَزِيزٍ.. لِأَحْمَدِ كَبِيرَةٍ.. يَحْتَاجِينَ نَتَكَلَّمُ.



استويا على كُرسيهما في محل جروبي بميدان سليمان باشا.. طلبا
القهوة وأشعلا السجائر.

- غَدَم اللامؤاخِذَة سَعادَتكَ تَبقى...؟

- عبد الرحمن فهمي.. رئيس الاتحاد العام لنقابات عمّال وادي
النيل حاليًا.

قاطعه عبد القادر: سَعادَتكَ تَعرف مَكَان أَحمد؟

- مش بالظبط.

... طب هو سعادتك... الرجل الكبير؟

- رجل كبير إيه يا ابني هو إحنا عصابة! ما تسألش كثير واسمعي
كويس.. أحمد هيرب لإسطنبول من أربع سنين تقريبًا.. من بعد
عملية الضابط آرثر.

رَمَقه عبد القادر بذهول.. أَرَدَفَ الرَّجُل: كَأَن حَصَلَ بَيْننا اتصَال
مُختَصِر وأنا في السُّجْن واضطربنا نَتَوَقَّف عِشان المُرَاقَبَة.. من سَاعَتِها
ما أعرفش أي خَبر عَنْهُ.. كل اللي أعرِفُه إِنَّه في إسطنبول.

- وليه يا باشا ما يرجعش بعد ما سعد باشا...؟

قاطعه الرَّجُل: المَوضُوع مُعَقَّد.. مِش مَعْنى إِنْ سَعَد باشا تَوَلَّى
الوِزارَة إِنْ كل الأطراف مُوافِقة.. الإنجليز مِش متقبِلين وجوده..
ساكتين على مَضَض بِسبب حُب الناس.. وطبعًا الملك حَاسِس بِتَهديد
وإِهانَة إِنْ غريمه يتولى كرسي الوِزارَة بأغلبية البرلمان.. ده غير طبقة
الأثرياء اللي مِش عَاجِبهم سعد باشا اللي قَوْم ثورة وهدد متصالحهم..



وطبعًا مش محتاج تفهم إن كل الوزراء وأولهم سعد باشا محطوطين تحت مُراقبة صارمة.

- طب وأحمد...؟

- طبعا لو الظروف عادية كنا بعثنا جبناه رسميًا وتحت حراسة.. لكن ده دلوقتٍ مُستحيل.. الإنجليز حاطينه على قوايم التصفية مش الاعتقال لأن النار شخشي بعد قتل وكيل الداخلية آرثر.. عُيونهم في كل حطة مُنتظرة ظهوره.. لولا أحمد بارع في التخفي وما بيا منش لحد كان زمانهم قتلوه.

- وسعد باشا ما يكلمش حد من حبايه في إسطنبول؟

- لو اتعرف إن فيه صلة بين الوفد وأحمد كيرة هاتبقى فضيحة تروح فيها الوزارة كلها.. ده غير إن الاتجاه دلوقتٍ جوة الوزارة هو التخلي عن العنف والسير في المفاوضات.

- عشان كده معاليك رئيس اتحاد نقابات النيل مش وزير؟

رَمَقه عبد الرحمن فهمي في صمت ثم أردف: مُمكن نخلينا في مَوْضوعنا؟ الوفد مش هايقدر يتورط في رجوعه.. وأحمد بالشكل ده مش هايعرف يرجع ثاني أبدًا.. إلا إذا.. وفَرَّت له هويّة جديدة تساعد يرجع.. وطبعًا بوصلها له حد بيتق فيه ومن خارج الوفد.

رَمَقه عبد القادر للحظات ثم أردف: أنا؟

- أعتقد إن أحمد يستحق محاولة إننا نرجّعه بلده...

- طبعا.. بس إزاي هلاقيه هناك؟

- إزاي دي ما لكش دعوة بيها دلوقت .. حَضَر نفسك وفي خلال
يُومين هاتوصلك وثيقة سَفَر لاسطنبول وتذكرة مركب .. توصل
لأحمد وترجعوا مع بعض .

هز عبد القادر رأسه مُواقفة: رقبتي

قام الرجل مُنهياً المقابلة حين استدركه عبد القادر: لا مؤاخذه ..
كنت عاوز أسأل سيادتك على .. دولت .. أصلها كانت بتزورني في
طُرة وفجأة انقطعت زيارتها .. سألت عليها أول ما خرجت في المدرسة
وعرفت إنها ...

أكمل الرجل جُمْلته: سابت المدرسة مِن بعد شهادتها معاك .. مُديرة
المدرسة طردتها بسبب سوء السلوك .

طأطأ عبد القادر رأسه قبل أن يختنق صوته: عارف يا بيه ... أنا لَمَّا
دَخَلت الفدا كُنت فاكر نفسي دَكر .. ابن الفتوة العِترَة .. وبعدين اكتشفت
إن فيه حَواليا ناس أجْدع وأشجع مِني ميت مرَّة .. أحمد اتشرد عشاني ..
ودولت ضَمَحَتْ بِسُمعَتها وشغلها .. ما كنتش عارف إن البلد دي غالبة
أوي كِده .. دلوقت وبعد أربع سِنين في اللومان فهمت .

ابتسم عبد الرحمن وربت على كَتفه ثم أخرج ورقة وقلماً .

- دُولت بتشتغل في فابريكة مَلايس في وسط البلد .. شارع إبراهيم
باشا .. ده تليفون المكان .

التقط عبد القادر الورقة فتهلل وجهه قبل أن يقوم لِيتَحَضَّن الرجل
بعفوية: ربنا يجبر بخاطرك يا بيه .



مَدْرَسَةُ الْهِلَالِ

قضى دقائق الانتظار مُتَيِّسًا أمام الباب الذي اعتَقِلَ عنده منذ أربع سنوات حتى أنه تأطّر المَدْرَسَة، سَيِّدَة بَدِينَة فِي الْعَقْدِ الْخَامِسِ تَأَمَّلَتْ جَلْبَابًا يَأْوِي الْهَزَالَ وَعَيْنَيْنِ ذَاهِلَتَيْنِ: أَهْلًا وَسَهْلًا.. خَيْر؟

سَأَلَ بَعْدَ لِحَظَاتٍ: دَوْلَتْ عَبْدَ الْحَفِیْظِ.. وَبَيْنَهَا؟

تَبَدَّلَ الْفَضُولُ ضَبِيقًا: حَضَرْتُكَ مِیْن؟

- أَنَا أَخُوهَا.

- مَم.. دَوْلَتْ مَا عَادَتْش بِتَشْتَغَلْ هِنَا يَا حَضِرَة مِیْن یَعْبِي ثَلَاثَ

سِنِیْن.. هِي مَا رَجَعَتْش الْبِلَد؟

عَبَسَ وَجْهَهُ قَلَقًا: لَا.. مَا رَجَعَتْش.

- مَشْ هَاقِدِرْ أَفِيدُكَ.. أَنَا آسَفَة.

هَمَّتِ السَّيِّدَة أَنْ تَرْحَلَ فَأَمْسَكَ رِسْفَهَا وَسَطَ ذَهْوِلِ الطَّالِبَاتِ، التَّفَتَّتْ إِلَيْهِ بِاسْتِنْكَارٍ وَهَمَّتْ أَنْ تَصِيحَ فَرَأَتْ فِي عَيْنَيْهِ مَا أَسْكَنَهَا قَبْلَ أَنْ يُعِيدَ سَوَالَهُ:

- وَبَيْنَهَا رَاحَتْ؟

- إِدَارَة الْمَدْرَسَة اسْتَغْنَتْ عَنْهَا.. مِنْ سَاعَة فَضِيحَة الشَّابِ بَتَاعِ الْقَنْبَلَة.

- الشاب اللي كانت... على علاقة بيه.

لمست ناظرة المدرسة ذهوله فابتعدت بحذر وأشارت لبواب المدرسة أن يُخرجه من حيث أتى، رَمَقَ باب المدرسة حيث قابلت آخر مرة فتذكّر الشاب المُصاب الذي استقبلته وأسندت مرفقه قبل أن تُغلق الباب في وجهه...

تحركت ساقاه خروجا قبل أن تناديه طالبة التقط فضولها المُحادثة منذ جذب ياسين ذراع الناظرة:

- يافندي.. يافندي.

لم يُعرها اهتماما فاقتربت منه وهَمَسَتْ: أنا أعرف مكان أبله دولت...



قضى الأهواني ما يقرب من ثلاث ساعات في القهوة، شرب خمسة أكواب قهوة وأحرق عشرين سيجارة وهو يتابع المارة في شروء مُحاولا إطفاء بُركان بداخله، لم يُوقظه سوى بائع جرائد بصيح، التقط جريدة «السياسة»، نصفحتها فتوقف عند مقال بعنوان «الألعبان» فوقه صورة لسعد باشا.. قرأ:

«سعد الذي يريد اليوم أن يمنع جريدتنا من حضور جلسة البرلمان، هو سعد الذي بطش بالصحف حين كان وزيرا للحقانية في عهد الخديوي، أما سعد الذي ظهر بين هذا وذاك.. سعد الذي كان يمجد الحرية ويدعو إلى حمايتها، فقد كان رجلا آخر أنشأته المعارضة حين كان مُعارضاً.. وقد ترك المعارضة فترك معها خصال المعارضين وعاد إلى طبيعته الأولى.. الألعبان».

بسر القراءة ونزلت عيناه على مقال كتبه حليفة سابقة.. هدى هانم شعراوي!! قالت فيه:

«لا يوجد خطر على القضية المصرية أكبر من أن يتولى المفاوضات مع إنجلترا رجل يعترف علانية بأنه عاجز عن تنفيذ ما عاهد به الأمة قبل وعند توليته الحكم».

لم يقرأ بقية المقالات، قرأ ما وراءها، قرأ أن جريدة السياسة - وهي صوت القصر الملكي - حين تيشن حملة على سعد زغلول فالكفة ستميل حتمًا ميلًا عظيمًا، إنجلترا، ملك، أصدفاء سابقون وصُحف موجهة، كل هؤلاء في كفة، وفي الكفة الأخرى، ثائر سابق، ثائر ظن يومًا أن إدارة البلاد تشبه مائدة المفاوضات، ساحة قتال وسجالًا نظريًا، غالبًا ومغلوبًا، لم يعرف أن السياسة هي فن.. فن المصلحة.. فن الانحياز للأقوى.

نادى لملمع الأحذية ورفع قدمه على صندوقه الخشبي، اطمأن على كرافته وشعره في مرآة تكسو عامودًا من أعمدة القهوة قبل أن يدفع حسابه ويرحل، ركب سوارس أوصلته بيته الخالي من الرفاق والأحبة وفي رأسه فكرة واحدة تنضج:

- سأرحل عنك يا مَنْ خذلتني.. يا مَنْ واجهت الموت من أجل أرضك.. أرضك ناكرة الجميل.. لن أعود لك ما دام يحكمك الأشقياء.



شارع المناخ .. وسط البلد

الهدير كان طاعياً في الغابريفة، عشرون ماكينة سينجر تحُز الأقمشة، سيقان ناعمة تتحرك بانتظام فوق بدالات حديدية، وعشرون رأساً مطاطون على النحور وعبون تضيق لمتابعة الإبرات الشريفة.. ملاحظ الفتيات كان يدور في رنابة بينهن، يُشرف على إخراج الفساتين بالموصفات اللائقة، يزجر من تُخطئ ويخصم من الماهية، ويكتفي بالصمت إذا أحسن فهو واجبهن.

دولت كانت في الصف الأخير، فقدت كيلوجرامات قليلة أبرزت عظام وجنتيها وكتفيها، شعرها لم يعد لطوله الذي كان قبل شهادتها مع عبد القادر، وعيناها فقدتا بريقاً كان يُفرقه، أميرة فرعونية تتحنّط ببطء. اقترب الملاحظ من أذنيها ليسمعها من بين ضجيج الماكينات: فيه واحد مستنيكي برّه يا دولت.

هزّت رأسها وأطفأت ماكنتها وخرجت، حين لمحتنه واقفاً لم تُصدّق عينيها، فتحت شفتيها ولم تنبس بكلمة فابثسم واقترب، بات علس مسافة تسمح بتأمل عينيها.. خصلة فاحمة تتسلل من تحت وشاحها الأزرق ويدين ليس فيهما دبلة ذهبية، رمقها في صمت ثم قمّس:

- ده نفس الإيشارب اللي كنت بتيجي تزوريني بيه؟
هزّرت رأسها إيجاباً.. أردف: أنت ما عندكيش غيره ولا إيه؟
ابتسمت: باحب اللون الأزرق.
ابتسم: اتأخرت عليك؟
- خرجت إمتى؟
- من يومين.. دوّرت عليك زي المَجنون.. ليه اختفيت عني؟
- ظروف.
- عاوزين نتكلم.
استأذنت ربّ العمل في ساعة غِيَاب فقبل على مَضض.. تراس
فندق شبرد كان الأقرب إلى الفابريقة.. جلسا وسط الأثرياء وكان
مظهرهما مُلفتاً.. طلب شايًا وطلبت عصيرًا.. لم ينزل عينيه عن عينيها
يتأمل ضوء الشمس وهو ينحني فوق وجنتيها حتى ابتسمت:
- حمد الله على سلامتك.. كان لازمته إيه المكان الغالي ده؟
- هو أنا بشوفك كل يوم؟ أنا قلت أتجوزت عشان كسده
بطلمت تزوريني.
- أنا ما اتجوزتش.. الدنيا بقت صعبة.
- أنا عارف إنك سبتي المدرسة بسبب شهادتك ليا.
- بلاش نتحدث بكلام يعكّن علينا فرحة خروجك.
- أنا عاوز أسمعك.

اتخذ الأمر منها دقيقة لتحدث:

- الدنيا لما بتقفل بتقفل مرة واحدة.. ما كنتش برضى أحكي لك
في السجن عشان ما أزودش هَمَّك.. أحمد أفندي سافر من ساعة
عملية آرثر وانقطعت أخباره ييجي من ستين.. عم إسحاق كثر
خير هو الوحيد اللي بيسأل عتي بس كبير يا عيني والسكر أكله..
ومن ساعة أحمد ما سافر عطل وبطل يشتغل.
- وأنتِ؟

- أنا.. شهادتي في المحكمة خلّت المدرسة تستصدر قرار برفتي..
لغيت بورقي مديريات التعليم كُلِّها وتفتش حد قِيل يشغلني لغاية
ما لقيت الفابريكة.. بيطلع منها ستة جنيه ونص يدوبك يكفوا
الأكل وشقة إيجار مع ثلاث زميلات معايا.. وطبعاً المنيا ما
أقدرش أهوِّبها.. ياسين أخويا اختفى من يوم التنفيذ ومش قادرة
أروح البلد.
- كل ده بسببي.

- إوعى تقول كده.. أنا بطّلت أزورك لما حسيت إن زيارتي ليك
مش هاتبقى زيارة... مع الوقت هاتفرّج عليك بتكبر قدام عيني..
تدبل وتنحني.. وأنا كمان هأكبر.. هانموت بالبطيء زي الزرع
اللي ما بيتسقيش.. فكّرت إن اختفائي من قدامك ممكن يكون
أرحم.. ليك وليا.. يمكن تكرهني.. ويمكن تنساني.
- وأنتِ كمان كنتِ هاتكرهيني؟

- أنا أكرهك .. أنت ما تعرفش معزتك عندي.

أمسك يدها واقترب: أقسم بالله يا دولت لأعوضك عن كل اللي اتسببت فيه .. هانسيكي كل لحظة ألم في السنين اللي فاتت .. هاتعيشي معا يا سلطانة .. مش هاتشوفي وجع ثاني ولا مخلوق هاييس طرفك .
فلتت منها ابتسامة ودموع .. أردف: على فكرة وحشتني عينيكي ..

- لازم أرجع الفابريكة .. هاشوفك ثاني؟

- عندي دين لازم أسدده الأول.

- لمين؟

- لأحمد.

- هو رجع؟

- رايح أجيبه .. لازم يكون شاهد على فرحنا .. هو وعم إسحاق ..
هو يرفع نصراني يشهد على عقد جواز؟
ضحكت حتى بانت نواجذها .. أردف:

- أنا بحبك .. ومش قادر أنسى ... البوسة اللي أخذتها وأنا في
التحقيق لغاية دلوقت.

وضعت أصابعها أمام فمها ونظرت في عينيه:

- ولا أنا ... هاتغيب؟

- أسبوع بالكثير.



في مقابلة مُقتضبة استلم عبد القادر من عبد الرحمن فهمي وثيقة سفر مُزورة، صعد على المركب وجلس في قمرة يُراجع التعليمات التي تلقاها منه.. أحمد يزور مقهى «كبادوكيا» الذي يطل على جسر «جلاطة» ليلة واحدة في كل أسبوع، يوم الأربعاء من الساعة التاسعة إلى العاشرة مساءً، تلك هي وسيلة الاتصال الوحيدة الباقية بينه وبين المنظمة، يجب أن يصل عيد القادر في الميعاد وإلا سيضطر أن ينتظر أسبوعًا.

- طب وأنا هاعرفه إزاي؟ مش يمكن ما المحوش؟

- ما ترهقش روحك.. أحمد هو اللي هيلاقك.

انتهى عبد القادر من المراجعة فاطمأن على المُسدس تحت سترته والنقود في جيبه، خَرَجَ بعدها إلى سطح المركب وأشعل سيجارة وهو يتأمل الرُّكَّاب، قضى دقائق قبل أن يلحح وجهاً يعرفه يجلس فوق مقعد، منزويًا شاردًا يتابع المياه الجارية في حُزن، اقترَب عبد القادر ووضَعَ يده على كتفه فالتفت مفزوعًا.

- إيه اللي بجابك هنا يا أهواني؟

- إيه اللي بجابك أنت هنا يا عبد القادر؟

جلس عبد القادر بجانبه على المقعد قبل أن يستطرد:

- أنا رايح إسطنبول شغل.. وأنت؟

- شغل برضه بس في فابريكة سجاد.

- بقّة هانت عليك عشرة اللومان؟ من يوم مُصطفى النحاس ولا جس ولا خبر كده؟

- ما غيَّيش عنك غير الغلب.. وما تفكر نيش باليوم ده الله يخليك
آديني فايته ورايح آخر بلاد الله.

- أنت ما استلمتش الوظيفة؟

- وظيفة!!! وظيفة إيه يا عبد القادر؟ أنت عارف كيلو اللحمه بقى
بكلام؟ عاوزني أشحت الحياة الكريمة بعد ما عشت تسع سنين في
تربة؟ عاوزني ينتهي بيا الحال كاتب ولأ باشكاتب في بنك بعد
ما شفت الموت عشان ناس ما تستحقش تعيش؟ أقبض تمانية
جنيه شهري وعيِّل مواليد ألف وتُسعومية يقبض له بتاع أربعين
جنيه!! لا يا صاحبي.. الأهواني ما يتهانس الإهانة دي.

- أنا مقدر كلامك.. بس يعني مش مقابلة مع مسئول واجد تخلّيك...

قاطععه الأهواني بعصبية: دي مش مُقابلة.. دي السياسة الجديدة اللي
هاتمشي.. الوفد بيقلّ ملفاته القديمة وعاوز يبدأ صفحة جديدة مع
بتوع المفاوضات اللي ما بيقلعوش البذل الأفرنجي.. قلّة قيمة وعدم
تقدير وتجاهل لكل اللي صوابهم اتعاصست دم.. ولأ اتقطعت!
يا عبد القادر أنا لو كنت قعدت يوم كمان كنت هاعيا.. هاموت..
أنا من بعد السجن مالمش حد.. لا مرة ولا عيِّل أبكي عليهم.. ودلوقتي
ولا حتى وظيفة عدلة.. آل إيه ما تنتظرش أجر لوطينتك.. ماشي.. أكُل
أنا بقية وطنية بالدمعة.. وطنية بالملوخية...

- لو صوتك وصل لسعد باشا...

قاطععه: وسعد باشا نفسه هايقع.. أنت ما بتقراش جرايد أصلك..
الهجوم عليه سُخن.. القصر شقال له من تحت لتحت.. والإنجليز..

دي حتّى هُدى شعراوي صديقة مراته قلبوها عليه!! فوق يا صاحبي
دي مسألة وقت.

شرد عبد القادر في كلماته قبل أن يسأله الأهواني: ألا بالحق أنت
كانوا عاوزين يوظّفوك إيه؟

- مُحصّل في الماليّة.. تمانية جنيه برضه.. عشان كده قلت
أجرب حظي.

- وجودكع المركب دا أحسن قرار أخدته.. وعموماً أنا فيه
واحد معرفة مستيني في إسطنبول.. ورزقي ورزقك على الله
يا صاحبي.

- ربنا يكرم.

قضى عبد القادر ثلاث ليالٍ إضافية مع رفيق الزنزانة قبل أن يتوه عنه
«عنوة» في زحام النازلين إلى الميناء.. «سامحني يا أهواني».. استأجر
غُرّة في نُزل صغيرة تطل على الجسر العتيق قبل أن يذهب في اليوم
التالي في تمام التاسعة مساءً إلى المقهى.

«كبادوكيا» كان مقهى واسعاً يطل على مضيق البوسفور الذي يعبر
فوقه جسر «جلاطة» الرابط بين الجانبين الأوروبي والآسيوي لتركيا،
ترسو بالقرب منه العبّارات التجارية ويقع أمامه مسجد «يني كامي»
العظيم ومن بعيد تظهر المآذن البديعة لمسجد «آيا صوفيا».. استقر
عبد القادر على كرسي في ركن يكشف المكان من حوله ثم رفع يده
لنادل لا يتكلم إلا التركية، بالكاد أفهمه أنه يريد شيئاً ثم أخذ يفرز
الحاضرين بحثاً عن أحمد.. قضى الساعة في قرض أظافره ومسح



القادمين ومراقبة عقرب ساعة معلقة على الحائط، يكاد يجزم أن الوقت في تركيا يمر ببطء عن مصر، حين دنت العقارب من العاشرة تأكد من خطأ الحسابات، أحمد لن يأتي، أو أنه لم يعد يأتي، كان ذلك قبل أن يميل عليه عجوز جالس بجانبه منذ ساعة ويهيمس:

- إزيك يا عبد القادر؟

انتفض حين سمع الصوت.. رمق العجوز ذا الشعر الأبيض والذقن الكثيف والجسد النحيل المَحني.

- أحمد!!!

همس: ششش.. وطّي صوتك.. حاسب ع المشاريب وقوم بعدي بدقيقتين.. امشي يمين على الكورنيش لغاية ما تلاقي سفينة اسمها «أرجو».. استناني عندها.

قالها العجوز وقام يرتعش، ترك نقوده على المائدة وخرج.. تابعه عبد القادر حتى اختفى مقاوماً ضحكة تكاد تفر من بين شفثيه.. «يا ابن القردة».. مشى بعدها على رصيف الميناء حتى قرأ كلمة «أرجو» على جسم سفينة شحن كبيرة، وقف أمامها دقائق إضافية قبل أن يقترب منه أحمد، وقف بجانبه فهجم عليه عبد القادر احتضاناً، لم يملك أحمد سوى الابتسام، بادله الحظن ثم أردف:

- خلاص لا يفتكرونا لواطين.

ابتعد عبد القادر فأشعل أحمد سيجارة وناوله واحدة:

- آخر واحد كنت أتوقع أشوفه في إسطنبول!

- يا ابن اللذينا! اامش مصدق إني قعدت جنبك ساعة وما عرفتكش!!

- كان لازم أناكّد إنك مش مقطور.

- مين بيدور عليك هنا؟

- المُخابرات الإنجليزي مسيبة عليا كلابها.. كل واحد ماشي
وصورتي في جيبه.. بغير سكني كل يومين ثلاثة بالكثير

- عاوزين منك إيه ولاد الرّفضي؟

- التار مش بس في الصّعيد يا عبد القادر.. أنا فاتل منهم عدد.

- بس حكاية آرثر هي اللي مخلياهم سخنين عليك.

- أنا مش ندمان على أي طلقة طلعت من مسدّسي.

- أنا جاي عشان أرجّعك.. معايا ورق جديد باسم جديد.

- أنا مش راجع.

- يعني إيه مش راجع؟

- أرجع أعمل إيه؟

- ترجع عشان البلد.. عشان أمك.. عشان ورد.

- ورد... ورد بقت راهبة يا عبد القادر.. وأمي ماتت من ستين.

- لا إله إلا الله... البقية في حياتك... أنا...

فاطمة أحمد: أنا ما عنديش حاجة نخليني أروح

للإنجليز برجلي.

- البلد لسة محتاجة وقفنك.

- اللي زبي يا عبد القادر بيبقى عامل زي طلقة الرصاص .. ما يتفحش
بعد المعركة تستخدمها في حاجة .. لازم تبات في الدولاب لغاية
معركة جديدة.

- المعركة ما خلصتش ..

- المعركة دلوقتي على الورق .. غلطة إن سعد باشا قيل الوزارة ..
هايحطوه في قالب ويحاصروه بمشاكل البلد لغاية ما تنه القضية
ويفقد شعبيته .. هايدمروه .. رئيس وزارة في الآخر يعني مُستخدم
من مُستخدمين الملك .

- خلاص .. غربة بغربة ترجع بذلك باسم جديد وحياة جديدة.

- أنا هنا عايش ملك نفسي .

- ولو عتروا عليك ؟

- هاسافر .. ألمانيا .. إيطاليا .. فرنسا .. أرض الله واسعة .

- المُخابرات البريطانية موجودة في كُل حثّة .. مستهيا لي هاتكون
موجودة في الجنة كمان !

- إزاي عبد الرحمن بيه ؟ وعم إسحاق .. ودولت ؟

- كلهم بخير .. مستيينك .. ودولت .. أول ما أرجع هكتب
كتابي عليها .

- ربنا يوفقك يا عبد القادر .. خد بالك منها .. البت دي بوميت راجل .

- ما تاخذنيش في دوكة يا أحمد .. أنت لازم ترجع معايا .

ساد الصمت قبل أن يردف أحمد: يسيني أفكر.. وبكرة نتقابل في نفس الوقت في نفس المكان.

- وبعدين زهينة إيه اللي رايحة تشتغلها البت دي! ده كلام ما يخشش عقل.. اسألني أنا نجار حريم.. البت اللي ما تلاقيش راجل يشاغلها تفرك زي المعزة الحرنانة.. وبعدين تعمل مشغولة.. ياترمي بقعة على مظاهرات وإشي استقلال وماستقلالش.. ياتحب نفسها في دير ولأني قلابة وتعمل فيها سانت كاترين.. عارف البت دي بمجرد ما تشوفك ه...

قطع عبد القادر كاتمه حين نظر بجانبه فوجد الرصيف خاليًا.. رحل أحمد ولم يشعر به فوضع يديه في جيبه وقفل عائدًا للمنزل.



نزل قريب

دلف من الباب الكبير فالتقط المفتاح من صاحبة الفندق قبل أن يصعد السلالم، في الدور الثالث فتح باب غرفته ففوجئ بالإنجليزي يصب الشاي الساخن من الإبريق إلى كوبين فارغين، تبس للحظات قبل أن يغلق الباب وراءه:

- كم ملعقة سكر؟

أجابه بالإنجليزية: ثلاث ملاعق.

نظر إليه الإنجليزي ثم ابتسم: ما لك تنظر لي كأنك ترى شبحًا؟

- ... أنا فقط... تفاجأت.

- هل رأيته؟

- نعم.

لجمعت عينا الإنجليزي فاقترب.. ناوله كوب الشاي، ثم سألت:
هل أنت متأكد؟

- نعم.. رغم تنكره لكنني لا أخطئ صديق عمر.

- أين رأيته؟

- في مقهى «كبادوكيا» الغريب من الجسر.

- التقى بعبد القادر؟

- نعم.

- هل تتبعته لتعرف أين يسكن؟

- لم أستطع مجاراته.. أحمد سريع الاختفاء ومُدْرَب على
كشف المراقبة.

رقمه الإنجليزي بغضب: لا بُد أنك تمزح.. ذهبت إلى المكتب رقم
خمس^(١) وطلبت مكافأة عشرة آلاف جنيه وحثت بنا من القاهرة مُدْعِيًا
أنك تملك معلومة عن أحمد كبيرة ثم تفقد أثره بتلك البساطة!!

- عبد القادر دفع أجر ثلاث ليالٍ مقدَّمًا في أنزل العجاور.. لقد
سألت.. هم يحضّران لعملية كبيرة.. أحمد سيعود غدًا.. وعياني
لن تُفارقا عبد القادر حتى يلقاه.

(١) مبنى المخابرات البريطانية، وكان يقع في منطقة حارون سين بالقاهرة.

- وإذا لم يلقاه؟

- لن آخذ الأموال التي طلبتها.

- هذا أمر مفروغ منه.. وتذكر.. لن تكون مشكلتك الوحيدة عدم
تحصيل أموالك.

ارتشف الإنجليزي آخر كُوبه وتركه على المنضدة بوقع عالٍ ثم
اتجه إلى الباب وفتحته قبل أن يتوقف وبلتفت:

- قل لي يا أمواني.. لماذا كبيرة؟ لقد ذكرت أنه كان صديق عُمرًا

رفع الأمواني كفًا فيها أربع أصابع وإبهام مقطوعة: لأنه مثلهم..
نسبني في الظلام ونعم بالحياة وحده.



ايمنى ميذا

في السَّابعة مَسَاءً انفتح باب الفابريكة فَخَرَجَتِ الفتيات من الأُسُر،
مُتَدَثِرَات بِجَرَائِدٍ وَأَوْشَحةٍ نَقِيَّةٍ وَسُهْنٍ مَطْرًا لَمْ يَتَوَقَّفْ مِنْذِ نِصْفِ
سَاعَةٍ، بَيْنَهُنَّ خَرَجَتِ دَوْلَتٌ تَلْتَحِفُ وَشَاحِهَا الْأَزْرَقُ، نَظَرَتْ إِلَى
يَسَارِهَا تَبْتَغِي عَرَبَةً سَوَاسٍ أَوْ حَنَطُورًا يُوصِلُهَا شَقَّتْهَا قَبْلَ أَنْ تَلْمَحَ
عَلَى الرَصِيفِ الْمُقَابِلِ شَبَحًا، شَبَحًا وَقَفَ فِي مَكَانِهِ مِنْذُ بَدَأَ الْمَطَرُ،
التصقَ جِلْبَابُهُ بِهَزَالِهِ فَبَرَزَتْ عِظَامُهُ وَغَارَتْ عَيْنَاهُ فَلَمْ يَعِدْ فِيهِمَا بِيَاضَ،
تَبَسَّتْ حِينَ رَأَتْهُ، كَمَا تَبَسَّسَ الْفَرَاشَاتُ أَمَامَ النَّارِ تَظْلُنَهَا ضَوْءًا، لَمْ
يُيْمَلِّهَا وَقْتًا، مَرَّتْ بَيْنَهُمَا عَرَبَةٌ حَنَطُورٌ فَوَجَدَتْهُ أَمَامَهَا...

- ياسين!

لَمْ يَجِبْهَا.. مَدَّ كَفًّا مَعْرُوقَةً إِلَى عَضْدِهَا فَقَبَضَ عَلَيْهِ.. تَأَلَّمَتْ..
نَظَرَتْ فِي عَيْنَيْهِ:

- ياسين...!!

أَجَابَهَا بِسَكِينٍ حَادٍ أَخْرَجَ نِصْفَهُ مِنْ جَيْبِ سَيَّالَتِهِ ثُمَّ أَشَارَ إِلَى
حَنَطُورٍ قَادِمٍ.. تَوَقَّفَ فَدَفَعَهَا بِرَفْقٍ.. جَلَسَتْ عَلَى الْكَنَبَةِ الْخَلْفِيَّةِ فِي
ذَهْوِلٍ وَجَلَسَ بِجَانِبِهَا.. قَالَ لِلْسَّائِسِ:

- مَحْطَّةُ الْجَطَرِ.

ترجرج القطار بهما حتى المنيا.. نزلا فأركبها جِمارًا استأجره
ومشى بجانبها يسحب مقوده ويتكى على عصا جافة.. أرض وعرة
سلكها ياسين ابتعادًا عن الأعين.. رحلة فاسية وقف فيها مرّة واحدة
تحت ظل شجرة جميل ليريح الجِمار.. هناك بدأت تتحدّث.. أقسمت
إنها عذراء.. طاهرة نقية بلا دنس.. وإن ما قالته في التحقيق كان من
أجل إنقاذ رجل من الموت.. اتهمها بالعشق فأقسمت بالنفي.. ثم
حكّت ثانية فلم تخترق كلماتها الطين المالى أذنيه.. أصم لم يلتفت..
لم يفعل.. ولمّا أراد أن يسكنها أوقف جِماره وجذبها من ذراعها
لتركبه.. جرب منه محاولة الفرار فركض وراءها.. أسقطها أرضًا وكتم
فمها قبل أن يضربها في معدتها صربة ثنت جذعها ألما وأخرست
صرختها.. أوثق يديها بحبل الجِمار ثم حملها ووضعها فوقه دامية
الشفتين وجذب وشاحها الأزرق ليغطي وجهها.. دخلا أبشاق الغزال
مع نسّات الفجر فرفع الفلاحون أيديهم من الطين ليشهدوا المشهد
الغريب.. الميّت الحيّ عائداً ومعه سيّدة فوق جِمار اقترّب من أرضه
فأنزلها.. جرّها جرًّا إلى الزريبة وأوثقها إلى مزود أغنام قبل أن يُغلق
الباب.. في راحة المنزل كانت أمه جالسة على الأرض.. جلس بجانبها
في صمت قل أن يهمس: دولت في الزريبة.

بدهشة سألت: دولت عادت!! في الزريبة!!! ليش؟؟ عملت إيه
يا ياسين؟؟؟ إنطج!!!

- فحجرت.. عشيحت.. فضيحتها في مصر على كل لسان.

بهتت المرأة.. انسحبت الألوان من وجهها.. ارتعشت شفتاها ثم
خبطت رأسها يديها قبل أن تقف.. نظرت لشعاع الشمس المتسلل من

بين سَعَف النخيل المتراص في السقف.. دقائق.. قبل أن تدخل غرفتها
ثم تعود يسكن مشحود.. التقطت يد ياسين ووضعت فيه بحزم مقاومة
أمومة تتحجّر وأسى يتوغّل في شغاف القلب.

خرج ياسين من الزريبة بجُرّ دولت ومن ورائهما أمّه.. تسير خافية
على بُعد أمتار من ابني رَحْمها.. ابتعدا حتى الجهة الغربية حيث
المقابر المهجورة التي لعبا فيها صغارا.. حيث تماثيل المساخيط التي
تخافها دولت.. ألقاها ياسين على الأرض مكومة الفم مكتوفة اليدين
والرجلين.. ترمق أمّها الواقفة على بُعد في فرع وتضرّع.. تصرخ بلا
صوت يُسمع.. ثم تنظر إلى ياسين الذي تضرب بفأسه الأرض مبعثرا
التراب.. يصنع حُفرة كبيرة.. حُفرة تكفيها.. دقائق وتوقّف.. تحجّر..
اقتربت أمّه فنظرت إليها دولت في استغاثة.. لم تلتفت.. نظرت إلى
ياسين قبل أن تصفعه صفعة مدوية:

- خليك راجل.. اغسل عارك.

تلقى ياسين الأمر فجُمّدت عَيناه.. جُمّدت كما جمّدت من قبل
أمام رءوس أقرانه.. نظر لأمّه ثواني قبل أن يُزيحها جانبا.. انحنى على
دولت فمزّق وشاحها الأزرق.. جذبها من شعرها وقربها من حافة
الحُفرة.. طرحها على وجهها وغرّز قدمه في منتصف ظهرها ليمنعها
من الحركة.. ذارت برأسها فرأته يستل سكيناً فنظرت لأمّها التي ركعت
على الأرض في ترقب.. بحثت عن النظرة التي كانت تقابلها بها حين
كانت تجري إلى حضنها خوفاً من تماثيل المساخيط فلم تجدها..
أغمضت عينيها وكفّت عن المقاومة في اللحظة التي قبض فيها ياسين
على مُقدّمة شعر رأسها.. جذبه فأوجعها.. قبل أن يمرر السكين على

رقيتها ليشقها.. تحرّها.. اختلطت الدماء بالتراب قبل أن تحبو عينا
 دُولت وتنطفئ حرّكتها.. ارتخت بين يديه كدُمية قطنية فحرر شعرها
 الفاحم من بين أصابعه ووقع النصل منه.. تابع أصابع أخته التي تبث
 ارتجافات خافتة ثم التفت لأُمّه فوجدها جاثية كما هي لا تتحرّك وفي
 عينيها خواء وعدم.. نظر في الفراغ حتى سالت ريالته قبل أن تنزل قدماه
 في الحفرة التي حفرها.. غاص في الوحل الممزوج بالدم.. ركَع.. ثم
 تكوّم كالجنين.



في اليوم التالي جَلَس عبد القادر في مقهى «كابادوكيا» كما اتُّفق،
 طَلَب شايًا وأشعل سيجارة حين مرَّ به بائع جائل.. أشار إليه أن
 يقترب.. غابن ما معه من بضاعة حتى التقط وشاحًا أزرق وتخانمًا فضيًا
 يُحيط حَجَرًا فيروزيًا.. نذكر حُب دولت للأزرق فاشتراهما واشترى
 من أجلهما علبة خشبية منقوشة.

يُصَف سَاعَة حتَّى أشار له بخار أن يتبعه، مَشَى وراءه إلى جسر
 جَلَاظَة قبل أن يتخلل صُفوف الحناطير المُتراصة ليَهِيظًا بِقُرْب ضِفاف
 البوسفور حيث أكشاك بيع الأسماك المعلقة ومراكب النقل الصَّغيرة
 التي تتمايل فوق المياه الهادئة.

- فكَّرت يا أحمد؟

أخرج أحمد من جيبه ظرفًا أبيض مُغلقًا يحوي ورقة وشيتًا صلبًا لم
 يميزه عبد القادر حين وُضِع في كَفِّه.

- إيه ده؟ سأل عبد القادر .
- دي رسالة عاوزك توصلها لورد.
- وردا!
- عنوانها مكتوب في ظهر الظرف.
- دي... رسالة وداع؟
- سَكَتَ أحمد للحظات قبل أن يُردف: وُصول الجواب ده هايفرق
معايا كتير يا عبد القادر.
- ارجع معايا وادّيه الجواب بنفسك يا أحمد.
- لو رجعت مش هايكون معاك.. وُجودنا مع بعض هايعرضنا إحنا
الأتنين للخطر.. عُيون الإنجليز في كُل المَخارج.
- خلاص.. نساfer كل واحد لوحده.
- سيب لي أوراق الهوية الجديدة وأنا لَمَّا أنوي هاتصرف.
- ده آخر كلام؟
- وَصَل الرُّسالة لورد ما تنساش.
- سَاد الصَّمَت للحَظَّات.. دَسَّ عبد القادر الرُّسالة في جَيْبه لما لم
يجد ما يُقال وأشعل سيجارة.. كان يعرف عناد أحمد.. لَن يستجيب
لإلحاح إذا ما قرَّرت نفسه أمرًا.. تَمَنَّى لو يَسْتَطِيع خَطْفَه وإلقاءه في
مَرَكَب يُجَدِّف به من البوسفور حتى شواطئ مصر.. مصر التي لم يُعَد
لصديقه فيها أحدًا

- وَحَشْتِي يَا صَاحِبِي.

لم يكن ذلك عبد القادر.. أو أحمد.. الصَّوت كان آتياً من خلفهما..
بَحْرَكة لا إرادية حرراً مُسدَّسيهما والثقتا خلفهما.. رَفَعَ نجيب الأهواني
ذِرَاعِيهِ فِي تَوْتَر:

- صَلُّوْاعَ اللَّيِّ هَايْشِفَعْ فِيكُمْ.

صَاحَ عبد القادر: تُجِيبُ!!! إِيهِ اللَّيِّ تَجَايِكَ هِنَا؟؟
احتاج أحمد لحفطات ليستوعِب الشَّيْخَ العاتِلَ أمامه.. شَبَّحًا لَمْ يَرَهُ
مَنْذُ تِسْعَ يَسْنِينَ.

- أَهْوَانِي!

- بَقِيَ بَعْدَ تِسْعَ يَسْنِينَ تَبْقَى دِي الْمُتَابِلَةِ؟ مَا تَقُولُ حَاجَةٌ
يَا عَبْدَ الْقَادِرِ...

أَرْتَحِي عَبْدَ الْقَادِرِ مُسَدَّسَهُ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَحْمَدَ: مَا لِحَقَقْتَشْ أَحْكِي لَكَ
إِمْبَارِحَ إِنَّا تَقَابَلْنَا فِي الشُّجْنِ.. حَكَّيْ لِي عَنْ صِدَاقَتِكُمَا الْقَدِيمَةِ..

لَمْ يُنْزِلْ أَحْمَدُ مُسَدَّسَهُ: بِتَعْمَلْ إِيهِ هِنَا يَا نَجِيبُ؟

- هَانْتَكَلِمُ وَأَنْتَ مَرْفَعْنِي كِدْهِ؟ مَشْ كَفَايَةَ قَطَعْتَ زِيَارَةَ.. الدُّنْيَا
تَلَاهِي فَعَلًا.

كَادَ أَحْمَدُ أَنْ يَنْزِلَ مُسَدَّسَهُ حِينَ شَعَرَ بِحَرَكَةِ بَعِيدَةٍ.. التَفَتَ حَوْلَهُ
فَلَمَّحَ عَنْ يَمِينِهِ رَجُلَيْنِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثَلَاثَةَ يَسَدُّونَ مِنْ بَعِيدِ طَرِيقِ
الْهُرُوبِ.. بَغْضَبٍ رَمَقَ الْأَهْوَانِي الَّذِي أَرْدَفَ بِهِدْوً: أَنَا جَايَ عَشَانَ
أَسَاعِدُكَ يَا صَاحِبِي.

- تساعدني؟ ولأ تسلمني؟

رفع عبد القادر مسدسه ثانية: يا ابن الوسخة...!

حدجه الأهواني بغضب: حافظ على أفاظك يا عبد القادر.

ثم التفت إلى أحمد: نزل سلاحك واعقل.. خيلنا نفكر بهدوء.

نظر أحمد للمُحاصرين قبل أن يُرخي سلاحه بجانبه..

اقترب الأهواني.

- في سورة الكهف.. ليه العبد الصالح خرق السفينة قدام موسى؟

عشان الملك ما يضادهاش.. وليه قتل الواد الصغير؟ عشان كان

هايكبر.. ويطلع دين أم أبوه وأمه.. القدر يا صاحبي صعب يشرح

أفعاله.. والناس متعودو لو ما فهمتش في ساعنها.. تزرجن.. أنا

طول عمري براهن على ذكائك.

- وأنت بقه العبد الصالح؟ ولأ القدر؟

- أنا جيت عشان أنقذ صاحب من مصير اسود مستنيه.. زي ما

أنقذتك من تسع سنين وما جبتش سيرتك في تحقيقات القضية..

ولأ نسيت؟

- قبضت كام يا أهواني؟ سأل أحمد.

طأطأ الأهواني رأسه إلى الأرض في صمت.. ابتسم قبل أن

يضحك.. ثم هدا: عَشْر تلاف جنيه.. تعويض عن سنين طُرة يا صاحبي.

زفر عبد القادر بعصبية مكتومة: يا ابن الوسخة...!!

اقترب منه الأهواني حتى بات على مسافة ستمترات من وجهه:

- عبد القادر... مش عارف أحمد اختارك إزاي عشان تكون واحد من اليد السودا!! اسمع واتعلّم.. صاحبنا العزيز مطلوب حي أو ميت.. ومع مخابرات بريطانية مسألة وقت لغاية ما يعرفوا مكانه.. أنا أقنعهم نمشيها حي.. يقضي له كام سنة في السجن ويخرج صاغ سليم.. قرصة ودن.. ومش عيب ألهم من الكفار فلوس طالما باحافظ على صاحبي.. أما بالنسبة لك أنت فأنا متأكد إنك مش مطلوب.. لكن طلقة بتلاتة صاغ مش هاتفرق مع اللي هناك دول.. ماشي يا عبد القادر؟

لم يجب عبد القادر سؤاله.. فقط رجع خطوة ثم صك فكّيه بالكلمة صاعدة أسقطته أرضاً.

وانهمر الرصاص ناحيتهما من كل صوب.

جَري كُل منهما عكس اتجاه الآخر لتشتيت المهاجمين قبل أن يُصاب عبد القادر بطلقة في كتفه.. تحامل حتى استتر وراء مركب راسي وجذب زناد مسدّسه في اللحظة التي ترحلق فيها أحمد خلف كَشك أسماك مغلق.. أفاق الأهواني من لكمة عبد القادر فزحف على بطنه مُتقيًا الرصاص قبل أن يستتر وراء مركب عريض مربوط بحبل إلى عامود.. اقترب المهاجمون ببُطء يضيقون الدائرة.. اثنان من ناحية عبد القادر وثلاثة يطوقون موقع أحمد الذي خرج بغتة وأطلق على أقربهم رصاصة أصابت معدته فسقط.. استغل أحمد المفاجأة وضرب المصاييح الغازية القريبة وكذلك فعل عبد القادر حتى أعمت الدائرة

التي تحتويهم.. سادت الظلمة فتحرك عبد القادر زحفاً مُغيراً مكانه إلى ما وراء مركب آخر.. بعينين جاحظتين عبّر الإنجليزي الأول بقربه فصرّعه عبد القادر بطلقة استقرّت في رأسه قبل أن يُباغت الثاني بواحدة أخطأته ولضيق المسافة انقض عليه فأوقعه أرضاً.. غرّز الإنجليزي أصابعه في جرح عبد القادر فصرّخ بألم قبل أن يلتف ويجثم فوقه.. قبض على عنقه ودفعه حتّى انغرز رأسه في الوحل.. أذنيه.. وجتيه.. عينيّه.. يقاوم الاختناق بذراع واحدة.. ثم استخرج الإنجليزي يسكيناً مربوطاً في حزامه.. رفعه ليهوي به على عنق عبد القادر الذي تلقى الضربة بين أصابعه قبل أن يضرب ظهر الإنجليزي بركبته.. ثلاث ضربات حرّرت الأخيرة عنقه قبل أن يلتقط حجراً ويضرب به وجهه.. تلقى الإنجليزي الخبطة فوق جانبا.. اعتدل عبد القادر وثبت اليد المُمسكة بالسكين ثم تحامل على الذراع المصابة وهوى بالحجر على رأس الإنجليزي.. ضربتين أصدر من بعدهما خوّاً خفت مع الضربة الثالثة قبل أن يسقط عبد القادر بجانبه في إعياء.

قبلها بدقيقة اقترب الإنجليزيان المتبقيان من الكشك الذي يستتر خلفه أحمد.. طوقاه يميناً ويساراً في كَماشة مُحكمة قبل أن يتلقى الأول رصاصة من أعلى الكشك حيث صعد أحمد.. انفجر رأسه فسقط قبل أن يضغط أحمد زناده تجاه الآخر.. أصدر المُسدس نكّة فراغ الخزنة قبل أن يتلقى رصاصة في ساقه من الإنجليزي المتبقي.. وقع على سطح الكشك فضرب الإنجليزي باب الكشك بقدمه.. دخل ورفع مُسدسه إلى السقف الخشبي وأطلق عدّة أعيرة في أماكن مُتفرقة حتى تلقى صمّتا.. لحظات وانغرزت حربة صيد في رقبة الإنجليزي..

كتفه الأخرى فارتد ووقع على ركبته... ثم قام.. صَغَطَ الأهواني الزناد
ثانية فسمِعَ نَكَّةَ فراغ.. ثم نَكَّةَ.. قبل أن يتلقى في رقبته نَصْلاً مَرَّقَ وريد
الرقبة السُّبَّاتي وانغرز في عظام الرِّقبة.. تنظر عبد القادر في عينيه حتى
توقفت الرِّعْشة.. ثم هَوَى الأهواني بجانبه كالْحَجَرِ.. فانكفأ عبد القادر
على صَدِيقه:

- أحمد.. أحمد!

نظر إليه أحمد ثم أردف: أنا مش عاوز أموت.

- ساعدني.. قوم معايا.

التقط عبد القادر جلبة قادمة فقام بضُعبوبة وانحنى على أحمد..
التقط ذراعاه ثم شهق وَحَمَلَهُ.. أصدر الاثنان صَرْخَةً هائلة قبل أن
يَستوي أحمد على كتفه.. مشى به أمتاراً ينظر ناحية الساحل المقابل
بحسًا عن مخرج قبل أن يَقْصَع أحمد في قارب دفعه إلى المياه وقفز..
قطع جُزءاً من قميصه كَبَسَهُ على جرح أحمد وأمره أن يضغط عليه ثم
التقط مجدداً صَرَبَ به المياه حتى ابتعدا عن الشاطئ ببطء..

- اثبت يا أحمد.

نظر له أحمد بوهن ولم يُعَقِّب.

- الشط قَرَب.. اثبت.

بذراع واحدة جَدَّف.. بصدر مثقوب تنفّس.. في رُبْع مضيق
البوسفور الواسع شَعَرَ عبد القادر بالإجهاد ومبادئ هُبوط في الدورة
الدَّموية.. توقف للملاحظات ليلتقط أنفاسه.. تأمل نزيغه الذي اختلط بدماء

أحمد التي زحفت حتى قدميه.. نظر إلى صديقه ثم ناداه.. مرّة ثم مرّة..
لم يستجب فترك المجداف وقام.. هزّ جسده.. ضرب وجنتيه بهلع..
برودة.. ارتخاء.. زرقة تعلو البشرة.. بلل يده في المياه ومسح شعر
أحمد ووجهه: أحمد! أحمد!!!! بكى.. اختلطت المياه المالحة على
وجه أحمد بدموعه.. أحمد!!!! وَضَعَ أذنه على القلب فَسَمِعَ خَوَاءً..
نظر في العينين المُتبيستين ينتظرهما أن يَرمِشا.. أن يلمعا مثلما كانتا
تلمعان.... نسلل اليقين إليه بالوفاة فأجهش.. نَحَبَ.. تشنَّج.. احتضن
أحمد قبل أن يصرخ في عويل طويل مزّق حنجرتَه وسكون الليل.

أسبل عيني صديقه ثم استلقى بجانبه واحتضنه.

في مركب لن تأخذهما من البوسفور حتى شواطئ مصر.



بعد يومين

٨:٢٤ صباحًا.. قصر عابدين

تخللت الشمس أفرع الأشجار حتى سقطت على كُشك الموسيقى
المواجه لحمام السباحة الكبير، نصف دائرة من الأعمدة الرُخامية في
طرفها برجان يظللان نافورتين، في المنتصف حُرُص زهور يحوي
نباتات نادرة تقف وراءه «فينوس» إلهة الجمال عند الإغريق، تمثال
بالحجم الطبيعي يظنه خَدم القصر لعشيقة من عشيقات الملك فؤاد،
قطع ذراعها من العُضد حين اكتشف خيانتها، ثم خلدها لحُزنه عليها!

لحن «Poco Allegretto» لبرامز كان ينساب من فونوغراف
نحاسي وُضع في الجانب الأيسر من الكُشك، أسطوانة تسمعها يوميًا
نازلي الجالسة بجانب الملك خلف منضدة تحمل شاي الصُباح في
فنجانين منقوش فوقهما حرف «F» ذهبي، يُدخّن غليونيه وهو يُطالع
جرائد اليوم، وتضرب الهواء بمروحة ريشية وهي تتصفّح مجلة موضة
فرنسية وترفع عينيها كل بضعة ثوانٍ لتراقب المُربيات اللاتي يُلاطفن
الأمير الصُغير فاروق وأخته الوسطى فوزية قرب حمام السباحة
والمُصوّر الذي ينحني ليلتقط لهما صورة تذكارية، أمّا آخر العنقود
فايزة فتنم بجانبها على كُرسی هزاز منقوش بالملائكة والطيور ومُغطى
بنا موسية حريرية.

من بعيد اقترب رجل من أفراد السكرتارية، يحيل في يده ملفاً أصفر مغلقاً، اقترب من الكشك ثم توقف قبل أن يُشير إليه فؤاد بعد دقائق أن يقترب، صعد الرجل السلالم في خشوع قبل أن ينحني ويضع الملف بجانب الملك:

- جلالتك.. نشرة الداخلية.

قالها الرجل ثم رجع خطوتين إلى الوراء فأشار إليه فؤاد أن ينصرف، فتح ختم التقرير وأخرج الأوراق المكتوبة بخط كبير ليستطيع قراءتها، دارت عيناه في الورقة الأولى قبل أن يضحك ثم قال بالفرنسية:

- أعتقد أن صديقنا سعد يحتاج أن يقرأ ذلك الخبر القادم من الهند. دون أن ترفع عينها عن المجلة سألت: أي خبر؟

قرأ فؤاد: «غاندي يدخل في صيام عن الطعام لمدة واحد وعشرين يوماً تطهيراً لنفسه واستعادة لقوته في التعامل مع الشعب».

- الهندي بدأ يصوم من أجل استعادة قوته.. بداية الإفلاس السياسي.. لا أعرف أيهما يقلد الآخر سعد أم غاندي.. لكنهما حتماً سيفشلان في النهاية.

لم تُعقب نازلي، فقط ازدادت سرعة اهتزاز ساقها فوضع فؤاد الورقة على المتضدة بينهما وأكمل قراءة تقريره، أنهى الورقة الثانية فوضعها فوق الأولى، نظرت إليها نازلي فلم تحت عنوانها، ملخص مقال يُهاجم الوزارة بقلم طه حسين، عبث الهواء بالورقة فكادت أن تطير قبل أن يضع فؤاد فوقها ورقة ثالثة تحمل عبارة مُقتضبة:

«تم تأكيد مقتل الشقي «أحمد عبد الحي كبيرة» في إسطنبول.. عُثر على جُثته في قارب على ضفاف البوسفور وتم دفنه في مقابر القديس «هاكوب» للأرمن لعدم تعرّف السلطات على هويته».

توقفت المروحة ووقع فنجان الشّاي.. انكسر بصوت لم تسمعه.. فقط موسيقى برامز التي تذكّرها بليلة قصر البارون ظلّت تعلو وتعلو حتى باتت كأنه عد.. نظر إليها فؤاد فلمح ذقنا يرتعش وعينين مُحترقتين.. هز رأسه في استخفاف وأكمل القراءة قبل أن تقوم لتنزل السلالم بخطوات سريعة وتسير بين الأشجار مبتعدة.. تضم بين أصابعها سلسلة تحمل حرف «N».



بعد شهر.. وسط البلد

تحت قُبعته احتمى من الشمس، ومن الناس، يسير ببطء متوكئًا على عصا تخفّف من العرج الواضح في خطواته، عصا كانت يومًا نبوتًا قبل أن يشدّب أطرافها، يمسك في يده علبة خشبية ملفوفة بشريط أزرق، اقترب من الفابريكة وقرع الجرس ففتحت له سيّدة.

- آنسة دولت موجودة؟

- دولت بقي لها أزيد من شهر ما بتجيش.

بقلق سألها: عَيّانة؟

- لأ.. سابّت شفتها كمان.

- سافرت البلد؟

- صاحب الفابريقة سافر وسأل عنها.. أهلها يقولوا إنها ما جاتش
من أربع سنين.

- يعني إيه؟ بلّغتموا البوليس؟

- عملنا بلاغ ومفیش رد.

...!!! طيب.. مُتشكّر.

همّ بالرحيل قبل أن يستدرك الفتاة: «من فضلك».. أخرج من جيبه
قلماً وورقة أسندها على راحته وكتب رقماً:

- ده رقم تليفون القهوة اللي باقعد فيها.. اسمها متاتيا.. لو ظهّرت
بلّغها تكلمني.. ضروري لو سمحت.

أغلقت الباب فتيّس للنحظات محاولاً استيعاب اختفاء دولت
ثم أوقف عربة سوارس، جلس على المقعد الخشبي سارداً يسترجم
صّحوته في عرض البوسفور، على المركب، تجديفه اليانس، بكاءه
حين اضطر إلى ترك جُثّة أحمد قبي القارب، الرجل الطيب الذي
التقطه من الشط وأوصله إلى طبيب داوى جراحه ولم يُبلغ السلطات
عنه تعاطفاً حين عرف أنه مصري، قضى في عيادته خمسة أيام حتى
ذهبت الحمى عنه ثم أخبره الطبيب بسر تعاطفه، فهو أرمني مُتخفّ هو
الآخر من الأتراك من بعد المذابح.. ما إن هدأت حركة البوليس وعبّون
الإنجليز حتى أقرضه الطبيب مبلّغا ركب به مركباً حتى قبرص، ثم مر
بميناء صيدا بسوريا قبل أن يصل إلى ميناء دمياط بمصر.

أفاق عبد القادر من غفلته حين صاح سائق العربة: «عماد الدين
يا أفنديّة» تمشّى حتى العنوان المكتوب خلف الظرف الأبيض،

«الجمعية الخيرية الأرمنية»، ذكف إلى الساحة يتأمل جُموع الجائعين وطالبي الإعانة الواقفين في طوابير لا تنتهي، كانت تقف مع زميلتها خلف المائدة، اقترب حتى رآته، رَمَقته بقلق قبل أن تخلع المَريلة التي ترتديها وتقترب إلى أن صارت أمامه، تأملته للحظات ثم تكلمت:

- أحمد... وبنه؟

فتح عبد القادر شفّتيه ولم يتكلّم، ثم أخرج الطّرف الأبيض المغلق، مُنْسَخًا من ماء المضيق وطين شاطئه كما هو لم يحاول أن يفتحه، وَضَعَه في راحة يدها ثم استدار راجلاً، رَمَقته بتوتر حتى اختفى ثم فتحت الطّرف المُهترئ، في رَاحة يدها أفرغته، قلادة تحمل أيقونة مستديرة عليها نقش لصورة «كاترينا فون بورا» زوجة «مارتن لوثر»، الرّاهب الألماني الذي طالب بإصلاح الكنيسة واعترض على فكرة صكوك الغفران، كانت كاترينا راهبة آمنت بفكرته فهربت من الدير ثائرة، قبل أن تتزوجه.

رمقت القلادة باستغراب ثم فتحت الورقة.. كان مكتوبًا فيها كلمتان فقط:

«الحياة قصيرة»



- استمرت وزارة سعد زغلول لسنة واحدة فقط، استقال في ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ بعد حادثة اغتيال سير «لي ستاك» سردار الجيش المصري وحاكم السودان على يد أفراد مُشَقِّين من جماعة «البد السوداء» اعتراضاً على العقوبات المُجيفة التي وقَّعها الاحتلال على مصر.. قال سعد وقتها:

«إن هذه الجريمة قد أصابت مصر، وأصابتي شخصياً».

- قضت تلك الحادثة على آمال الأمة في الاستقلال الحقيقي وساهمت في إعادة إحكام قبضة الإنجليز على البلاد.

- مات سعد زغلول في ٢٣ أغسطس من عام ١٩٢٧

- أسس عبد الرحمن فهمي أول اتحاد للثقابات في مصر قبل أن يُسجن ثانية في قضية مقتل السردار.. خرج من السُّجن مريضاً فاعتزل الحياة السياسية والنقابية، فانهار اتحاد العمال ليرثه الانتهازيون، ثم اهتزت مكانته كثيراً بعدما حدثت وقعة بينه وبين سعد زغلول أسفرت عن انشقاقه عن الوفد.

- مات عبد الرحمن فهمي عام ١٩٤٦ بعد أن عاش سنيناً في طلي النسيان.

- عاشت الملكة نازلي حبيسة جدران الحرم ملك حتى تُوفي الملك فؤاد في عام ١٩٣٦

- تولى الأمير فاروق الحكم من بعد أبيه فانطلقت نازلي إلى الحياة تبتغي حَصَاد ما حُرمت منه خلال زواجها الذي استمر سبعة عشر عاماً وما وسَّع الهوة بينها وبين ابنها فاروق بسبب تصرفاتها الطائشة الغربية.

حاول الملك فاروق كبح جماح نزوات أمه قبل أن يكتشف زواجها السري برئيس ديوانه أحمد حسنين باشا.

توفي أحمد حسنين باشا في حادث سيارة سنة ١٩٤٦ فلم تطق نازلي البقاء في مصر، سافرت مع ابنتها فايزة وفتحية إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث ازدادت جنونا وعنادا، طلب فاروق منها الرجوع أكثر من مرة فرفضت، قبل أن يحجر على أموالها ثم يصدر قرارا ملكيا بتجريدتها من لقب الملكة الأم.

اعتنقت نازلي المسيحية ثم توفيت في مايو من عام ١٩٧٨ في لوس أنجلوس بأمريكا عن عمر يناهز ٨٤ عاما.

عاش عبد القادر شحانة حتى عاصر جلاء الإنجليز عن مصر سنة ١٩٥٤ ولم ينس يوما دولته.. أو يعرف مصيرها.

لسنين طويلة انتظرت ورد ظهور أحمد.. تركت الرهينة في منتصف الثلاثينيات قبل أن تغادر مصر إلى مكان غير معلوم.

مقبرة «القديس يعقوب» التي دُفن فيها جسد أحمد عبد الحي كبيرة تم هدمها عام ١٩٢٨ وأقيم على أنقاضها ميدان «تقسيم» الشهير بإسطنبول.

النهاية

